كلمة الوزارة

الدكتورة لبانة مشوّح
وزيرة الثقافة

التفوّق على الذات..

في العشرين من حزيران ٢٠١٢م، وفي حفل اقتصر على أعضاء مجمع اللغة العربية في دمشق وبحضور حشد من الإعلاميين، قامت السيدة الدكتورة نجاح العطار (نائب رئيس الجمهورية العربية السورية) بتقليد المؤرخ المجمعي الأستاذ الدكتور محمد محفّل وسام الاستحقاق من الدرجة الممتازة والممنوح له بمرسوم جمهوري تقديراً لسعة علمه وما أنجزه من بحوث ودراسات تاريخية ولغوية، وتكريماً لجهوده في مشروعات ثقافية وطنية حيوية هدفها الحفاظ على التراث التاريخي من كل تزوير أو تدنيس، وكذلك جهوده في تأسيس لجنة إعادة كتابة التاريخ.

والدكتور محفّل مؤرّخ موسوعي وباحث دؤوب مختص في اللغات القديمة، يمتاز بالتأني الشديد في دراسة الوثائق التاريخية، والتعمّق والجرأة في التحليل،

والدقّة والموضوعية في الاستنتاج، ناهيك عن نضاله الوطني ضد الاستعمار وآفات الفكر الرجعي، وهو الحاصل عام ١٩٤٦م على وسام الاستقلال.

ولعلنا اليوم أحوج من أي وقت مضى للعودة إلى تاريخنا القديم والحديث والمعاصر؛ لنمعن النظر فيه ونعيد قراءته بعين ناقدة ومنهجية علمية وموضوعية، فنحلل نقاط الضعف فيه لتلافيها، ونستنبط منه نقاط القوة فنبني عليها، ونستقي الدروس والعبر لنستنير بها حاضراً ومستقبلاً. فأمة لا تستوعب ما في ماضيها من عظمة وضعف على حد سواء، وتغلق عينيها عن أخطاء ارتكبت فيها أو ارتكبت بحقها، إنّما تعاني آفة التعامي عن الحقيقة ونكران الذات، وهي حالة مَرضية تنعكس عقد نقص أو جنون عظمة، وفي كلا الحالتين عجز عن فهم الحاضر بكل أبعاده والتعامل معه بحكمة، واستشراف المستقبل و التخطيط له التخطيط السليم.

من هنا كان تكريم الدكتور محفل تكريماً لموضوعية الفكر وعمق التحليل وجرأة الطرح، وتحفيزاً على المنهجية العلمية التي ديدنها البحث عن الحقيقة المنزّهة.

وقد يرى البعض في إعادة كتابة التاريخ جلداً للذات وتقويضاً لكل ما يمثله من قيم ورموز وثوابت. كان هذا موقف بعض المفكرين الغربيين المتعصبين لقوميتهم الرافضين لأي انتقاد أو إعادة تفسير للماضي بكل ما فيه من أحداث ومواقف. ثم رجح الرأي القائل بأن في إعادة القراءة هذه وقفة حق مع الذات وإنصافاً للحقيقة تتجسد في قراءة جديدة لحياة أمة بكل نجاحاتها وإخفاقاتها بغية فهم أسبابها العميقة ونتائجها البعيدة باستخدام مفاهيم وأدوات ومنهجية علمية عصرية. هكذا يتمُّ الكشف عن حقائق خفيت أو أُخفيت، جمّلت أو شوّهت. والهدف أولاً وأخيراً هو المستقبل.. تعزيز الشعور الوطني والقومي وتفادي الوقوع في الأخطاء ذاتها. هكذا تطور الأمم أدواتها ومنهجياتها بالبناء على التجارب والأخذ بدروس الماضي وتكييف الأنماط بمقتضى الأحوال.

وكمـا أنه لا خوف علينا من إعادة قراءة تاريخنا بجرأة وموضـوعية صرفة، فإنـه لا خـوف علينا من المثاقفة إذا ما أمعنا النظر في تأثيراتها الإيجابية في حياة البشر ونمائهم الفكري والاقتصـادي والاجتماعي. والمثاقفة هي تغيّر في السلوك والعادات ناتج عن الاحتكاك بثقافات أخرى. وإذا كان مصطلح المثاقفة من المصطلحات التي برزت حديثاً في أدبيات الدراسات الاجتماعية والفلسفية واللسـانية والنقدية، فإن المفهوم قديم قدم الحضـارات الإنسانية، فلا حضارة منعزلة، ولا ثقافة محصّـنة تماماً، ولا جدران عزل تفصـل الحضارات بعضها عـن البعضـ الآخر، وبالتالي فإن الثقافة وإن كانـت قومية بامتياز لأنها هوية الأمة ومرآة إبداعها، فإنها تحمل أيضاً بعداً إنسانياً، ولا تعارض بين الصفتين بل تكامل وإثراء متبادل.

وليسـت المثاقفة بالضرورة عملية قسرية مصـطنعة يفرضها تجاذب القوى وصراع الحضارات. إنها جزء من الطبيعة البشرية التوّاقة للاكتشاف والتطور، التوّاقة دائماً للأفضـل والأجمل والأكثر تنوعاً، وبفضلها ينتقل الفكر البشري من طور إلى طور، وتأخذ الحضارات مسارات أخرى.

قد يكون من البديهيات أن يتأثر الضعيف بالقوي، وأن يتّخذه قدوة ومثلاً يحتذى به. لكن عبقرية الأمة تمكنها من الاكتساب والتمثّل فالانتقاء وإعادة الصياغة والإبداع.

فالمثاقفة لا تنشـأ بين ليلة وضـحاها، ولا تشـكل بالتالي منعطفـاً تاريخيّاً في حياة الشـعوب، بل تسـير بوتيرة بطيئة وبفعل التراكم المعرفي التدريجي، مما يتيـح للأفـراد والجماعات غربلـة الوافد من عـادات وتقاليد ومعـارف وفنون وسلوكيات، فيسقط منها تلقائيّاً ما ينافي ذوق الأمة وقيمها، ويبقى ما يزيدها جمالاً وقوة.

إن اهتمـام الغـرب الكبير بحضـارة عـرب الأندلس دفعهم لإرسـال البعثات بغية دراسـة علومهم وفنونهم وآدابهم وصـناعاتهم بعدما ذاع صـيت الحضارة

العربية الإسلامية، فأصبحت قبلة الأنظار ومنارة علم ومعرفة. وها هو الملك فيليب النفاري يبعث للأمير الأموي في الأندلس هشام الثاني، الذي شبهه المؤرخون بعمر بن عبد العزيز لصلاحه وعدله وعلمه وحكمته، يستأذنه إرسال بعثة لاستطلاع أحوال بلاد الأندلس ودراسة أنظمتها وشرائعها والاطلاع على تنوّع الثقافات فيها، وتلك كانت بدايات الاستشراق المنزه آنذاك عن أية غايات ومآرب استعمارية.

إن عظمة الحضارة العربية وازدهار علومها وانتشار قيمها جعل اللغة العربية في القرن الخامس عشر لغة إلزامية في السوربون، (أعرق الجامعات الأوروبية في ذاك العصر). لم يخش الغرب آنذاك اندثار ثقافته القومية نتيجة احتكاكها بثقافة عظيمة مهيمنة كالثقافة العربية فكان أن اغتنى منها تدريجياً علماً وثقافة دون أن يذوب في كيان الآخر.

إن التكامل بين بعد الثقافة القومي وبعدها الإنساني لا يعدّ من المسلّمات بالنسبة للكثيرين، مما يولّد لديهم خوفاً على الخصوصية الثقافية، فيرون في المثاقفة خطر الذوبان في الآخر وإضعافاً للهوية وتنكراً للخصوصية. وإذا كان هذا الخوف مبرراً فإن البديل لا يصح أن يكون في التقوقع والانكفاء على الذات، لأنَّ في العزلة سكوناً، وفي السكون ركوداً، وفي الركود موتاً.

إن التفوق على الذات يقتضي أولاً معرفتها حق المعرفة والكشف الموضوعي عن نقاط ضعفها وقوتها، ثم التطلع إلى الأفضل. هذا لا يعني في حال من الأحوال التنكر للهوية والانتماء والخصوصية، بل هو سعي لتطوير الذات وتشذيبها والسمو بها، عبر تطوير مكوّناتها الثقافية، افتخاراً بالهوية وتعزيزاً للانتماء.

كلمة العدد

د. علي القيم
رئيس التحرير

إسماعيل عامود
شاعر التسكّع والكآبة

أكثر من ستين عاماً مرّت على إصدار أوّل مجموعة شعرية نثرية للشاعر الكبير إسماعيل عامود، وأذكر أنها طبعت في مطابع ابن زيدون في دمشق، وحملت عنوان «كآبة»، وقال في مقدمتها:

• .. ما أروعك أيتها الكآبة..
أنت وحدك تستطيعين أن تلوّني
حياتنا بالشحوب والزفرات والغبار..
يا لحظات التنهدات الضائعة في ضباب
الربيع..
• كم أنتِ خيّرة
عندما تغدين إلينا من غابات
أعماقنا لترحلي بنا عبر عالم مجهول
كي نغتسل بالأضواء الرافلة..
من سحابة الشمس..

لقد أطلق إسماعيل عامود على قصيدة النثر اسم «أعجوبة العصر الحديث»، ولا

أحسبه كان مغالياً، فهذا الشكل الشعري، أثبتت الأيام والتجارب أنه جدير بالتعبير عن أشد العواطف رحابة، وعن أعمق الانفعالات، وأكثرها اتساعاً.. وللشاعر الكبير بدوي الجبل.. إشادة كبيرة بهذا الشعر (الحر):

أنا أبكي لكلِّ قيد فأبكي   لقريضٍ تُغلّه الأوزان..

في رحلته الطويلة مع «قصيدة النثر» جمع إسماعيل عامود كلماته الحائرة، المشبعة بالعطر والكآبة وهمسات العوسج والزنابق، وقدّمها بأسلوب بسيط، مشرق، غاية في الشفوف والرقة والجمال، وحمّلها ما في قلبه من حسرات وشوق ومحبة وآمال كبيرة وأحلام مشرقة حلوة، فاستطاع أن يرسم ببراعة وعمق صورة الإنسان المعاصر الحائر بين الحياة «الكلاسيكية» الصوفية، والحياة البوهيمية التي يشعر الإنسان فيها برغبة حارّة للتسكّع، وقد كان الشاعر الراحل سليمان عواد، صادقاً، حين وصف إسماعيل عامود بقوله: «في أعماق هذا الشاعر الموهوب رغبة جارفة إلى التحرر من كل رواسب الأجيال الموغلة في القدم، وتعطّش جامح إلى الذوبان في سيمفونية الحياة الخصبة المبدعة، ولكن أكدار الحياة تعكّر صفو هذه الرغبة، وذلك التعطّش..» من هذه النقطة، تنطلق شرارة الكآبة في نفس الشاعر حتى تستحيل إلى لهيب.. يرافق ذلك غوص إلى الأغوار لالتقاط كنوز الأحاسيس والمشاعر بأسلوب ضبابي خفيف، وخيال متوثّب، وأداء فني يلامس القمّة الوردية في فردوس الشاعر المنشود..

❁ ❁ ❁

يرى إسماعيل عامود أن الشعر كالحياة، كلما تطورت هذه الجغرافية الإنسانية تطور الشعر معها، لأنه يستمد قوته، ويأخذ معينه من أصله الأم، وفي مجتمعنا، جدل رخو من أجل التعريف بالشعر الحديث، ويوجد نقمة على هذا الجديد من الكلام الشعري المرسل، أو المنشور المشرق الذي ينبع من صميم الشباب.. في جيلنا الطالع، المتفتّح على الوجود الجديد، بكل أطيافه وأفكاره وعقلياته..

التسكّع والمطر، هو حال شاعرنا في مدينته «سلمية» الغافية على تخوم البادية، يتسكّع في دروب الحياة، وعلى مشارف القمر.. الشتاء يرهق أعصابه.. مدينته

مطفأة الشهوات.. دروبها ملتوية، ومع ذلك فخطواته لم تزل ترنّ تحت الأروقة، وأمام الأبواب المنهوكة، والأمل يراود مخيلته.. في الوقت الذي يغنّي فيه المطر على وسادته.. لتنتظم أشعار الألم، واللذّة، والضياع، والرحيل.. السأم نسر يغرز مخالبه في أفكاره الحارّة، وقطاره في تيه الوجود..

كلمات التسكّع تقود شاعرنا إلى رصيف عتيق بلا معالم.. في كل يوم يصلب على المقاهي، يمضغ الزمن والضجيج.. يهدهد الأشعار في عيون الظهيرة القاتمة، وفيه رغبة جارفة للتحدي والتمرّد، الكآبة ينتظرها بلا نهاية، والشتاء يبحث عن ربوع جديدة في أفكاره الشاقّة كالحياة.. مدينته تتسكع في أعصابه، فترهقه.. يكتب عن أسفاره عندما يموت النهار، يبحث عن سفن السندباد قبل أن يرحل إلى عوالم لا حدود لها..

في دمشق كل ما فيها يثير حنينه، وجنونه.. لقد دخلها فاتحاً بلا رماح، باحثاً في خلاياها عن مطارح التاريخ، وكل أمله أن يَحمل حبيبته، ولكنه لا يشعر بثقلها على ساعديه المتعبين.. لقد صفعته رياح أهدابها الملوية في طريق الصالحية ليسافر عائداً مع القافلة في غَبَش الصيف، يبحث عن رواق من الأحزان يقبع في مكان ما، وأمله الوحيد أن يرى في وضح النهار ألوان أغنياته بأفراح عينيها البدويتين، ويستمر البحث. الزمان يسيّره إلى حيث لا يدري.. إنه يسرق منه أعذب الساعات واللحظات:

«بودي لو أملك أعنته الجامحة
إذن.. لوقفت على بابك يا حياتي..
لسمّرته عند صيفك بأشعاري
ولكن ما أضعفني يا إلهي
تمنحنا الحب.. كي نتعذّب
ونتسربل بالجمال، لنسبّح
يحرقنا الشوق بالعذوبة، ويغمرنا الفرح ليردينا الألم
بأودية الأوجاع

فلا شوق طال، ولا فرح بقي
وصيفنا الجميل يستسلم
ينطفئ على عتبات الشتاء
يجرّنا إلى العتمة صاغرين..!!».

شاعرنا يحب التسكّع، ولكن الدروب لم تكن لتستطيع إسعاده، لأن شرفة الحبيبة الخضراء كانت مهجورة، والفضاء الرحيب يشكو من رحيل السنونو.. القمر في الريف بسّام فتّاك، وهو في المدينة عالٍ جداً عن المصابيح.. يا للحياة المقيّدة بحدود.. كثيراً ما ترهقه أفكاره، يرى الحياة تتناثر أوراقها فوق الأرصفة وحفافي الأنهار.. يرى الحياة عارية حوله كطائر جريح على الفَنَن في شتاء زمهرير.. دائماً يعتريه شعور غريب بأن يفتش عن حبيب يوزع النظرات على دروبه، ويهجره بعد لحظات:

«عندما نحب
نعطي القلب إلى من نحب
والقلب، مضخة الحياة
فما بالنا نكترث بباقي الجسد..؟
فيا أيتها الحبيبة التي أخذت قلبي
أعطني الباقي
أعطني الباقي».

❁ ❁ ❁

قطار أحزان إسماعيل عامود مشحون بالأوهام، يسير صوب غابات الأبنوس.. وبلاد الهندوس، يقف في مدن الانتظار، لعلّها تنزل من سفحها.. نجمة السماء، والمشكلة أن قلبه صحراء بلا واحات، دائماً تعصره الرياح الشتائية، ويبحث عمّن ينتظره في الحانة العذراء.. ويطالب بأن يهبه الله قلباً يسع حب كل الناس، ليسع أيضاً كره كل الناس، ويجعل طعامه من ورق الجنة، ولحافه من غمام الفردوس، ومسكنه بين أغصان اللبلاب العاشق، ومضجعه بين أحضان القمر:

«ربِّ إملأ حياتي غبطة وحنانا، واسكب في قلبي حبك العظيم..
كي أسمو به إلى الذرا
فأرى الناس في سلام دائم
وحب يغمر العمر بأفانين السعادة.. يا رب
ربِّ أبعد حبيبي عن دربي وقربني إليه..
لأستطيع معرفة مدى حبي له، وحبّه لي..
ربِّ أطفئ جذوة مشاعري كي يقول الناس عني
أين الشاعر الحزين.. أين؟».

الشاعر الحزين يرى أن الناس أشداق جائعة، منهم جياع الحياة، ومنهم جياع التفكير، وأبناء الإبداع والعبقرية ضياع بين التفكير والحياة، وأكثر الناس ألماً أكثرهم إحساساً بالحياة، ولكنهم في مدينته يزحف الكسل إلى مشاعرهم في كل يوم، إنهم في خدر عريق، يجلسون جماعات يجترون أفكارهم القديمة، ويمضغون التبغ والذكريات.. لاشيء جديد يهزهم، يغزلون الحكايات الخرافية وهم فيها سعداء فرحون، فمتى تهبّ عواصف قلوبهم، متى..؟ متى يمطرهم الشتاء، بوابل من مائه الغزير، ومتى تشرق شمس ربيعهم الدافئة، وتينع حقولهم بأزهار الإبداع، متى..؟

قلب إسماعيل عامود كمقبرة بلا أسوار، كم دفن فيها آمالاً كثيرة وكبيرة، وكم شيّع إليها أمانٍ عديدة، ورجعت بلا آمال، وبلا أماني.. في قلبه طعنة جفن، وذبحة حب، وجراح حياة لا تشفى.. دائماً تعتلج في صدره نشوة حيرى، لا العقل يدركها، ولا حتى التصوّر، لأنه يجيد التوغّل في معابد الشوق، ويدرك عظمة العذاب، ويشتاق للريح والسفر بحثاً عن خوابي العسل في حواكير العاشقين..

دمشق بالنسبة له القلب والأفكار والعين والبؤبؤ الملون.. دائماً تقتلعه من واقعه التقليدي الرتيب لتدخله معها بوابة الليل، ليغوص في الصفاء.. دمشق دائماً تنبري لتمنحه الغبطة والاستجمام:

«يا للمدينة الرائعة:
في كل صباح شاعري النزعة، وسيم،

تتعرى لي أرضها، فتبدو عميقة بارزة
في غمرة من يقظتها الوحشية.
باسطة ذراعيها لسوار الغوطة الزاهي
بألوان قوس قزح الربيعي الطلعةِ..
يعانق قاسيون الأملس الأملود
والسهول الكتيمة الرحيبة
بعد حلم خفيّ يتحقق رويداً رويداً كلما
ارتفع النهار بالوضوح
فإذا في كل نبضة من قلبها تخفق مسرّة جديدة
وإذا في كل امتداد ظلّ من أبنيتها المرحة وأشجارها الفتية
تتجسد لي مسيرة كبيرة
تعلو منها إيقاعات دافئة من الحضارة والرقي،
تمشي الدرب الطويل الأزلي مع النهر الخالد -بردى-
المنفتح دائماً وأبداً على التاريخ والعبقرية، والربيع..».

إسماعيل عامود في كل ما كتب يؤكد على الجوهر الإنساني، ويتخذ لنفسه عالماً من الأناقة، ويقوم بتعرية التاريخ في بصيرته، ويعيش الحاضر بانسجام تام.. يهيم بالجمال، ويعشق الجلال، ويشيد بالحياة، وبالوطن المغروس في قلبه، ولكنه في أحيان كثيرة ينشد قصائد الرحيل، وعتابات المَحْل، والجور، ويخل الشتاء.. يقطّره الوجع قطرة، قطرة، فتسيل أنهاره بموسيقا الأحزان الطافية في نهر المجرّة.. إنه وجع الأيام الآتي من أكواخ المحتاجين، والمعلولين الشرفاء الذين ينتظرون طلوع القمر من ثنيّات الفزع.. المطر عند شاعرنا يغنّي ولكن برتابة وحزن ليعبّر عن وطن العشق والقمح وعطر الخزامى، والشعر الغافي على روابي النجوم..

الكتابة المسمارية عبر التاريخ

فايز مقدسي ✿



الكلام أصوات تصدر عن الفم لها دلالات معينة في كل لغة. ومتفق عليها بين مجموعة من الناس يتكلمون هذه اللغة.

أمَّا الكتابة فهي الكلام الصامت ودونما ضجة، وبعلامات أو حروف أيضاً لها دلالات ومعاني متفق عليها. وهي أيضاً، وهنا يكمن اختلافها عن الكلام، قدرة التواصل عن بعد مهما كانت المسافات نائية. ومن ناحية أخرى، فالكلام الشفهي من حيث أنه صوت، يسمعه كل إنسان ويفهم مقصوده إذا كان يعرف رموز دلالته. أمَّا كلام الكتابة فلا يسمعه إلاّ من يُوجه إليه هذا

✿ باحث وشاعر سوري- باريس.

العمل الفني: الفنانة منى المقداد.

الـكلام ويستطيع فك رموز علاماته. لذلك نـرى أن الكتابة اكتسبت، ومنذ البدء، صفة السريـة. وبالتالي صفـة القداسة، ومنحت من يعرف أسرارها سلطة واسعة على من لا يعرف الكتابة.

هكذا، وكما نعلم من الأساطير السومرية، فأصـل الكتابة هو أصـل إلهي لأن السماء منحت الكتابة للبشـر كنعمة إلهية. وتقص الأسطورة السومرية المعروفة باسم /أنكي- ANKI ونظـام العـالم/ (و هـو كان عند السومريـين رب الحكمـة)/ كيف أن القوى السماوية العليا، وبعد أن أرست على الأرض أسـس الحضارة. علمـت الربـة /نيسابا NISABA -/، ربـة القصب، أصول صنع /القلم/ من القصب ليكون وسيلة الكتابة على الطين.و هكذا وضعت /نيسابا/ قواعد ونظم الكتابة الأساسية.

ثـم، وفي وقـت لاحـق، وبعـد امتزاج السومريـين والأكاديـين في مطلـع الألف الثالث ق.م.

ترسل القوى الإلهية الحكماء السبعة إلى الأرض، واسمهـم /أفكالوا/ (تقرّب الكلمة من كلمة فقيه) الذين يخرجون من البحر. ومنهم الحكيم الشهير /أدفا- ADAPA/. واسمه القديم هو/أو-أن-أدفا-/-U-AN ADAPA أيّ السمـاوي، والـذي يُكلف بنقـل العلوم الإلهية التي كانت معروفة قبل الطوفان إلى البشر.

وإليه يعـزى كتاب / مسـارات وحركة النجـوم/ الذي سوف نتحـدث عنه لاحقاً. وكذلك فهناك كتاب عُثر على نسختين منه. الأولى في /تل العمارنة / والثانية في مكتبة /نينـوى/ الشهيرة. والكتـاب يحمل اسم / أدفا في السماوات/. وبالبابلية: /Adapa /ana qereb sham.

هؤلاء الحكماء كما تقص أسطورة أخرى كانـوا يسهرون على نظام السماء والأرض. وقد علّمـوا البشر أسس العمران. ومن أهم تلك الأسس: الكتابة.

ثمـة نص آخـر، وفي وقت لاحق، يجعل /نبو/ أو /النبـي/ هو الذي علم البشر فن الكتابة.

وكتـب بنفسه قدر ومصـير كل إنسان. والنصـ المذكـور يطلق عليه لقـب /سيد القلم/.

أو /سيد المعـارف والعلوم/. وهو أيضاً العين التي تراقب حركة السماء والأرض.

والذي يعرف كل شيء ويفهم كل شيء. و يحمل بيده قلم ولوح الكتابة.

وهكذا نرى أي شأن رفيع كان للكتابة في حضارتـنـا القديمة. حتى إن الملك الآشوري الشهير /آشورباني بعل/ القرن السابع ق.م. يفتخر في أحد النصوص، بأن الرب/ نبو/، سيد القلـم كما رأينا، هو الـذي لقّنه فن الكتابة.

يقول الملك:

«كشف لي سيد القلم /نبو/ عن جميع كنوز المعرفة الخفية التي لا يعرفها سوى أرباب القلم. ولقد درست كيفية معرفة تغيرات السماء والأرض ومعرفة الطالع. تعلمت قراءة الكتابة السومرية والأكادية رغم ما فيها من صعوبة. واستطعت أن أفك ألغاز الألواح المدوَّنة قبل الطوفان.».

على هذا النحو، وبإضفاء الصفة الإلهية على الكتابة، استطاع العلماء- الكتبة في ذلك الزمن الغابر جعل معرفة فن الكتابة حكراً على طبقة معينة هي طبقة كهنة المعابد من حيث أن الكتابة تحتوي على نظام الكون، وتحدد مصير البشر المكتوب على ألواح خاصة تحمل اسم /ألواح القدر/.

ونعلم، ومن النصوص المدرسية التي كشفت عنها الحفريات الأثرية، كم كان شاقاً تعلم الكتابة المسمارية.و أي جهد كان على الطالب أن يبذله من مطلع الفجر إلى غياب الشمس، وعلى مدى سنوات طويلة من الدرس، ليكتسب فن الكتابة.

وفي الحقيقة فقد كانت الكتابة الأداة السحرية التي تغلب بها الإنسان على ضعف الذاكرة وعلى النسيان. من حيث أنها (الكتابة) تحفظ على نحو لا يرتقي إليه الشك كل ما اختزنته ذاكرة الإنسان، وعلى مدى عقود طويلة من الزمن، من علوم ومعارف.

ثم نقل تلك المعارف والعلوم إلى الآخرين، وإلى الأجيال اللاحقة. وها نحن اليوم، وبعد حوالى ستة آلاف عام نستطيع، وبفضل الكتابة، أن نتعرف على تاريخ وآداب ونمط عيش وعبادات أسلافنا القدماء.

أقدم نص مكتوب بالعلامات المسمارية وباللغة السومرية في التاريخ يعود إلى الألف الرابع ق.م.. وقد تم العثور عليه في مدينة- مملكة /أوروك/ في جنوب العراق / سومر/.

في ذلك الزمن البعيد بدأ نشوء الكتابة، هذا إذا لم تكشف الأرض عن نصوص أقدم. وكان ابتكار الكتابة نقلة نوعية، كما ذكرنا، غيّرت تاريخ الإنسانية تغييراً جذرياً. حيث استطاع الإنسان، ولأوّل مرة، أن يسجل مخزون ذاكرته، وأن ينقلها لمن يأتي بعده كما سبق.

على هذا النحو كان ظهور الكتابة بمثابة نشوء التاريخ في الوقت نفسه. حيث تدوّن تسجيل الأحداث والوقائع تدويناً ثابتاً لا يمكن للتاريخ من حيث أنه يسجل ذاكرة الإنسان أن يكون.

ولذلك شاع القول المعروف: إن التاريخ يبدأ مع ابتكار الكتابة.

ولقد نشأت الكتابة المسمارية في أوّل صورة لها على شكل بسيط: (الرسم يدل على ما يرسمه. صورة شجرة تدل على شجرة)، وفي ذلك الزمن الغابر، في المنطقة التي تغطي اليوم جغرافياً ما يطلق عليه المختصون اسم (الهلال الخصيب). أيّ، لبنان وسورية والأردن وفلسطين والعراق وجزيرتيّ /كريت/ و/قبرص/.

أمّا إذا توخينا الدقة الجغرافية فنشوء الكتابة كان في بلاد (ما بين النهرين).

أو/ ميزوبوتاميا/ إذا اعتمدنا الاسم اليوناني القديم الذي اعتمده البحّاثة في كتب التاريخ في اللغات الأوروبية. وهو مؤلف من كلمتين الأولى /MESOS/ وتعني/ ما بين/.

ثم /POTAMOS/ أي/ النهر/. ومن تركيب الكلمتين تم ابتكار اسم / ميزوبوتاميا/، والذي يغطي اليوم جغرافياً العراق وأعالي الفرات أو ما نسميه / الجزيرة السورية/. حيث قامت قديماً مملكة /ماري/ ومملكة /إيمار/ والإمبراطورية الحثية السورية.

غير أن الاكتشافات الأثرية الحديثة تدل على أن كل منطقة (الهلال الخصيب القديمة) عرفت الكتابة المسمارية في شكلها الأول منذ زمن غابر.(هذا ما تدل عليه ألواح موقع /تل براك/ في سوريا - حفريات ١٩٨٦م).

وفي الحقيقة فإنه من الصعب أن نتصور أن أهل بلاد الشام الذين ابتكروا فيما بعد أوّل أبجدية لم يكونوا يعرفون الكتابة المسمارية المقطعية.

إنّما، وإذا تحدثنا بشكل عام، فيمكن القول إنه، وفي بلاد السومريين، أو بلاد /كنجي/ كما هو اسم السومريين بلغتهم. نشأت حضارة زاهية هي الحضارة السومرية التي تركت للعالم إرثاً لا يقدر بثمن هو الكتابة. وهو إرث تبنته اللغة البابلية القديمة (الأكادية والآشورية) وأضافت عليه وحسّنته وجعلته عالمياً. وجعلت اللغة البابلية القديمة لغة عالمية على مدى ألف سنة. وهو ما فعلته اللغة الآرامية فيما بعد.

ابتكار الكتابة لم يكن من باب المصادفة. بل كان مرتبطاً بأمور كثيرة حصلت عبر التاريخ القديم. ومن أهمها انتقال إنسان المنطقة إلى مرحلة الزراعة. والزراعة جعلت منه إنساناً مستقراً.

والاستقرار تطلب بناء البيوت والاهتمام بالحقول وتدجين الحيوانات وإنشاء نظام للريّ، وتأمين الطرق لتكون صالحة للتجارة والتنقل والسفر. وهو أمر أدى إلى نشوء القرى والتجمعات السكانية. ثم قيام المدن والإمارات التي اتحدت فيما بعد على يد حكام أقوياء وتحولت إلى ممالك كانت في البدء ذات حكم ديني، أي إن الملك يستمد

شرعيته من السماء كما يدل لقب/ أن- سي/ السومري. ونلاحظ فيه صيغة /أن -AN/ أي السماء في السومرية. ثم تطور الحكم الديني الطابع إلى نظام حكم مدني، إذا صح التعبير، وذلك عندما اتخذ الملك لقب /لوجال -LU-GAL/ وهو يعني بالسومرية /الرجل الكبير/. أيّ، صاحب الجلالة كما نقول اليوم.

ثم بدأت تظهر القوانين التي تحدد علاقة المواطن بالدولة. والفرد بالفرد ضمن المجتمع.

وقد أدى كل ذلك إلى ازدهار حركة التجارة وتقدم العمران والفن (النحت والموسيقى) والدين والفكر. ثم الأدب والفلسفة. وكل ذلك حفظته الكتابة. هكذا نرى أن ابتكار الكتابة كان في أول الأمر ضرورة إدارية- تنظيمية اقتضاها التطور الذي تحدثنا عنه في المجتمع. حيث أصبح ضرورياً ضبط حسابات الدولة في سجلات. وتنظيم الضرائب وتحبير عقود البيع والشراء. لذلك نلاحظ أن أولى علامات الكتابة كانت تشير إلى أرقام وأعداد.

ثم صار يرافق الرقم صورة الشيء المقصود حتى نعرف ما هو المعدود.

فكان الكتبة يرسمون العلامة التي تدل على عدد ما. وبالقرب من العدد صورة رأس غنم حتى نعرف كم عدد رؤوس الأغنام التي تمّ بيعها أو شراؤها على سبيل المثال.

وتبين ألواح / تل براك/ في سورية أيضاً هذا النظام الكتابي. حيث عُثر على لوح عليه صورة عنزة وصورة رأس غنم وقربهما أرقام تدل على العدد.

ولقد تطور هذا النظام الحسابي بسرعة، نتيجة تطور العمران وتشييد القصور والمعابد وقنوات الريّ، إلى نظام هندسي ورياضي كما نعلم من مجموعة ألواح مسمارية تحمل مقاسات وأبعاداً ومصطلحات تخص الهندسة المعمارية تمّ الاعتماد عليها لبناء الأبراج العالية (المعابد) كبرج بابل. ويحمل اللوح جملة إضافية تؤكد ضرورة الحفاظ على سرية تلك المقاسات والأبعاد الهندسية.

وهناك ألواح عليها بعض المعلومات عن بعض النجوم والكواكب. وزمن ظهورها أو غيابها. وكيفية مسارها في الفضاء..

وكذلك يوجد لوح من موقع /جمدت نصر-العراق/ عليه سبع دوائر صغيرة وهي ترمز إلى تكرار العدد عشرة سبع مرات، لنحصل على العدد /سبعين/.

إضافة إلى صورة/ سنبلة/ لتدل على الكمية من القمح التي تم بيعها أو شراؤها أو الحصول عليها بعد الحصاد.

ولقد تطور هذا النظام الحسابي كثيراً

فيما بعد مع قيام النظام الملكي وبناء المعابد الدينية. وأصبح الآن ضرورياً ليس فقط تدوين الحسابات. وإنما تسجيل الحوليات الملكية والمراسلات السياسية وتدوين القرارات القضائية والإدارية والقوانين المعمول بها. والعقود التجارية وعقود الأحوال الشخصية. مما أدى إلى اتجاه نظام الكتابة المسمارية نحو التجريد شيئاً فشيئاً.

فبعد نظام /الصورة/ التي تدل على ما ترسمه. تمكّن المختصون آنذاك من التوصل إلى نظام علامات أكثر تجريداً من ناحية الشكل ومن ناحية المعنى. فلم تعد صورة النجمة تدل على النجمة وحسب، بل تنوعت دلالتها وصارت أكثر تجريداً لتدل على السماء ومن ثم على الألوهية.

ورسم القدم /دو -DU- بالسومرية/ لم يعد يدل على القدم فقط، بل أصبح يعني فعل /مشى/.

ثم تطور فأصبح يدل على فعل /ذهب / ثم/سافر/. وكذلك رسم الفم /كا- KA- / لم يعد يدل على الفم فقط، بل على فعل /أكل/. ثم على فعل /تكلم/ في صيغة /دو DU- أيضاً/. ثم فعل صرخ في صيغة /غو GU-/. ثم على الكلام في صيغة / إينيم INIM-/. وكذلك بقية الرسوم كصورة الأنف /كير-KIR/ التي صارت صيغة تدل أيضاً على فعل /شم/ أو/تنفس/. وقد اضطر البحّاثة اللغويون المعاصرون إلى ترقيم بعض العلامات مثل /دو/ ب: /دو ١ ودو ٢ إلخ.. وذلك بسبب تعدد دلالات هذه العلامة. فصارت العلامة، وعلى سبيل المثال، /دو ١/ تعني /ذهب/.

و/دو٣/ تعني /عمل/ و/ دو ٦/ تعني هضبة. وهكذا.

ثم تطور نظام الكتابة الصورية، ونتيجة الضرورة، نحو العلامات المجردة. حتى أصبح فيما بعد، ومع الزمن، نظاماً معقداً لا يفك ألغازه سوى الكتبة.

وهو الأمر الذي منح هذه الطبقة سلطة واسعة إضافة إلى سلطتهم الروحية والاقتصادية حيث كانت أملاك المعابد تفوق في أحيان كثيرة أملاك القصر الملكي.

فلقد صار الآن مطلوباً ممن يكتب ويقرأ أن يستخلص معنى العلامة من خلال الجملة الكاملة.

لأن العلامة المسمارية الواحدة صارت، كما أسلفنا، تدل على معانٍ عدّة. فصورة القدم في السومرية كانت تدون الصوت / دو/. غير أن هذا الصوت كان يدل، وكما سبق ونوهنا ،على القدم وعلى الذهاب وعلى البناء وعلى القيام بعمل ما. وأيضاً على الهضبة أو ما هو مرتفع. لذلك توجب استخلاص المعنى المطلوب من كيفية ورود

الفعل في السياق. فحين تأتي صيغة /دو/ في عبارة مثل /هذا البناء أقامه الملك/. فهي هنا تدل على البناء. أما إذا وردت الصيغة في عبارة مثل / الملك يذهب إلى المعبد / فهو يدل على فعل /ذهب/. وهكذا من يقرأ يكتشف المعنى من خلال مضمون الجملة.

وهكذا لم يعد رسم الطائر يدل على الطائر وحسب. بل على فعل /طار/ أيضاً.

ورسم السنبلة صار يدل على الحقل والقمح والحصاد. وصورة الجبل /كور-KUR/ لم تعد تعني الجبل وحسب، بل تحولت لتدل على معنى بلد أو إقليم ثم على البلاد الأجنبية ثم على الغرباء. ثم، وإذا أضفنا إليها صورة عضو المرأة التناسلي، فإنها تدل عندئذ على /أمة أو جارية / ثم سبيها.

وكذلك حدث لباقي العلامات التي صارت تتحول من دلالة واحدة إلى دلالات عدة لتصبح مع الزمن مجرد صوت تركب منه الكلمة بإضافة أصوات أخرى. وبالتالي أصبحت الصورة الواضحة ذات الدلالة الواحدة، صورة بطة تعني بطة /، صورة مجردة مؤلفة من علامات عدة لها دلالات صوتية تدل بدورها على المعنى. فالعلامة /دو/ صارت تدل على الصوت /دو/ والعلامة /كا/ صارت تعطي الصوت/كا/.

وكان ذلك التطور خطوة نحو الأبجدية التي سوف تبتكر بعد حوالى ألف سنة تقريباً في /أوغاريت/ أولاً (٣٠ حرفاً). وبعد ذلك بحوالى قرنين من الزمن الأبجدية الفينيقية (٢٢ حرفاً). وهي، وكما هو معلوم، الأبجدية التي شاعت في أكثر أرجاء العالم. وعنها تفرعت أكثر أبجديات العالم المعروفة اليوم. وفي أحيان ليست بالقليلة قامت بهذا الدور، وفيما بعد، الأبجدية الآرامية المشتقة عن أختها الفينيقية المشتقة بدورها عن أبجدية /أوغاريت/ كما سبق وعلمنا.

ونعود قليلاً إلى موضوع سرية الكتابة في ذلك الزمن الغابر لنقول إن النمط التجريدي، واستعمال من ٧٠٠ إلى ٥٠٠ علامة للكتابة. هو أمرساهم في جعل الكتابة علماً سرياً، إذا صح التعبير، لا يملك مفتاحه سوى قلة من المتمرسين الذين لا يكشفون الأسرار إلاّ لقلة من طالبي العلم، وبعد القسم على عدم إفشاء الأسرار. ولقد تمَّ العثور على لوح قديم نقرأ فيه هذه العبارة السومرية:

«المعلّم الذي يعرف يعلّم الطالب / المريد/ المستجد. أما العامة فلا يجوز لهم أن يعرفوا». وهي عبارة تذكّر بقوانين الجمعيات السرية.

وكان السبب في هذه السرية الباطنية تحول دلالات العلامة المسمارية من

تصويرية إلى رمزية مجردة. وصار الكاتب (اسمه بالسومرية دوب- سار-- DUB SAR)، يرسم، وعلى سبيل المثال، علامتين على شكل خطين متوازيين ليكتب كلمة / صديق/. فإذا قصد أن يقول: /عدو/ فإنه يرسم الخطين متقاطعين. والعملية هنا تبدو عملية متفق عليها. لأن العلامات لا ترمز لشيء محسوس، بل تخضع لنوع من / الشيفرة/ الرمزية التي يعرفها عدد محدود من الناس كما سبق.

ولقد أدى ذلك، ومع الزمن، إلى تقليص عدد العلامات المسمارية إلى حوالى ١٠٠ علامة مما سهّل عملية تعلّم الكتابة على الطلاب.

ولكنه، في الوقت نفسه وكما ذكرنا، صعّب عملية القراءة. فمقطع سومري مثل /تي-TI -/ يعني /الحياة/. ولكنه يُرسم على صورة /سهم/. وهو أيضاً يُلفظ /تي- TI -/ مما جعل الفهم يعتمد على الجملة الكاملة لنعرف المقصود بمقطع /تي/. وذلك كما سبق وأشرنا .

أما فيما يخص أصوات العلامات. فلم يعد ضرورياً أن يُلفظ المقطع كما هو مدوّن.

بل تعددت طرق النطق به خاصة بعد أن استخدمت اللغة الأكادية العلامات السومرية لكتابة كلماتها. فصار الكتبة يستخدمون صورة النجمة، وهي بالسومرية / آن/ وتدل على السماء، ليكتبوا المقابل الأكادي وهو /شمو/ أي السماء. ويكتبون / دينجير/ اسم الإلوهية السومري ، ويلفظون /علو/ أو تعالى أو الله و لقد أدخل هذا النسق من الكتابة الأكادية الكثير من الصيغ النحوية التي لم تكن السومرية تعرفها مثل صيغ الفاعل في الاسم الإلهي: /علو/. أو المفعول: /عيل/. أو المضاف: /علي/ أو صيغة الجمع: /عيلاني/. أيّ، أنه كان يتم إضافة علامة إلى المقطع للدلالة على قيمتها الوظيفية – النحوية في الجملة.

ولذلك أصبحت السومرية- الأكادية المكتوبة لغة رسمية وفصحى حكراً على رجال الدين وأرباب العلم. وابتعدت أكثر فأكثر عن لغة الناس اليومية المحكية. وهو أمر دفع بملك مثل /حمو رابي/ القرن الثامن عشر ق.م. إلى تدوين قوانينه الشهيرة بلغة المخاطبة البابلية اليومية حتى يسهّل فهم محتواها على الجميع.

هذا التطور في الكتابة الذي نتحدث عنه حدث حوالى ٢٦٠٠ ق.م. ورافقه تطور آخر فصار النص يُكتب من اليمين إلى اليسار أو بالعكس. وأحياناً من الأعلى نحو الأسفل.

وهكذا تحولت العلامات إلى أصوات لا علاقة تربطها مع ما تدل عليه.

وكمثال عن استخدام الأكادية للمقاطع السومرية نأخذ اسماً شهيراً هو/بابل/.

فنرى أنه مدون بالمقطعية السومرية على النحو التالي:

/كا- دينجير- را -نكي-.KA- DINGIR-RA-NKI / أي المدينة الإلهية أو المقدسة. أو مدينة الأرض والسماء.

أمَّا باللغة البابلية القديمة فالاسم هو: /با-بي-لي-كي.BA -BI-LI-KI / أي أيضاً المدينة الإلهية أو مدينة باب الله. ولذلك أطلقوا عليها أيضاً أسم / TIN-TI-R- تين-تي-ر/ أي /مركز الحياة والعالم/.

ولقد أخطأ كتبة التوراة عندما نقلوا اسم /بابل/ إلى لغتهم وظنوا انه من جذر / بلبل/ كما تذكر الحكاية التوراتية حول بناء/برج بابل/ (سفر التكوين). وكيف أن الناس قصدوا من بنائه الوصول إلى السماء. فعاقبهم الله بأن بلبل ألسنتهم. فصاروا يتكلمون بأكثر من لغة.

وكانوا قبل ذلك يتكلمون لغة واحدة.

أخيراً، وعندما سقطت آخر مملكة سومرية في جنوب العراق فقد كفت السومرية عن أن تكون لغة محكية كما يقول البحّاثة، وتركت مكانها للغة الأكادية لتصير لغة كلام، ومن ثم لغة عالمية ولغة المراسلات الدولية آنذاك.أيّ في الألف الثاني ق.ك.

غير أنه من الصعب الاقتناع أن اللغة السومرية اختفت فجأة وكفت عن أن تكون وكأنها لم تكن. ثم، فبأية لغة تكلم السومريون بعد سقوط دولتهم؟

إن كل لغة لا تختفي نهائياً. بل تبقى لزمن طويل قبل أن تتداخل مع لغة جديدة ناقلة إليها الكثير من المفردات والصيغ وأساليب البيان وما تحمله من فكر.

وهذا ما حدث عندما اندمجت السومرية بالأكادية حيث تمَّ العثور على العديد من الصيغ السومرية في الأكادية، وفي اللغات الأخرى التي كانت منتشرة في المنطقة.

وأيضاً في لغة المخاطبة اليومية المنتشرة اليوم. ويمكننا التحدث وببساطة عن ثقافة مزدوجة اللغة. صحيح أن السومرية الفصحى تراجعت أمام الأكادية. ولكن السومرية المحكية بقيت سائدة حتى القرن الأوَّل ق.م. أيّ بزمن طويل بعد قيام المملكة السلوقية السورية. وهناك الكثير من المفردات اليونانية التي نعثر عليها في اللغة السورية المحكية وعلى سبيل المثال اسم القديس السوري الشهير /يوحنا الذهبي الفم/ وهو مترجم عن اليونانية /كريسوستوم/، Chrysostome وهو اسم نعثر عليه في كنعانية نصوص أوغاريت

حيث كلمة /خرص/ تعني الذهب. وكلمة / تم/ تعني الفم. فنعثر على التركيب: /خرص تم/ وهو نفسه التركيب اليوناني في جذره القديم.

أمّا البابلية القديمة فقد دامت حتى القرن الأوّل بعد الميلاد. وفرع منها لايزال حتى اليوم.

وهو اللغة الأشورية. ومن المرجح أن هذا الفرع قد احتفظ بالعديد من الصيغ السومرية- الأكادية. وكذلك بالعديد من صيغ ومفردات اللغة الحثية. وذلك نتيجة التعامل التجاري الذي كان قائماً ولزمن طويل بين الأشوريين والحثيين. وفي بلاد الحثيين. ودون ترجمة.

والمرجح أيضاً أن اللغة الآرامية التي ورثت كل ما سبق من لغات قد احتفظت بالعديد من الصيغ الكنعانية -الفينيقية. وأن العربية (الفصحى). واللغة المحكية في بلاد الشام بما فيها العراق قد حفظت بدورها أكثر صيغ ومفردات كل تلك اللغات، وحمتها من الضياع. وهي صيغ ومفردات وأقوال مأثورة وأمثال شعبية لا تزال على لسان الناس وإلى اليوم.

المراجع الأساسية

بالفرنسية:

1- L'aventure des écritures.
مغامرة الكتابة، بإشراف: A. Berther & A-Zali .

2- Naissance de l'écriture
نشوء الكتابة، بإشراف: B-A-Leicknam

3- Mésopotamie.l'écriture.
ما بين النهرين -الكتابة، تأليف: J-Bottero

4- Les étymologies.
الجذور والأصول، تأليف: R.Garrus

5- L'écriture mémoire des hommes.
الكتابة ذاكرة الإنسان، تأليف: G-Jean

نُقَّاد الرِّواية في سورية
ريادة التّأليف

د. سمر روحي الفيصل ✪

عدنان بن ذريل (عدنان الذّهبيّ) ناقد نسيجُ وحدِه. عاش حياته عَزَباً، منصرفاً إلى القراءة، متشبّثاً بأخلاق الفرسان، بسيطاً، هادئاً، دائم الابتسام، مثقّفاً في قضايا الفلسفة والفكر والفنون الشّعبيّة والموسيقيّة، فضلاً عن مناهج البحث واللّغة والنّقد. أصدر في حياته[1] عدداً كبيراً من الكتب، كان للرّواية بينها نصيب غير كبير، يكاد يقتصر على كتابه الرّائد (الرّواية العربيّة السّوريّة، دراسة نفسية)[2]، وعلى كتابه (عبد السّلام العجيليّ، دراسة نفسيّة في فنّ الوصف القصصيّ والرّوائيّ)[3]، وعلى عدد من الدّراسات التي نُشر بعضها في كُتُب[4]، وبقي بعضها الآخر حبيس المجلات والصُّحف التي نُشر فيها. وعلى الرّغم من أنّ اسم عدنان بن ذريل بدأ يُعْرَف جيّداً في أربعينيّات القرن العشرين على أنّه منافح عن المذاهب الفلسفيّة الغربيّة الوافدة إلى السّاحة العربيّة، وخصوصاً دفاعه عن الاتّجاهات الرّمزيّة[5] والوجوديّة والألسنيّة والنّفسيّة، فإنّه من المفيد أن نلاحظ أنّ اتّصاله المباشر بالثّقافة الفرنسيّة، وقراءاته الغزيرة في اتّجاهاتها ومذاهبها المتجدّدة، لم يكن أقلّ من معرفته بانعكاساتها في الثّقافة العربيّة، ومن معرفته بالثّقافة الشّعبيّة العربيّة، وموهبته في فنونها الموسيقيّة. وإذا كنتُ، هنا، معنيّاً باهتماماته الخاصّة بنقد الرّواية، فإنّ ذلك لا يعني إغفال موسوعيّته، وإسهامه في نقد أجناس أدبيّة أو ثقافيّة أخرى.

✪ أديب وناقد سوري مقيم في الإمارات العربية.

أوّلاً: الجانب المنهجيّ

حرص عدنان بن ذريل في نقده الرّواية السّوريّة على أن يُحلّل النّصوص الرّوائيّة تحليلاً منهجيّاً، استند فيه إلى مناهج نقديّة ذات أصول فلسفيّة، وخصوصاً المنهج النّفسيّ الذي بدا ولوعاً به، عاملاً على ترسيخه في نقد الرّواية. فكتابه عن عبد السلام العجيليّ هو (دراسة نفسيّة) في (فنّ الوصف القصصيّ والرّوائيّ). وكتابه عن (الرّواية العربيّة السّوريّة)، وهو أوّل كتاب مخصّص للرّواية السّوريّة وحدَها، لا يُدْرَس فيه غيرها، هو (دراسة نفسيّة) أيضاً. ودراسته رواية هاني الرّاهب (بلد واحد هو العالم)، ورواية عبد النّبي حجازيّ (المتعدّد)، هي (دراسة السنّيّة). وهذا الالتزام يُشير إلى أمور عدّة في الجانب المنهجيّ عند ابن ذريل، يمكنني اختزالها في النّقاط الآتية:

١- إنّ فكر ابن ذريل النّقديّ فكر منهجيّ، يؤمن بأنّ تحليل النّصّ الرّوائيّ يجب أن يكون مقيّداً بمنهج محدّد، يُعين النّاقد على السّير في طريق مأمونة تضمن له تحقيق هدفه من تحليل النّص، وخطواته الإجرائيّة في أثناء ذلك. ومثل هذا الفكر المنهجيّ يرفض أن يكون عامّاً، بحيث يُحلّل النّصّ مستنداً في ذلك إلى تذوُّق النّاقد وحده، بل إنّه لا يكاد يعترف بالنّقد التّذوُّقيّ على أنّه نقد مستقلّ بنفسه؛ لأنّ هذا الاعتراف يعني أن يدخل النّاقد النّصّ من دون جهاز (مفاهيميّ) مُستَمَدٌ من أحد المناهج، قادر على أن يبحث في النّصّ عن شيء محدّد، تبعاً لرغبته في ألا يتحدّث عن كلّ شيء في هذا النّصّ. ولهذا السّبب يبدو فكر ابن ذريل منهجيّاً غير (اقتطافيّ)، منظّماً يسير في خطوات إجرائيّة واضحة محدّدة.

٢- وهو، أيضاً، فكر نقديّ لا يؤمن بالنّقد الموضوعاتيّ الذي يبحث في النّصوص الرّوائيّة عن مضامين موضوع ما، بل يراه مغايراً لاهتماماته باللّسانيّات والبنيويّة والتّحليل النّفسيّ، وهي المناهج التي أبعد النّقد الموضوعاتيّ نفسه عنها، وأبعدت هي أيضاً نفسها عنه(٦)، تأكيداً لما قاله دانييل برجيز: إنّ (النّقد الحديث نشأ تحت شعار اللّسانيّات والبنيويّة والتّحليل النّفسيّ؛ أي تلك التّيّارات الثّلاثة التي عمل النّقد الموضوعاتيّ دوماً على صون استقلاله تجاهها)(٧). ويُخيَّل إليّ أنّ الفكر النّقديّ عند عدنان بن ذريل ميّال إلى المناهج ذات الصّبغة العلميّة، وخصوصاً ما ارتبط

باللّسانيّات بصلة ما. ولذلك ابتعد عن النّقد الموضوعاتيّ الذي يُعَدُّ ابناً للرّومانسيّة. ذلك أنّ (الفنّ قبل كلّ شيء، وحسب المنظور الرّومانسيّ، ليس بناءً شكليّاً، بل تأتي أهمّيّته من قدرته على توليد تجربة ما، وإنتاج معنى يؤثّر في الحياة. ويتّفق جميع النّقّاد ذوي الاتّجاه الموضوعاتيّ حول هذه النّقطة)[٨].

وهذا كلّه يُعلّل ما نراه عند ابن ذريل من اكتفائه في أثناء التّطبيق بتلخيص مضمون الرّواية في نقاط تجمع الحوادث الرّئيسة في الرّواية، من دون أن يُطيل التّلخيص، أو يغرق في مناقشة الحوادث الرّوائيّة؛ لأنّ همّه واهتمامه مقصوران على تحليل النّصوص الرّوائيّة بوساطة المناهج النّقديّة، وليس من اهتمامه التّدقيق في الموضوع الرّوائيّ.

٣- الفكر النّقديّ المنهجيّ عند ابن ذريل فكر تحليليّ تركيبيّ. وقد نصّ هو نفسه على هذا الأمر من دون مواربة، فقال عن التّحليل النّفسيّ للرّواية العربيّة السّوريّة: (وعملنا النّفسيّ إذن سيكون عملاً تحليليّاً وتركيبيّاً، ولنقل تشريحيّاً وتفسيريّاً وسنحرص كلّ الحرص، بالطّرق التّحليليّة والتّركيبيّة التي يسمح بها المنهج النّفسيّ العامّ أن نُظهر نموذجيّة هذه الشّخصيّات)[٩]. وهذا يعني أنّه يفهم نقد الرّواية على أنّه تحليل النّصّ الرّوائيّ (أو: تشريحه)، ثمّ إعادة تركيبه، بغية فهمه (أو: تفسيره). وموضوع الفهم، بغية التّأثير الوجدانيّ القيميّ، هو غاية بارزة من غايات النّقد؛ أدرك ابن ذريل أثره في التّحليل، فراح يبدأ نقده بتوضيح غايته من النّقد، قبل تحديده الإجراءات النّقديّة التي سيتبعها للوصول إليه. قال في بداية تحليله روايتي هاني الرّاهب وعبد النّبي حجازيّ: (سندرس فيما يلي رواية بلد واحد هو العالم لهاني الرّاهب، ورواية المتعدّد لعبد النّبي حجازيّ دراسة تحليليّة وصفيّة، وأيضاً نقديّة... ونركّز بالتّالي على الموضوعات التّالية: البنية السّرديّة، الحديث، الأيديولوجية ثمّ الشّعريّة)[١٠].

ما طبيعة المنهج النّفسيّ في هذا الفكر النّقديّ؟. من الواضح أنّ ابن ذريل حَرَص على علم النّفس العامّ وحدَه، ومن ثَمّ عزل نقده عن أن يجعل الرّواية السّوريّة وسيطاً بين العيادة النّفسيّة والنّظريّة النّفسيّة كما هي الحال عند (فرويد). كما عزل نقده عن الإضافة التي قدّمها لاكان بربطه بين النّظريّة النّفسيّة والنّصّ الأدبيّ المتخيَّل. والظّنّ أنّ ابن ذريل فَهِم علم النّفس العامّ على أنّه أداة تحليل النّصّ الرّوائيّ، يسعى النّاقد بوساطتها إلى الإحاطة بهذا النّصّ وربط

المتلقّـي به. والواضح أنّ إفادة ابن ذريل من علم النّفس العامّ تركّزت في أنّ الشّخصيّات الرّوائيّة (نمـاذج) بشريّة نفسيّة قادرة على أن توفّر للمتلقّي وقائـع حياتيّة أصيلة[11]. ولذلك تراه يدرس هذه الشّخصيّات على أنّها (نماذج بشريّة ذات طباع وأمزجة وتصرُّفات وسلوك وآراء في الحياة وطموحات فيها)[12] يمكن تحليلها وتركيبها بمساعدة علم النّفس العـامّ لتحديد نموذجيّتها، (كأنْ تكون سويّة أو مرضيّـة، متكاملـة مع المجتمـع أو غير متكاملة، انبساطيّـة أو انطوائيّة، نظريّة أو عمليّـة، فكريّة أو عاطفيّة، لذّيّة أو متعفّفة، سوداويّة أو مرحة)[13]. ومنهجه في التحليل لا يعترض على مقابلة الشّخصيّة النّموذجيّة بالشّخصيّة الرّوائيّـة المتخيَّلة وبالشّخصيّة الحقيقيّة في الواقع؛ ولهذا السّبب درس فنّ الوصف النّفسيّ في أدب عبد السّلام العجيلي، منطلقاً مـن أنّ هـذا الأدب يضمّ (مسحة نفسيّة)[14] يتفرّد بها أدب العجيليّ من أدب زملائـه القاصّين والرّوائيّـين. وهو يقصد بهذه المسحـة النّفسيّة حِرص العجيليّ على تقديم أنواع مختلفة من الوصف لشخصيّاته، كوصف المواقف النّفسيّة، واللّوحات النّفسيّة الخالصة، واللّوحـات النّفسيّة الاجتماعيّة، وغـير ذلك مـن الأوصاف التـي تجلّت في الأبنية الرّوائيّة عموماً وفي أسلوب العجيليّ خصوصـاً[15]. وهذا ما يسمح لي بالقول إنّ طبيعة المنهج النّفسيّ في الفكر النّقديّ عند ابن ذريل، هي البحث عن الطّبيعة النّفسية للشّخصيّات الرّوائيّة، وعن الوصف النّفسيّ في السّرد الرّوائـيّ، انطلاقاً من النّصوص الرّوائيّة وليس إسقاطاً عليها.

ثانياً: الجانب التّطبيقيّ

هنـاك اختـلاف واضح بـين الجانب المنهجيّ والجانب التّطبيقيّ عند ابن ذريل. فالجانب المنهجـيّ مختصـر ولكنّه محدَّد، والجانب التّطبيقيّ واسع ولكنّه غير مطابق للجانب المنهجيّ غالبـاً. وبتعبير آخر أقول إنّ المتلقّي يتوقّع أن يكون الجانب التّطبيقيّ تجسيـداً للدّراسة النّفسيّـة التي وعد بها ابـن ذريـل في عنـوان كتابه عـن الرواية السّوريّـة، وفي التّفصيـلات التي دوّنها في مقدّمة الكتـاب نفسه. في حـين كان لديه تطابق مقبـول بين الجانبين في دراسته عن العجيليّ وعن روايتي هـاني الرّاهب وعبد النّبـي حجازي. وهنـاك ملاحظات أخرى مرتبطة بهذا الاختـلاف والتّطابق، أبرزها الملاحظات الآتية:

١- يبـدو التّطابق واضحـاً بين المنهج والتّطبيـق في دراسة ابن ذريل النّفسيّة لفنّ الوصف الرّوائيّ عند العجيليّ، وفي الدّراسة الألسنيّـة لروايتي الرّاهـب وحجازيّ، وفي جوانب من كتاب (الرّواية العربيّة السّوريّة). فقـد لخّـص في سبـع نقاط حـوادث كلّ

رواية من روايتي الرّاهب وحجازيّ، بحيث كان التّلخيص سطراً وبعض السّطر في النّقطة الواحدة. ثمّ لخّص التّلخيص نفسه ليزيد رواية (بلد واحد هو العالم) تكثيفاً وإيجازاً وتوضيحاً للسلاسل المفصليّة الكبرى فيها. وخلص من ذلك إلى أنّ البنية النّفسيّة (تظهرها السّلوكات والمواقف، وتتغلق المسروديّة فيها عن إخفاق كلّ من البطلين)[16]. وهو يقصد بالبطلين (علوان وسعدون)، وهما الشّخصيّتان الرّئيستان في رواية الرّاهب. وخلص من ذلك كلّه إلى أنّه ليست هناك (رغبة) عند (علوان)، وأنّه أنانيّ نرجسيّ وصوليّ ذو رغبات حيوانيّة. أمّا (هديبان) الشّخصيّة الرّئيسة في رواية (المتعدّد) لحجازي فعنده رغبة في التّوسّع في الغنى، وهذه الرّغبة غير موجودة عند زوجته نوف. وعلى الرّغم من هذا الاختلاف بينهما فقد أخفق بطلاهما، وبقي (بطل حقيقيّ يوجّه الأفعال والسّلوكات فيهما، هو العبث والمصادفة)[17]. وقد تتبّع ابن ذريل من خلال نصوص استمدّها من الرّوايتين تبدّل صيغ الخطاب وأزمنة الأفعال والأيديولوجيا والقيمة فيهما، وخلص إلى أن عالَم القيم عند الراهب (غائم جدّاً، وهامشيّ جدّاً أيضاً)[18]، والرّاهب (متهاون في مقاصد روايته، وأيضاً في بنائها وحبكتها على الرّغم من مسحة التّجويد الشّعريّ في ديباجتها.

(في حين أنّ المتعدّد لعبد النّبي حجازيّ متفوّقة في ذلك، سواء من جهة مقاصد الإدلال والقول، أو البناء الرّوائيّ والحبكة، أو السّبك والدّيباجة)[19]. هذا الذي جرى عليه ابن ذريل في تطبيق الدّراسة الألسنيّة على روايتي الرّاهب وحجازيّ مقبول مفيد لانسجام المنهج مع التّطبيق فيه.

يصدق الأمر نفسه على الدّراسة النّفسيّة للوصف عند العجيليّ. فهناك ربط بين أسلوب العجيليّ وشخصيّته وبناء نصوصه[20]. واستند ابن ذريل في ذلك إلى (ما أوتيه عبد السّلام العجيليّ من دقّة الملاحظة للخارج، ودقّة الاستبطان للدّاخل. وتحليلاته في معظمها، بل كلّها، من الدّاخل. (و)هما وراء أوصافه وسرده وتحليلاته كافّة)[21]. فأداؤه في أوصافه وسرده وتحليلاته (أداء نفسيّ ظاهر المسحة العاطفيّة، بارز الثّقل الذّهنيّ. هذا الأداء النّفسيّ إذا دقّقنا في مقوّماته الأسلوبيّة وجدناه يقوم على التّجسيد والتّشخيص؛ أي بثّ الحياة والعاطفة في المحسوسات والمادّيّات من أشياء وأدوات، مع تجسيم الموقف الحياتيّ، وإبراز دوافعه النّفسيّة، أو النّفسيّة الاجتماعيّة)[22]. وهذا التّطبيق، أيضاً، مقبول مفيد، فيه انسجام بين المنهج وتطبيقه.

بيد أنّ الانسجام بين المنهج والتّطبيق في

كتاب ابن ذريل (الرّواية العربيّة السّوريّة، دراسة نفسية) ضعيف جداً؛ لانصراف الكتاب إلى أمور مغايرة للمنهج، سأتحدّث عنها في الملاحظة القابلة الخاصّة بالاختلاف. ومن المفيد في التّمهيد لهذه الملاحظة أن نتذكّر أنّ هذا الكتاب يمثّل المتن النّقديّ الأساسيّ بالنّسبة إلى نقد الرّواية السّورية عند ابن ذريل.

٢- إذا حذفنا العنوان الفرعيّ لكتاب (الرّواية العربيّة السّوريّة) وهو: (دراسة نفسيّة)، أصبح هذا الكتاب الرّائد في دراسة الرّواية السّوريّة كتاباً جامعاً للإنتاج الرّوائيّ السّوريّ حتّى منتصف ستينيّات القرن العشرين، وليس كتاباً يدرس هذه الرّواية (دراسة تاريخيّة تطوريّة) كما صرّح ابن ذريل في التّمهيد له. وسيصبح هذا الكتاب، بعد التّخلّي عن عنوانه الفرعيّ، تصنيفاً للاتّجاهات الرومانسيّة والوجوديّة والواقعيّة في الرّواية السّوريّة. ولن يكون في الأحوال كلّها دراسة نفسيّة تربط (علم النّفس العام) بالاتّجاهات المذكورة، أو تحلّلها من خلاله. وهذا يعني أنّ لدينا ثلاث ملاحظات، أولها التّرجّح بين الدّراسة النّفسيّة والاتّجاهات في الكتاب كما قدّمه ابن ذريل، وثانيها طبيعة النّقد في الكتاب بعد إغفال العنوان الفرعيّ، وثالثها قيمة الكتاب في الحالين معاً. وكي لا تتداخل الملاحظات الثّلاث فإنّني سأتحدّث عن الملاحظة الأولى هنا، وأترك الحديث عن الملاحظتين الأخريين إلى النّقطتين القابلتين.

ذلك أنّ كتاب (الرّواية العربيّة السّوريّة) يضمّ أربعة أقسام، خصّص ابن ذريل القسم الأوّل منها للنّظرات التّاريخيّة والاتّجاهات. وتتبّع في القسم الثّاني بواكير الرّواية السّوريّة في ثلاثينيّات القرن العشرين، ثمّ في خمسينيّاته وستينيّاته وسبعينيّاته. وأهمل في القسمين الباقيين التّتبّع التّاريخيّ لينصرف إلى الاتّجاهات الوجوديّة والقوميّة والواقعيّة والمعاصرة من ذهنيّة وأسطوريّة وتحليليّة وعبثيّة. ولم يلتفت كثيراً في أثناء ذلك إلى الدّراسة النّفسيّة التي جعلها العنوان الفرعيّ لكتابه. من ذلك أنّه بدأ القسم الخاصّ بالاتّجاه الاشتراكيّ بتلخيص رواية حنّا مينة (المصابيح الزرق) التي خالف فيها التّتبّع التّاريخيّ، فنقل الحديث عنها من خمسينيّات القرن العشرين التي صدرت فيها (طُبعت الرّواية عام ١٩٥٤م) إلى الاتّجاه الاشتراكيّ؛ لأنّها، في رأيه، تُمثّل هذا الاتّجاه على الرّغم من أنّه رأى فيها جمعاً بين الرّومانسيّة والواقعيّة. وكان ابن ذريل قادراً على عدّها مثالاً لما ذكره مراراً حول عدم توافر السّمات الواقعيّة وحدها فيها، وفي غالبيّة الرّوايات السّوريّة التي طُبعت في خمسينيّات القرن العشرين وستينيّاته، تبعاً

لطبيعة مرحلة الخمسينيّات والسّتينيّات التي سأشير إليها بعدُ، وأكتفي منها، في أثناء الإشارة إلى (المصابيح الزرق)، بالقول إنّ الخمسينيّات مرحلة انحسار الرّومانسيّة وولادة الواقعيّة[٢٣].

تهمّني أيضاً الإشارة إلى إغفال ابن ذريل علم النّفس العامّ في أثناء حديثه عن رواية (المصابيح الزّرق). ويبدو أنّه تذكّر هذا العلم بعد تلخيصه رواية حنا مينة الثّانية (الشّراع والعاصفة)، فقال في نهاية تلخيصه وإشارته إلى الطّروسيّ الشّخصيّة الرّئيسة في هذه الرّواية: (وفاء بالمنهج النّفسيّ نسجّل هنا أنّ الرّواية تنوّه بصلات جنسيّة سابقة للطّروسيّ مع خليلة كان يحبّها في رومانيا، هي ماريا، شهدت بعض مغامراته هناك)[٢٤]. وليس التّرجّح بين التّصنيف والإغفال وتذكّر الدّراسة النّفسيّة مقصوراً في كتاب ابن ذريل على روايات حنّا مينة، بل هو عامّ في دراسات الكتاب كلّها. فقد سيطر على ابن ذريل بروز المزاوجة بين الرّومانسيّة والواقعيّة في أثناء حديثه عن روايات شكيب الجابريّ، ولكنّه في نهاية هذا الحديث تذكّر النّماذج في علم النّفس، فصنّف (إيلزا) على أنّها رومانسيّة وانطوائيّة، و(علاء) على أنّه واقعيّ انبساطيّ، بل (نموذج المنبسط اللذّيّ الفكريّ الذي تستهويه الحياة بمجونها ولهوها وزخرفها واهتماماتها)[٢٥]. وفعل الشّيء نفسه في أثناء حديثه عن رواية (السّلوان الكاذب) لخير الدين الأيوبيّ. فقد نصّ على أنّ مؤلّفها غير مخلص للرّومانسيّة[٢٦] ولذلك بهتت شخصيّة (سمير) في روايته. وعلى الرّغم من ذلك فقد حلّله نفسيّاً، فرآه أنموذجاً (للنّاس الضّعفاء، قليلي الخبرة بالحياة... عاطفيّ خياليّ، كثير الوساوس والشّكوك... وهو مريض... لذّيّ... إنّه إذن شخصيّة مرضيّة غير سويّة)[٢٧].

٣- تختلف النّظرة إلى طبيعة النّقد الرّوائيّ في كتاب ابن ذريل إذا حذفنا العنوان الفرعيّ، وعددنا الكتاب دراسة نقديّة للرّواية السّوريّة. ذلك أنّ كتاب (الرّواية العربيّة السّوريّة) كتاب جامع للنّصوص الرّوائيّة السّوريّة التي صدرت في سورية حتّى بدايات سبعينيّات القرن العشرين زمن طباعة الكتاب. وهذه الصّفة الإيجابيّة التي نبعت من نهوض ابن ذريل بالتّعريف بالنّصوص الرّوائيّة السّوريّة المعروفة والمجهولة، ومن ربطها بالنّصوص التي صدرت في ثلاثينيّات القرن العشرين وأربعينيّاته، ومن تحديد طبيعتها الفنّيّة الرّومانسيّة والوجوديّة والواقعيّة، قدّمت للمتلقّي العربيّ عموماً، والسّوريّ خصوصاً، لوحة (بانوراميّة) تمثّل الإنتاج الرّوائيّ السّوريّ الذي لم يكن أحد، في داخل سورية وخارجها، يعترف به آنذاك. ولم تكن هذه

اللّوحة مجرّد تعريف بسيط بالرّوايات السّوريّة، بل كانت تصنيفاً لاتّجاهاتها ومذاهبها العامّة، وجولات مختصرة في مضامينها وعلاقاتها بالواقع، وتقديماً لنتائج مفيدة للحركة النّقديّة النّاشئة، وتكملة للجهد الذي قدّمه شاكر مصطفى في كتابه الرّائد (محاضرات عن القصّة في سورية حتّى الحرب العالميّة الثّانية) الذي صدر عام ١٩٥٨م. وهناك، في الوقت نفسه، مجموعة من أحكام القيمة العامّة والخاصّة قدّمها ابن ذريل في هذا الكتاب، منها:

- كانت الرّواية السّوريّة قبل نضجها الفنّيّ عند شكيب الجابريّ (مجرّد حكاية طويلة؛ حكاية مغامرات، أو حكاية صُدَف غريبة، أو حكاية وعظ اجتماعيّ وأخلاقيّ... يطغى عليها السرد الألف ليليّ، أو الوعظ الأخلاقيّ، ممّا يطمس بالفعل ملامح الأبطال فيها)[٢٨].

- غلب الاتّجاه الرّومانسيّ على الرّوايات السّوريّة في نشأتها الأولى، ولكنّ هذا الاتّجاه لم يكن خالصاً فيها، بل امتزجت فيه سمات واقعيّة كثيرة، جعلته رومانسيّاً واقعيّاً أوّل الأمر. ثمّ زادت السّمات الواقعيّة فيه نتيجة ارتباط الرّوائيّين السّوريّين الشّديد بالواقع، وبدأت السّمات الرّومانسيّة تضعف وتتراجع، وهذا ما قاد إلى أن تتألّق الواقعيّة في الرّواية السّوريّة (وينفتح الباب إليها على مصراعيه؛ لتظهر على لونيّات مختلفة: طبيعيّة وانتقاديّة واجتماعيّة وترسميّة)[٢٩]، بدلاً من انصرافها في السّابق إلى أمور العاطفة والحبّ والجنس.

- اتّخذ الرّوائيّون السّوريّون قبل استقلال سورية المزيج الرّومانسيّ الواقعيّ (سبيلاً إلى إيقاظ الرّوح القوميّة، وبعث الشّعور الوطنيّ)[٣٠]، وهذا ما مهّد الطّريق للواقعيّين ابتداءً من خمسينيّات القرن العشرين لمعالجة مشكلات الواقع السّوريّ الاجتماعيّة والسّياسيّة على تفاوت بينهم في هذه المعالجة. وجرى، في الوقت نفسه، التّخلّي النّسبيّ عن شعار (الفنّ للفنّ)، والتّشبّث بحماسة بشعار (الفنّ للشّعب) والكتابة الرّوائيّة بوحي منه، وإنْ جاورت الوجوديّة والرّومانسيّة هذه الواقعيّة، وبقيت تعالج أدواء المجتمع السوريّ على طريقتها وبحسب مفهومها للواقع الفنّيّ.

- لم يكتف ابن ذريل بتقديم أحكام قيمة عامّة تصدق على غالبيّة الرّوايات السّوريّة، بل راح يُقدّم أحكام قيمة صائبة على هذه الرّواية أو تلك من الرّوايات السّوريّة:

• فهناك أخلاقيّة مثاليّة باعثة على الفخر في رواية (الحبّ المحرّم) لوداد سكاكيني.

• وعاطفيّة تنهض استناداً إلى حسّ

مثاليّ أخلاقيّ شائق وجرأة وواقعيّة إنسانيّة في رواية (أيّام معه) لكوليت خوري.

• وصدق مع النّفس والواقع، ورصد وتحليل دقيقان في رواية (سلاسل الماضي) لنزار مؤيَّد العظم.

• ومزاوجة بين الرّمز والواقع، وبين الأسطورة والفعل الحياتيّ في رواية (الشّمس في يوم غائم) لحنّا مينة.

• وتصوير الإنسان في حياته الخارجيّة والدّاخليّة في رواية (أجراس البنفسج الصّغيرة) لحسيب كيّالي.

– رصد ابن ذريل النّماذج البشريّة في عدد من الرّوايات السّوريّة. فقد حلّل عند محمّد الرّاشد في رواية (المحمومون) (نماذج من البشر يعيشون واقعاً يصخب بالأهواء)[٣١]. وقال إنّ الحسّ الإنسانيّ عند حنّا مينة في (الثلج يأتي من النّافذة) لا يجعل (الشّخصيّات نموذجيّة مجرّدة، خارجة عن أطرها الواقعيّة أو الاجتماعيّة. إنّها تظلّ نموذجيّة اجتماعيّة تتبدّى فيها ألوان من إنسانيّة. إنّها نموذجيّة مرتبطة بزمانها ومكانها، بمجتمعها وطبقتها)[٣٢]. كما قال إنّ الشّخصيّتين في رواية (باسمة بين الدّموع) لعبد السّلام العجيليّ (من أنماط الشّخصيّات الاجتماعيّة اللذّيّة الفاسدة)[٣٣]. وإنّ نبيل في (أحلام الرّبيع) لعماد تكريتي عاطفيّ حسّاس انطوائيّ، وسلمى في الرّواية نفسها أنموذج سيكوباتيّ عجيب، فهي عديمة الشّعور بالأمور الاجتماعيّة.

٤- يُخيَّل إليّ أنّ قيمة كتاب (الرّواية العربيّة السّوريّة) تكمن، فضلاً عمّا سبقت الإشارة إليه، في أمور أخرى، منها أنّه كتاب رائد في دراسة الرّواية السّوريّة، لم يسبق لدارس قبل ابن ذريل تخصيص كتاب مستقلّ لدراسة هذه الرّواية. وهو، من هذا الجانب، متابعة جادّة لما بدأ به شاكر مصطفى، وترسيخ لأهمّيّة الرّواية بين الأجناس الأدبيّة في سورية. ذلك أنّ الحياة الأدبيّة السّوريّة لم تكن آنذاك قد انتبهت إلى أنّ هناك تراكماً حدث في الرّواية السّوريّة طَوال قرن ابتداء من رواية (غابة الحق) لفرنسيس مرّاش التي صدرت عام ١٨٦٥م، من دون أن يواكب النّقد هذا التّراكم ليقول كلمته فيه، ومن دون أن ينبّه الدّارسون السّوريّون على وجوده ومستواه وضرورة تحديد ما قدّمه للواقع السّوريّ، قبل أن تُفْقَد غالبيّة نصوصه، ويخسر تاريخ الرّواية في سورية مرحلة من مراحله. وكان شاكر مصطفى قد نبّه على هذا الأمر صراحةً، وعمل ابن ذريل على أن يسدّ بعض الثّغرات التي ذكرها شاكر مصطفى، ويعلن، صراحةً، أنّ الرّواية السّوريّة جنس أدبيّ يستحقّ أن ينفصل عن القصّة القصيرة، ويُدْرَس وحدَه. وإذا

كان كتاب شاكر مصطفى جمع بين القصّة والرّواية والمسرحيّة، فإنّ ابن ذريل فصل هذه الأجناس الثّلاثة عن بعضها بعضاً، وخصّص لكلّ جنس منها كتاباً مستقلاً، فكان لديه: الأدب المسرحيّ في سورية (١٩٦٤م)، وأدب القصّة في سورية (١٩٦٦م)، والرواية العربيّة السوريّة (١٩٧٣م). وقد حقّق ابن ذريل بهذا الفصل ريادة في الأجناس الأدبيّة الثّلاثة، ورسّخ في الحياة الأدبيّة السّوريّة تقليداً جديداً، هو دراسة كلّ جنس من أجناس النّثر القصصيّ الثّلاثة على حدة في كتاب مستقلّ. ولم يكتف ابن ذريل بذلك، بل راح يتابع اهتمامه السّابق بالمسرح؛ ذلك الاهتمام الذي جعله يُصدر كتابه (فن المسرحيّة مع تلخيص حديث لكتاب الشّعر لأرسطاليس) عام ١٩٦٣م، ويبتدع تقليداً جديداً، هو تخصيص كتاب لأديب واحد، بدأه بكتابيه: عبد السلام العجيليّ، دراسة نفسية في فنّ الوصف القصصيّ والرّوائيّ (١٩٧٠م)، ومسرح وليد مدفعي (١٩٧٠م)، وتابعه بعد ذلك بكتابه: مسرح علي عقلة عرسان (١٩٨٠م)، من دون أن ينسى الفصل بين الأجناس الثّلاثة، فأصدر كتاباً آخراً رائداً عن المسرح في سورية، هو: المسرح السوريّ منذ أبي خليل القبّاني إلى اليوم (١٩٧١م). وكان ابن ذريل بذلك كلّه رائداً في دراسة كلّ من القصّة القصيرة والرّواية بكتاب مستقلّ لم يُكرّره، ورائداً في تأليف كتب عدّة عن جنس أدبيّ ثالث، هو المسرح السّوريّ، فضلاً عن ريادته في تأليف الكتب عن الرّقص والموسيقى الشّعبيّين.

بيد أنّ قيمة كتاب (الرّواية العربيّة السّوريّة) لا تنبع من ريادته وحدها، بل تنبع من أمر آخر، هو حرصه على عدم الانحياز. فأنت تراه حين يتحدّث عن الاتّجاهات يُعطي كلّ اتّجاه حقّه ولا يبخسه شيئاً منه. بل إنّه يتحدّث عنه بحبّ واعتزاز، ويُعلي من شأن أصحابه ونصوصه، ويبدو في أثناء الحديث سعيداً بعمله، كريماً في الصّفات، عادلاً في التّقويم والتّقييم. وابن ذريل بعدم انحيازه وحديثه الودّيّ يُقدّم أنموذجاً لموقف النّاقد الإيجابيّ من المنقود والنّصّ. وهذه قيمة محمودة، لم أر ناقداً منصفاً بعيداً عنها؛ لأنّها شيء رئيس في النّقد الأدبيّ، تجعل النّاقد يرى إيجابيّات النّصّ قبل سلبيّاته، ويرى المنقود صديقاً وصاحب جهد وإنساناً. وقد كان ابن ذريل تجسيداً لهذا النّاقد، وكان كتابه (الرّواية العربيّة السّوريّة) معبّراً عن ذلك خير تعبير.

يمكنني القول في خاتمة حديثي إنّ النّقد عند ابن ذريل يزيد أهمّيّة، ويرتقي في سُلّم التّقدير الإيجابيّ حين نتأمّل الصّورة الكلّيّة التي تضمّ مؤلّفاته في شؤون الفنّ والأدب واللّغة والنّقد مجتمعةً. ولئن فات الأدباء

والنّقّاد تقويم عطائه النّقديّ في حياته قبل مماته، فإنّ أثره في الحياة الأدبيّة في سورية لن يُنسَى. ولئن أثّرتْ شخصيّته الودودة غير الحازمة، المتفائلة غير المتحزّبة، المحبّة للعزلة والبعد عن الجمعيّات والاتّحادات والأحزاب في نظرة المثقّفين له، وفي تقديرهم مهاراته ومعارفه، فإنّ الأشكال والتّحالفات لم تكن في يوم من الأيّام قادرة على أن تمنح الإنسان ما لم يستطع الحصول عليه بجهده، وستكون عاجزة عن أن تسلب من إنسان آخر ما بذل الوقت والجهد في الحصول عليه.

الهوامش

١- ولد النّاقد عدنان الذّهبيّ الذي عُرف بلقبه: (ابن ذريل)، في دمشق عام١٩٢٨م، وتوفي فيها عام٢٠٠٠م. تلقى علومه في دمشق، وتابع دراسته العالية في الفلسفة في جامعة القاهرة، وتخرّج فيها. ذكر عبد القادر عيّاش في معجم المؤلفين (ص٢٠١) أن ابن ذريل عمل موظفاً في وزارة الثقافة السورية. وإذا صحّ ذلك فإنّه لم يعمل طويلاً، بل آثر العيش حرّاً، من دون وظيفة، أو زواج، ومن دون انتساب لحزب أو لجماعة أدبيّة. كان طويل القامة، دائم الابتسام، يُخيَّل إلى محدّثه أنّه طفل كبير، يفرح إذا سمع كلمة طيّبة، ويهتزّ طرباً إذا أنجز دراسة أو كتاباً أو مقالة. يتمتع بالوفاء، والصّدق، والإقبال بنهم على القراءة، وحرص لم يزعزعه شيء في الحياة على التّفرغ للكتابة والتّأليف. شارك في الحياة الأدبيّة العربية كاتباً ومحاضراً، وألّف مئات المقالات والدراسات والكتب ابتداءً من أربعينيّات القرن العشرين. عكست مؤلّفاته موسوعيّته، إذ كانت له كتب في المسرح والقصة القصيرة والرواية والفلسفة والموسيقى والرقص والترجمة والنقد، منها: المسرح السوري (١٩٧١م)، والأدب المسرحي في سورية (١٩٦٤م)، ومسرح علي عقلة عرسان (١٩٩٧م) ومسرح وليد مدفعي (١٩٧٠م)، وأدب القصة في سورية (١٩٦٦م)، والرواية العربية السورية (١٩٧٣م)، والنقد والأسلوبية (١٩٨٩م)، والنقد والبلاغة (١٩٨٣م)، واللغة والدلالة (١٩٨١م)، والقبا والشيخاني (١٩٧١م)، ورقص السماح (١٩٧٠م)، وظواهر الوجود الجدلي (١٩٧٢)، والفكر الوجودي (١٩٨٥م)..

٢- عدنان بن ذريل: الرواية العربية السورية، دراسة نفسية، مطابع الآداب والعلوم، دمشق، ١٩٧٣م.

٣- عدنان بن ذريل: عبد السلام العجيلي، دراسة نفسية في فن الوصف القصصي والروائي، دمشق، ١٩٧٠م (طُبع الكتاب ثانيةً عام ١٩٧٢م).

٤- من ذلك تخصيصه الفصل الثالث عشر من كتابه: النقد والأسلوبية بين النظرية والتطبيق (اتحاد الكتّاب العرب، دمشق، ١٩٨٩م) لدراسة روايتين لهاني الراهب وعبد النبي حجازي. عنوان الفصل: آفاق ألسنية وروايتان.

٥- تتبّع نبيل سليمان ما كتبه عدنان بن ذريل عن الرمزيّة في أربعينيّات القرن العشرين، وعدّه واحداً من النقاد الشكلانيين. انظر: نبيل سليمان: النقد الأدبي في سورية، دار الفارابي، بيروت، ١٩٨٠م، ص٢٧٨ وما بعد.

٦- مجموعة من الكُتّاب: مدخل إلى مناهج النقد الأدبي، ترجمة: د. رضوان ظاظا، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، عالم المعرفة ٢٢١، الكويت، ١٩٩٧م، ص١١٧.
٧- المرجع السابق نفسه.
٨- المرجع السابق، ص١٢٠.
٩- عدنان بن ذريل: الرواية العربية السورية، دراسة نفسية، ص٨.
١٠- عدنان بن ذريل: النقد والأسلوبية، بين النظرية والتطبيق، ص٢١٥.
١١- عدنان بن ذريل: الرواية العربية السورية، دراسة نفسية، ص٨.
١٢- المرجع السابق نفسه.
١٣- المرجع السابق نفسه.
١٤- عدنان بن ذريل: عبد السلام العجيلي، دراسة نفسية في فن الوصف القصصي والروائي، ص٥.
١٥- للتفصيل انظر في المرجع السابق الباب الأوّل المعنون بالوصف النّفسيّ عند العجيلي، ص٥ وما بعد.
١٦- عدنان بن ذريل: النقد والأسلوبية، بين النظرية والتطبيق، ص٢١٨.
١٧- المرجع السابق، ص٢٢٢.
١٨- المرجع السابق، ص٢٣٠، ٢٣١.
١٩- المرجع السابق، ص٢٣١.
٢٠- عدنان بن ذريل: عبد السلام العجيلي، دراسة نفسية في فن الوصف القصصي والروائي، ص١٠٦.
٢١- المرجع السابق، ص ١٠٩.
٢٢- المرجع السابق، ص١١٠.
٢٣- عدنان بن ذريل: الرواية العربية السورية، دراسة نفسية، ص١٦٢.
٢٤- المرجع السابق، ص١٦٨.
٢٥- المرجع السابق، ص٤٧.
٢٦- المرجع السابق، ص٥٠.
٢٧- المرجع السابق، ص٥١، ٥٢، ٥٣.
٢٨- المرجع السابق، ص١١، ١٢.
٢٩- المرجع السابق، ص٢٠.
٣٠- المرجع السابق، ص١٩.
٣١- المرجع السابق، ص١٥٦.
٣٢- المرجع السابق، ص٦٥.

بَدر الدّين الحامد
بين أحوال «الذات» وقضايا الوطن

د. محمد رضوان الداية ✿

كان انفعال شعراء سورية بأحداث الانتداب الفرنسي في القرن العشرين عاماً شاملاً، وإن اختلفت درجات الانفعال بين شاعر و آخر، لأسباب تتعلق بالشعراء أنفسهم، وأسباب أخرى ذات صلة بطبيعة الأحداث ومجريات الحركة الوطنية بين مجاهدة بالقلم واللسان والحال وبين جهاد يرتفع فيه السلاح إلى الأكتاف، وترتفع أصوات الرصاص ونداءات النصر من المجاهدين الذين خرجوا لاستعادة الاستقلال

وطرد الغاصب، وردّ الكرامة، والثأر لشهداء ميسلون وغيرهم ممن وضعوا أرواحهم على أكفّهم في مقابل تحقيق الانتصار.



وكان للثوار المجاهدين أناشيدهم وأغاريدهم التي يصدحون بها، وهم يتأهبون لمهماتهم أو في أثناء حركاتهم الجهادية، محاكين بذلك ما كان مألوفاً عند

✿ أديب وناقد وأستاذ جامعي.

- العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

العرب في وقائعهم من إنشاد شعر الحماسة وارتجال الأراجيز عند الإقدام على اللقاء والمواجهة.

وكان للنسوة مشاركاتهن في ذلك بأغاريد وأناشيد وأقوال منظومة ملائمة للحال والواقع الذي كانت تضج به جنبات الوطن من أدناه إلى أقصاه،وائتلف هذا «الشعبي» بذلك العربي الفصيح في تناغم وتوأم، وقصد واضح إلى الهدف المنشود.

(١)

بدر الدين بن محمود الحامد (١٣١٥- ١٣٨١ هـ/ ١٨٩٧- ١٩٦١م) مولده ووفاته في مدينة حماة في قلب القطر العربي السوري. نال من التحصيل العلمي شهادة دار المعلمين وانتظم في مهنة التعليم، وتدرّج في عدد من الأعمال الإدارية التربوية وصار مفتشاً للمعارف، ومديراً للمعارف في حماة.

وقد أضاف إلى ثقافته ومعارفه من دراسته ومتابعاته الشخصية، ومن الجوّ العام الفكري والثقافي الذي ظلل المناخ الأسريّ ذي المزايا: فأبوه محمود الحامد كان عالماً من علماء المسلمين المشهورين: وُصف بالتقوى والصلاح وغزارة العلم، وخاله الشيخ سعيد الجابي، وجدّه لأمه الشيخ مصطفى الجابي، وكانا- كما عرّف بهما أحمد الجندي في مقدمة الديوان: «أديبين وعالمين وفقيهين، كما كان أبوه أيضاً»[١]

وهكذا تابع بدر الدين الحامد قراءاته ومتابعاته الدينية واللغوية والأدبية متأثراً بمحيطه الصغير: (الأسرة من طرفيها) ومحيطه الواسع: المجتمع المشغوف بالأدب والشعر المهتم باللغة العربية. وقد كانت مدة الاستعمار الفرنسي مدة حماسة لهذه اللغة الأم، ودفاع عنها وتمكين لها وتمتين. كان الالتفاف حول العربية الفصحى جزءاً من حركة الكفاح الوطني والدفاع عن مقدّسات الأمة.

ومن هذه البيئة الملائمة في أطرافها المختلفة ومن خلال الموهبة التي نمت في تلك البيئة انطلق بدر الدين ينشد أشعاره وأغاريده، ويذيعها في محيطه، فتنتشر بقوة في أنحاء سورية، وتتجاوب أصداء الحناجر مع أصداء أصوات سلاح المقاومة، ونداء الاستقلال.

وهكذا ظهر في حماة، وفي سورية عامة شاعر جديد جاء شعره:

١- صدى للحياة العامة وقوامها الرئيسي

في تلك المرحلة من كفاح الاستعمار الفرنسي، وما يتبع ذلك من ذكر الثورة وأخبار الثوار وأحوالهم ورثاء شهدائهم وتمجيد أعمالهم، والحض على نُصْرتهم، من أبطال ميسلون وسائر رجال سورية المجاهدة....

٢- وصدى لمجتمعه الصغير، ووصفاً لما كان يدور في الندوات والجلسات التي تتّسم بالطرافة وألوان من الظرف يخفف من غلواء قسوة الحياة. وقد «أثر هؤلاء في شعره طرافة ومرحاً».(٢)

٣- وصدى لأحوال ذاته، وخصوصياته. وشخصية بدر الدين الحامد من النوع المكشوف الذي لا يخبّئ أو لا يستطيع أن يخفي ما يدور في نفسه من هواجس وآلام و أحزان، ومن أسىً أيضاً.

٤- وإضافة إلى الآثار الأدبية القاصدة التي تسهم في التأريخ السياسي والاجتماعي لسورية في المدة التي عاش فيها.

٥- وصورة لنمط من الشعر العربي الذي يزخر بالحماسة في عواطفه ومشاعره، والقوة في بيانه ونصاعته، والفصاحة في لغته، والطرافة في جوانب كثيرة من معالجاته.

(٢)

صدر ديوان بدر الدين الحامد عن وزارة الثقافة والإرشاد القومي سنة ١٩٧٥م في دمشق، في جزأين اثنين وقدم له أحمد الجندي، وكان صدوره بعد وفاة الشاعر بنحو خمسة عشر عاماً. ولم يرد في مقدمة الديوان، ولا في آخره ما يدل على صانع الديوان: ترتيباً وعنونةً، وإشارات، وشروحاً. وقد رتبت قصائد الديوان تحت عناوين متوالية. فضم الجزء الأول تسعة عناوين، وبقي للجزء الثاني ثمانية من ١٠- ١٧ فالأبواب هي سبعة عشر باباً. وترتيبها على هذا النحو:

١- الجلاء.

٢- وذكرى استقلال ٨ آذار ١٩٢٠م (وكان هذا اليوم يوماً احتفالياً لكونه عيد نشوء دولة سورية: الجمهورية السورية قبل كارثة الاحتلال الفرنسي.

٣- و: سورية العربية في مراحل الكفاح والنضال.

٤- و: ثورات الثوار.

٥- والنضال السلبي،

٦- و عهد المعاهدة،

٧- و: بعد إلغاء المعاهدة،

٨- واستقلال سنة ١٩٤٣م والوحدة العربية،

٩- و: سورية العربية بعد الجلاء

١٠- وفلسطين.

١١- واعتزال الشاعر السياسة.

١٢- و «رجال».

١٣- و: صداقات،

١٤- و: الوصف،

١٥- و: لهو وغزل.

١٦- وشؤون وشجون،

١٧- و: مع الرُّوح.

وهذه العناوين تشف في أكثرها عن موضوعات الديوان، وقضاياه، وعن اهتمامات الشاعر في أحوال حياته، وحياة المجتمع، وهموم الوطن، وانفعال الشاعر بقضايا الأمة على اتساع كلمة (الوطن).

ولا بد من الإشارة هنا إلى الروح العربية التي لفّت آثار الشعراء و الأدباء العرب في سورية قبل الاحتلال الفرنسي، وأثناءه، وبعد التخلص منه. وهي روح يمكن مراقبتها في ثلاث دوائر:

– دائرة سورية. وكان الناس مشغولين بالتخلص من المستعمر أولاً. لقد أهمّهم هذا الاحتلال البغيض وأخذ من وقتهم ونفوسهم وأحوالهم.. واستمروا كذلك إلى (الجلاء)، وقد تردّد صدى الكفاح من جهة وصدى الجلاء وطرد العدو الغاصب في شعر بدر الدين الحامد.

– ودائرة فلسطين. نعم هي جزء من القضية العربية. لكنها ذات خصوصية. واستمرّت فلسطين على هذه الصفة إلى اليوم.

– ودائرة العرب عموماً. وقد يكون من مزايا شعراء سورية وأدبائها هذا الاهتمام القويّ بقضايا الأمة من أقصى بلادها في الريف المغربي وشنقيط (موريتانية) غرباً إلى الخليج العربي شرقاً. ولم يكن غريباً صدور النشيد الذائع:

بلادُ العربِ أوطاني
منَ الشامِ لبغدانِ
ومن نجدٍ إلى يمنٍ
إلى مصرَ فتطوانِ

الذي أنشده فخري البارودي (أحد رجال السياسة والثورة في سورية). وكان كما هو ظاهر معاصراً لبدر الدين الحامد، وقد عاش مثله، تلك الظروف واستظلّ بتلك الظلال. وكان بين الحامد والبارودي صداقة. وفي الديوان قصيدة عنوانها «عند فخري البارودي»ج٢: ص٤٧٩.

وقد احتمل الشاعر النتائج المختلفة التي ترتبت على مواقفه الوطنية الجهادية: « فقد سجن بسبب ذلك، وأبعد عن بلده خمس مرّات، وحيل بينه وبين الترقية في وظيفته، ولقي الكثير من «العَنَت» كما ورد في سيرة حياته.[٣]

وعلى الرغم من سعة أفق اهتمام الشاعر الوطني والقومي فإن أصحابه ومحبّيه لقبوه بـ(شاعر العاصي) ومعلوم أن (حماة) تقع على هذا النهر، وارتبطت (حماة) به واشتهرت بكثرة ما قام عليه من النواعير التي أدّت مهمة خطيرة في ريّ الأراضي، وكانت أيضاً مَعْلَماً جمالياً زين المدينة، ودائرتها الواسعة وقد سمّى الشاعر الإصدار الأول لديوانه باسم «النواعير».

وفي الديوان قصيدة لها مناسبة مذكورة. وجاء في حاشية الصفحة ٥٩٢ من الجزء الأول أنه وقع بين الشاعر وبين بعض إخوانه في (حماة) جفوةٌ، فأشاعوا أنّهم سيحجبون عنه لقب شاعر العاصي، فكتب إليهم بقصيدة (سنة ١٩٣٤م) منها قوله:[٤]

هو الله أعطاني القريضَ عطيّةً
فلا تفخروا فالله يُعطي بلا مَنّ
إذا شئتُ أبكيتُ العيونَ صبابةً
بشعري فقال الناس يا بدرنا غَنِّ
وإن شئتُ ألهبتُ القلوبَ حماسةً
بها يثبتُ القلبُ الطموحُ إلى الأذنِ
وإني على رغم الزمان لشاعرٌ
أغنّي بما أهوى وأشربُ من دَنّي
إذا كان قولُ الشعرِ وقفاً عليكمُ
فردّوا بناتِ الشعرِ إن شئتم عني!

وقد رجع أصحابه عن دعابتهم أو تهديدهم، وهم أخصّ من عرف حقيقة الشاعر، وقدره، وإبداعه.

(٣)

على الرغم من انغماس شعر الشاعر بقضايا الوطن الحارّة (في حينها) وسيطرة الأحداث المتلاحقة عليها، واندفاعة العاطفة الجياشة جاءت قصائد بدر الدين الحامد الوطنية كسائر شعره؛ حية، نابضةً، متدافعة الأفكار، سلسة السياق، متناسقة العناصر الفنية وهذه قطعة نظمها الشاعر في «ثورة دمشق والغوطة» التي انطلقت سنة ١٩٢٥م[٥]

في مجال الفخار والموت يسقي
فتيةَ الشام من نقيعٍ زُؤامهْ

وقف الموتُ رامياً ووقفنا
نحن بالروح والرّدى بسهامهْ
وعلى الغوطة الكئيبة نارٌ
ودخانٌ يظلها بقتامهْ
والغطاريفُ كالسيول سراعاً
كلُّ ندبٍ بقلبه وحُسامهْ
في الميادين لا يبالي أجاء الـ..
.. موتُ من فوقِ أو أتى من أمامهْ

والقطعة -كما هو ظاهر- تأتلفُ عناصرها بين أسلوب جزل فخم اختار الشاعر ألفاظها بدقة وعناية وبين مقصد حماسي صداح، وهي محبوكةٌ بين التعبير المباشر القاصد، والتعبير الملوّن بألوانٍ بلاغية مؤتلفة مع سائر العناصر.

وكانت وفاة الدكتور الشاعر المجاهد خالد الخطيب[٦] الذي مات غريباً طريدَ الاستعمار الفرنسي، في مدينة عمان مناسبة للكلام في القضية كلها، وفي الشهادة والاستشهاد، وذكر بعض الأعلام المجاهدين، ونقرأ له من قصيدة لـ«رثاء» الدكتور خالد الخطيب[٧] ماراً بذكر الشهيد الدكتور صالح قنباز من أعيان حماة أيضاً

كم من شهيد بالقذائف أغمضت
عيناه لا بتواقف وجلادِ
شهداؤنا كثرٌ ويكفي صالح[٨]
في معرض التذكار والتعدادِ
نعب الغراب على المآذن بعدهم
ومشى المنادي بالهوان ينادي
أمّا الشباب فبالسجون ومَنْ نجا
منهم تعسّف في رُبا ووِهادِ
وبخالد وبصحبه أسد الحِمى
علقت حبال النفي والإبعادِ
في الغوطة الفيحاء والدم مُهرقٌ
وقفوا بساح الموت كالأطوادِ
هانت عليهم في الحفاظ نفوسُهم
فكأنه كأس الموت كأسُ شِهادِ
لي في الثرى إخوانُ صدقٍ منهمُ
لو يُفتدون بطارفي وتلادي
أرماسهم شتى هنا وهناك قد
نشرتْ على الأغوار والأنجادِ
فكأن سورية الشهيدة كلها
قبرٌ يفيضُ مدامعَ المرتادِ

وختم الشاعر القصيدة -وهي طويلة- بعقد مشابهة بين خالد الخطيب المجاهد الذي مات عن مرض أصابه وبين خالد ابن الوليد (رضي الله عنه) الذي خاض المعارك العظام ثم مات على فراشه، على ماهو مشهور في الكلام المأثور عنه، فقال الحامد:[٩]

يا خالد البلد اللهيف لك الرضى
في الخلد من ذي المِنّة الجوّادِ
أشبهتَ في الموتى سميّك خالداً
خاضَ الحروب ومات فوق وسادِ

- وأنشد الشاعر في احتفال أقيم في دمشق في ٢٩ أيار سنة ١٩٤٦م في ذكرى العدوان الفرنسي على دمشق في شهر أيار في السنة السابقة ١٩٤٥م والذي امتد إلى سائر المدن السورية عنوانها «في ذكرى العدوان الفرنسي»[١٠] أولها:

الأضاحي في الساح فوق الأضاحي
إذ تباعُ النفوس بيع السّماحِ
والثكالى على نزيف الجراح
في الليالي بين الأسى والنواحِ
يا فرنسا يمحو الزمان وينسى
ومآسيك مالها الدّهرُ ماحْ!

وقال فيها:

كيف نغضي على الهوان ونرضى
ذلّة العيش في حمىً مُستباحِ
يا فرنسا عدلُ من الله أن لا
ترفعي الرأس بعدنا لجماحِ

وذكر العدوان الذي جرى في ٢٩ أيار ١٩٤٥م على المجلس النيابي بدمشق:

لو سألتم دار النيابة لّما
وشحوها من الأسى بوشاحِ
في مقاصيرها بقايا دماءِ
ساطعات بعَرْفها الفوّاحِ
ونثار من الجسوم وشَعْرٌ
ووجوم أجلُّ من إفصاحِ

واسترسل الشاعر في القصيدة يخلّد ذكر عدد من المجاهدين والشهداء، وذكر عدد من المواقع والبلدات التي جرت فيها الوقائع ضدّ الاستعمار الفرنسي في طول سورية وعرضها، حتى قال:

يا ربوع الشآم في كل شبر
منك شِلْوٌ مُوسّدٌ في البراحِ
الكماةُ الأباةُ في الذود كانوا
يوم بذل الأرواح غير شِحاحِ

- وشعر بدر الدين الحامد الحماسي يجري على هذا النسق فكراً وحماسةً وعاطفةً، ومعالجةً للقضية، ودخولاً في السياسة، وإظهاراً للانتماء، وتكريماً للأبطال...

وهذه القصيدة تكمّل الصورة التي نعرضها لهذا التمييط، قال فيها:

يا فرنسا اسمعي أزيز الرّصاص
أيُّ منجىً ولات حينَ مناصِ
حصحص الحقُّ فالرجال ليوث
تتبارى واليوم يومُ الخلاصِ

يا فرنسا مرّتْ عليك الليالي
كالحاتٍ بذلّةٍ وانتقاصِ
لم يُفِدْكِ العظاتُ في كل ما مرّ....
.....ذوقي القصاص بعد القصاصِ
في روابي العاصي غطاريفُ شمٌّ
كل نَدْبٍ منهم على الذل عاصِ
(الغطاريف جمع الغِطريف: السيد والنّدْبُ: الذي يُرجى لمهمات الأمور)
بادروك القتال في الموقف الضنـ....
....ـك وسدّوا منافذ الأقفاصِ

(٤)

وانشغل شعر الحامد بـ(فلسطين) في قصائد مستقلة، وفي أثناء قصائد أخرى في الموضوعات الحماسية.

وأنشد في (فلسطين) قبل النكبة لمناسبات مختلفة، وبعد النكبة أيضاً قصائد فيها أشعار واحد من أبناء القضية بحرارتها وقوتها وأهميتها في حياة الأمة.

وببراعة السياسي الوطني القومي وقلم الشاعر المتمكن اختزن الشاعر القضية الفلسطينية، واكتملت له عناصرها، وأدرك قبل النكبة بسنوات خطر الاحتلال المحدق، ودق طبول الخطر عن وعي وفهم ومسؤولية،

وممّا أنشده في الموضوع قصيدة مؤرخة في ١٩٣١م بمناسبة انعقاد المؤتمر الإسلامي في القدس لنصرة فلسطين وحمايتها من عقابيل سايكس بيكو ووعد بلفور وتدفق اليهود إلى فلسطين بتسهيل من الاحتلال البريطاني، قال متحسّراً على مجد العرب الذي رثّت ثيابه التي كانت جديدة قشيبة:[11]

لك الله من مجد تطامنَ بعدما
سمَتْ صعداً للنيّراتِ مكارمُهُ
أضرّتْ بك الأيامُ فانحطّ شامخ
أقيمت على الحق الصُراح دعائمهُ
فلم يبق إلا دارسٌ يستفزنا
إلى الدمع في ليل المصائب طاسمُهُ
كأنْ لم تكن للمسلمين مآثرٌ
تُهيب بهم والدهر يعبث ظالمُهُ
فيالك عيشاً أسود الوجه كالحاً
ويالك حظاً أرهقتنا مقاسِمُهُ

وبعد أبيات أخرى خاطب العرب والمسلمين يحثهم على النهضة، وتحمل المسؤولية:

بني عمنا حتّام نحيا أذلةً
ونصحب مضطرين من لا نلائمُهُ
لقد جمعتكم في فلسطين همة
فذودوا أذى صلّ غريبٍ نراغمُهُ

(الصلّ: الأفعى الخبيثة، فهو عدوّ بيننا وبينه صراع)

- إلى أن قال، يذكر الأقصى قلب القدس، والقدس هي قلب العرب:

حرامٌ علينا أن تذوق عيوننا
مناماً وأقصانا تُحَزُّ قوائمُهْ

- وكان صوتهُ عالياً، شديد النقد، حارّ الكلمة بعد أن أقيم للعدو كيان:

كم رسمنا للحرب نهجاً وجئنا
بقرار أعدّ ثم أذيعا
ثم لا شيء نحن دنيا جدالٍ
قد تخذنا الهوى لنا موضوعا!

- وفي القصيدة:

يا فلسطين أنت أندلس الدّم...
...ع سقاك الزمان سمّاً نقيعا!

- ويكثر هذا الشعر في ديوانه، وترتفع الشكوى مقرونة بالرأي، والملاحظة، ممزوجة بالحسرة:[١٢]

أحبس الآه بصدري ألماً
أيّ آه لي وقد كُمّ الفمُ؟
كنت بالأمس أغني مجدهم
فإذا المجد بهم منهزمُ!
يا فلسطين لك الذكرى ولي
مدمعٌ بعد النوى منسجمُ

إن بكى الرندي ثرى أندلسٍ
فلمغناك بشعري مأتمُ!

وصورة الأندلس الذاهبة في ذهن الشاعر ماثلة، وقد ردّد هذا في أكثر من موضع من قصائده التي مرّ فيها على هذه القضية.

وفي القصيدة كلام يطول على هذا الوتر:

أين؟ لا أين! قطيع سارحٌ
في البراري و«النشامى» نُوَمُ!

- والاستعراض يطول وأكتفي في آخر هذه الفقرة بإيراد بيتين من قصيدته: «في ذكرى التقسيم»[١٣]

كنا وكان لنا الزمان مواتياً
والعيش مكسواً ببردٍ أخضرِ

(قوله وكان العيش مكسواً ببرد أخضر كناية عن الخصب والعيش الرّغد، والأمان)

تهتز للمجد التليد أصالة
ونردّ كيد الطامع المستهترِ

(٥)

ولـ«الناس» وجود ظاهر في الديوان:

- بعض الأصحاب والمقربين، وبعض الأدباء وخاصة الشعراء؛

- ورجال بارزون من المجاهدين وذوي الشأن الذين كان لهم أثر في الحياة السياسية والاجتماعية ممّن يرضى الشاعر عنهم

- وأهل وأقارب جرى منهم، أو عليهم ما يوجب عليه القول فيهم من ثناء أو عناية أو رثاء.

وكانت قصائده في هذه الجوانب حادةً، مشمولة من الشاعر بالرعاية الفنية، ولم يوردها لأداء «واجب» أو تمرير مناسبة.

وقد جعل هذه القصائد موصولة بأسباب كثيرة من جوانب الحياة وقضاياها من الحياة والموت، والانغماس في الوطن وقضاياه، ومن بروز المآثر والخصائص التي تستأهل الإشارة والإشادة.

- ونقرأ له من قصيدة في الشيخ سعدي النعسان مفتي حماة، وهو يُدخل نفسه في أطراف الكلام:[١٤]

يا سيدي دنيا الحياة عجيبة
والمرء في مجرى الحوادث جانِ
وجه الهدى طلقٌ ولكن الهوى
يقتاد كل ممنّع بعنانِ
ذهب الشباب وليس ثمة رجعةٌ
والإثم يغمرنا إلى الأذقانِ

- وذكر خاله الشيخ سعيد الجابي وهو يرثيه، ونوّه بسماحة الدين، بعيداً عن التعقيد والتقعر[١٥]

يا باحثاً في ثنايا الكتب متخذاً
منها الدليل قتلت الدين تشديدا
الدّين سمح فهوّن ما عليك و دَعْ
ما زوّدوك وشذب منه ما زيدا

- ووجد في رثاء عبد القادر المغربي أحد أعضاء المجمع العلمي العربي فرصة للإشادة بثورة الجزائريين على الاستعمار الفرنسي:[١٦]

قُمْ تطلّعْ ففي الجزائر حربٌ
ما عليها إلا اليقين معينُ
عربٌ مؤمنون بالله يلقو.....
.....نَ اجتراماً ما سجّلته القرونُ
ويروحي شبابهم تتهاوى
والمنايا بوارزٌ وكمونُ

- ورثى البطريرك أفرام برصوم (بطريرك أنطاكية وسائر المشرق للسريان الأرثوذكس) بقصيدة ألقاها سنة ١٩٥٧م، منها قوله في آخرها (وهي قصيدة حسنة):[١٧]

نحن في الحزن والسرور سواء
في الميادين من علانا نجُولُ

أمـلٌ واحـدٌ وإرثٌ ثـقيل
سـوف نحميه والـزمانُ كفيلُ

– ورثى صديقه الكاتب المناضل الوطني أمين الكيلاني ووجد فرصة في الحديث عن المعلّم، وكان صديقه معلماً أيضاً وقد اشتكى الشـاعر أكثر من مرة في ديوانه من شـقاء المعلّم وجهده الكبير ودخله المحدود:[18]

لهف نفسي على المعلم يبلى
في مجال حبّ القلوب يُميتُ.!
يا رجال التعليم صبراً جميلاً
ما توالت أحادكم والسّبوتُ..

ويظهر لقارئ الديوان اتساع دائرة الرجال الذين كانت له معهم صداقة، وزمالة، والذين عرفهم من الهيئة الاجتماعية وكانت له بهم صـلات متنوعة. وكان الشعر «الاجتماعي» دليلاً على هذه السّعة من جهة وعلى طبيعة شخصيته في خلط نفسه بالناس، والائتلاف معهـم. وإظهـار تقديرهـم في مجاملاته، وألوان ثنائه أو رثائه أو تهنئته...

– وجمع كلمتـي الحب والمدح في قطعة نظمها لصديق موسيقي فنان قال فيه:[19]

رتّلت في حُبّيك أي نشيدي
ونظمتُ درّ مدائحي بعقودِ
«نعسان، أنت العبقرية جُسّدت
شتان بين الفن والتقليدِ!

(٦)

والباحث عن شخص الشاعر في ديوانه يجـد ملامحـه في معظم قصـائده، ويجد قصائد أفردها لقضـايا خاصّة به، نظمها ترويحاً عن بعض أحواله، وتنفيساً عن بعض همومه،وتسجيلاً لبعض مجريات حياته.

والشـاعر ممـن عاش حياة موصـولةً بأحداث الدنيا على أيامه:

– مارس التعليم، وهو ابن الفن والشـعر والموسيقى؛

– وتحمل أعباء أسرية منذ صـباه كما ذكر الجندي في ترجمته؛

– وانخرط في الحركة الوطنية بنفسـه وبشـعره وتعرّض لما يتعرض له الوطني في ظلال حكم الاستعمار الطاغي.

– وأصابته أحوال من فقد الولد، ومعاناة الحسد، والشـعور بالخيبة وقد قطع قطار العمر معظم محطّاته.

– وعانى من الفلاكة[20] كغيره من الأدباء والشعراء الذين ضاقت بهم الظروف.

وأقـف عنـد قطعـة بعنوان (شـكوى

العمل)[٢١] بدأها بعبارة مقتبسة من بيت لأبي الطيب، قال:

ومن نكد الأيام أني معلمٌ
تضيعُ بقيلٍ عيشتي وبقالِ
أجعجع ما بين الصغار كأنني
بعير كبير في مناخ فصالِ

(الفصال جمع فصيل: ولد الناقة. مشكلته أنه كبير بين هؤلاء الصغار فالمفارقة قائمة).

وحولي بمن جمع الصّغار أبالسٌ
أفاعيهم ما إن خطرنَ ببالِ
وقد مات قلبي منذ حين وبعده
حجاي تولى والجنون مآلي
أعيش كما عاش الوضيع بذلّة
ومَنْ هو دوني في المراتب عال
وأصعب ما يلقى المعلم أنه
لدى الناس مغمور المكانة بالِ!

فالقضية ليست في التعليم نفسه ولكنها في أنه لم يحصل على ما يستحق، ولننظر قوله «ومن هو دوني في المراتب عال»... وقد قال في قصيدة أخرى معظّماً عمل المعلم[٢٢]

معلم النشء على ضعفه
أرفع من كل الورى شانا
نحن رجال العلم لا نبتغي
على الهدى والبر شكرانا
الخير في الدنيا خبا نورهُ
لولا النبيون ولولانا!

وقد عقد الشاعر باباً من أبواب ديوانه بعنوان: اعتزال الشاعر السياسة، وما أظنه فعل ولكنه قدّم «كشف حساب» وهو ينظر إلى الماضي؛ فعرف الوقت والجهد الذي بذله في موضوع السياسة، و رأى أنه نأى به عن المهم، وهو الشعر[٢٣]

صاغني الله من غناءٍ وشعر
أنا غريدُ روضةٍ فوق غصْنِ
كيف أدليتُ في الحماقة دلوي
كيف هدّمت بالسياسة ركني؟

ويتبع ذلك من مراجعة حساب ما مضى قصيدة « ثورة نفس» [٢٤]

أصبحت لا آسى على فائتٍ
ولا أمنّي النفس بالمقبلِ...

وخاطب نفسه:

وفيتَ لا بل زدت حتى لقد
صرت محطّ القول في المهزلِ
فهل رعى حقك أربابهُ
أنت شجٍ والقلب منهم خَلي

بالله يا كاسي أنيري دجى
أقطعها في دهري المُمْحِلِ

وتاريخ القصيدة: ١٩٥٠م وهو في عزّ الكهولة.. وريعان العطاء..

ولكن الشاعر - وإن عتب على الدنيا (زماناً وناساً) أنه لم يجد نفسه في المكان اللائق به-استمرّ في النشيد، وترك نهر الشعر يجري في مجراه، ونقرأ له مخاطباً صديقه الشاعر رفيق فاخوري سنة ١٩٥٢م:

ألسنا هزارين ملء الرياض
سقتنا نطاف اللصاب شرابا

(اللصاب الأودية. والنطاف جمع النطفة الماء الصافي)

نغني فنطرب هذي البقاع
فتنساب نهراً وتهتزّ غابا

(٧)

بدر الدين الحامد أحد شعراء سورية الكبار. لم يُتح له من يدرسه دراسة واسعة موضوعية، وهو يستحق أن يضاف إلى كبار أعلام شعرائها. لقد امتلك الشاعر ناصية اللغة العربية، وتشبع بالثقافة العربية الأساسية، ونحا في النظم منحى تبع فيه ملكته الشعرية أولاً، واعتمد على سلاسته في تناول قضاياه وموضوعاته.

وديوان بدر الدين الحامد المطبوع بين أيدينا[٢٥] مثال على تراث شاعر أدرك أحداثاً خطيرة في القرن الماضي: الحرب الأولى، والانتداب الفرنسي، ونكبة فلسطين، ووقعة ميسلون مع البطل يوسف العظمة؛ ونعم برؤية الاستقلال وتجربة الوحدة (سورية ومصر) سنة ١٩٥٨م. إنه الشعر الذي اكتملت له عناصر الشعر العالي، والذي كان أيضاً صدى للأحداث. وديوانه من جهة أخرى متنفّس لبعض أحوال حياته وأسرته وأصحابه، وصدىً لذات الشاعر، الوطني المشارك من جهة والشاعر الإنسان من جهة أخرى.

شعر رقيق رائق، ينمّ عن شخصية صاحبه ورؤاه وأسلوبه وعواطفه وشواغل حياته.

وقد أحسن الزركلي حين وصفه في ترجمته[٣٦] فقال فيه: «بدر الدين بن محمود الحامد، شاعر من النوابغ».

الحواشي والإحالات

١- مقدمة أحمد الجندي على الديوان ص٥-٨، والأعلام ج٢: ص٤٦.

٢- مقدمة الديوان: ص٥. وفي مطالعة أحمد الجندي في دراسته للشاعر وشعره: إن الشاعر كان «مزدوج الشخصية» إن صح هذا القول، يمشي بين نقطتين بارزتين في حياته بيته الديني وأسرته التي أنقضت ظهره وطبعت شعره باللون الحزين الباكي، ومجلسه اليومي بين رفاقه الظرفاء وإخوانه الأدباء الذين نفحوا شعره بالخفة والطرافة، وطبعوه بطابع اللهو والمرح في كثير من الأحيان » ص٥.

وكان أحمد الجندي صديقاً للشاعر. وفي الديوان قصيدتان موجهتان إليه (الديوان ج٢: ص٤٧٤، ٤٧٦). وانظر في دراسة شعر الحامد :الأدب العربي المعاصر في سورية - سامي الكيالي: ص٣١٦ وشعراء سورية لأحمد الجندي: ص٩٨.

٣- مقدمة الديوان ص٧.

٤- ديوان بدر الدين الحامد: ٥٩٢.

٥- الديوان: ج١: ص١١٤. ولعلّ هذه الأبيات جزء باق من قصيدة طويلة.

٦- خالد الخطيب أحد المجاهدين، المناضلين ضد فرنسة توفي في عمّان، ونقل إلى سورية.

- وانظر دراسة حوله نشرت في مجلة المعرفة.

٧- الديوان ج١: ص١٢٢.

٨- صالح قنباز(١٣٠٣-١٣٤٤هـ ١٨٨٥-١٩٢٥م) طبيب نابغ من شهداء حرب الاستقلال في سورية، من أهل حماة. كان من أعضاء المجمع العلمي العربي بدمشق. وشارك في التعليم، ونظم الشعر وله مؤلفات. قصد إلى جريح لإسعافه فأصابه قناص فرنسي، وخر شهيداً.

٩- الديوان ج١: ص١٢٥.

١٠- الديوان ج١ ص٢١.

١١- الديوان ٢: ٣٣٨.

١٢- الديوان ٢: ٣٥٢ من قصيدة «شهداء فلسطين» وكان أعدّها لتلقى في حفلة للنادي العربي بدمشق سنة ١٩٥٠م.

١٣- الديوان ج٢ ص٣٥٧.

١٤- الديوان ج٢: ص٣٨٩.

١٥- الديوان ص٣٩٩.

١٦- الديوان: ص٤٠٧.

١٧- الديوان: ص٤٣٦.

١٨- الديوان: ص٤٤٧ - ٤٤٨.

١٩- الديوان: ص ٤٧٨.

٢٠- يُراجَع لهذا كتابٌ نفيس عنوانه (الفلاكة والمفلوكون) للدلجي. وهي كلمة من أصـل غير عربي، تشبه قول الناس فلان: فقير ومسكين بالمعنى المادي والمعنوي أو (معتّر) كما يقول أهل الشام في لسانهم.

٢١- الديوان ج٢: ص٥٢٢.

٢٢- الديوان ج٢: ص٤٦٥.

٢٣- الديوان ج٢: ص٣٦٥.

٢٤- الديوان ج٢: ص٣٦٧.

٢٥- لبدر الدين الحامد مسرحية شـعرية بعنوان (ميسـلون) صدرت سنة ١٩٤٦م طبعت في مطبعة أبي الفداء بحماة.

٢٦- الأعلام ج٢: ص٤٦.

أربعون سنة على رحيل سامي الكيالي (١٨٩٨ - ١٩٧٢م)

محمود محمد أسد*

الأديب سامي الكيالي من القامات الأدبية والاجتماعية والفكرية التي لم تتوان عن حبّ حلب، وتقديمها في أبهى صورة، عندما كان في معترك الحياة وإلى أن فارق الحياة. وهو زارعٌ محاصيلَه من الحبّ والفكر والأدب.

سامي الكيالي مولود في حلب عام ألف وثمانمئة وثمانية وتسعين /١٨٩٨م/ ومتوفّى عام ألف وتسعمئة واثنين وسبعين /١٩٧٢م/.

والده علي بن محمد الكيالي العالم، الفقيه ورجل العلم والدين، تلقّن الأبجديّة في الكتّاب، ثم دخل المدرسة السلطانيّة (ثانوية المأمون) حالياً ومنها حصل على الشهادة الثانوية، وحالت ظروف الحرب العالمية الأولى دون سفره إلى فرنسا لإكمال دراسته وقبل ذلك دخل مدرسة الألسن استعداداً للسفر.

كان إلى آخر حياته شعلة من العطاء والنشاط وكان محبّاً للأدب والتاريخ، وكتبُه ومحاضراتُه المنشورة تشهد على علوِّ كعبه في هذا الخضمِّ من البحث.

شغل العديدَ من المواقع الوظيفيّة، وأوكلتْ إليه العديدُ من المهام، فكان أمين السرّ لبلدية حلب مدّة ربع قرن ومن بعدها مفتّشاً إدارياً لبلديات المنطقة الشمالية، وعُيّن مديراً لدار الكتب الوطنية خلفاً للشاعر عمر أبو ريشة عام /١٩٤٩م/ ألف وتسعمئة وتسعة وأربعين ومديراً للمركز الثقافي والثقافة عام /١٩٥٩م/ ألف وتسعمئة وتسعة وخمسين وكان مستشاراً ثقافياً للوفد السوري في اليونسكو وكان عضواً في مجمع

* أديب وناقد وشاعر سوري.

اللغة العربية بالقاهرة ومحاضراً في معهد الدراسات العربية العليا في القاهرة، وأصبح عضواً في المجلس الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية في مصر أيام الوحدة بين سورية ومصر.

محطات وملامح عامة:

في مسار حياته الممتدّ كان سامي الكيالي مثالاً للتجديد وتقبّل الحوار وتبنّي أفكار الآخرين إن كانت تبعث الحياة والنشاط، فهو عدوّ الكسل والرّكون إلى الثابت. وهناك محطّات عايشها تثبت ذلك. في إدارته لدار الكتب الوطنيّة أثبت علوّ كعبه وقدرته على استقطاب المفكّرين والأدباء، وجعل من حلب مركز إشعاع عندما استقبل طه حسين وبنت الشاطئ والمازني والأخطل الصغير وخليل مطران وميخائيل نعيمة وأحمد أمين وعبّاس محمود العقاد، وحضن العديد من الندوات والمهرجانات في هذه الفترة فأقبل المثقّفون ومحبّو الأدب والفكر لينهلوا من هذه الأيام الثقافية، ولا ننسى أنّ سامي الكيالي ألقى كلمة في افتتاح دار الكتب الوطنية الذي صادف ظهر الأربعاء /١٩٤٥/١٢/٥م/. وذلك في حفل ومهرجان كبير ألقاها بوصفه أميناً عاماً لبلدية حلب، وقد أشاد بالجهود المبذولة. وإضافة إليه ألقى كلمته الشيخ يونس رشدي أمين دار الكتب منذ تأسيسها /١٩٤٤م/ وألقى الشاعر عمر أبو ريشة قصيدة من سبعين بيتاً مطلعها:

ما صحا بعد من خمار زمانه
فليُرفّهْ بالشّدوِ عن أشجانه

وختمها:

أمّتي فيا لشراع
يتلقى العُباب في هيجانه
علّمته الأنواءُ أن يزدريها
ويجرّ المرساة في شطآنه

وبعد ذلك ألقى الأمير مصطفى الشهابي كلمته وكان محافظاً لمدينة حلب. وفي مجال السفر كان نشيطاً ومنتجاً فقد زار عام /١٩٣٥م/ فرنسا وانكلترا وسويسرا وإيطاليا وجمع ذكرياته وانطباعاته في كتاب «شهر في أوروبا» فيه مزيج من أدب الرحلات والسيرة الذاتية المحمّلة بالتجربة والفكر. وهذا جانب يشهد له بأنّه لا يضيّع فرصة من دون إنتاج ما يناسبها، وله كتاب في الرحلات أيضاً «في الربوع الأندلسية» وهذا حاله مع بعض كتبه التي ألقاها كمحاضرات، محاضرات في الحركة الأدبية في حلب، وقد وجدتُ صعوبة بالعثور عليه مع كثير من كتبه. ومحاضرات الأدب العربي المعاصر في سورية.

وأهم محطة في حياته إصدار مجلة «الحديث» التي استمرّت من عام /١٩٢٧ - ١٩٦٠م/ والتي أضافتْ إضافة رائعة

وجديدة إلى الصحافة الأدبية، وكانت محطّ الأفكار والعقول، واستقطبت الكثير من المفكرين العرب، ولعبت دوراً في تقبّل التجديد والفكر التنويري الذي حمله الدكتور طه حسين صاحب كتاب «في الشعر الجاهلي» ومصطفى عبد الرزاق صاحب كتاب «أصول الحكم في الإسلام» فتبنّت المجلةُ واقعَ حرية الفكر وكرامة الإنسان وحقوق المرأة ومقاصد الأدب ورسالته.

فالكيالي رجل يدعو إلى الحريّة، في الوقت الذي كان يناهضه، ويقف في وجهه الكثيرون ممّن وصموه بصفات متعدّدة، لأنه كان يعي التجديد، ويدرك مخاطر الجمود عن قرب. فالحياة عنده خَلق واستنباط، ولا يقبل تلك البدع الغربية المضللة والغادرة باللغة العربية الفصيحة.

وقد أشاد بالمبدعين المجدّدين في محاضراته ودراساته، وأقبل على دراستهم، والإشادة بتجاربهم. تراه أمامك مؤمناً برسالة الفكر والكلمة مما دفعه إلى مطالبة بإنصاف المرأة ورعاية شؤونها بما يكفل حقّها الإنساني، ويُبعد عنها الجَور، وهذا ما دعاه إلى إنشاء مجلّته «الحديث» ودعوة رجال الفكر والأدب والإصلاح مثل: الدكتور طه حسين والدكتور محمد حسنين هيكل والشاعر الدكتور إبراهيم ناجي وبنت الشاطئ والمازني وأحمد أمين والرافعي وأحمد شوقي وأمين الريحاني وإيليا أبو ماضي ومن سورية حضنت علي الناصر وعمر أبو ريشة وسامي الدهان ومحمد يحيى الهاشمي وشفيق جبري وكامل عياد وعمر يحيى..»

وهذا كاف لتحريك الذين استسلموا للموت والرقودُ ولم يتجاوزوا ذاتهم المتفحّمة. فراحوا يشكون ويتذمّرون ويدسّون الدّسائس لإيقاظ العقول الجاهلة، فتشتد المعركة بين الجبهتين، وقد لقيت المجلة من يناصرُها من الشباب، ومن أصحاب العقول النيّرة، وتوقّف نبضُها، وجمدتْ حروف مطبعتها بعد قرار حكومي، ونال الأعداء مبتغاهم، وراحوا يطالبون بإعدام صاحبها بعد إعدام مجلته، وطرده من وظيفته التي كان يشغل فيها «الأمين العام لبلدية حلب».

استمرّت مجلة الحديث ثلاثة وثلاثين عاماً متواصلة، وكان الكيالي شديد الصلة بها، وقويّ الحب لمن يتواصل معه، وتوقفت عام ١٩٦٠م/ بعد أن صدر منها اثنان وثلاثون مجلداً. توقفت استجابة لقرار إلغاء المطبوعات السائد قبل قيام الجمهورية العربية المتحدة، وكانت موضع دراسة لنيل شهادة الماجستير التي قدّمها «حبيب سيقلي» وأشرف عليها جبرائيل جبور، في كلية التربية – الجامعة اللبنانية وموضوعها «فهرست مجلة الحديث» ونال الباحث الألماني

ماتفرد سينغ شهادة الماجستير عن سامي الكيالي ومجلة الحديث باللغة الألمانية، وقد حظيت مجلة الحديث وبعد توقفها بكلمة تقدير ووفاء واعتراف بالفضل من رجال العلم وصاحب الضاد عبد الله يوركي حلاق وقد وردت كلمته في كتابه من أعلام العرب في القومية والأدب /١٩٧٨م/.

وبالمناسبة يلتقي الكيالي والحلاق على حبّ الثقافة والأدب والصحافة وحبّ حلب، وعلى حبّ مجلتهما. وقد لعبا دوراً كبيراً في تفعيل المشهد الثقافي وربطه خارج حدود الوطن مع المهجر ولبنان ومصر، وهذه محطة افتقدتْها حلب مع توقّف مجلة الحديث، واستمرت إلى الآن مع الضاد المستمرّة برعاية رياض عبد الله حلاق.

ويجب ألا يغيبَ عن بالنا استمرار الأديب سامي الكيالي بالتأليف والكتابة، رغم توقف المجلّة، لأنه اتّجه إلى إلقاء المحاضرات والتأليف والبحث.

ومن المحطات المضيئة في فترة وظيفته وهو مُستلم الأمانة العامة للبلدية تسميتُه الشّوارع بأسماء الأعلام من مفكّري الأمة العربية شعراء وأدباء ومناضلين أمثال فارس الخوري وأمين الريحاني والزهاوي والمتنبي وجبران خليل جبران ومي زيادة وهدى شعراوي وغيرهم.

وكان الكيالي متنوّع الأشكال الأدبية، فكتب الحديث الإذاعي والمقالة الصحفيّة والقصة، وبدأ شاعراً وله العديد من القصائد الشعرية الرقيقة بأسلوبها والشفّافة بمضامينها. بدأ الشّعرَ مع مطلع الاستقلال عن الدولة العثمانية مادحاً الملك فيصل الذي جاء حلب، واستُقبِل فيها بحفاوة بالغة:

ألا ابتهجوا وحيّوا ذا الفرندا
وحيّوا الجيش والوطن المفدّى
وحيّوا رايةً خفقتْ بعزٍّ
ومجداً قد أعادَ اليوم خلدا

وهناك نماذج من شعره نشرت في مجلة الشعلة ومنها موشح «اذكريني»

اذكريني قبل فوت الزمنِ
قبل أن تذهب أيّام الصبا
واذكريني قبل لبس الكفنِ
قبل أن أقضي وأمضي كالهبا

* * *

اذكري عيشاً مضى مثل المنام
وفؤاداً قد أذابته الغيَرْ
واذكريني ما بدا منك ابتسام
واذكري قلباً به الحبُّ ازدهرْ
ليت شعري هل لأيّام الوئام
رجعةٌ تقضي بها أحلى وطر؟

* * *

آهِ فالذكرى أثارت شجني
ورمتْ قلبي بسهم أنشبا

وزفـــيرُ الحـــبِّ أبـلـــى بـدني
ولــوى عــزمي، وأذكـــى اللهبا

ويذكـر عبد الله يوركي حـلاق أن هذا الموشّح في الأصل قصيدة للشاعر الفرنسي «ألفريد دي موسه». وقد عرّبه غير قليل من الشعراء العرب.

وللكيّالي قصيدة عنوانها «مناجاة الشرق» جاءت في أربعة وعشريـن بيتاً وفيها يتغنّى الشاعر بوطنه ومفاتنه وفضله ومنها:

وطني لئن قاسوك بالدّنيا وبال
ماس النفيس لفزت بالرجحان
وطني العزيز فدتك روحي، كلما
هبَّ النّسيمُ على غصون البان
وطنـي وقـاك الله كـل رزيـئـة
وأهـان أهـل البغي والعـدوان

فالأبيات تقدّم شـاعراً متوثّباً وجامحاً، تنتظره الانطلاقة، ولكنّه غدر بالشـعر أو أدرك إمكاناته أمام قامات شعريّة في عصره، فالتفت إلى أصـناف أخرى من التعبير التي وجد فيها نفسَه التوّاقة.

وكان تواقـاً للوحـدة العربيـة عقيـدة واقتناعاً، ولم يعترفْ بالانفصال، ولم يخطب ودّ أهلـه، ورفض المنصب الرفيع وحزن عميقاً على فراق الرئيس جمال عبد الناصر وقال: «**لا نستطيع أن نفعل شيئاً، فلاأقلّ من أن نسكب ذوبَ قلوبنا على من بذل قلبه في سبيل أمته وبلاده**».

وكتابه «الأدب والقومية في سورية» وهو محاضرات لطلبة قسـم البحوث والدراسات الأدبية واللغويـة ،يقدّمه لنا رجـلاً قومياً مؤمنـاً بالوحـدة والعروبة ولي عـودة إلى الكتاب.

سامي الكيالي المؤلف:

ترك سـامي الكيـالي أكثر من خمسـة وعشرين كتاباً متنوعة الأغراض، وبعضـها طُبع أكثر من مرّة، وبعضـها قد طبعته دار المعـارف وغيرهـا في مصر. وقـد حظيتْ بمقدّمات أدباء ومفكرين يُشهد لهم بالوعي والنضـوج. وهي مؤلّفات مازالت متداولة، وبعضها أصبح مفقوداً كتاب «الحركة الأدبية في حلب» و«الحركة الأدبية في سورية» حبذا طباعتها من جديد.

يذكر الشـاعر عبـد الله يوركي حلاق وهو صـديق الكيالي ومرافقه ومشاركه في مؤتمـرات ونـدوات عدّة، يذكـر أن هناك مؤلّفات لم تطبـع بعد وهي «مع أبي العلاء» و«مـع المؤلفين العرب في القـرن العشرين» وهناك دراسة عن ابن القارح، و«مع الشعراء المعاصريـن» و«رسـائل أدبيـة» و«رحلة إلى رحاب الرحمن».

وأوّل كتـاب له رأى النـور «نظرات في التاريخ والنقد والأدب» وقد طبع في القاهرة /١٩٢٧م/.

وعرف عنه حبُّه للصـحافة مبكّراً، فقد

كان يراسل الصحف الأدبية في حلب وبيروت ومصر «جريدة السياسة المصرية» والصباح الحلبية، وبدأ النشر بأسماء مستعارة أيام الانتداب الفرنسي، لأنه موظف والسلطة لا تسمح لموظف بالعمل في الصحافة وله في مجلة المعرفة السوريّة مقالات منشورة عدة منها «شكيب أرسلان أمير البيان» العدد /٧٥/ وأبو عامر بن شهيد /٦٤/ وتجديد رسالة الغفران /٥٠/ ولألاء القمر /٤٦/ وأديب حلبي العدد /١٣/ ومضات من تاريخ العرب /٢٦/ والشاعر المهجري شفيق معلوف /٤٠/ وللكيالي قصص ترجمها عن التركية تحت عنوان «أنواء وأضواء» دار المعارف القاهرة /١٩٤٧م/ وقصّة بنت يزيد معرّبة عن التركية، سلسلة اقرأ دار المعارف القاهرة /١٩٥٥م/.

وهذه قائمة بكتبه:

١- سيف الدولة وعصر الحمدانيين - المطبعة الحديثة حلب /١٩٣٥م/ وطبعة ثانية دار المعارف /١٩٥٩م/.

٢- أبو العلاء: دفاع ابن العديم عنه القاهرة /١٩٤٥م/.

٣- الراحلون: مطبعة الاتحاد مصر.

٤- المرأة هذا اللغز الأبدي حلب /١٩٤٧م/.

٥- مع طه حسين، جزءان دار المعارف سلسلة اقرأ، مصر /١٩٥٢-١٩٦٨م/.

٦- من الأدب المعاصر: مطابع الحديث حلب /١٩٥٧م/.

٧- صراع في سبيل القومية العربية - مطبعة الشرق - حلب /١٩٥٩م/

٨- ولي الدين يكن - دار المعارف مصر /١٩٦٠م/.

٩- الحركة الأدبية في حلب - معهد الدراسات العربية العالية القاهرة /١٩٥٧م/.

١٠- الأدب العربي المعاصر في سورية - دار المعارف - مصر /١٩٥٩م/ وطبعة ثانية /١٩٦٨م/.

١١- خمر وشعر دراسة عن الخمريات دار الرائد حلب /١٩٦٢م/.

١٢- في الربوع الأندلسية - مطبعة الشرق حلب /١٩٦٢م/.

١٣- الحكيم شهاب الدين السهروردي - دار المعارف - بيروت /١٩٦٦م/.

١٤- سلسلة نوابغ الفكر العربي - القاهرة /١٩٦٦م/.

١٥- الأدب والقومية في سوريا - معهد البحوث والدراسات العربية القاهرة /١٩٦٩م/.

١٦- شهر في أوروبا - انطباعات عن رحلته إلى فرنسا وانكلترا وسويسرا وإيطاليا /١٩٣٥م/.

١٧- الفكر العربي بين ماضيه وحاضره

- دار المعارف القاهرة.

١٨- أنواء وأضواء - مجموعة قصص عاطفية واجتماعية - وهي مترجمة عن التركية دار المعارف القاهرة /١٩٤٧م/.

١٩- من أضواء الماضي - مباحث تاريخية - سلسلة اقرأ /١٩٥٠م/.

٢٠- بنت يزيد - قصة معربة عن الكاتب التركي رفيق خالد - سلسلة اقرأ /١٩٥٥م/.

٢١- يوميات عربي في أمريكا - مطبعة الأنجلو المصرية - القاهرة /١٩٥٩م/.

٢٢- أمين الريحاني - دراسة عن أدبه ومؤلفاته وخصائص فلسفته.

٢٣- النفس الإنسانية في أدب الجاحظ - دار المعارف /١٩٦٠م/.

٢٤- من خيوط الحياة - مطبعة منجد - حلب /١٩٦٢م/.

٢٥- نظرات في التاريخ والنقد والأدب وهو باكورة إنتاجه الأدبي كما ذكرنا سابقاً- القاهرة /١٩٢٧م/.

هذه الكتب وما فيها من تنوع فكري وأدبي، وعبر مسيرة طويلة أولها طبع عام /١٩٢٧م/ وآخرها /١٩٦٩م/ وانتشارها في مصر والدول العربية، وقد حضنت مصر أغلب منشوراته وهذا دليل على مكانته الأدبية .

والتجوّل في مداخل الكتب وتقليب صفحاتها يبعث فينا التعب الذي نقدّره في شخص الكيالي الذي تراه كالنحل يتنقّل من زهرة إلى زهرة، ويعطي جنى فكره وعصارته بحبّ، وسأكتفي بالإشارة إلى بعض كتبه التي توافرت لي لأنني وجدت صعوبة في الاطلاع عليها والوصول إليها وقد نفدت من المكتبات واستهلكت لكثرة استخدام بعضها فمن الضروري العودة إليها مطبوعة من جديد. ولكن الدراسة لا تحتمل الإسهابَ وسوف أشيرُ إشاراتٍ سريعةً.

كتاب «الأدب العربي المعاصر في سورية» من /١٨٥٠-١٩٥٠م/ إصدار دار المعارف في مصر /١٩٦٨م/:

وقدم له الدكتور طه حسين قائلاً: «هذا كتاب أقلّ ما يمكن أن أقول فيه: إنّه رائع كل الروعة، ممتع أحسن الإمتاع، شعرتُ بهذا منذ بدأتُ قراءته إلى أن فرغت منه. وما أرى أنني أبلغ من إجادة تقديمي له ما بلغه الأستاذ الجليل شفيق جبري».

والأستاذ الشاعر شفيق جبري يقول في مقدمة الكتاب:

«لم أقرأ في الأدب العربي المعاصر في سورية تراجم جامدة، وإنما رأيت من وراء هذه التراجم تاريخاً ناطقاً، كأن القارئ يعاشر رجاله، ويخالط كتّابه وشعراءه وأصحاب الفكر فيه. لم يصور الأستاذ سامي الكيالي عصراً وحده، ولم يدوّن عوامل وحدها وإنما

صوّر رجالاً خلقوا تاريخاً وأدباً أنشأ أمة، وفكراً، غرس حرية..»

هذه الجمل التي فيها شيء من الإطراء والتطريز، وأشياء من المنطقية الفنيّة بالأحكام النقدية، برهانها في الدراسات التي استغرقت /٤٦٤/ صفحة. والكتاب ترجمة لشعراء سورية عبر مئة عام /١٨٥٠-١٩٥٠م/ وفي فترة عصيبة وهامة وحافلة بالمستجدات والمنغّصات ورسم الخارطة وقدوم الجديد، قدّم له بمدخل نقديّ هام استهلك /٣٣/ صفحة مكتنزةً بالرؤى والرؤية، وقدّم نفسه باحثاً مُطّلعاً. وكان عنوان المدخل (الحركة الأدبية في سورية) وهو عنوان الكتاب. وما تبقى كان دراسات عن ثمانية وخمسين أديباً على مختلف ميولهم ومدارسهم وفنونهم، وهذا يدلّ على اتساع أفقه وروحه المتفتّحة عندما جمع لأكثر من جيل على مستوى السنّ، وعلى مستوى التجربة. وأنهى الكتاب بكلمة ختاميّة. وضع فيها المنهج، وقد وردت في الطبعة الثانية من الكتاب ولم تكن موجودة في الطبعة الأولى.

في الكتاب تعريف ونقد لتجارب الشيوخ والشباب المعروفين والمغمورين فيقول:

«فأنت تقرأ اليوم لشباب مغمورين، ليس لديهم هذا الدويّ في مملكة الألقاب الخاوية: تقرأ أدباً تتدفق النضارة والحيوية من كلماته. يجمع بين رشاقة الأسلوب وأناقة الفكر إلى تجاوب عميق مع الأحداث التي تواجه الإنسان العربي في شتى مشاكله القومية والإنسانية..».

بأسلوبه الرشيق ورؤيته الواضحة الجلية ينبئ عن حس نقدي وحدسي بشّر ببروز قامات كبيرة وكان منهجه يقوم على التعريف بالمدروس ومكوناته وثقافته ونتاجه، ويختار من نتاجه ما هو الأجمل والمعبر. وأهمية الكتاب في الحديث النقدي عن الحركة الأدبية في سورية ومسارها وما أحاط بها من ظروف مؤثرة.

كتاب «الأدب والقومية في سورية»:

والكتاب من منشورات معهد البحوث والدراسات العربية.. وطبع في مطبعة الجبلاوي عام /١٩٦٩م/ وصفحاته /٣١٨/ صفحة.

والمؤلّف يتوجّه إلى ربط الأدب بالجانب القومي وتحديداً في سورية، وهذا له مدلولاته وأهميته في مرحلة النهوض القومي في الخمسينيّات والستينيات من القرن الماضي، ويبسط بالتمهيد بعض المواقف تاريخياً، ويتوقّف عند التيارات السياسية والاجتماعية المنطلقة من سورية. ومن ثمّ هناك بحث عن دور الشعراء في فجر النضال القومي، ويربط ذلك باهتمام الشعراء والأدباء وسعيهم إلى ربط مقولاتهم

وأفكارهم بالوجدان القومي للإنسان العربي، وحامل ذلك شواهد عديدة من الشعر الخطابي الذي واكب الدعوة وحركة النهوض: إبراهيم اليازجي:

تنبّهوا واستفيقوا أيّها العرب
فقد طمى الخطبُ حتى غاصت الركبُ
فشمّروا وانهضوا للأمر وابتدروا
من دهركم فرصة ضنّت بها الحقبُ

والكتاب غني بالشواهد والقصائد للشيخ يوسف النبهان، ورزق الله حسّون، ونجيب العازوري. والمفكر الكواكبي والشاعر سعيد باشا شقير وفارس الخوري وغيرهم.

وتكمن قيمة الكتاب بتبسيط هذا المنحى وحسن التوجّه في مرحلة هامة وساخنة ومستيقظة من جديد.. فيُحدّد مفهوم القومية ودلالاتها ومظاهرها، ويثني على شعراء سورية الذين واكبوا القضايا القومية وتغنوا بها فيقول:

«وللشعر السوري ألوانه المتعدّدة، إلا أن أقوى ألوانه الصارخة المتميزة منذ فجر النهضة العربية هو اللون القومي.. ولعل أبرز شعراء الشام الذين أعطوا هذه الناحية الكثير من شعورهم المتّقد» البزم والزركلي ومردم وجبري وبدوي الجبل وبدر الدين الحامد وعمر يحى، وأبو ريشة وغيرهم..

وكان لكل واحد لونه وطريقته، وكلّهم ينهلون من منابع الشعر العربي القديم، فثقافة أكثرهم ثقافة عربية أصيلة، إلى تأثر بعضهم بثقافة الغرب. ألم يقولوا سابقاً: كتابة المرء وتعبيراته صورة عن نفسه، وإن الكتابة تشي عن شخصية صاحبها.. فهذا الكمّ والتنوع من الكتابة والتأليف حبّب الناس به، ودفع الأدباء للتعبير عن حزنهم وألمهم عند وفاته.

كتاب الحركة الأدبية في حلب ١٨٠٠ - ١٩٥٠عام ١٩٥٦م

هذا الكتاب من أهمّ كتبه، ومن أهمّ الكتب التي تتناول الحركة الأدبية في حلب، وفي فترة طويلة ومهمّة استغرقت قرناً ونصف القرن هي فترة واكبتها، وأعقبتها أحداث جسيمة لعبت دوراً في رسم مسار المنطقة وتحديد خارطتها، ورسمت توجّهاتها من نهاية الرجل المريض إلى الحربين العالميتين وبدايه عهد الاستقلال، ويضاف إليها المتغيّرات السياسية والاقتصادية والاجتماعية. ولحلب حصّة الأسد مما جرى فتأثّرت، وتغيّرت علاقاتٌ ومفاهيم، لم يكن الأدب فيها محايداً. وجاء الكتاب بعد أن قويت شوكته، واشتدّ عوده اكتساباً للمعرفة ومرونة بالبحث، وتبسيطاً بالإيصال والكتاب جاء في مئتين وخمس وخمسين صفحة، وبين تاريخ الكتاب الأوّل عام ١٩٢٧م والكتاب المذكور عام ١٩٥٦م ثلاثة عقود منحت الكيّالي ثقةً، وخبرة ودرايةً. وقد وجدت

صعوبة في العثور على الكتاب فصوّرته، وأخذت أبحث ما فيه من ثروة معرفية حول الأدب في حلب وأعلامه. والكتاب مرجع للدارسين، ولا غنى عنه في مرحلته تضمّن مدخلاً هامّاً، تحدّث عن حلب جغرافيّاً وطبيعياً واجتماعياً وتاريخيّاً وبلغة مكثّفة تفي بالغرض المنشود، وتناول الأدب في عصر الانحطاط مبيّناً خصائصه وطابعه، وبذلك أعد العدّة للدخول إلى ما سمّاه المؤلّف بـ«الأدب المعاصر» بسط باختصار وترجم لأعلامه وهم «رزق الله حسون وجبرائيل دلال وعبد الرحمن الكواكبي وأبو الهدى الصيّادي وآل المرّاش» تناولهم دراسة وترجمة وأتبعها بالاختيار لبعض نتاجهم، وبذلك يكون قد أحاط بسِمَة المرحلة، وبعد ذلك انتقل إلى المرحلة الثانية وسمّاها نهاية مرحلة «ويقصد بها العهد العثماني» وترجم على الأسلوب نفسه للأدباء «بشير الغزّي وكامل الغزّي وميخائيل الصقّال وراغب الطباخ وعبد المسيح الأنطاكي وقسطاكي الحمصي وإبراهيم صالح الكيّالي وبدر الدين النعساني وشكري كنيدر» وتناول دور النهوض لهذا الدور الهام على المستوى الصحفي وبحث بموضوع الصّحافة من بداياتها ورجالاتها. والقسم الثالث سمّاه «بين قوّتين» ويقصد بهما القديم والجديد، وما طرأ من مستجدّات راحت تبرز على الحياة الثقافية والاجتماعية بداعي المؤثّرات الوافدة التي أوجدت حالة صراع وتنافس، وفي هذا حراك وفائدة وترجم بعدها للأدباء «علي الناصر وعمر أبو ريشة وخليل الهنداوي وأورخان ميسّر وشارل الخوري ومصطفى البدوي وعبد الرحمن أبو قوس وسليمان العيسى» وعرّج بإيجاز على ذكر «محمد شعبان الصوفي وعمر بهاء الأميري وعمر أبو قوس وعبد الله يوركي حلاق».

الكتاب يبرز ذوق وتفهّم ودراية المؤلف بالتقاطه بعض الجوانب الإبداعية والتي لا يراها المتابع إلا في هذا الكتاب لضياع أعمال أغلب المترجم لهم. ولم يهمل البحث عن القصة وأعلامها في هذا التاريخ فذكر بالحديث الموجز شكيب الجابري ورواياته وكذلك مظفّر سلطان وما ينحو في قصصه من تصوير للنماذج البشرية وتوقّف عند القاص فاضل السباعي وعند جورج طرابيشي وختم الكتاب بالحديث عن الحركة النقدية الناهضة. يبقى الكتاب مصدراً رئيساً للباحثين للحركة في بلاد الشام عامة وحلب خاصّة.

آخر الرحيل وأوّل الابتداء

توفي مساء الخميس ١٩٧٢/٢/١٧م، وكان لوفاته وقع حزين، وألم فاض قريحة ودمعاً وأدباً. فأقامت له حلب حفل تأبين رسمي يوم الخميس ١٩٧٢/٥/٤م. ترك

عميق الأسى والأثر في النفوس وقد خصه الشاعر المرحوم عبد الله يوركي حلاق صاحب الضاد بعدد خاص وهذا دأبه مع الراحلين الذين فاضت قرائحهم عطاءً وحباً.

صدر عدد الضاد الخاص ككتاب عن أشهر أيلول وتشرين الأول والثاني وكانون الأول /١٩٧٢م/ وعنوانه (في هيكل الذكرى) وفيه القصائد والكلمات والرسائل والبرقيات التي عبرت عن الحزن ومرارة اللوعة. والعدد يعتبر مرجعاً أساسياً لدراسة المرحوم سامي الكيالي الذي غفل الناس من بعد ذلك عن ذكره سوى باسم شارع ومدرسة.

هذا العدد الخاص ساهم فيه أدباء عرب لهم مكانتهم وسمعتهم الأدبية، وهذا رد على من يتجاهل حق المبدعين، وافتتاح العدد مع الكلمة التي قالها الأديب خليل هنداوي على ضريح الفقيد الكيالي ومنها:

«لقد فقدت الرجل الذي نشأ عصامياً، جمع بين شغفه بالأدب وعمله في الوظيفة.. وأعطى ذلك الإنتاج الغزير الذي أراد أن يخدم به الحقيقة، وينصف الأموات والأحياء..

أحبّ مدينته، وآثارها، واستحيا أمجادها وآثارها، ولم يتنكر لها..

وهناك القصيدة التي ألقيت على ضريحه وهي لصديقه عبد الله يوركي حلاق منها:

كنتَ روحي، وكنت أغلى الغوالي
كيف يا «سامي» فرّقتنا الليالي
كنتَ في مقلتي ضياء ونجوى
في ضميري ووثبةً في خيالي
لم يمتْ صاحبُ الحديث، ولكن
آثرَ النوم بعد طول النضال
راحة المرء في الحياة مُحال
ودوائم الحياة كل المحال

شهادات في الأديب سامي الكيالي:

خليل هنداوي:

«إننا لا نستطيع أن نقيّم أدب سامي الكيالي، إلا بعد أن نعود القهقرى إلى تلك الأيام التي لمع فيها نجمه وظهر أدبه في مدى العشرينيات، في تلك الأيام حيث كان الأدب صامتاً في هذا البلد، والفكر خامداً لا يحفل به أحد» مجلة الضاد العدد الخاص.

عبد الرزاق الهلالي «العراق»:

«نعم يا أبا إحسان.. لقد أسرجت قلبك لسواك، مذ حملتَ اليراع، وسرت في طليعة الركب توقظ النيام وتستنهض الهمم، وتلفت نظر الجيل الطالع إلى ما في سجل هذه الأمة من المفاخر والمحامد والأمجاد، فكان قلمك السيّال خيرَ معبِّر عن أمانيها وأصدق مترجم عن أهدافها ومراميها، وكنت مع

إخوتك حملة مشعل الفكر وإرادة التجديد والتحرر» الضاد العدد الخاص.

محمد تيمور «مصر»:

«والحق أنّ مجلة الحديث كانت في ذلك العهد ذات طابع خاص بين المجلات العربية.. كانت منارة الطليعة ورمز التجديد، وكانت لسان صدق في الدعوة إلى التطور الفكري والأدبي ومجاراة روح العصر في مذاهبه وأنماطه..» الضاد العدد الخاص.

الدكتور عمر الدقاق:

«لو قدِّر لأحجار هذه الدار (دار الكتب) أن تنطق لتاهت بما كان لها من مجد أدبيٍّ زاهر، رفلت به هذه المدينة العريقة، وغمر سناه هذا القطر العربي حقبة مشرقة من الزمان، حين دفق سامي الكيالي في هذه الدار من حيويّته وإخلاصه نسغ حياة ثقافية ناشطة، وبعثَ في هذا البلد نهضة أدبية شاملة، لم تشهد لها حلب مثيلاً منذ ألف من السنين. وكأنّ أيام سيف الدولة قد بعثت وكأنّ الزمان قد دار دورته..» مجلة الضاد العدد الخاص.

فوزي الكيالي «وزير الثقافة»:

«لقد احتضنتْ مجلة الحديث ثورة طه حسين على الأدب الجاهلي، ونشرت آراءَه، وبشّرت بعقلانيته الديكارتية قبل أن تحتضنها وتنشرها بلدُه مصر. وكان من نتيجة ذلك أن لقي الراحل الكريم أذىً غير قليل، فتنادى بعضُ الناس الجاحدين للمطالبة بإلغاء مجلة الحديث، وطرد صاحبها من وظيفته، وزاد بعضهم غلوّاً، فطالب بإعدامه. وصمد الرجل المفكر والمثقف الأصيل، وصبر كما ينبغي أن يصمد كل المفكرين وأن يصبر كل المثقفين لكي يستطيعوا قيادة شعوبهم وتحريك مجتمعاتهم..» مجلة الضاد العدد الخاص.

بوح القوافي

من قصيدة ناثر الجمان لعبد الله يوركي حلاق /العدد الخاص/:

قم للخطابة أنت أبلغُ من خطبْ
وأجِلْ من نثر الجمان إذا كتب
قم طمئن الحفلَ المكبّل بالأسى
قم شنِّف الأسماع إنك في حلب
من كان مثلك ليس يُسكتُه الرّدى
لكن ينام ليستريح من التعب
أفنيت عمرك ناسجاً حلل النُّهى
وبذلتَ نفسك للعروبة والعربْ
لم تهوَ غير العلم وهو أجلُّ ما
طلب اللبيبُ من الحياة وما أحب

ويقول عبد الرحيم الحصني:

شهباءُ عمِّدَت شعري بالجراح وما
أزالُ بين يديك القاصرَ التعبا
بالأمس زرتك مزهوّاً على دعة
واليوم عدتُ أصبُّ الدمع مختضبا

مالت بشاشةُ سامي عنك، وانكفأت
مواسمُ الحرف، والعهد الذي حُليا
سلي البيانَ هلِ اهتزَّتْ جوانحه
يوماً لأفجع من يوم الرّحيل نبا
يا ساميَ الرأي والعرفانِ ما عرفتْ
دنيا البلاغة أوفى من حماك إبا
ما مات من تركَ الذِّكرَ الجميل، وما
أراد غير بقاء الحمد مكتسبا

وقال في أديب الشهباء سامي الكيالي الشاعر الحلبي الأصل عادل غضبان:

أديبُكِ يا شهباءُ قد ضمّه اللحدُ
فلا قلمٌ ردَّ الحِمامَ ولا زندُ
مضى الخِلُّ، لم يخلفْ مدى العمرِ عهدَه
ولا خاس فيما بيننا أبداً وُدُّ
فما كلُّ يوم فيك يولد كاتب
ولا يعتلي عرش النبوغ بك الولد
تشحُّ الليالي أن تجود بمثله
أديباً له في كل مأثرة عقد
إذا وجْهُه الوضّاحُ غاب عن الحمى
فذكراه ماءُ الورد إن ذهب الورد

هذا بعض من كثير يمكن أن يقال عن الأديب سامي الكيالي الذي عاش مندفعاً للعمل ورحل تاركاً الذكر الحسن والكتب التي تحتاج إلى إعادة طباعتها في وقتنا الراهن لما لها من قيمة.

المراجع

مجلة الضاد العدد الخاص /١٩٧٢م/ أيلول - ك٢.
١- عبد القادر عياش معجم المؤلفين السوريين في القرن العشرين - دار الفكر.
٢- من أعلام العرب في القومية العربية - عبد الله يوركي حلاق مطبعة الضاد /١٩٧٨م/.
٣- عبقريات وأعلام - عبد الغني العطري - دمشق /١٩٩٦م/.
٤- الراحلون - أحمد دوغان.
٥- معجم أدباء حلب في القرن العشرين أحمد دوغان.

المؤلف في النظريات النقدية في الغرب

● د. خليل الموسى

ينبغي لنا أن نتوقف أولاً عند المتكلّم والكلام والمؤلف واللغة قبل أن نذهب مباشرة إلى موضوعنا المعقّد والمختلف في آن معاً، فأجناس الأدب القديم في الغرب مختلفة عن أجناس الآداب لدى الأمم الأخرى، وكان معظمها ذا مرجعيات أسطورية، صحيح أن الشعر الغنائي متوافر لدى الأمم قاطبة، وهو متصل بالتسابيح والصلوات والأماديح المباشرة والموضوعات الإنسانية المختلفة، وقد قدّم أفلاطون شعراءه في «الجمهورية».

فالشعر الغنائي يحكي فيه الشاعر عن نفسه، وهو بعيد عن المحاكاة، ثمّ هو شعر التمجيد، والشاعر الغنائي حارس من حرس الجمهورية، ووظيفته تسبيح الآلهة، وتمجيد مشاهير الرجال والأبطال، ووصف أعمالهم الخالدة، وبما أنّ أفلاطون كان مهتماً بالمحافظة على هذه الجمهورية من الدمار فإنّه ذهب إلى أنّ هذا النوع أرقى أنواع الشعر، ولم ينفر منه كما نفر من شعر المحاكاة، ومن هنا كان الشعر الغنائي الجنس الوحيد الذي سمح له أفلاطون البقاء في مدينته الفاضلة(1).

لكنّ أرسطو تلميذ أفلاطون قلب الطاولة على رأسها، فأخرج الشعر الغنائي من دائرة الشعر وألحقه بالموسيقا، وقدّم الشعر الموضوعي، كالملحمة والتراجيديا، لأنهما من شعر المحاكاة، وهكذا ربط المعلم الأوّل الشعر بالأساطير من جهة، وبالفلسفة من جهة أخرى، ومنها نظرية المحاكاة التي ظلّت سائدة إلى زمن بعيد، ومن هنا كانت النظريات النقدية ومازالت في الغرب متّصلة بالحركات الفلسفية، بل هي ابنة

● أديب وناقد وشاعر وأستاذ جامعي.

الفلسفة، وهي تدور في فلكها، وأعظم نقّاد الغرب الذين أنتجوا فعلاً نظريات نقدية تستحق الوقوف عندها فلاسفة أولاً بدءاً من أفلاطون وأرسطو، مروراً بكانط وشلنغ وكولردج، إلى سارتر وهيدغر وديريدا، وهذا هو السبب المهمّ الذي دفع الحركات النقدية في الغرب إلى أن تسير خطوات إلى الأمام، ولذلك تأثر النقد العربي القديم، وخاصة فيما يتصل بالبلاغة، بأعمال أرسطو[٢]، وقد أطلقوا عليه لقب «المعلّم الأول» احتراماً لمكانته عندهم، وليس أدبنا ونقدنا في العصر الحديث سوى صدى للحركات الثقافية والنقدية في الغرب، بدءاً من المناهج والمصطلحات والمذاهب الأدبية إلى الدراسات الألسنية وما يتفرّع منها[٣].

مرَّ المؤلف في النقد الغربي بمرحلتين: الأولى طويلة جداً تمثّل حياته وسلطته، وتمتدّ من هوميروس إلى ثورة الألسنية على يدي فردينانـد دوسوسور في بدايات القرن العشرين، والثانية قصيرة تمتدّ على مسافة قرن تقريباً، تعرَّض فيها المؤلف للانقلاب النّصي وثورة الألسنية، ثم إعلان وفاته على يدي بارت، ثـمّ محاولات عودته الجزئية متسلّلاً إلى نصّه ضمن حركات المهمّشين الذين عادوا بشكل أو بآخر إلى الواجهة بمساعدة جيرار جينيت ضمن ما يُسمّى بالعتبات النصية.

تعرَّض المؤلف إذاً في حياته الطويلة لضربات قويّة، ولكنّها لم تكن قاتلة، فاستطاع أن يتخلّص منها، وأن يتعلّم كيف يتلقى الضربات ويتحايل عليها، ويخرج من أزماتها، وهو أشدُّ قوّة ومضاءً، وأكثر قدرة على مواجهة الصعاب، صحيح أنَّ أفلاطون طرد قسماً كبيراً من الشعراء من جمهوريته، ولكنّه أبقى على قسم آخر منهم عاش في الجمهورية معزّزاً ومكرّماً، وصحيح أيضاً أنّ أرسطو تطلّع إلى العمارة الأدبية أكثر ممّا تطلّع إلى المؤلف، ولكنّه كان معجباً بسوفوكليس وهوميروس، وهذا ما سار عليه الكلاسيكيون، وخاصة بوالو في القرن السابع عشر، ثمّ جاءت الرومانسية والقرن التاسع عشر ليمنحا المؤلف أوسمة لم يكن يحلم بها من قبل، ورفعاه إلى مرتبة فوق بشرية، فاستبدّ بنصّه وطغى، وتجبّر بقارئه، وصار مصدر النص الوحيد، فهو القارئ الخبير، وهو مصدر المعرفة والحقيقة، ولذلك اتجهت الدراسات والبحوث إلى تمجيده، وإن ذهب علم التحليل النفسي الفرويدي إلى أنّه مريض، ولكنّه سخّر النصوص لمعرفة طبيعة هذا المرض، فكان النص وسيلة والمؤلف غاية، وتحدّثت الدراسات الأخرى عن ولادة المؤلف الأسطورية وإنجازاته الفريدة وعبقريته الأكيدة، وذهبت إلى ضرورة معرفة ما يُحيط به لمعرفة أسرار طبيعته المختلفة وجوهرها،

فتقدَّم المؤلِّف وغاب نصّه، ممّا حدا ببعض المؤلفين والمذاهب الأدبيّة، وخاصة الرمزية، إلى التململ والخروج عن طاعته، وتجمَّعت روافد هذه الثورة من هنا وهناك، وخاصة في إنجازات مالارميه وفاليري ممّا مهّد لدوسوسور لأن يعلن الانقلاب النصّي الأوّل على مملكة المؤلف وسلطته وقيام جمهورية النص بديلاً، فإذا النَّص/ اللغة يعتلي سُدَّةَ العرش التأليفي.

الحقيقة أن مقولة «موت المؤلف» ((Mort du sujet التي أعلنها بارت في سنة ١٩٦٨م محطّة أساسية لما جرى قبل هذا التاريخ وبعده، وهي ليست صنيعه وحده، وإنّما هي نتيجة طبيعية لحركة النظريات النقدية، وإذا كانت تحمل في ذاتها الإعلان عن وفاته الرمزية فإنها في الوقت ذاته تتضمَّن عودته إلى الحياة النسبية بصفته أحد القرّاء.

إنَّ القارئ المتتبّع للحركة النقدية في الغرب يدرك أنَّ الاهتمام الكبير بالمؤلف، هو الذي أفضى إلى اغتياله، وهذه حقيقة يدركها القاصي والداني، فعمليات الاغتيال تتقصَّد الرؤوس الكبيرة غالباً من أصحاب المراكز الحسَّاسة والمهمة في الدولة والمجتمع، وبما أنَّ شهرة بعض المؤلفين تضاهي أحياناً شهرة أصحاب الرؤوس الكبيرة السياسية والاجتماعية والاقتصادية، فقد سعى النقد إلى عملية الاغتيال هذه، بعد أن أصبح المؤلف في العصر الرومانسي سلطةً فوق بشرية، وقد اشتغل عليها كثيرون، ففي الفلسفة وعلم الاجتماع لدى الماركسيين إيمان قاطع بأنَّ المجتمع هو صاحب الإنتاج وهو الذي يوجّه حركته، وقد تجلّى ذلك في نظرية (الانعكاس الأدبي)، وفي علم النفس ذهب يونغ إلى أنَّ اللاوعي الجمعي مصدر العبقرية الفردية، على نقيض ما ذهب إليه أستاذه فرويد من تركيز على الذات الفردية بصفتها مركزاً للعالم، وهذا يعني أنَّ الفنَّ إنتاج غير شخصي، ومن الضروري أن ينظر إليه بصفته أنموذجاً يقوم على عزل العمل الإبداعي عن هيمنة مؤلفه، وهذا ما ذهب إليه اليوت حين شدَّد على ضرورة أن يضحّي الشاعر بشخصيته إذا سعى إلى الفنّ الحقيقي، وتجلّى ذلك في مفهوم «المعادل الموضوعي»، فقال[٤]: (إنَّ الطريقة الوحيدة للتعبير عن العاطفة في قالب فنّي هي إيجاد (المكافئ الموضوعي)، وأعني بذلك مجموعة من المواضيع، ثمّ موقفاً معيّناً، ثمّ سلسلة من الحوادث تكون جميعها بمثابة صيغة تُصاغ فيها العاطفة المعيّنة بحيث نستحضر العاطفة على التوّ بمجرد الوقائع الخارجية التي يجب أن تنتهي في تجربة حسّية).

ثمَّ إنَّ المؤلف منذ مالارميه في «الكلمات» إلى سوسور إلى لاكان بدا صامتاً

أو منفياً خارج الكلمات، فالدال هو الذي يحدّد مدلوله وهو الذي يتكلّم، فالإنسان عند فوكو عبد للغة، ومن هنا تحوّل سؤاله «من المؤلف؟» إلى «ما المؤلف؟» إشارة إلى أنَّ اللغة الكائن الوحيد في النّص، وأنَّ الكتابة لعبة لفتح فضاء لا تكفُّ الذات الكاتبة فيه عن الاختفاء(٥)، وهذا ما انتهى إليه بارت في أنَّ المؤلف يتلاشى في نصّه كتلاشي العنكبوت في نسيجه(٦)، ثم أكّد ذلك ديريدا في مقولته الشهيرة: ((لا شيء خارج النص))(٧)، مما يعني من موت المؤلف أنَّ الكتابة تركة يرثها الأبناء (القرّاء) بعد الإنجاز، ومن هنا ربط بارت ولادة القارئ بموت المؤلف: «ولقد نعلم أنّه لكي تستردّ الكتابة مستقبلها، يجب قلب الأسطورة، فموت الكاتب هو الثمن الذي تتطلّبه ولادة القراءة»(٨).

لا تعني مقولة موت المؤلف في الثقافة الغربية سوى شيء وحيد وهو انتهاء سلطته على النّص المنجز الذي أصبح ملكاً للقارئ تبعاً لقانون الوراثة، فهي لا تعني موته سريريّاً، ولا تعني كذلك أنّه أُحيل إلى التقاعد، وإنّما تعني أنّه مات داخل النّص المنجز في مقولة (لا شيء خارج النص)، فالمؤلف الذي كان يجلس على عرش النص بسيرته وتدخلاته وتفسيراته أصبح خارجاً، والنص مستقلّ عن صاحبه، وله حياته المختلفة، كاختلاف الابن عن أبيه، ومع ذلك فإنَّ له حياته خارج النص، وهو مؤهّل لكتابة نصوص أخرى ليخرج من هذا العمل إلى سواه(٩)، وهذا يعني أنَّ الذين ثاروا على سلطة المؤلف وانتصروا عليه وأزاحوه عن غيّه واستبداده، وأجبروه على التخلي عن عرش النص لم يحرموه من حقوقه المدنية، وإنّما عاملوه كما عاملوا سواه من عناصر النص اللغوية، فقد اشترط بارت ولادة القارئ ثمناً لموت المؤلف، وبما أن القارئ عنده متعدّد، فقد تيسّر لهذا الملك المخلوع أن يعود إلى نصّه بصفته أحد القرّاء أو الزوّار أو السائحين أو بصفته (الآخر)، أو أحد المهمّشين في نقد ما بعد البنيوية، وخاصة في أعمال جيرار جينيت، وخصوصاً فيما يُسمّى بـ(العتبات النصية)، فقد استدعاه هذا الناقد ليتربّع مع العتبات الأخرى (العنوان- الإهداء- التصوير..إلخ) على عرش النص، لا بصفته مالكاً وحيداً، وإنّما بصفته أحد العوامل اللغوية المساعدة لفهم النص وتأويله، بل قدّمه على سواه لأننا لا يمكننا تجاهله، فهو الذي يحدّد جنس النص (تاريخي- جغرافي- أسطوري- أدبي..)(١٠)، ولذلك فإنَّ اسم المؤلف عتبة ومفتاح مهمّان، وخاصة إذا كانت صورته واضحة في ذهن المتلقّي، فهو مسرحي قديم (سوفوكليس)، أو مسرحي كلاسيكي (موليير- راسين-

كورنيـي)، وهـو تراجيـدي أو كوميدي، أو هو شاعـر رومانسي (موسيـه- لامارتين) أو رمـزي (بودلير- رامبـو- مالارميه)، أو سريـالي (بريتـون- أراغون- إيليـوار)، أو روائـي أو ناقد (قـديم - معاصر)، ولذلك يحدّد المتلقّي هويـة النص وجنسه وأسلوبه وأفكاره وعصره بوساطة اسم المؤلف..إلخ.

وإذا توقّفنـا أخيراً عند أنواع المؤلف في الثقافة الغربية فهـو نوعان: الأوّل حقيقي ظاهر ومعلن على صفحة الغلاف، ولكنّه لا يتكلّـم في معظم الحالات، وهو خارج نصّه، والثاني ضمنـيّ مضمر يكمن داخل النص، وهو الذي يتكلّم حقيقة، بل هو عنصر مكوّن من نسيج النص اللغـوي، فثمة نصوص أو أجناس أدبيـة ذات طبيعة خاصـة تتعدّد فيها الألسنة، ويُشترط أن يكون المؤلف فيها صامتاً ليتيح لها بـروز جمالياتها الخاصة، ففـي المسرحيـة شخصيـات مختلفـة في أجناسها (ذكر/ أنثـى)، وأعمارها (شاب/ شيـخ)، وطبقاتها (غني/ فقـير)، وثقافتها (مثقّف/ عـادي)، وطبائعها (خيّر/ شرير)، وطموحاتها وأحلامها..إلخ، فإذا تكلّم المؤلف وصمتت شخصياتـه وأد العناصر الجمالية والتنوع والصراع، وكذا شأن الرواية الجديدة وخاصة التي تتعدّد فيها الأصوات والوجوه، وقصيدة النثر التـي ينبغي أن تحافظ على قسميهـا لتحـوّل ما هو نـثري إلى شعري، وهذا شأن القصيـدة الدرامية...إلخ، وكذا شـأن المؤلف الضمني في المؤسّسات النصية ذات القواسم المشتركة،فللشاعر الكلاسيكي خصوصيـة أسلوبية فرديـة، ولكنّه يشترك مع سواه من الشعراء الكلاسيكيين بتقديس العقـل، ويشـترك الرومانسيـون في تقديم العاطفـة والخيال وإهمـال العقل، وهكذا، ومن هنا صار علينا أن نحدّد المؤلف الضمني بصفته عنصراً مكوّنـاً في بنية النص، وهو الذي يُشـرف فعلاً لا قولاً علـى صناعته، وأن نحدّد وظيفته/ وظائفه.. إلخ، بناءً على توصيفه في النظريات المعاصرة جداً..

المؤلف الضمني «Auteur implicite»

إذا كانـت مقولة النـص يصنع النص صحيحة، وإذا كانت مقولة الراوي لا يكتب وإنّما الرواية تكتب نفسها، فهذا يعني أنّ ثمّة راوياً غير منظور يكتب هـذه الرواية، وهو الأنا الثانية للمؤلـف، أو ما يُسمَّى بالمؤلف الضمني، وهـذا ما ذهب إليـه الفيلسوف الفرنسي ميشال فوكو، حين رأى أنّ الكتابة اليوم قد تحرّرت من مسألة التعبير (أي تعبير المؤلف الحقيقي عن حياته): فهي لا تستند إلاّ إلى ذاتها، ورغم ذلك، لا تؤخذ على شكل الجوّانيّة، بل تتقمّـص برّانيتّها المعروضة. ما معناه أنّها (الكتابة دائماً)، لعبة علامات مرتبة لا لمضمونها المدلول، بل لطبيعة الدال بالذات، ولكنّنـا أيضاً دائماً نختبر اطّراديّة

الكتابة هذه، من جهة حدودها، فهي دائماً في صدد خرق هذه الاطرادية وقلبها التي تقبلها وتستغلّها، وإنّما الكتابة تتوسّع بصفتها لعبة تذهب بشكل أكيد إلى ما بعد قواعدها، وتعبُرُ بذلك إلى الخارج. ليست المسألة في الكتابة مسألة إظهار أو إعلان حركة الكتابة، ولا تسمير موضوع في لغة، إنها مسألة فتح فضاء لا تكفّ الذات الكاتبة فيه عن الاختفاء[11].

المؤلف الضمني إذاً هو الذي يكتب النص فعلاً لا قولاً ويكون حاضراً في الكتابة، وهو الذي يدير عملياتها وآلياتها وإن كان متخفياً وراء الرواة والشخصيات، وهو كنائب المدير العام الذي يقوم بالأعمال كلّها من دون أن تحمل القرارات اسمه أو توقيعه، وهو الذي يراقب كل شيء وينتقد ويحذف ما هو زائد، وهو برأي تودوروف القارئ الذي يضع كلّ شيء أمام عينيه، ويقرأ نصّه في أثناء الإنجاز[12]، وكأنّ للمؤلف شخصيتين: الأولى نراها تكتب وهي في الحقيقة لا تكتب، هي المؤلف الحقيقي الذي يُسجّل اسمه على العمل، والثانية لا نراها، ولكنّها هي التي تكتب فعلاً، ولكنّها قابعة وراء الكواليس، ولذلك سمّاها بوث «الأنا الثانية للمؤلف» (Le second «moi» de L'auteur). فـ«المؤلف الضمني يختلف دائماً عن «الإنسان الحقيقي». مهما يكن تصوّرنا عنه، وهو يبدع نسخةً متفوّقةً عن نفسه في الوقت الذي يبدع عمله»(١٣)، وتتصل فكرة المؤلف الضمني بفكرة موت المؤلف، وهما تذهبان إلى استقلال النص بصفته كائناً حيّاً عن صاحبه، وتبيّن صورة ضمنية لمؤلف مختبئ في خلفية العمل الفني سواء أكان رواية أم مسرحية، ولا يمتّ بصلة إلى رجل في الحياة اليومية، ولتقريب صورة المؤلف الضمني إلى الأذهان يمكن أن نعود إلى نظرية الإلهام في أنّ الشاعر لا يكتب، وإنّما يُوحى إليه أو يُملى عليه، وهو ليس إلاّ آلة للكتابة قد اصطفته إلهاتُ الشعر أو شياطينه ليقوم بهذه المهمة، وبما أنّنا لا نرى المؤلف الذي يكتب فعلاً فإننا ننسب الكتابة إلى المؤلف الظاهر، ومن هنا يكون للكاتب شخصية مزدوجة: الأولى تراها تكتب، وهي لا تكتب، والثانية لا تراها، ولكنّها هي التي تكتب فعلاً، ويمكن أن يعود المرء أيضاً إلى الماركسية التي تُعيد فضل إنتاج النص إلى المجتمع، فالمؤلف أصلاً إنتاج مجتمعي، وكلمة الفصل في هذا المجال أن هذا المؤلف قارئ وكاتب في آن معاً، فهو يقرأ نصّه في أثناء الإنجاز ويُجري عليه التعديلات التي يراها ضرورية، لاستقلاله من جهة، وضمان جماليات لغته من جهة أخرى.

تقوم فكرة هذا المؤلف على أنّ للسرد ثلاثة أطراف: الراوي (أنا)، والمرويّ له

(أنت)، والشخصية (هو)، وهذا يعني وجود ثلاث شخصيات: الأولى تتكلّم، والثانية يُوَجّه إليها الكلام، والثالثة موضوع الكلام الذي نتحدّث عنه وعنها، وهي أيضاً تتكلّم، وخاصة إذا كان الراوي (الطرف الأول) شخصية مشاركة في أحداث الرواية، ولذلك ذهب بعض الدارسين، ومنهم تودوروف، إلى وجود مؤلف ضمني يكتب النص، وكان من الضروري بيان الفروق بين هذا المؤلف الموجود داخل النص والكاتب الحقيقي الذي لا وجود له داخل النص، في حين أنّ جيرار جينيت رفض مقولة المؤلف الضمني، وذهب إلى أنّ للحكاية كاتباً حقيقيّاً يكتبها وراوياً وهمياً يرويها. ولا ثالث فيما بينهما[14].

ثمة فروق إذاً بين المؤلف الحقيقي الظاهر الذي يجلس وراء الطاولة ويضع بين يديه الأوراق والأقلام ولكنّه لا يكتب، وبين المؤلف الضمني الذي يقبع داخل النص، ويقوم وحده بالكتابة، وهو يمتلك صكّ الوكالة السردية، ولذلك ينظّم النص، ويستحضر هذا الجزء من الحكاية أو ذاك أو يغيّبه، وقد يتّحد المؤلف الضمني بالراوي فيصبحان واحداً[15]، نتيجة لصكّ الوكالة السردية الذي يوقّعه المؤلف الضمني للراوي أو لإحدى شخصياته المشاركة في العمل بفضل ثقته بها، ولاختلاف طبيعة الشخصية عن طبيعة المؤلف الضمني، أو لظروف سياقية نصّية ومنها أن المؤلف الضمني لا يستطيع أن يُمسك بتلابيب الشخصية ويسيّرها كما يشاء، وإن كان هو الذي أبدعها، وخاصةً إذا كانت الشخصية نامية وغنية من الداخل، فهي تستمرّ في الكلام وتتجاوز حدودها المرسومة، وتسير على هواها في أحلامها وتنسى أنّ المؤلف الضمني يراقبها ويرصد تحركاتها، وبما أنّه لا يتحمّل تبعات كلّ ما تقوم به هذه الشخصية بناءً على الوكالة التي تحدّد وظيفتها، فإنه يفسحُ لها المجال أحياناً، بل يشجّعها على ما تقوم به فعلاً وقولاً، لأنه يدرك أنه لا يستطيع أن يكون بديلاً عنها، وهكذا علينا أن نقول إنّ المؤلف الحقيقي يمثّل الأنا الأولى التي تهيّئ اللوازم والأيديولوجيا النصية، ولكنها لا تكتب، وإنّما تختار شخصية أخرى تنوب عنها في الكتابة وتدعى المؤلف الضمني، وهي العين الناقدة التي تراقب سير العملية التأليفية وتتدخّل هنا وهناك لضمان نجاحها من حيث الأيديولوجيا ومن حيث الجماليات اللغوية الضرورية لقبول الأيديولوجيا، ثمّ إنّ المؤلف الضمني لا يعمل منفرداً، وإنّما يعمل ضمن مجموعة من الرواة والشخصيات، وقد يختار شخصية أو أكثر للقيام بهذه الوظيفة ضمن وكالة سردية يمنحها لمن يختاره.

يقوم المؤلف الضمني بأدوار ووظائفَ عدة داخل العمل الفنيّ، فهو مثلاً ناقدٌ

يغربل الثرثرة التي تتدفق من المؤلف الحقيقي أو الشخصيات، فيأخذ منها ما يشاء ويُهمل ما لا يريده منها، فالوظيفة الأولى التي لابدَّ من وجودها لضمان وصول الأيديولوجيا النَّصية جمالية، وهي القادرة الوحيدة بما تحمله من بنية نصِّية متماسكة وتشويق ومماطلة وعناصر فنية أخرى من توصيل الرسالة. من دون أن يتجاوز وظيفة السرد الروائي التي تشكل العمود الفقري في هذا الجنس الأدبي، مما يصحّ أن نطلق عليه شعرية السرد.

هكذا إذاً حال المؤلف في النظريات النقدية الغربية: حياة طويلة امتدت من أفلاطون وأرسطو إلى نهايات العصر الرومانسي، ثم بدأت المحاولات الجادة لاغتياله بدءاً من الرمزية إلى سوسور إلى أن جاء بارت فأعلن وفاته نصياً، ولكن النظريات النقدية في الغرب استبدلت به اليوم المؤلف الضمني.

الحواشي

١- انظر: الموسى. د.خليل. جماليات الشعرية. اتحاد الكتاب العرب، دمشق، ٢٠٠٨م، ص٤٢.

٢- للاستزادة انظر: الموسى. د.خليل. وحدة القصيدة بين أرسطو والنقاد العرب القدماء، منشورات وزارة الثقافة، دمشق. ٢٠٠٧م.

٣- للاستزادة انظر: جماليات الشعرية، والموسى، د.خليل: مبادلات شعرية- مفهوم التأثير أنموذجاً. اتحاد الكتَّاب العرب، دمشق، ٢٠٠٩م.

٤- إليوت. ت.س: «هملت ومشاكله»، من كتاب «أسس النقد الأدبي الحديث»، ص٤٢٤.

٥- انظر: مناقشة لسؤال فوكو: ما المؤلف؟، أدار الندوة جان فال وآخرون. مجلة «الفكر العربي المعاصر»، العددان ٦ و ٧، ت١ وت٢، ١٩٨٠، ص١١٦.

6- Voir: Barthes, Roland: le plaisir du texte.

٧- نقلاً عن: نوريس، كريستوفر: التفكيكية النظرية والممارسة، تر.د صبري محمد حسن. دار المريخ للنشر. الرياض، ١٩٨٩م. ص١٠٠.

٨- بارت، رولان: نقد وحقيقة، تر.منذر عياشي، مركز الإنماء الحضاري. حلب، ط١، ١٩٩٤م. ص٢٥.

٩- انظر «موت المؤلف» في كتابنا: جماليات الشعرية، ص٢٩٩-٣٠٣.

10- Voir: Genette ,Gerard:seuils, editions du seuil, 1987, p.4243-.

١١- مناقشة لسؤال ميشال فوكو: ما المؤلف، أدار الندوة جان فال، وشارك فيها جاك لاكان ولوسيان غولدمان وآخرون، (الفكر العربي المعاصر)، العددان ٦ و ٧، ت١ وت٢، ١٩٨٠، ص ١١٦

12- Voir: Ducrot, Oswald et todorov, Tzvetan: dictionnaire encyclopédique sciences du Langage Seuil,1972,p. 412.

13-Booth, wayne c., Distance et point de vue, in «poétique du récit», éditions du seuil, 1977, p. 92 – 93.

١٤- للتوسـع: العمامي، محمد نجيب: الراوي في السرد العربـي المعاصر- رواية الثمانينات بتونس، دار محمد علي الحامي (صفاقس) وكلية الآداب والعلوم الإنسانية (سوسة)، تونس، ط١، ٢٠٠١، ص ١١ -١٢.

15-dictionnaire encyclopédique des sciences du Langage, p. 413.

الشعر في الأدب الأفريقي

هبة الله الغلاييني ٭

هناك إجماع عام بين جمهور «المستفرقين» على أن «الأدب الأفريقي» مصطلح يعني أدب جنوب الصحراء الكبرى حتى التقاء القارة بالمحيط في أقصى الجنوب، وقد نشأ هذا الإجماع من إجماع سابق عند المستفرقين أيضاً على أن أفريقيا قارة تقسمها الصحراء الكبرى إلى قسمين مختلفين كل الاختلاف: قسم يقع شمالها ويسمى «أفريقيا العربية الإسلامية»، وآخر يقع جنوبها ويسمى: أفريقيا جنوب الصحراء «Africa south of the sahraa» أو أفريقيا السوداء (Afrique noire).

من الواضح أن هذه القسمة الأخيرة جغرافية سطحية، لا يزيد عمرها على قرن من الزمان، ولكنها وضعت في ظل إطار سياسي استعماري واضح الهدف هو تشفير القارة وتدعيم تجزئتها، والانفراد بكل شطر على حدة، فلم تكن الصحراء الكبرى هذه أصلاً حقيقياً بين الشمال والجنوب قبل السيطرة الاستعمارية، بل كانت طريق الهجرات والقوافل والتجارة بين الشمال والجنوب، ولم يكن العرب أبناء الشمال في عزلة عن الزنوج طوال قرون حتى القرن التاسع عشر الذي تمت فيه السيطرة على شطري القارة، ولا كانت هذه الصحراء الكبرى حائلاً دون دخول «أفريقيا السوداء» في الإسلام إبان العصور الوسطى كما هو معروف.

مع ذلك إذا صح أن نأخذ بالقسمة الجغرافية السابقة كقسمة مجردة من الأغراض السياسية وغيرها فلا يمكن الأخذ بها على صعيد الأدب، لأن انتشار

٭ كاتبة ومترجمة سورية.

الثقافة العربية والإسلامية جنوب الصحراء الكبرى، وتغلغلها في ثقافات الشعوب الزنجية هناك، قد شكّلا مؤشراً مهماً من المؤشرات في الثقافة والأدب، وهو ما تبيّن اليوم بعد تحرير القارة واستقلالها وبداية البحث في تراثها الشعبي بصفة خاصة.

ومن جهة أخرى لا يمكن أن نسحب الجزء على الكل فنقول إن الأدب الأفريقي يبدأ بعد الصحراء الكبرى، وتخرج منه الأدب العربي في الشمال، بحجة أن «أفريقيا الشمالية منطقة أدبية منفصلة تمام الانفصال، تنتمي إلى العالم الإسلامي والعربي» كما قال المستشرق الإنجليزي جيرالد مور.

وحتى إذا سلمنا جدلاً بهذه الحجة التي يدحضها وجود عالم إسلامي جنوب الصحراء أيضاً، فلا يمكن أن نسلم بأن المعنى الجزئي يشمل المعنى الكلي، لأن أدب أي قارة ينبغي أن يشمل أدب هذه القارة كلها كقولنا: الأدب الأوروبي، والأدب الآسيوي، والأدب الأمريكي الشمالي، والأدب الأمريكي الجنوبي، والأدب الأسترالي، وهكذا.

يقول الباحث والناقد الروائي، ابن جنوب أفريقيا، إن كيال (حزقيال) مغاليلي «إن الشمال العربي المسلم لا علاقة له من الناحية الثقافية بالإنسان الأفريقي».

وفي عام ١٩٦٧م، علق المستشرق الألماني «يان هانيزبان» على القضية بقوله: «أفريقيا مصطلح جغرافي لا ثقافي، وثمة منطقتان ثقافيتان مختلفتان، لكل منهما تاريخ مختلف وتقاليد مختلفة، فمن ناحية يوجد شمال أفريقيا، ومن ناحية أخرى يوجد ما يسمى «أفريقيا الزنجية» أو «أفريقيا السوداء» أو «أفريقيا غير الإسلامية» أو «أفريقيا جنوب الصحراء»».

وقد كان بين شعوب هاتين المنطقتين جميع أنواع العلاقات على امتداد آلاف السنين، ولكن بقيت الاختلافات بينها كما هي، فشمال أفريقيا اليوم جزء من المنطقة الثقافية الإسلامية التي انتشرت في السودان، وهي منطقة ذات ثقافة مختلفة، حيث أنتجت الاثنتان طائفة متنوعة من أشكال التهجين، أما المنطقة الأخرى فليس لها اسم مقنع، وذلك لأن أفريقيا «السوداء» أو «الزنجية» تعبير من تعبيرات الجغرافيا العنصرية، لا نستطيع أن نستخدمه بغير تردد، لأنه يتضمن فكرة التطابق بين الثقافة والعرق Race، فضلاً عن أن الثقافة «الأفريقية الزنجية» و«أفريقيا الزنجية» لم تتطابقا طوال قرون.

الشعر:

للشعر -بوجه عام- سبق في آداب الأمم، وهكذا الحال في أفريقيا خارج مجال العربية، حيث نجد فنون الشعر أقدم من

فنون النثر، بل نجد للشعر مكانة بارزة في الآداب المكتوبة وغير المكتوبة على السواء، وقد لفتت هذه الظاهرة انتباه كثير من المستفرقين.

ومن ذلك ما كتبته المستفرقة الإنجليزية «آن تيبل» في معرض الحديث عن الشعر الشعبي عند قبيلة الشكرية في السودان: «لو سألت بين الشكرية، أو بين قبائل السودان الأخرى مثل البُجة (سكان التلال المطلة على البحر الأحمر) أو لابسي الوبر على جبل مرّة الخصيب في الغرب، أو الكبابيش- أو حتى خارج السودان بين المشتغلين بالرعي، مثل الرعاة الصوماليين، أو قبيلة بهيمة بمنطقة أنكولي في أوغندة أو مثيلة يوى Ewe في ترجو: هل عندكم شاعر؟ لظهر شاعر في زمن أقل بكثير مما يستغرق زمن العثور على شاعر في بريطانيا.

وإذا كانت ملاحظة تيبل هذه تنطبق على الشعر الشعبي غير المدوّن فهي تنطبق أيضاً على الشعر المدون الذي يبدعه الشاعر بلغة معروفة، ويسجله باسمه، وإذا كانت اللغات في هذه المناطق تقدر بأكثر من ٧٠٠ لغة، فلنا أن نتخيّل عدد الشعراء في كل لغة وعجزهم النهائي في هذه اللغات.

غير أننا نستطيع أن نميّز هنا بين أربعة أنماط من الشعر وهي بترتيب ظهورها:

١- **النمط الفلكلوري**، غير المعروف المؤلّف، الذي يتداول عن طريق الشفاه بلغة محلية غير مدونة.

٢- **النمط الشعبي**: المعروف المؤلّف الذي يتداول عن طريق الشفاه أو التدوين، منسوباً لمؤلفه، بلغة محلية أيضاً، مدونة أو غير مدونة.

٣- **النمط المدوّن بلغة أوروبية**: البرتغالية أو الإنجليزية أو الفرنسية، وهي أبرز اللغات الأوروبية التي ظهر بها كثير من أدب القارة.

أمّا النمط الفلكلوري فهو من العراقة والغزارة بحيث لا يستطيع الباحث أن يحدد بدايته أو كميته، وسيشمل الكثير من الأنواع، وتختلف كل جماعة أو قبيلة عن الأخرى في حجم هذه الأنواع.

فعند اليوروبا -في جنوب غرب نيجيريا- على سبيل المثال نجد المدائح التي تشمل الآلهة والبشر والحيوان والنبات، كما نجد شعر الأنساب، وإنما في الصيد، وشعر الحفلات التذكرية، وشعر الرقى والتعاويذ، والأغاني العادية التي تنقسم -بدورها- إلى الكثير من الأنواع حسب مناسباتها، وشعر السحر المستخدم في إلحاق الخير أو الأذى، ولكل نوع من هذه الأنواع قواعده وشروطه وأوزانه، أما عند الزولو في أقصى جنوب القارة فنجد: الكثير من هذه الأنواع، ولاسيما شعر المدائح، ولكننا نجد اهتماماً

خاصاً بشعر الحرب والقتال والبطولات.

ومع ذلك يجب أن نلاحظ -فيما يتعلق بالمدائح- تخصص بعض الشعراء في تأليفها واحتراف صنعتها، فهم -إذن- معروفون للجماعة، وينسب المديح لهم، ولكن يأتي على بعض المدائح وقت تنسى فيه الجماعة صاحبها، إما لموته أو قدم العهد بها، وبذلك تنتقل من النمط الشعبي، أي ذي المؤلف المجدد المعروف، إلى النمط الفلكلوري.

وقد يحدث العكس أيضاً فتنتقل بعد فترة من الاستخدام الفلكلوري إلى النمط الشعبي، حين يستعين بها الشاعر الشعبي في صياغة مدائحه، وأمّا النمط الشعبي الذي يمارسه شعراء معروفون للجماعة فمن الصعب أيضاً تحديد بدايته أو كميته، ولكن من السهل العثور على الشعراء بين القبائل والجماعات كما لاحظت تيل، فللشاعر وظيفة اجتماعية داخل قبيلته أو جماعته، أو في بلاط رئيس القبيلة أو ملك الجماعة وفي كلتا الحالتين يعبّر عن قيم الجماعة وثقافتها، حتى إذا كان جزءاً من جهاز الدعاية الخاص بالرئيس أو الملك، بل هو أيضاً يرنّه عن الجماعة - ويعلمها في آن واحد - حين تكون مهمته رواية سيرة أو ملحمة وعندئذ يتحول إلى التشخيص والتمثيل في أثناء الرواية، حتى يوصل رسالتها إلى جمهوره.

لقد صوّر أكثر من أديب أفريقي هذا الشاعر الشعبي على الصعيد الخاص خارج التجمعات والتصور، ومن هؤلاء الروائي الفيني «كامارالاي» الذي قدّم صورة نابضة بالحياة للمدّاح في روايته، أو سيرته الذاتية، «الولد الأسود» وهو يصوّر أباه في ورشة الحدادة التي يملكها:

«يتخذ المدّاح مجلسه في الورشة، ويأخذ في ضبط أنغام قيثارته، ثم يشرع في إنشاء المدائح لأبي، وكان ذلك يمثّل لي دائماً حدثاً عظيماً، فها أنا أسمع ذكراً للأعمال الجليلة التي أدّاها أجداد أبي، وأسماء هؤلاء الأجداد منذ أقدم العصور، وحين تتوقف عجلة المقطوعات الشعرية أشعر كأني شاهدت نمو شجرة نسب ضخمة نشرت فروعها بعيداً وعريضاً، وتباهت بأغصانها وغصيناتها أمام عيني عقلي، وكانت القيثارة تعزف في صحبة هذا الذكر العرين للأسماء، فتوسعه وتضبط حركته بأنغام رقيقة تارة وخشنة تارة أخرى. من أين يأتي المدّاح بمعلوماته؟ لا بدّ أنه طوّر ذاكرة قوية جداً، خزّن فيها الحقائق التي استمدها من سابقيه، فهذا هو أساس تقاليدنا الشفهية كلها، هل كان يزوّق الحقيقة؟ من الجائز جداً، فالتملق بضاعة المدّاح إذ مع ذلك لم يكن مسموحاً له بالتجاوز الكثير للتقاليد، لأن من واجبه الحفاظ عليها، ولكن هذه الاعتبارات لم

تدخل رأسي في تلك الأيام التي كنت أعتز بها وأفخر، فقد كنت أشعر بالنشوة الغامرة من كثرة المديح، وهو أمر يبدو أنه ترك على شخصي الصغير شيئاً من ألقه.

ولكن هذا الشاعر الشعبي نفسه كان شيئاً آخر على الصعيد العام، شيئاً أشبه بالصحافي والمؤرخ والمغني للجماعة في آن واحد، بل أصبح في عهد السيطرة الاستعمارية فاضلاً وطنياً، يستخدم بشعره في تذكية نار النضال، ويقوي به عزائم المناضلين، وأقرب مثال على ذلك ما حدث في الصومال خلال الربع الأخير من القرن التاسع عشر والربع الأوّل من القرن العشرين، فقد استعرت نار الحركة الوطنية هناك، ونزل كثير من الشعراء الشعبيين إلى ميدانها.

وأبرز هؤلاء الشعراء محمد عبد الله حسن (١٨٦٤– ١٩٢٠م) الزعيم الديني ومؤسس الحركة القومية الصومالية الحديثة، فقد عاش في عهد شفهية لغة بلاده (الصومالية)، ومع أنه تبحّر في الدين، وأكمل دراسته في الحجاز، وأتقن العربية، ونظم بها شعراً كثيراً، فقد كان شعره الشفهي بالصومالية أكبر تأثيراً، ولاسيما بعد عودته من الحجاز وإعلان الجهاد المقدس ضد السيطرة البريطانية، ومع أن قوات الاحتلال هزمت رجاله عام ١٩٢٠م، ومات هو منفياً في أثيوبيا بعد قليل، فقد كان شعره من أقوى عوامل الشعر الوطني، وظل كذلك على الشفاه حتى نال الصومال استقلاله عام ١٦٩٠م.

ثمة دور آخر للشاعر الشعبي الأفريقي، هو إبداع السير والملاحم البطولية، وهذا ما نراه –على سبيل المثال– في السواحلية، ولغة الإيجو IJAW في نجيريا، ولغة الزولو في أقصى الجنوب، ويعد الشعر الملحمي أبرز تراث اللغة السواحلية، وقد تأثر في موضوعاته وأشكاله بالعربية والفارسية والأردية التي دخلت إلى الساحل الشرقي الإفريقي منذ القرن الثاني عشر وبعضه ترجمة للقصائد والمطولات العربية، ولاسيما في السيرة النبوية والمغازي الإسلامية ويؤلف في مقطوعات رباعية، ويتكون كل بيت من ثمانية مقاطع، وأهم ملاحمه وأطولها الملحمة المحمدية، وهي تسجيل منظوم للسيرة النبوية، يبلغ عدد مقطوعاتها ٦٢٨٠ مقطوعة، أي ٢٥١٢٠ بيتاً، وبذلك تعد أطول ملحمة في أفريقيا، وقد ظلت الملاحم تتواتر في السواحلية حتى أوائل هذا القرن، ولكنها تنوعت في أغراضها على مدى العصور، وشملت السيرة النبوية والحروب والغزوات الإسلامية، وغزو الإمام علي بن أبي طالب لليمن، وسيرة الحسين بن علي، فضلاً عن سيرة آل البيت ونسائه والأنبياء مثل أيوب

يوسف، كما شملت حروب المقاومة للسيطرة الألمانية في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، حتى بلغ ما جمع من هذه الملاحم عام ١٩٧٢م أكثر من ٧٠ ملحمة، معظمها حفظته المخطوطات.

وهكذا الحال في لغة أخرى مثل الإيجوية في غرب نيجيريا، ومن أطول ملاحمها وأهمها ملحمة أو سيرة «أوزيدي» التي تدور عن بطل شعبي بهذا الاسم، قاوم الطغيان في قومه حتى مات وهو يقاتله، فخلفه ابنه - الذي حمل اسمه - ثم أخذ بثأره، وأعاد الحق إلى نصابه، وتُروى هذه السيرة في القرى، وتستغرق روايتها - عادة سبعة أيام بلياليها، نلمس ذلك أيضاً عند الزولو في الجنوب، حيث تكثر ملاحمهم بسبب كثرة الحروب بينهم وبين جيرانهم، أو بينهم وبين الغزاة الطامعين من الأوروبيين، ومن أشهر ملاحمهم ملحمة «تشاكا»، وهو ملك وبطل قومي، وحّد قومه، وجعلهم أمة قوية في الثلث الأوّل من القرن التاسع عشر، وجمع في داخله الكثير من عناصر الشذوذ والسادية.

ومع ذلك استلهم سيرته عدد من الأدباء خلال القرن العشرين، في الجنوب والغرب، ومن بينهم الشاعر السنجالي «ليوبولد سنجور» الذي كتب عنه قصيداً دراماياً متعدد الأصوات.

وما دمنا أشرنا إلى ما فعله الشاعر المسرحي النيجيري «ببر كلارك» بسيرة أوزيدي، وما فعله سنجور بسيرة تشاكا، فلا بد أن نشير -أيضاً- إلى ما فعله كثيرون غيرهما من أدباء أفريقيا المحدثين والمعاصرين بهذا التراث الفني الفلكلوري والشعبي على السواء، وما استلهموه من الأشعار والقصص والروايات والمسرحيات الهامة، حتى أصبح التراث الفلكلوري والشعبي يؤدي للأدب الحديث المدوّن، سبق أن أدّاه التراث الإغريقي والروماني للأدب عند نهضته، أي حين أصبح من أهم ركائز هذه النهضة.

وأمّا النمط المدوّن بلغة أفريقية فهو محدود، لأن عدد اللغات ذات الأبجدية المدوّنة قليل بالقياس إلى مجموعة اللغات الأفريقية الكثيرة، وأقدم ما وصلنا من هذا الشعر تضمه اللغة الأمهرية في أثيوبيا، ويرجع إلى القرن الرابع عشر، ويليه ما تضمه لغة الهوسا في شمال نيجيريا، ويرجع إلى القرن السابع عشر، ثم يليه ما تضمه اللغة السواحلية في شرق أفريقيا (كينيا وتنزانيا) ويرجع إلى القرن الثامن عشر وأخيراً يأتي الشعر الذي تضمه لغات اليوروبا (جنوب غرب نيجيريا) والصومالية (الصومال) والزولو والزوساوالسوتو (جنوب أفريقيا) ويرجع إلى القرن التاسع عشر.

فقد بدأ الشعر في هذه اللغات بالأغاني والأهازيج، ثم تطرق إلى الأغراض الدينية والتعليمية، ولم يعبر عن قائليه إلا في فترات متأخرة، أي إنه سار في خط تطور الشعر في اللغات العريقة الأخرى، ولكنه - في جميع الأحوال - سبق الشعر المكتوب باللغات الأوروبية الثلاث المذكورة.

ومع ذلك لم يلق هذا الشعر أي تشجيع من السلطات الاستعمارية حين سقطت القارة فريسة لها، وظل تداوله عن طريق المخطوطات، باستثناء شعر اليوروبا وشعر الزولو والزوساوالسوتو الذي وجد بعضه طريقه إلى المطبعة في النصف الأخير من القرن التاسع عشر، بل إن السيطرة الاستعمارية فرضت - في ذلك القرن- الأبجدية اللاتينية على اللغتين السواحلية والهوسوية اللتين كانتا تستخدمان الأبجدية العربية والخط العربي، وظل هذا الشعر حبيس المخطوطات، أو الطبعات المحدودة، حتى نال أصحابه استقلالهم ابتداءً من أوائل الستينات وبعدها بدأ الاهتمام الشعبي به، كما بدأ العمل في جمع ما لم يجمع منه، وتحقيقه وطبعه، ولكن هذه مهمة صعبة، سوف تستغرق زمناً طويلاً على أي حال، وإن كانت حافزاً مهماً للاستمرار في الكتابة باللغات الأفريقية.

وإذا كان الشعر في الأمهرية والسواحلية والهوسوية نشأ نشأة دينية بوجه عام فهكذا كانت نشأته أيضاً في لغات اليوروبا والزوسا والزولو والسوتو، وغيرها من اللغات المكتوبة، ولكنه سرعان ما دخل في هذه اللغات الأخيرة - الحديثة التدوين بالقياس إلى الأخرى - في عمق زجاجة منذ عام ١٨٧٠م تقريباً، أي بعد قليل من ظهوره، فقد سيطر عليه الفرار من الواقع، واليأس، والتحليق في الخيال، مع شيء من الاحتجاج على ما يسود هذا الواقع من بؤس واضطهاد، دون ابتعاد عن النغمة الدينية التي رافقت مولده.

من صور الشعر في تلك المرحلة الأولى الدينية هذه الأدبيات التي كتبها شاعر مجهول، من أبناء مدينة كيب تاون، عام ١٨٨٤م، كان يوقع باسم «الهارب من الأمة» ويكتب بلغة الرؤساء Xhosa يقول:

يظن البعض حتى الآن أننا لن نتكلم أبداً
فقد مزقوا أعمق أعماق وجودي
ومسؤوليات أسرتي وثرواتها
ما زالت ترحل معي إلى القبر
.... لأجل ماذا هذا الإنجيل؟
وما الخلاص؟

وبهذه النغمة الاحتجاجية المشوبة بالإيمان الديني، يقول الشاعر س. مقامي ١٨٧٠ - ١٩٥٤م، بلغة الزوسا أيضاً، في

مناسبة تكريم أمير ويلز عند زيارته لجنوب أفريقيا عام ١٩٢٥م:

أنت يا بريطانيا! يا بريطانيا العظمى!
بريطانيا العظمى التي لا تغرب عنها الشمس الساطعة!
لقد قهرت المحيطات وأفرغتها
أفرغت الأنهار الصغيرة وجففتها
وهي الآن تتطلع إلى السماوات المفتوحة
أرسلت لنا الواعظ، أرسلت لنا الزجاجة
أرسلت لنا الإنجيل، وبراميل البراندي
أرسلت لنا البنادق ذات الكعوب
أرسلت لنا المدفع.
أنت يا بريطانيا الراغدة!
أيهما يجب أن نحب؟
أرسلت لنا الحقيقة، وأنكرت علينا الحقيقة
أرسلت لنا الحياة، وسلبت منا الحياة
أرسلت لنا النور، وها نحن نجلس في الظلام
نرتجف في عتمة وجهل، تحت شمس الظهيرة الساطعة.

ولكن اليأس والتحليق في الخيال لم يلبثا طويلاً، وإن ظل الاحتجاج قائماً حتى اليوم، ومع الاحتجاج ظهرت نغمات التمرد والثورة على الواقع المؤلم في ظل التمييز العنصري في الجنوب.

لقد حاول مازيسي كونيني (ولد عام ١٩٣٠م) المنفي من جنوب أفريقيا منذ عام ١٩٥٩م، أن يكتب بلغة قومه الزولو، على الرغم من أنه يكتب أيضاً بالإنجليزية، وأثمرت محاولاته شعراً ونثراً كثيراً، فضلاً عن ملحمته الشعرية «الإمبراطور تشاكا العظيم»... ومن شعره بالزولوية هذه القصيدة القصيرة بعنوان «نوزيزدى» وتدور عن خائنة باعت قومها وعملت في شرطة حكومة الأقلية البيضاء:

كيف ستصبحين مركز أحلامنا
وتهبين الحياة لجميع ما تركنا
كيف ستشفين جراحنا
وتجبرين العظام التي تكسرت
ولكنك خنتنا!
اخترت حبيباً من الأعداء
ورحت تتباهين به أمامنا مثل خطيئة
وجرؤت على معانقة قاتل أبيك
وقدت عشائرك إلى المشانق
وهزئت بآلهة أجدادنا
وبحت بأسرارنا بصوت عال أمام الغرباء الصغار،
سخرت برؤوس شيوخنا المقدسة
وألقيت شعرهم الأشيب أمام الأطفال
فزموا شفاههم التي تحمل الحقائق القديمة،
وألقت عيونهم الغائرة اللعنة على جسدك
وها هو النهر الجاري سيبتلعك

ولكن الشعر لا يقدّم حلولاً على أي حال، فحسبه أن يتساءل، ويصور، ويشخص، حتى وهو يبدي التفاؤل والالتزام بالشعارات، فالمشكلة اليوم هي أن عهد الحرية والاستقلال ليس الجنة الموعودة بأي حال، وإذا كان الشاعر الأفريقي في العهد

الاستعماري، قد عدّ نفسه ضمير قومه، ولسان جنسه، فشاعر العهد الجديد لم يفقد هذا الإحساس، وإن كان فقد الأمان، وعليه أن يستمر في الحلم والتعبير عن حلمه.

المراجع والمصادر

١- مختارات من الأدب الأفريقي، ص١٢٥- ١٣٠.
٢- الدراما الأفريقية، ص٧ - ١١.
٣- سبعة أدباء من أفريقيا، ص١٠٦ - ١٢١.

4- Tibble, African- English literature.

5- Mphalele, the African Image, 70.

6- Gray, the penguin Book of southern African Verse, p 36 – 45.

التربية في مصر القديمة

د. ملكة أبيض *

أولاً: تمهيد:

الماضي.. التراث.. الجذور... كلمات تتردد لدى مباشرة أيّ إصلاح أو تطوير للمجتمعات البشرية.

لقد عملت أوروبة على استعادة تراثها اليوناني. الروماني القديم، بغية التخلص من العصور الوسطى المظلمة التي اناخت عليها قروناً عديدة، ونجحت في إحداث نهضة، ما لبثت أن تطورت إلى ثورة علمية -تقنية- اجتماعية شاملة في القرون الثلاثة الأخيرة.

ويحاول العرب بدورهم حالياً إحداث نهضة تنقذهم من التخلف والتبعية للدول المتقدمة. من هنا تبرز لديهم فكرة الاستعانة بالتراث لشق طريق أصيل مستقل لهذه النهضة. ولكنهم يتساءلون عن حدود تراثهم مكانياً وزمانياً: أهو التراث الضيق الذي قام في إطار الجزيرة العربية، خلال فترة لا تبعد كثيراً عن بزوغ الدعوة الإسلامية؟ ذلك المفهوم الذي تبناه المؤرخون العرب في العصور الإسلامية الأولى. أم هو تراث المنطقة الواسعة التي امتدت إليها الفتوح الإسلامية، وصهرت شعوبها في بوتقة العروبة والإسلام حتى غدت أقرب ما يكون إلى الأمة الواحدة؟

إني أميل - في الحقيقة - إلى المفهوم الثاني لسببين:

الأول، إن هذه المنطقة التي نسميها الوطن العربي كانت موطن أقدم الحضارات الإنسانية، وإن مكوّناتها كانت على اتصال وتبادل مستمر فيما بينها بحيث أن أي إنجاز يحدث في رقعة ما، سرعان ما كان

* باحثة وأستاذة التربية في عدد من الجامعات العربية.

ينتقل إلى رقعة أخرى. حرباً أو سلماً. ويقيم تقارباً بينهما في معظم ميادين الحياة.

والثاني، إن التراث القديم للمنطقة ما يزال ماثلاً للعيان في جميع أرجائها، وهو يشكل زاداً غنياً للأمة بأسرها، يسهم في توسيع ثقافتها وإغنائها. من هذا المنطلق يقول الشاعر سليمان العيسى:

وأبعد نحن من عبس
ومن مضر نعم أبعد!
حمورابي وهاني بعل
بعض عطائنا الأخلد
لنا بلقيس والأهرام
والبردى والمعبد
ومن زيتوننا عيسى
ومن صحرائنا أحمد
ومنا الناس . يعرفها
الجميع . تعلموا أبجد

ومن هذا المنطلق أيضاً أتحدث عن التربية المصرية القديمة بصفتها عنصراً هاماً من عناصر التراث التربوي الذي يجدر بنا الاستعانة به في تجديد التربية العربية المعاصرة.

لقد دأب معظمنا على البدء بدراسة الأنظمة التربوية مع التربية عند اليونان، ذاكرين أن الشعوب التي سبقتهم كانت لديها مؤسسات لتعليم الكتابة، وربما لتدريب المقاتلين أيضاً، ولكنها لا ترقى إلى تشكيل نظام تربوي متكامل يُعدّ الأطر التي تحتاج إليها لتيسير أمورها. وهذه بداية قاصرة لأنها تغفل الأنظمة التي ظهرت في الشرق القديم. ولا سيما في مصر. وربما كانت الأنموذج الذي أفاد منه اليونانيون أنفسهم في تطوير نظامهم.

وقد أفردتُ في كتابي «التربية في الوطن العربي: منظور قومي تاريخي»[1]، فقرة خاصة للتربية في وادي النيل. ولكني سأقف هنا وقفة أطول عند ما يمكن أن يسمى بالنظام التربوي في هذه المنطقة، قبل تعرضها للغزو الخارجي والنفوذ الأجنبي، أي خلال حكم السلالات الذي ينقسم إلى فترات ثلاث: المملكة القديمة، والمملكة الوسطى، والمملكة الحديثة، لأن هذا النظام يعد أنموذجاً جميلاً ينطوي على مبادئ وممارسات عديدة لا تزال موحية في مجال التجديد التربوي. وهذه الفترات تحدد على النحو التالي:

١- فترة المملكة القديمة بين ٢٦٥٠ و٢١٥٢ق.م. وقد حكمت فيها السلالات الست الأولى. ويُعدّ عهد السلالتين الرابعة والخامسة منها أول عصر ذهبي في الحضارة المصرية، فقد نشأت فيه اللغة الهيروغليفية، وبنيت الأهرامات وتمثال أبي الهول، ونعمت فيه البلاد بالازدهار والسلام.

٢- فترة المملكة الوسطى بين ٢١٥٠

و١٧٥٩ق.م. لقد سقطت المملكة القديمة نتيجة استيلاء النبلاء على السلطة، وقامت إثر ذلك ثورات شعبية وغزوات متقطعة، مما جعل الحكم ضعيفاً يتسم بالعنف والفوضى. على أن الفن المصري شهد تطوراً لم يعرفه من قبل، ولاسيما في مجال النحت.

وفي هذه الفترة تعرضت مصر لغزو مجموعات عربية تدعى «الهكسوس» أو الملوك الرعاة، بسطت سلطانها على منطقة الدلتا، ثم ثار حكام مصر العليا وانتصروا عليها حوالى نهاية القرن السابع عشر قبل الميلاد.

٣- بدأت المملكة الحديثة أو الإمبراطورية (١٠٨٥-١٦٥٠ق.م.) حين أسس أحمس الأول، بطل حرب التحرير الوطني، السلالة الثامنة عشرة. لقد أدى نجاح المصريين في حربهم ضد الهكسوس إلى نمو الروح العسكرية لديهم وتخليهم نهائياً عن سياسة العزلة والمسالمة، فغزوا فلسطين وسورية، واستطاع «تحوتمس الثالث» تكوين إمبراطورية متعددة الأقوام تمتد من الفرات إلى شلالات نهر النيل.

بعد ذلك مرت مصر بمرحلة ما بعد الإمبراطورية بين ١٠٧٠ و٣٣٢ ق.م. وهي مرحلة انحطاط، تعرضت فيها لغزو النوبيين، والليبيين، والآشوريين، ثم الفرس. وجاء بعدها البطالسة بين ٣٣٢ و٣١ ق.م.، حيث أصبحت مصر مركزاً من مراكز الحضارة الهيلّينستية، ثم الرومانية، ثم البيزنطية.. حتى قدوم الفتح العربي. الإسلامي.

ثانياً: نظام التعليم في مصر القديمة:

هناك دلائل، منذ الدولة القديمة، على قيام مدارس عامة تعدّ آلاف الكتبة الذين تستخدمهم الدولة، وملاّك الأراضي، وكبار التجار، ورجال الأعمال...

ذلك أنه كانت هناك دوافع عديدة تدفع الطلاب للتعلم. ويمكن تلخيصها فيما يلي:

١- الدافع للانخراط في سلك الهيئة الحاكمة.

٢- الدافع لخدمة المطالب الدينية، أو لاكتساب نصيب من العلم الديني...

٣- الدافع لاكتساب العلم، وتقديره.

٤- الدافع لتعلم الكتابة، وهي القاسم المشترك والأداة اللازمة لتحقيق الأهداف الأخرى.

لقد عرف المصريون الكتابة منذ أواخر القرن الرابع قبل الميلاد. واقترنت معرفتهم لها باستخدام صفحات البردي والمداد والقلم، وساعدهم ذلك على تكوين مجتمع متميز عما عاصره من المجتمعات القديمة، تيسرت فيه عملية التعلم، وتناقل المعارف، وأصبح لأهل الكتابة شأن كبير.

وفيما يتعلق بالمدارس، ازدهرت في مصر

منذ عام ٢٠٠٠ ق.م. ثلاثة أنواع من المدارس على الأقل وهي:

مدارس تابعة للمعبد، تُعدّ رجال الدين.

ومدارس تابعة للبلاط، تُعدّ موظفي المكاتب.

ومدارس تابعة للدوائر الإقليمية، تعدّ الطلبة للعمل في التجارة الخاصة، أو لدى دوائر الحكومة.

ومن الجائز قيام مدارس عسكرية منفصلة لأبناء طبقة النبلاء الذين كانوا يُعدّون للخدمة في جيش الفرعون.

وكانت هناك معاهد عليا تدعى «دور الحياة» تتبع المعابد، وتقع في المدن الكبرى أمثال طيبة، وممفيس، وهليوبوليس، حيث كان الطلبة يحصلون على إعداد بصفة كوادر في المهن العلمية كالهندسة، والطب، والفلك، وغيرها.

ويلاحظ في الأنواع الثلاثة الأولى من هذه المدارس وجود مراحل ثلاث:

١- مرحلة تعليمية أولية يتلقاها التلميذ في مدرسة متواضعة ملحقة بالمعبد، أو في مكان ما يخص المعلم، أو في منزله على يد والده، أو أحد أهله. وهناك دلائل على مرافقة الصغار للكتبة الكبار والتعلم منهم، على طريقة تعلم المهن بالمرافقة.

٢- مرحلة جماعية متقدمة يحضرها التلاميذ في مدارس نظامية، وتعود الأدلة على وجودها إلى المملكة الوسطى، ولكنها استمرت وازدادت أعدادها في المملكة الحديثة.

٣- مرحلة تطبيقية، دلت كراسات من الدولة الحديثة على أن الطلاب كانوا يحضرونها في مكاتب الإدارات الحكومية. ومن المحتمل أن تكفّل الإدارات الحكومية بهذا النشاط التعليمي يعود إلى عصور الدولة القديمة.

كانت المرحلة الأولية تمتد على أربع سنوات في المدرسة النظامية يتلقى الطفل خلالها مبادئ الكتابة والقراءة والحساب، وبعض المختارات الأدبية وربما الدينية أيضاً على هيئة المحفوظات. وهي تبدأ في سن مبكرة كالخامسة أو السادسة.

وكان تعلم القراءة والكتابة عملاً شاقاً. فقد كان على الطلاب أن يتعلموا إضافة إلى الرسوم الكتابية الهيروغليفية، كتابة رقعية «هيراطيقية»، تستخدم للأغراض التجارية والصناعية، وكتابة شعبية «ديموطيقية» استخدمت في المراسلات غير الرسمية.

أمّا المرحلة المتقدمة، فتنتظم في مدارس كبيرة تقع في العاصمة أو في عواصم الأقاليم، وتستقبل تلاميذ العاصمة وأبناء النواحي التابعة لها. ولم تكن مقصورة على طبقة بعينها، بل تجمع بين أبناء النبلاء وأبناء الرجال العاديين. تخضع الدراسة

فيها لمواعيد منظمة، ومنهاجها واسع يضم الجغرافيا والتاريخ والرياضيات إضافة إلى القراءة والكتابة والمواضيع الأدبية والدينية، وتتوقف مدة الدراسة فيها على حاجات التلاميذ، إلا أنها توصل في حال إتمامها إلى معهد الكتبة العالي الملحق بالبلاط الملكي أو بالمعبد الرئيسي.

وقبل دخول المعهد العالي في سن السابعة عشرة، كان على الشباب أن يخدموا مدة ثلاث سنوات أو أربع في المكتب أو في الدائرة التي كانوا يُعدّون من أجلها. وخلال هذه الخدمة يجري تعليمهم على يد أحد الموظفين. ويسمى التلميذ في هذه المرحلة: الكاتب تحت الإشراف. ويشتمل هذا التعليم على التعريف بالإدارة ونظامها، والجهات التابعة لها، وطرائق العمل فيها، والقيم التي يجب مراعاتها، وكتابة الرسائل، وحفظ الوثائق.. إلخ..

وتعود الوثائق التي اكتشفت بشأن هذا التعليم إلى: إدارات بيت المال، وإدارات الجيش، وإدارات المعابد.

هذه لمحة سريعة عن المؤسسات والمناهج، أما أساليب التعليم وطرائقه فقد اعتمدت اعتماداً كبيراً على الاستظهار والتدريب. وكان الطلبة يمضون ساعات طويلة وهم يخطّون الأحرف، ثم الكلمات على ألواح طينية، أو على قطع الأواني الفخارية المكسورة. وفي مرحلة متقدمة كان يسمح لهم باستخدام ورق البردي نظراً للاعتقاد السائد بأن الكتابة كانت من اختراع الإله «توت» الذي أوحى بأسرارها إلى سكان الوادي الأوائل. وكانت مهمة المدارس صيانة هذا الأدب الموحى به من السماء. وكان التلاميذ يعلّمون في سن مبكرة بأنه يترتب عليهم أن يتقنوا تماماً كتابة النصوص القديمة التي تعطى لهم كنماذج إذما أرادوا أن يصبحوا كتبة ماهرين.

وهذا يفسر إلى حد بعيد صرامة النظام وقسوته. فقد كان الطلبة يجلدون دونما رحمة إذا ما خرقوا النظام خرقاً بسيطاً، كما كانوا يتعرضون للتقييد بالأصفاد والسجن أشهراً كاملة. وقد بقي من ذلك العصر عدد من الأقوال المكتوبة تثبت ذلك، منها قول أحد المعلمين لتلاميذه: إن الصقر يُعلّم كيف يطير، والحمامة تُعلّم كيف تبني عشاً، وأنا سأعلمكم حروفكم أيها الكسالى الأوغاد!.. وكانت الغاية من هذه القسوة صيانة الصيغ الثقافية القائمة والحفاظ عليها. وقد نجح النظام في المحافظة على الحضارة المصرية مدة تزيد على ثلاثة آلاف عام. إلا أنه أدى، حين اتصلت الحضارة المصرية بالحضارات الأخرى إلى ذوبان الحضارة المصرية في بعض جوانبها بتلك الحضارات.

يبقى أن نذكر أن المصريين القدماء كانوا أوّل من استخدم أوراق البردي من أجل التدرب على الكتابة، كما استخدموا طرقاً حسية في تعليم العدّ وفي الأعمال الحسابية الرئيسية، واستخدموا الأشكال في تعليم الهندسة.

ثالثاً: تعليم الإناث:

إضافة إلى الملِكات المثقفات اللواتي بلغن العرش في مصر الفرعونية، هناك أمثلة عن سيدات أخريات متعلمات. هذه الأمثلة وإن تكن قليلة جداً، فإنها تسمح بالقول أنه لم يكن هناك حائل مفروض يحول بين الإناث والتعلم إذا دفعتهن الرغبة أو قادتهن الظروف إليه.

والأرجح أن الطبقة العليا كانت تكلف من تثق به من الرجال تعليم بناتها، فقد أوكلت حتشبسوت تربية ابنتيها إلى المهندس «سنحوت» وأخيه «سن مين» والقائد العجوز «أحمس بان». وهناك أمثلة من الدولة الوسطى عن إسناد تربية الفتيات إلى رجال معروفين(٢).

وهناك رسالة خاصة تنتمي إلى عصر المملكة الحديثة وجّهتها إحدى سيدات الحريم الملكي بالفيوم إلى الملك سيتي الثاني تخبره فيها بنجاحها في تثقيف وتدريب جماعة من الفتيان الأجانب عهد بهم إليها، وأغلب الظن أنه لو لم تكن هذه السيدة على قدر من العلم والمكانة لما وجهت رسالتها إلى الملك رأساً، ولما عهد إليها بتثقيف أولئك الفتية(٣).

رابعاً: التربية في قصور الفراعنة:

تدل شواهد كثيرة على قيام تعليم في القصور يشرف عليه الفراعنة بأنفسهم. وهذا التعليم لا يقتصر على أبناء الأسرة الحاكمة بل يتجاوزهم إلى تلاميذ آخرين من خارجها، تتم تربيتهم بين الأمراء (أبناء الملك) في القصر، بداخل جناح خاص بالحريم الملكي.

لقد بدأ هذا التعليم -بحسب الشواهد- منذ النصف الثاني لعصر الأسرة الرابعة على الأقل. وكان يعنى بتنشئة أولاد الخاصة إلى جانب الأمراء، وكان هؤلاء يتلقون منهاجاً متنوعاً يؤهلهم لمناصب الحكّام، كما يُؤهلهم لمناصب الكهنة، ومناصب الضباط. فقد كان المنهاج يتضمن التربية الرياضية، والثقافة العسكرية إضافة إلى الثقافة الأدبية والدينية والمعلومات العامة.

وقد يمتد هذا التعليم إلى أبناء العامة. فهناك شاهد عن «ديودور الصقلي» على أنه عند ميلاد الملك سيزوسيس (سنوسرت الثالث)، جمع أبوه إليه كل الأطفال الذكور الذين ولدوا معه في نفس اليوم، وخصهم جميعاً بتربية واحدة، وتعليم متجانس(٤).

خامساً: دور الحياة:

تعد هذه المؤسسات قمة السلم التعليمي. وقد رأى بعض الباحثين فيها نوعاً من الأكاديميات، أو المعاهد العليا، أو الجامعات.

عرفت دور الحياة منذ الدولة القديمة، وكانت توجد في الحواضر الهامة، وحيث توجد المعابد الكبرى. وكان يطلق على خريجيها لقب «كتبة دور الحياة» أو «علماء دور الحياة»، دلالة على اتساع ثقافتهم في الدين، والطب، والمعارف العامة، والسحر. وكان لهؤلاء نشاط تعليمي في هذه المجالات جميعاً. كما كانوا يعملون في نسخ النصوص، والتأليف. ومنهم كان يجري اختيار مؤدبي أبناء الملك.

وعندما تضاءل استعمال الكتابة الهيروغليفية في العصور البطليمية والرومانية اشتد ارتباط كُتّاب دور الحياة بها، واعتبروا العارفين بها والأمناء عليها.

ولما كانت دور الحياة تحتفظ في قاعاتها ببعض ما يكتب فيها، فإنها عُدّت مكتبات أو دوراً للوثائق أيضاً يجري فيها نسخ النصوص وتصنيفها وحفظها، إضافة إلى دورها الأصلي في التعليم.

سادساً: دور الكتب والمخطوطات:

عُرفت دور الكتب المصرية منذ القرن ٢٥ ق.م. على أقل تقدير، مع ملاحظة أن تسمية «الكتب» فيها تسمية تجاوزية بالنسبة للعصور المصرية القديمة التي لم تستخدم الكتاب ذا الدفتين، وإنما عرفت مخطوطات البردي والجلود.. التي كانت تحفظ في جرار وصناديق ومشكاوات مناسبة، فضلاً عن بطاقات، ولوحات من الخشب والعاج والأبنوس و«الشست»، واللخاف.. إلخ. وكان من رعاتها المقدسين الربة «سشات» ربة المخطوطات، والمعبود «تحوتي» ذو المكانة في دار الكتب، والمعبود «حور» وليّ الكتب والمخطّط في دار الكتب.

وهناك دور كتب عامة تعنى بالوثائق أو «الأرشيف»، وأخرى دينية تعنى بالنصوص الدينية، وخصوصاً ما يتعلق منها بالتراتيل اليومية التي تؤدى للفراعنة، وتراتيل أعيادهم، وأعياد الآلهة التي يحبونها. إلا أنها تعنى أيضاً بنصوص متنوعة أدبية، وفنية، وعلمية (ولا سيما الفلكية منها)، وما يتعلق منها بالسحر.

ومن هذه الدور، دار كتب معبد الرمسيوم، التي أقيمت في قاعة ذات ثمانية أساطين تلي بهو الأعمدة. وقد صُوِّر في سقفها مناظر فلكية، وعلى جانبي مدخلها «سشات» ربة الكَتَبة وراعية دار الكتب، و«تحوتي» رب المعرفة، ومعهما «رمسيس الثاني» يحمل أدوات الكتابة؛ كما ذكر في نقوشها آلهة السمع والبصر، والفطنة والنطق. وتذكر

النصوص أن بابها كان مُوَشّى، أو ذا تصاوير موشّاة، بالذهب والأحجار الكريمة.

وهذه المكتبة، وإن لم يبق شيء من كتبها، فإن ما كان مصوّراً في سقفها من المناظر الفلكية يوحي بأنها كانت تتضمن مخطوطات في علم الفلك، فضلاً عن كتبها الدينية والطقسية الأخرى.

سابعاً: الأنشطة البيتية- دمى الأطفال وألعابهم:

يعد المربون ألعاب الأطفال من أقرب وسائلهم إلى جمع المعارف وإثبات شخصياتهم. وأدوات اللعب الباقية من مصر القديمة تتمثل في عدد من اللعب الصغيرة وجد أغلبها في مقابر الأطفال. وقد صنعت هذه اللعب من مواد مختلفة كالخشب، والعاج، والطين، والحجر الجيري، والجلد. ثم إن منها ما هو متواضع خشن الصنع، ومنها ما هو متقن الصنع، معتنى به.

ومن أمتع هذه اللعب، اللعب المتحركة، ويوجد أكبرها في مقبرة بـ«اللشت» لفتاة تدعى «حابي» وهي من العاج، وتمثل أربعة أقزام يؤلفون فرقة راقصة. ويقف الرئيس يصفق بيديه كأنما يضبط لهم الإيقاع بينما يقف كل من الثلاثة رافعاً ذراعيه إلى أعلى، وقد بدا على أحدهم كأنما يغني بينما أخرج الثاني لسانه، وانهمك الثالث في الرقص. وتوجد في القاعدة الخشبية الكبيرة ثلاثة ثقوب يحتمل أنه كان ينفذ منها ثلاثة خيوط يتصل كل منها بقاعدة أحد الأقزام لتديرها الطفلة حيث شاءت.

وفي متحفي القاهرة وليدن لعبتان متماثلتان من الخشب تمثل كل منهما رجلاً يمسك بين يديه جسماً أسطوانياً قد يمثل مرحاة يطحن بها الحب ينزل به ويصعد على منحدر مائل أمامه. وقد ربط في جانبي جذع الرجل خيطان يشدهما الطفل فيوقفه، ويرخيهما فيجعله يميل.

وإلى جانب هذه اللعب الإنسانية المتحركة عثر على لعب أخرى حيوانية متحركة، وأشهرها ما يمثل تمساحاً خشبياً ذا فك متحرك مُثّل وكأنه يسير في خطو وئيد، وقطة خشبية ذات فك متحرك وعينين مطعّمتين. وثمة لعبة متحركة تجمع بين إنسان وحيوان، وهي لرجل ومن ورائه كلب على محور يمكن أن يدار ليهاجم الكلب فريسته.

أما الدمى غير المتحركة فهذه الأخرى كانت منها الإنسانية ومنها الحيوانية، ومنها ما يجمع بين الإنسان والحيوان.

لقد صُنعت بعض الشعور المستعارة للدمى الإنسانية من الخيوط المجدولة، وبعضها من حبات الطين المسلوكة في خيوط على هيئة الخرز، وبعضها من الصوف.. كما إن منها ما حفرت فيها ثقوب صغيرة

لتثبيت خصل من الشعر الطبيعي، ورُسم على بعض هذه الدمى عقد أو أكثر، على حين احتفظ بعضها الآخر بعقد صغير مجسم حول العنق...

وعدا هذه الأشكال الإنسانية توجد مجموعة كبيرة من الحيوانات الواقفة والباركة مثل القطط والكلاب والقردة والخراف والجرابيع وأفراس النهر، وأغلبها من القاشاني المزخرف...

وإلى جانب هذه الصنوف من اللعب، وجدت لعب أخرى بسيطة لأطفال العامة كالخشاخيش التي كان هيكلها الداخلي يصنع من أعواد نباتية رفيعة يلف القش حولها، والخشاخيش الفخارية، وربما الخذاريف الخشبية أيضاً(٥).

هذه الجهود المبذولة في صنع لعب الأطفال ودماهم تعكس مدى اهتمام المجتمع المصري القديم بالأطفال، وعمله على إمتاعهم بطريقة تربوية لم تعرفها إلا المجتمعات البالغة التطور. فالتعلم عن طريق اللعب يمثل ذروة التقدم في التربية الحديثة. كما أن الأشكال الفنية المتقنة للعب والدمى تعكس التقدم الفني الذي تميز به المجتمع المصري القديم. فلا يستغرب من المجتمع الذي أبدع الأهرامات، وأبا الهول، والمعابد، والتماثيل المنقطعة النظير، أن يبدع هذه الأشكال الفنية للعب أطفاله.

ثامناً: الأنشطة البدنية والرياضية:

حظيت الرياضة لدى قدماء المصريين باهتمام لا يقل عما حظيت به الفنون بأشكالها لديهم؛ وذلك قبل قيام الحضارة اليونانية بزمن طويل. وكان الغرض التربوي منها واضحاً لديهم، كما يتبين من الشاهد الذي يرويه ديودور الصقلي -والذي أشرنا إليه فيما سبق- «من أن الملك المصري سيزوسيس (سنوسرت الثالث) قد نُشِّئ معه مواليد يومه من أبناء الشعب على حد متساوٍ من إعلان الرأي، وأنهم كانوا يُدرَّبون برياضة ومشاق لا تنقطع، بحيث لم يكن يسمح لأحدهم بتناول طعامه قبل أن يكون قد قطع عدواً مئة وثمانين ستاداً!».

وما أتت به المصادر المصرية عن الألعاب الرياضية يتميز فيه ما كان يمارسه الصبية والتلاميذ، عمَّا كان يمارسه المحترفون والعسكريون.

وليس من شك في أن الألعاب الجماعية تظل أكثر أثراً في نفس الصبي أو الفتى وتكوينه من الألعاب الفردية. غير أن نجاح هذه الألعاب الجماعية يتطلب شرطين أساسيين، وهما قبول رب الأسرة لاتجاه أبنائه إلى ممارستها واختلاطهم بغيرهم، ثم توافر المكان المناسب لها.

وتدل المشاهد المصورة في مقابر الأسر على رضا الآباء بتصوير أبنائهم وهم يلعبون

مع أقرانهم. فقد أتت بعض مقابر من الدولة القديمة بمناظر رياضية تضم مجموعات من الصبية، كما أتت بعض مقابر من الدولة الوسطى بمناظر رياضية تضم مجموعات من الفتية ومجموعات من الفتيات.

وتحتمل ممارسة الصبية المصريين لألعابهم الرياضية الجماعية في المدارس. فثمة نصوص يحتمل معها وجود ساحات للعب كان تلاميذ المدارس يختلفون إليها. إذ تقول إحدى الأمهات إن ابنها حور «ألحق بالمدرسة، فتعلّم أن يكتب جيداً جداً. وكان يمارس كل فنون النزال، وتفوّق على أقرانه الكبار الذين كانوا بالمدرسة».

وتعج المقابر بصور عشرات من ألعاب التوازن والمباريات التي تشبه إلى حد بعيد ألعاب «السيرك»، وألعاب الكرة الحالية للفتيان والفتيات. كما توجد في المتاحف أعداد كبيرة من كرات اللعب المصرية. وكانت هذه الكرات تُتّخذ من ألياف البردي أو النخيل، أو من قش الشعير، ثم تكوّر ويخاط عليها بقطعتين من الجلد تكون كل منهما بشكل نصف الدائرة، أو بأربع قطع تكون كل منها بشكل ربع الدائرة، أو بشرائح طولية تخاط مع بعضها بالطول. وقد يكون الجلد مدبوغاً أو غير مدبوغ، وقد يكتفى فيه بلون واحد، أو تكون قطعة بألوان زاهية مختلفة.

ووجدت كرات صنعت طبقتها الخارجية من شرائح البردي المجدولة من دون غطاء جلدي.

إلى جانب هذه الرياضات صوّرت المناظر والنصوص المصرية ألعاباً رياضية يتطلب أداؤها الجهد والتمرين والمهارة معاً. وأهم أنواعها: حمل الأثقال، والقفز الطويل، والعدو، والمصارعة، والمبارزة، والتجديف، وربما الملاكمة أيضاً[٦].

ومما لا يخلو من معنى في مدى حب المصريين للرياضة، أنهم جعلوها مما تتم به أعيادهم الدينية. فقد أتت مناظر متعددة رائعة لفتية وفتيات يقومون بحركات منظمة في غاية البراعة، وما من شك في أن أداءها كان يستلزم تعليماً ومراناً.

كما احتفظت المناظر المصرية بعدة صور للتعليم الجماعي في الرقص الإيقاعي والموسيقا والغناء. فثمة منظر لمعهد للرقص الإيقاعي صُوّرت فيه ست وعشرون فتاة على أقل تقدير يؤدّين حركات إيقاعية ويتشابكن في أوضاع منتظمة، من دون استخدام الموسيقا، وظهر معهن رجلان يراقبانهن، ومنظر آخر لمعلم موسيقا مع عشر فتيات يدربهن على استخدام آلة «السستروم»، ثم يظهر معهن مرة أخرى وهو يدربهن على الغناء المصحوب بالتصفيق[٧].

خاتمة:

هـذا غيض من فيض مما سجلته المصادر المكتوبة والمصورة حول التربية في مصر القديمة. وهي تدهشنا بما تشير إليه من تقدم على جميع الأصعدة: البيت، والمدرسة، والإدارة المحلية، والقصر، والمعبد؛ وفي جميع جوانب الحياة: العمل، والمعرفة، والرياضة، والفنون.

وليس بمستغرب أن يرى فيها «كريستوفر لوكاس»، وهو أحد كبار مؤرخي التربية المعاصرين، الأسس التي قامت عليها التربية الحديثة، في البلدان المتقدمة. فعنوان كتابه في هذا المجال «تراثنا في الغرب Our Western Heritage»[8]. وإذا كان الغرب يرى في أشكال التربية التي تطورت في سومر وأكاد ومصر القديمة تراثاً له، فما أحرانا نحن، أبناء هذه المنطقة، أن نعدّها تراثنا أيضاً، ونعود إليها لنستأنف السير انطلاقاً مما توصلت إليه، من دون أن نهمل ما أفدناه وما نفيده من التواصل مع الثقافات الأخرى.

الهوامش

١- د ملكة أبيض، التربية في الوطن العربي: منظور قومي تاريخي، الهيئة العامة السورية للكتاب، دمشق، ٢٠١٢م.

٢- د.عبد العزيز صالح، التربية والتعليم في مصر القديمة، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة،١٩٦٦م، ص٢١٥.

٣- المرجع نفسه، ص١٩١.

٤- المرجع نفسه، ص٢٠١.

٥- المرجع نفسه، ص٥٦.

٦- المرجع نفسه، ص١٠٩.

٧- المرجع نفسه، ص ص١١٥-١٢١.

8- Christopher Lucas, Our Western Heritage, N. Y. Macmillan Publishing Co. Junc. 1972.

جولة في ظروف الوطن العربي

د. أحمد عمران الزاوي ✪

الوطن العربي، الذي يحتضن الأمة، هو وطن مترامي الأطراف، متباعد الحدود، كثيف السكان، تصدَّر قيادة (العلم والحكم والفن) قروناً عديدة.. ثم هو بين الأمم ذو فرادة جغرافية تدل عليها حدوده وموقعه الإستراتيجي بين الأمم، فهو:

– صلة اتصال أبدية بين قارتي «آسيا» و«أفريقيا».

– يمتلك حدَّي البحر المتوسط الجنوبي والشرقي ويمتد حتى ناصيته.

– ويحوز قسماً كبيراً من شاطئ الأطلسي الشرقي حتى السنغال.

– ويقبض على البحر الأحمر من السويس حتى باب المندب.

– ويزحف فيضم «جيبوتي» و«الصومال» و«السودان».

وينطلق إلى ليبيا وتونس والجزائر والمغرب.

– ويشكل الخليج استراحته البحرية ليتمطى إلى الحدود التركية محاذياً جبال زغروس التي تشكل الحد الطبيعي الفاصل بينه وبين بلاد فارس.[1]

قالوا:

كانت هذه المنطقة الجغرافية مهد الحضارات الإنسانية.

ويوضحون:

إن أي باحث في تاريخ الحضارة لو تخطى حضارة المصريين من هندسة أقامت خوالد الأهرام وكتاب الموتى الذي هو مصدر الأمثال التي نسبت إلى سليمان بن داوود.

ولو تخطى حضارة «السومريين»

✪ أديب ومحام وناقد سوري.

و«الأكاديين» و«البابليين» و«الآشوريين» و«الكلدانيين» و«الأنباط» و«الآراميين».

ولم تستوقفه روائع بعلبك وتدمر وماري ووادي الملوك وأبو الهول فلن يعثر في التاريخ إلا على الجذاذات الحضارية المنهوبة من هذه المنطقة.

لقد بدأت حضارة اليونان من الأبجدية الفينيقية وبعد أن تجاوزت مرحلة الطفولة وردتنا روائعها فانكب عليها أجدادنا تعديلاً وتبديلاً ورفعاً ووضعاً فأثمرت تلك الثمار العظيمة مثل «الفارابي» وابن حيان والبيروني وابن سينا والرازي والخوارزمي وغيرهم.

-إن فيثاغورث[٢] الذي كان قدوة لأفلاطون مدين بفلسفته إلى ما تلقاه من علماء وادي النيل ووادي الرافدين.

والقدس بناها اليبوسيون عاصمة لملكهم وسموها يبوس[٣] قبل أن يخلق الله يعقوب-إسرائيل- جد اليهود بألفي سنة، وقد أطلق عليها فيما بعد اسم أورشالم[٤] أطلقه أحد ملوكها «ملكي صادق».

-ودمشق أقدم مدينة مسكونة في التاريخ.

-وبيبلوس- جبيل أقدم المدن الفينيقية بناها الفينيقيون في القرن الثلاثين قبل الميلاد منها انطلقت صناعة الورق والكتابة وظلا يحملان اسمها حتى اليوم «بيبل وبيبر».

- وبيروت أم القوانين التي نافست بمدرستها الحقوقية مدرستي أثينا والإسكندرية.

- وأنطاكيا- مركز البطاركة المسيحيين في القرون الأولى وأم «يوحنا فم الذهب».

- والإسكندرية التي بناها الإسكندر في سنة ٣٣٢ ق.م واتخذها البطالسة من بعده عاصمة ثم غدت مركزاً للثقافة العالمية فكان من علمائها «أفلوطين».

- والفينيقيون الساميون الذين استوطنوا لبنان منذ القرن ٢٨ق.م وأنشؤوا كمراكز تجارية مدن: «جبيل» و«صور» و«صيدا» و«بيروت» و«أرواد» و«قرطاجة» و«ملقة» و«قادش» و«مالطة».

واكتشفوا الأبجدية التي اعتبرت أعظم إنجاز حضاري في التاريخ.[٥]

لم آت إلا بالقليل جداً من الكثير جداً من البؤر الحضارية التي أضاءت ظلمات التاريخ بما كانت تختزنه من وقود الثقافة والتطور.[٦]

ولكن زيت الطموح جفّ فيها منذ خمسة قرون فهمدت همودًا يشبه الموت السريري وعاشت مثلما يعيش النبات في أدنى درجات الحياة، إن وجود تلك البؤر الحضارية في تاريخنا هو من مفاخره ومفاخرنا.

وكوننا– كما أجمع الباحثون– سادة «الحكم» و«العلم» و«الفكر» و«الفن» في عالم ذلك الزمن طيلة سبعة قرون هو من دواعي زهوه وزهونا.

نعم:

ولكن -كما قال الجامعة بن داوود: كتب على الأرض أن تودع وتستقبل «جيل يمضي وجيل يأتي والأرض قائمة إلى الأبد».

نعم:

ومثلما لا يستطاع إخفاء الإعجاب ببناة الأهرام وبرج بابل ومقبرة الملوك والحدائق المعلقة وبعلبك وتدمر وماري.

تبهرنا اليوم «ناطحات السحاب» و«الجسور المعلقة» و«الأقمار التي حطت رحالها على تخوم النجوم» و«ذلك الجهاز الذي لا يفيض على مساحة الكف فيسمعك صوت صديقك المتكلم من أقصى الدنيا ويريك شخصه، حتى ليكاد ينسيك ذلك الذي عنده علم من الكتاب الذي قال لسليمان أن آتيك به قبل أن يرتد إليك طرفك[7] فلكل زمن رجاله.

وعلى كل جيل أن يصنع ظروفه بنفسه يتقيد بها مادامت قادرة على احتواء جسده الاجتماعي حتى إذا كبر عليها وجب طرحها، واستبدالها بما يغطي حاجاته الاجتماعية.

إن الفتى من يقول ها أنذا
ليس الفتى من يقول كان أبي

وفي الكتاب:

«تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ».

(البقرة ٢/١٣٤)

وفي الأثر:

لا تقسروا أبناءكم على أخلاقكم فقد خلقوا لزمن غير زمنكم.

(علي بن أبي طالب)

هنا: أرى.

أن أوقف الاسترسال لأحصر البحث في المواضيع التالية:

-أقدم وسائل التخاطب الإنساني وأقدم استعمال لكلمة عرب.

- جولة على أهم الأسباب التي بني عليها المجد العربي وأهم الأسباب التي أسقطت شرفات ذلك المجد.

-بوادر الانطلاق من القمقم بعد خمسة قرون من السبات.

أقدم وسائل التخاطب وأقدم استعمال لكلمة عرب

إن حاجة التواصل الاجتماعي دفعت الإنسان القديم إلى إيجاد الوسيلة ومنذ أن أصبحت الوسيلة لغة، صارت هوية الناطقين بها وقد عبر النبي -صلى الله عليه وسلم- عن ذلك حين قال «**ليست العربية بأب وأم العربية باللسان فمن تكلم العربية فهو عربي**».

ولكنها لم تصبح لغة للتخاطب، والكتابة. إلا بعد مراحل من التطور لا يعرفها غير الله لقد بدأت بما يسمى «بالهيروغليفية» والهيروغليفية ليست لغة بل هي وسيلة للتعبير باليد وهي مؤلفة من مقطعين «الهيرو» ومعناه النقش و«جليف» ومعناه «لوح من الطين».

ذلك التفاهم بالصور الصامتة مرت عليه ظروف التطور فضمرت الصور حتى غدت كالمسامير فأطلقوا عليها فيما بعد اسم «الكتابة المسمارية».(٨)

أمَّا الكتابة التي بنيت عليها اللغة والتي كونت بدء الحضارة فقد وضعها الفينيقيون أبناء «الكنعانيين» الذين هم ذرية كنعان، وكنعان- كما جاء في التوراة- هو ابن فوط وفوط بن مصرايم ومصرايم بن مردوش ومردوش بن حام وحام بن نوح.

لقد رصد الفينيقيون حنجرة الإنسان، فرمزوا إلى كل صوت من أصواتها بشكل سموه حرفاً لتأكيد خصوصيته واستقلاله مثل حرف الجبل والجدار.

ففي المرحلة الأولى لاحظوا اثنين وعشرين صوتاً حنجرياً فرمزوا إليها بالحروف التي جمعوها فيما بعد بالكلمات «أبجد هوز، حطي، كلمن، سعفص، قرشت».

وفي المرحلة الثانية لاحظوا وجود ستة أصوات حنجرية جديدة فرمزوا إليها بالحروف التي جمعت في كلمتي «ثَخَذٌ، ضَظَغٌ».

تلك الحروف التي اعتبرت أعظم إنجاز حضاري سادت بين الأمم شرقاً وغرباً.

-فحملها السريان الآراميون إلى الشرق ووصلوا بها إلى الهند.

-والفينيقيون إلى اليونان ومنهما إلى أوروبة.

-والعروبيون إلى الجزيرة العربية.

أمَّا أقدم استعمال لكلمة عرب كدلالة على جنس وانتماء فقد كان كما قال هيرودوت في عهد كيبوتس(٩) أحد فراعنة الأسرة الرابعة التي حكمت وادي النيل في القرن الثلاثين قبل الميلاد إذ سخَّر هذا الفرعون جميع المصريين لخدمته حيث عيَّن طائفة منهم لقطع الأحجار من بلاد العرب.

وفي «حفريات آشور» ظهر نص محفور على جبهة عريضة من الحجر المصقول تضمن وصفاً لحملة «شالما نصّر» في منتصف القرن السابع قبل الميلاد ضد ملك دمشق المدعو «جنديبو العربي».

وفي سفر أرميا (٢٤/٢٥) وردت كلمة «ملوك العرب» أكثر من مرة.

وفي قصة الحضارة يقول «ديورانت» في المجلد الثاني «الحضارة هي هنا الزراعة واستئناس الحيوانات ظهرت أوّلاً في بلاد العرب».

وثمة شخصيات عربية كان لها تأثير كبير على حركة التاريخ.

نذكر منها في روما فقط:

-فيليب العربي- إمبراطور روما تمثاله في الفاتيكان أصر على كلمة العربي للمحافظة على أصله.

-جوليا- سورية تمثالها في الكابيتول.[١٠]

-جوليا ميزا- إمبراطورة- تمثالها في الكابيتول.

-هيليو جبال- إمبراطور من أصل سوري ومعناه «سبحان الخالق».

-كاراكلا- إمبراطور- هو ابن جوليا دومنا ومعناه «حصن الرب».

-سبتيموس سفيرو- الإمبراطور ذو الأصل العربي.

-جوليا دومنا- الإمبراطورة العربية ومعنى الكلمة «نظيرة الرب» وقد حولها الرومان إلى آلهة وعبدوها.

وأوضحت الحفريات- كما أكد المؤرخ كون- الأستاذ في جامعة بنسلفانيا- أن الصحراء التدمرية كانت جنة من الخصب قبل التصحر وهي مهد الإنسان القديم «سابيناس» كما أنها المكان الذي انطلقت منه جميع الأقوام.

غير أن كلمة «عرب» رغم دلالتها على الأجداد منذ قديم الزمان لم تتلون باللون السياسي إلا مع الدعوة الإسلامية.

فالعودة بالأصل العربي «إلى يقظان بن عابر بن أرفكشاد»[١١] قام إلى جانبه قول بأن جد العرب هو «أرفخشد» الذي هو يعرب حفيد يقظان- قحطان.

أمّا ابن منظور فيقول في لسان العرب.

«يعرب بن قحطان الذي هو ارفخشد، أبو اليمن وهو ابن سام بن نوح وهو أي يعرب أوّل من نطق بالعربية.

أيها القارئ:

مع أنه ليس من اختصاصي اقتحام وديان اللغات والتاريخ فقد جازفت لأضع بين يدي القارئ الحقيقتين التاليتين:

١-العرب كجنس وجذر استقل عن سواه منذ أرفكشاد الابن الثالث لسام بن نوح: «عيلام وآشور وأرفكشاد ولود وآرام».

(تكوين ١٠/٢٣)

٢-العرب الذين سكنوا وتوالدوا في هذا المجوف الجغرافي هم أوّل من عرف «الهيروغليفية» و«المسمارية» و«الأبجدية».

ففي جميع لغات الأمم يرمز إلى مجموع الحروف في كل لغة بكلمة «ألفا به» وهي مشتقة من «أبجد» العربية (أ- ب- ج- د).

ظل التخاطب صامتاً تعبر عنه الأيدي بالصور حتى ظهرت الحروف فصار التخاطب بالكلام والكتابة.

وما من خلاف بين سكان هذا المجوف

الجغرافي إلا في اللهجة تأثراً بعوامل الزمان والمكان وقد أورد المؤرخ المعروف أحمد شيخ داوود مثالاً عن ذلك الاختلاف.

-الجمل يرعى عشبا- اللهجة العربية النقية المتطورة.

-جملو روعي عسبو- اللهجة السريانية.

-جملو روعي عسبا- اللهجة الفينيقية.

ولكن وحدة، الأصل والمناخ، والأبجدية.

لم تستطع- على مرّ الزمن- أن تصنع كياناً سياسياً له حضور اجتماعي بين الأمم بل كان عليها أن تنتظر مئات القرون لكي يجمع الإسلام شتات الفئات واللهجات في كيان واحد ولغة خطابية وكتابية واحدة.

فصار «للعرب» و«للغة العربية» مدلول سياسي وفكري بارز بين الأمم لقد وردت كلمة «العرب» في القرآن بالدلالات الآتية:

-عُرُباً أترابا: (الواقعة ٥٦/٣٧) وعرب، جمع عَرُوب وهي المرأة الضحوك ذات الأسنان الناصعة البياض.

-أعراب: وهم البدو، أهل الوبر: «**قَالَتِ الأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ**». (الحجرات ٤٩/١٤)

-عربي بمدلول بشري: وردت في عشر آيات منها وصف النبي (صلى الله عليه وسلم) بأنه عربي والقرآن بأنه نزل عربياً باللسان العربي (١٦/١٠٣ و٢٦/١٩٥ و٤١/٤٤ و١٢/٢ و١٣/٣٧ و٢٠/١١٣ و٣٩/٢٨ و٤١/٣ و٤٢/٧ و٤٣/٣ و٤٦/١٢).

كما أن اللغة العربية صارت تفيد الجنس العربي لمن يتكلم بها فقد أثر عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قوله: «**ليست العربية بأب وأم إنما العربية باللسان، فمن تكلم العربية فهو عربي**» لذلك عرف التراث العربي كثيراً من أفذاذ المفكرين والمؤلفين ذوي أصول غير عربية ولكنهم لم يتكلموا ولم يؤلفوا إلا باللغة العربية.

(ابن الراوندي من راوند- أصفهان) و(الرازي من الري) و(ابن سينا من أفشنه) و(الفارابي من فاراب- كازخستان السوفييتية) و(الخوارزمي من خوارزم- خراسان) و(سيبويه من البيضا- قرب شيراز) وغيرهم.

فالفارابي الفارسي الأصل أخذ وأعطى وعدل وبدل في فلسفة أرسطو كذلك فعل ابن سينا في تراث جالينوس وأبقراط.

لذلك يكون من باب قلة الإنصاف ألا يرى إليهما وإلى سواهما بالعين العربية.

ومن اغتيال الحق ألا يرى في الفارابي غير صورة مصغرة عن أرسطو وفي ابن سينا غير نسخة عن أبقراط وجالينوس وألا يوزنان ويوزن سواهما من المفكرين بالميزان العربي.

وما ذلك، إلا لأن مـا قدمه الجميع هو تتمات لما سبق.

فالحضارة (علماً وحكماً وفناً وفلسفةً) نهر يخترق الأمد، ليصب في الأبد.

وما مياهه المتدفقة غير تذكير الحاضرين بالغابرين.

أهم أسباب المجد وأهم أسباب الانهيار

القومية أو ما يسمى «الانبعاث القومي» الذي عرفته أوروبة منذ القرن التاسع عشر. لم يحـظ حتى الآن بتعريـف متفق عليه بل تعددت فيه النظريات.

فالقائلـون بنظرية «الرسـ- أو الدم»، والقائلون بوحدة اللغة أو التاريخ.

قوبلوا جميعاً بالمعارضـات الاجتماعية القائمة.

-فمـا من دليل على نقـاء الدم في أمة من الأمم.

-وثمة أمم تتكلم لغة واحدة، وأمم تدين بدين واحد ولكن كلاً من تلك الأمم رسخت ضـمن محدد جغـرافي مسـتقل في الإدارة والنظام والتشريع.

لذلك صار ما يشبه الاتفاق على مايلي:

لا يكفي ما سبق لتكوين الانبعاث القومي بل لابدَّ من وجود العنصر الذاتي.

«العنصر الذاتي»:

هو حاجة الأمة لكـي تنتفض من حالة التجمد إلى حالة التمدد.

هذه الذات الخارقة:

-هـي التي حركت المشـاعر الثورية في الدويلات الألمانية ودفعت بها إلى التوحد في منتصف القرن الثامن عشر.

-وهي التي عصفت بغاريبالدي فاجترح معجزة الوحدة الإيطالية.

-وهي التي جمعت أشـتات يوغوسلافيا من أيدي الروسـ والأتراك والنمسـاويين وكونت الأمة اليوغوسلافية.

بـل إن كثيراً من الحروب والمذابح جرت بين انكلترا وإيرلندة وهما من جنس وتاريخ واحد.

والحربـان العالميتان نشـبتا بين بلدان تدين جميعها بدين واحد.

وقالوا أيضاً:

إن جميع التشكيلات السياسية في التاريخ لم تنجـح إلا بعـد أن تجاوزت التشـكيلات الاجتماعية القائمة على الأسـس الطائفية أو الإقليمية.

ولكن:

ما هي هـذه الذات الخارقة، التي تنفخ روح الوحدة في الأعصـاب الهامدة وتمسح جلاميد الظروف عن الجمر القومي فتخرق الحدود وتمزق السـدود وتقيم بناء الوحدة على أنقاض التخلف والتجزئة؟.

سـؤال جوهـري وجـد جوابـه علماء

الاجتماع بعد أن حضروا طويلاً في تواريخ الأمم فقالوا:

إنها القناعة العامة بضرورة العيش المشترك.

إنها يقين الجميع بوحدة المصير.

القناعة المقدسة التي ترعرعت بين لهيب الخذلان والهزائم.

ولو أسقطنا ما سبق على أمتنا لبانت أسباب البياض وأسباب السواد في مسيرتنا.

ظلت الأمة قروناً عديدة تتكلم بلغة واحدة، وتمارس الأساليب الحياتية التي أوشكت أن تكون واحدة.

ولكنها كانت أشتاتاً سياسية تنوعت بتنوع القبائل:

وهل أنا إلا من غُزيّة إن غوت

غويت وإن ترشد غزية أرشُدْ

كان على هذه الأشتات أن تنتظر القرون الطوال.

حتى إذا جاء الإسلام فطواها وصهرها ثم صاغها في قلادة واحدة.

لقد غربل الإسلام، قيمها، وعاداتها فاستبعد ما وجب استبعاده ولم يبق إلا ما يتلاءم مع العهد الجديد.

كانت الخلافة هي أوّل تشكيل جماعي، نقل العرب من حالة القبلية والشتات إلى حالة الوحدة السياسية والأخلاقية فاستطاعوا في ظل قيمها وأخلاقياتها- أن يظلوا سادة الخط البياني في تاريخ الأمم عدة قرون.

لقد حولت الخلافة أولئك العراة الجوعى إلى مردة جبارين يلقي الواحد منهم بنفسه بين أشداق الموت وهو يقول: «وَعَجِلْتُ إِلَيْكَ رَبِّ لِتَرْضَى».

(طه ٢٠/٨٤)

لقد أفهمهم النبي أن وحدة الأمة لا تتعارض مع الدين.

فالله يقول «**لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ**».

(البقرة ٢/٢٥٦)

ويقول: «**وَقُلِ الْحَقُّ مِن رَّبِّكُمْ فَمَن شَاءَ فَلْيُؤْمِن وَمَن شَاءَ فَلْيَكْفُرْ**».

(الكهف ١٨/٢٩)

فالبساط القومي يتسع لجميع المواطنين من جميع الملل.

وهو إذ يحتوي الجميع- فلأن مصيراً واحداً يصير إليه الجميع.

بعد ما تقدم صارت واضحة- أسباب الانتصار وأسباب الانهيار.

صار معروفاً لماذا انتصر قليلنا على كثير الروم والفرس في اليرموك والقادسية.

وصار معروفاً لماذا تمرغت بغداد على أقدام هولاكو.. ولماذا انحنت قامة دمشق أمام تيمورلنك.. ولماذا طُردنا من الأندلس وجنوب ايطاليا ولماذا رضخنا للسيف

الصليبي مئتي سنة وللتاج العثماني أربعمئة سنـة. وبعد أن حطت الحرب الأولى رحالها وصار التلاقي بيننا وبين الغرب عرفنا لماذا تقاسمنا ولماذا اخترق خاصرتنا باليهود.

تلاقينا مع الغرب؛ فكان تلاقي الضعف مع القوة، والتخلف مع التقدم، والتبعية مع السيادة والغيبيات مع عيون النسور.

حينما تلاقينا كنّا دول طوائف فكان من مصالـح الغرب أن نبقـى دول طوائف لقد تبنى استقـلال تلك المســوخ في الجغرافيا والقانون والسياسة والسيـادة وأقام في كل منها جهـازاً تابعاً له منفـذاً أوامره محققاً مصالحه.

في مؤتمـر بال الذي عقـد في سويسرا عـام ١٨٩٨م خطب هيرتسـل في المندوبين الثلاثمئة اليهود قائلاً:

نريـد الأمة العربية المحررة من الأتراك ولكـن المجـزأة التـي لا تستطيـع الاتحاد ضدنا.

وفي عام ١٩٠٧م دعا كامبل بنرمان رئيس وزراء بريطانيا إلى مؤتمـر أوروبي حضره مندوبـو الـدول الأوروبيـة فخطـب فيهم قائلاً:

هذه الجغرافيا التـي تتساح على أربعة عشـر مليـون كـم٢ يقطنها قـوم يتكلمون ويكتبون بلغـة واحدة وقد عاشـوا الوحدة السياسية والفكرية المتفوقة طيلة قرون.

ماذا يحـل بوجودنا ووجـود مصالحنا المتجـذرة إن توحدت أقاليمهـا على كلمة واحـدة وعمت فيها حضارة الغرب القومية والثقافية والصناعية؟

وتابع:

لذلك: عليكم أيهـا المؤتمرون أن تعدوا خطة لمجابهة الشـر قبل وقوعه وأن تقيموا سـوراً مـن الإجـراءات والترتيبـات حول مصالحنا يحميها من الزلزال القادم.

قال مؤرخو تلك الفترة:

نظراً لخطـورة الأمـر رأى المجتمعون أن يستعينـوا بالخبراء فاستدعوا من دولهم اختصائيـين في علوم «الاجتمـاع والفلسفة والاقتصـاد والتاريخ والفنـون العسكرية» وطلبـوا منهم وضـع مخطـط للإجراءات الكفيلة بمنع وقـوع الزلزال وبعـد انفراد مغلـق دام ستة أشهر خـرج الخبراء بتقرير تبنـى فيه من حيث النتيجة خطاب هرتسل وزاد عليـه بقوله: هذه المنطقة بالغة التأثير على مصالح الغرب.

فعدا عما تختزنـه بواطنها وظواهرها من الثروات الطبيعية.

وعـدا عن كـون شعبها الكثيـف يشكل الأفـواه المستهلكة لمصنوعات الغرب كافة.. عدا عن ذلك فهي الممر البري الوحيد الذي تصل منه إنكلترا إلى الهند وفرنسا إلى جاوه وسومطرة وهولاندة إلى أندونيسيا.

لذلك:

تحتم المصالح الأوروبية أن تبقى حالة التشرذم والأمية والفقر الحضاري راسخة في هذا الشرق عامة على الكبير والصغير فالوحدة بين أقاليمه وانتشار الحضارة في ربوعه هما الد أعداء أوروبة.

وقد رأى الخبراء أن واحدة من الوسائل الأوروبية قد تكون الأنجع من سواها وهي:

القيام بعملية ذبح جغرافي يفصل رأس الأمة القابع على الساحل الشرقي للمتوسط عن جسدها المتمدد على ساحله الجنوبي، وإخلاء إحدى المناطق الشرقية من سكانها العرب وإملاؤها بكتل بشرية تختلف مع المنطقة في اللغة والجنس واللون والتاريخ.

هذه الأوصاف لا تنطبق إلا على اليهود الذين يختلفون بها عن العرب مسيحيين ومسلمين ولا يهمّ أنهم كانوا أقلية في فلسطين بذلك الوقت ففي مقدور أوروبة أن تنفخ الحياة في نداءي نابليون الأول والثالث وأن تستدعيهم من أرجاء الأرض كافة.

ويرد الخبراء عملية الذبح بتذكير المؤتمرين بأن التواصل الكامل بين الرأس والجسد هو الذي حقق وحدة الجيشين المصري والسوري بقيادة صلاح الدين فصنعا معجزة حطين وهو الذي حقق وحدة الجيشين إياهما بقيادة بيبرس فصنعا معجزة عين جالوت.

يقال:

منذ ذلك الوقت تصافحت مصالح أوروبة مع مصالح اليهود.[١٢]

ففيما سبق كان على مندوب الوكالة اليهودية أن ينتظر ساعات على باب أي مسؤول غربي حتى يسمح له بالدخول أما بعد مؤتمر لندن فقد صار من أبرز الزوار وأحقهم بالتقدم.. وحدة المصالح استوجبت توزيع الواجبات.

-فواجبات أوروبة تشجيع الارتحال الجماعي اليهودي من أصقاع الأرض وحماية طريقه وتأمين عيش كريم له من مسكن وصحة وغذاء ودعم استقراره في فلسطين بالمال والسلاح والسياسة وحماية مطامعه مهما ارتكب من اختراقات للقوانين الدولية وحقوق الإنسان.[١٣]

وواجبات إسرائيل لقاء ذلك.

أن تبقى حارساً حاد الأنياب والمخالب على مصالح الغرب في منطقة الشرق الأوسط فعينها يجب أن تبقى ساهرة على «القناة» و«البحر المتوسط» و«الأحمر» ويدها يجب أن تبقى حاملة شعلة الاضطراب تشعل بها الحرائق السياسية في كل منطقة من مناطقه وتنشر أسباب التشقق الإقليمي والطائفي والشعوبي.

وهكذا:

كان قرار مؤتمر لندن حاضناً حقيقياً لما وقع علينا من أرزاء.

فهو الأب البيولوجي المباشر «لوعد بلفور» و«اتفاقية سايكس بيكو» و«مؤتمر بلتيمور»[14] وقبول إسرائيل دولة في الأمم المتحدة وحروب ١٩٤٩ و ١٩٥٦ و ١٩٦٧ و١٩٧٣م وما جرى من تمزيق وتقسيم في العراق والسودان وحرب غزة ولبنان وغير ذلك وغيره من الأرزاء هي أنسال هذا الأب اللعين.

الجامعة العربية نفسها اجتاحها المرض الخبيث:

قامت في سنة ١٩٤٥م بسبع دول هي الآن ٢٣ دولة آخر دولها «جزر القمر» الواقعة على قنال الموزامبيق[15] فيها- على ضآلة مساحتها وسكانها- ثلاث لغات أحدها اللغة العربية وهي منذ مدة تعاني من حركة استقلال إحدى جزرها «نغازيجة» اعتماداً من هذه الجزيرة على مساحتها الواسعة البالغة ١٤٠ كم٢ وعدد سكانها الضخم البالغ حوال ١٥٠ ألف نسمة.

كل من هذه الدول مستقل عن سواه بجيشه وأجهزة أمنه وقوانينه وقراراته وسفاراته وتمثيله الأممي.

لقد امتطى السادات حصان هذا الاستقلال وتوجه به إلى الكنيست في تل أبيب فأعلن من على منبره أن لا حرب بعد يومه مع إسرائيل ومن حق نجمة اليهود أن ترفرف فوق سماء القاهرة.

ثم معاهدة كامب ديفيد التي محت من الذاكرة تضامن العرب، ولاءات الخرطوم والدماء التي كانت تلح في طلب الثأر.

وبعد أن ثبت جدارة وقوة الحصان الإقليمي امتُطيَ ظهره فيما بعد إلى أوسلو وسواها حيث يقوم التطبيع مع العدو من دون أن تتحرك شعرة من المشاعر القومية...

في الأثر:

حكمة سالت على كل لسان عربي: «إذا لم تستح فاصنع ما شئت».

الهوامش

١- هذا التحديد الجغرافي مأخوذ من الكتب والخرائط الجغرافية. وقد كررت وضعه كلما تحدثت عن الأبعاد الجغرافية للأمة العربية.

٢- فيثاغورس- القرن السادس ق.م، أفلاطون عاش بين ٤٢٢ق.م إلى ٣٤٧ ق.م.

٣- نسبة إلى «اليبوسي» بن ميدون بن كنعان- تكوين ١٠/١٦.

٤- أور معناها مدينة وشالم معناها سلام (مدينة السلام).

٥- قال أحد الصبية لأبي العلاء.

أأنت القائل:

وإني وإن كنت الأخير زمانه لآت بما لم تستطعه الأوائل

فقال أبو العلاء: نعم أنا القائل:

فقال الصبي: الأوائل أتوا بثمانية وعشرين حرفاً فهل لك أن تزيد عليهم حرفاً واحداً؟

فكان ذلك من مسكتات أبي العلاء.

٦- ينقل أحمد شيخ داوود في ص٢٠ من تاريخ سورية الحضاري قول ديورانت في قصة الحضارة الشرق العربي القديم أعطى أوروبة وأميركا حضارتها وإن كريت واليونان لم يكونا غير محطتين في الدرب الذي سلكته منطقة الحضارة العربية القديمة في طريقها إلى أوروبة وأمريكا.

٧- «قَالَ الَّذِي عِندَهُ عِلْمٌ مِّنَ الْكِتَابِ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَن يَرْتَدَّ إِلَيْكَ طَرْفُكَ».

(النمل- ٢٧/٤٠)

القائل هو آصف بن برخيا والضمير في «به» يعود إلى عرش بلقيس في اليمن وآصف هو ابن أخت سليمان ووزيره.

٨- الهيروغليفية والمسمارية عرفتهما الأمم كافة قبل ابتكار رموز الحروف.

٩- هيرودتس: مؤرخ ورحالة يوناني عاش بين ٤٨٤ -٤٢٥ ق.م يعد التاريخ الذي ألفه أهم المراجع لمعرفة أخبار الأمم القديمة وأساطيرها.

١٠- الكابيتول: إحدى تلال روما عليه هيكل «جوبيتر» واسم كابيتول منتشر في العالم يطلق على عدد من الأبنية أهم تواجده في واشنطن مركز الإدارة الأميركية.

١١- يعرب بن قحطان، جد العرب، هو الذي يدعى في التوراة، وأرفكشاد بن سام وسام بن نوح.

١٢- من المعلوم أن أميركا بعد الحرب الأولى استلمت زمام الوصاية على اليهود من أوروبة فاقتصر اشتراك الأوروبيين على العواطف الودودة.

١٣- بدا وكأن الفيتو الأميركي والبريطاني مسخر لحماية اختراقات إسرائيل للقوانين الدولية وحقوق الإنسان.

١٤- بلتيمور: هو مرفأ أميركي في إرلند على خليج المكسيك عدد سكانه ٢١٧٤٠٠٠ نسمة.

١٥- جزر القمر واقعة عند مدخل قناة موزامبيق وتتمدد في شمال غرب مدغشقر مساحتها ١٧٩٧ كم٢ وعدد سكانها ٤٢٢٥٠٠ نسمة.

الطب العربي الإسلامي في العصر العباسي

د. محمد يحيى خراط ✪

دامت الدولةُ العباسيةُ ما يزيدُ عن خمسة قرونٍ برعَ فيها عددٌ كبيرٌ من العلماءِ في شتى مجالات العلوم إلاّ أنهم برعوا في الطب وتفوقوا على اليونانيين القدماء الذين كانوا سادةَ هذه الصناعة على مدى عشرةِ قرونٍ سبقتِ الإسلامَ بدءاً من أيام أبقراط المتوفى في أواخر القرن الرابع قبل الميلاد وانتهاءً بالعصر الهلّنستي في القرن السادس للميلاد.

وقد أجمعَ الباحثونَ من العربِ والمستشرقينَ على أنّ بدايات الطبِّ العلميِّ عند العرب كانتْ من أصلٍ يوناني، وقليلٌ منها من أصلٍ هندي. وكانَ فضلُ اليونانيينَ في هذه الصناعةِ هو أنّهم وضعوا لها القواعدَ الأولى التي كانَتْ بمعظمها نظريةً، والقليل منها عملية. أمّا فضلُ العربِ في هذه الصناعة فكانَ فيما أثبتوهُ ووثقوهُ بالتجربةِ الواسعةِ على صدقِ أو عدمِ صدقِ تلكَ النظرياتِ، وبما أضافوه إلى الطبِّ اليونانيِّ من مبتكراتهم ومؤلفاتهم الشيءَ الكثيرَ، ما لم يعملهُ اليونانيونَ كماً أو نوعاً.

وفي بحثِ موضوعِ الطبِّ في العصرِ العباسيِّ لا بدَّ أن نمهدَ له بمقدمةٍ عن مسيرةِ الطبِّ اليونانيِّ ووصولهِ إلى العربِ، وهو موضوعٌ طرقَ أبوابَه الباحثونَ الأوربيونَ بإفاضةٍ، وكبارُ المستشرقينَ أمثالُ ماكس مايرهوف وأوليري ومارتن ليفي والدوميلي، إلاّ أنَّ هؤلاءِ وقعوا في أغلاطٍ وعرضوا آراءً في هذا الموضوع لم تصمدْ أمامَ النقدِ والشكوكِ. فقد ذكروا أنَّ أوّلَ المعارفِ اليونانية وصلتْ بغدادَ عن طريقِ أنطاكيةَ وحرانَ ودخلتها في أيامِ الخليفةِ عمرَ بن

✪ باحث في التراث العربي الإسلامي، وأستاذ جامعي ووزير سابق.

عبد العزيز المتوفى سنة ١٠١هـ (٧٢٠م) ثم نقلها حكماءُ تلكَ المدينتين إلى بغدادَ. وليسَ ثمةَ اعتراض على ذلك إذ اعتبرْنا أنَّ حكماءَ المدينتين المذكورتين بما فيهم رجالَ الدين، كانوا على إلمام بقدرٍ ما بعلوم الطبِّ أو على الأقل بقواعدِه الأولى، أو أنَّ أولئكَ الحكماء لم يدخلوا بغدادَ إلاّ في أيام الخليفة المعتضد بالله المتوفى سنة ٥٨٩هـ (٩٠٢م)، أو بعدَ تأسيس بغدادَ بقرنٍ وثلث قرنٍ تقريباً.

ويُعتقدُ أنَّ العربَ قد وقفوا على الطبِّ اليونانيِّ، وأخذوا عنه وعملوا بقواعدِه في أزمانٍ قبلَ ذلك التاريخ بما يزيدُ على القرنِ على أقلِّ تقدير، فقد ترجمَ سرجيوس الرأسِ عيني المتوفى سنة ٥٣٦م كثيراً منْ مؤلفات الأطباء اليونانيين الأوائل إلى اللغة السريانية التي كانت عندئذٍ لغةَ الأطباءِ في الشرقِ العربي كافة على مدى أكثر من قرنين من حكم العباسيين الأوائل. ومن رأس العين حملَ السريانُ تلكَ المترجماتِ إلى بلادِ فارسَ لتستقرَ في عاصمتها العلمية جنديسابور. ولا بدَّ منَ الإشارةِ إلى أنَّ غالبيةَ السريان (المتكلمين باللغة السريانية) كانوا من بطون عربيةٍ وجلُّهم غساسنةُ بصرى، ولخميو الحيرة ومن قبائلِ بكرٍ وتغلبَ ووائلَ في شمالِ ما بينَ النهرين.

هذا من ناحية شمالِ جزيرةِ العرب، أما في داخلها فقد كانَ الحارثُ بن كلدة الثقفيُّ في القرن السادس للميلادِ يطببُ المرضى، ثم تلقى دروساً في الطبِّ في بلادِ اليمن يومَ كانت تحتَ حكم الفرس قبلَ الإسلام وأكملَ دراستَهُ في هذه المهنة بمدينة جنديسابور قبل أن يفتحَها المسلمون سنةَ ١٧هـ (٦٣٨م)، وكان في كلٍّ من المدينتين مدرسةٌ لتعليم الطبِ وفقَ القواعد اليونانية. و يروى أنَّ الحارثَ تعلمَ اللغةَ اليونانيةَ والسريانيةَ وما كُتب بهما في الطبِّ اليوناني، وهذا ما تؤكدهُ المقابلةُ التي جرَتْ بينه وبين كسرى أنوشروان إذْ كان كثيراً مما قالهُ الحارثُ للملكِ الفارسيِّ هو من علوم اليونانيينَ التي لم يكنْ يعرفُها عربُ الجزيرةِ في أيام الحارثِ أو قبلَ ذلك.

هذا إضافة إلى أنَّ الأطباءَ الذينَ غرفوا من معين الطبِّ اليونانيِّ هم وحدُهم الذين كانوا يمارسونَ الطبَّ طوالَ سنيِّ الخلافة الأموية في الشام وغالبيةُ هؤلاء من خريجي مدرسة الطبِّ في الإسكندرية (القرنان الخامسُ والسادسُ للميلاد) التي كان التدريسُ فيها باليونانية، نذكرُ من هؤلاء أهرنَ بنَ أعينَ القس الذي أدركَ صدرَ الدولة الأموية وترجمَ ماسرجويه البصري كناشه في الطبِّ من اللغة اليونانية إلى اللغة السريانية. من كل ذلك نستطيعُ أن نقررَ أنَّ الطبَّ اليونانيَّ قد وصلَ إلى العربِ قبل أن يؤسسَ أبو جعفر المنصورُ عاصمتَهُ بغدادَ

وهو التاريخُ الذي يعتبرهُ المستشرقون خطأً بداية ظهور الطبِّ اليونانيِّ عندَ العرب.

إنَّ الدربَ العريضَ الذي سلكهُ الطبُّ اليونانيُّ إلى العربِ هو الذي نفذَ عن طريق جنديسابور إلى بغدادَ. وكانت بدايتهُ حينَ مرضَ الخليفةُ أبو جعفر المنصورُ فاستدعى لمعالجته كبيرَ أطباءِ جنديسابورَ في ذلك الحين جورجيوسَ بن بختيشوع، فبقي الطبيبُ بخدمته سنتين ترجمَ خلالها بأمرِ الخليفةِ بعضاً من مؤلفاتهِ ومن مؤلفات الأطباءِ اليونانِ في الطبِّ. وكانت هذه الترجماتُ أوّلَ قبسٍ ألهبَ حرارةَ تعلم هذه الصناعة عند العربِ.

وقد استصحبَ جورجيوس معه إلى بغدادَ عدداً من تلامذته، كان من بينهمْ ابنهُ بَختيشوعُ، وعيسى بنُ شهلا، وسرجيوس، وإبراهيم، وكانَ بختيشوعُ أعلاهُم مقاماً عند خلفاءِ بني العباس، وأعقبه من نسله عددٌ من الأطباءِ خدموا الناسَ والخلفاءَ أكثرَ من ثلاثة قرون متتالية. وقد انقطعَ آلُ بختيشوع إلى الطبِّ بالدرجة الأولى، ولهمْ فيه مؤلفاتٌ قيمةٌ كما تميزوا بالاستقامة وطيب العشرةِ وحُسْنِ معالجة المرضى.

وظهرتْ في العهدِ العباسيِّ أسرٌ سريانيةٌ أخرى اشتهرَ أفرادها بخدمةِ الخلفاءِ في الطبِّ وتركوا بعدهم مؤلفاتٍ وأعمالاً مجيدة في هذه المهنة بكل فروعها كانَ منهم بنو حنين العباديينَ وبنو ماسويه الخوزيين، والطيفوريونَ.

كذلك دخل بغدادَ بعضُ الأطباءِ الهنودِ وخاصة في أيامِ الخليفة هارونَ الرشيد، راحوا ينافسونَ البختيشوعيين في خدمته و إرضائه، وعملوا في ترجمة الكتبِ الهندية إلى اللغة العربية. وقد يكونُ طبيبا الخليفة هارونَ الرشيد منكهٌ وصالح بن بهلة أكثرهم عملاً في هذا الميدان.

ولما جلسَ محمدُ المهديُّ بعد أبيه أبي جعفرِ المنصور على كرسيِّ الخلافة التحقَ بحاشيته كلٌ منْ بختيشوع بنُ جورجيوس والمتطببُ أبو قريش عيسى وعبدُ اللّه الطيفوريّ وجميعهم من السريان وكانوا من أشهرِ الأطباءِ الذين ظهروا أيامَ الخليفة المهدي، ولا بدَّ أنّهم نقلوا إلى الخليفة أهميةَ وجودِ مستشفى في بغدادَ على غرارِ مشفى جنديسابور الذي سبقَ وعملوا فيه لمعالجة المرضى وتمريضهم بدقة وانتظام، فأمرَ الخليفةُ بتأسيسِ المستشفى المنشودِ وكان الأولَ من نوعه في بغدادَ، وهذا ينفي ما ادعاهُ المستشرقونَ أنّ أولَ مستشفى في بغدادَ كان من أعمالِ الخليفة هارون الرشيد.

وكان للخليفة المهديِّ منجّمٌ ومترجمٌ نسطوريٌ من خريجي مدرسة الإسكندرية اسمه تيوفيل بن توما الرهاوي، وقد خدمَ من بعده الخليفةَ موسى الهادي وتوفي في

أيامه سنة (١٦٧هـ) (٧٨٠م)، وترجمَ بتوفيس بعضاً من مؤلفات جالينوس الطبية إلى العربية، وتعتبرُ هذه الترجماتُ من أوائلِ ما تُرجمَ قبل حركة الترجمة الكبرى أيامَ الخليفة المأمون وما بعدهُ من الخلفاء.

لقد أسسَ الخليفةُ هارونُ الرشيدُ مستشفىً في بغدادَ برئاسة ماسويه الخوزي وقيلَ برئاسة دهني الهندي تحت إشراف طبيبه جبرائيل بن بختيشوع. كما أنشئَ في أيامِ الخليفة المعتضد بالله المتوفى سنة (٢٨٩هـ) (٩٠٢م) مستشفى في محلة المخرم ببغدادَ وهو المستشفى الذي درسَ فيه أبو بكر الرازي الطبَّ ثمَّ أنشأتِ السيدةُ (شغب) أمُّ الخليفةِ المقتدرِ مستشفىً باسمها في سوقِ يحيى، وفي هذه السنةِ نفسها أسسَ ابنها الخليفةُ المقتدرُ بالله مستشفىً باسمه في محلة بابِ الشام، وتوالى بعدَ ذلك محبو عملِ الخيرِ من الأمراءِ والخلفاءِ على إنشاءِ المستشفياتِ في بغدادَ فكانَ فيها أحدَ عشرَ مشفىً، ربما كانَ أكبرَها وأشهرَها المستشفى العضديُّ في الجانبِ الغربيِّ من بغدادَ، وقد عملَ في هذا المستشفى زهاءَ عشرينَ طبيباً في مختلفِ الاختصاصاتِ الطبيةِ والجراحية. وقلدَ حكامُ الحواضرِ الإسلاميةِ الأخرى ما عملتهُ بغدادُ في مجالِ دورِ الاستشفاءِ فكانَ منها زهاءَ مئةِ مستشفى.

لقدْ اهتمَ الخليفةُ المنصورُ، وهو نفسهُ عالمٌ وفقيهٌ بجمعِ الكتبِ بكلِ اختصاصاتها، وخصَّصَ لها خزائنَ بحسبِ صنوفها ومضامينها، وقد تكونُ هذهِ الخزائنُ الفكرةَ الأولى لإنشاءِ معهدٍ أو منتدىً لتعليمِ العلومِ وجمعِ الكتبِ العلميةِ الذي تبلورَ فيما بعدُ وعرفَ في أيامِ هارونِ الرشيدِ باسم (بيت الحكمة) لدراسةِ وتدريسِ المعارفِ التطبيقيةِ وخاصةً علمِ الفلكِ وصناعةِ الطبِّ. وقد اهتمَ الخليفةُ المأمونُ بهذا البيتِ اهتماماً كبيراً وضمَّ إليه نفائسَ المخطوطاتِ التي استوردها منَ المدنِ اليونانيةِ كأحدِ شروطِ الصلحِ في غزواتهِ لتلكَ المدن، كما ضمَّ إليهِ المصنفاتِ العربيةَ المحدثةَ. وعيَّنَ للبيتِ من يُعنى بكتبهِ وتجليدِها وتزويقِها، ورئيساً من ذوي المكانةِ العاليةِ ليديرَ شؤونه ويتولى أعمالَ المترجمينَ فيه.

وكانَ في بغدادَ إضافةً إلى بيتِ الحكمةِ دورُ علمٍ أخرى نذكرُ منها دارَ العلمِ لآلِ أبي منصورٍ المنجمِ، ودارَ علمِ سابور، ودارَ علمِ غرسِ النعمةِ الصالي، وجميعُ هذه الدورِ وكذلكَ بيتُ الحكمةِ كانت مفتوحةً لعامةِ الناسِ للاستفادةِ منها ولاستنساخِ ما تريدهُ من كتبها.

إنَّ أولَ منْ وضعَ المصنفاتِ الموسوعيةَ في الطبِّ العربيِّ وفي اختصاصاتهِ الدقيقةِ هوَ طبيبُ الخليفةِ المأمونِ ورئيسُ بيتِ الحكمةِ يوحنا بن ماسويه فلهُ فيها زهاءَ ثمانيةِ

وأربعينَ كتاباً، بعناوينَ ومضامينَ لم يكنْ يعرفهـا العربُ قبلَ أيامِه، فهوَ أولُ من كتبَ في داءِ الجذامِ، والعقمِ وعلاجِه عندَ النساءِ، وأولُ طبيبٍ عربيٍّ مارسَ تشريحَ الحيوانِ وله كتابٌ في تجربتِه في هذا العلمِ. وهو أيضاً أولُ من كتبَ في مرضِ المالينخوليا وطبِّ العيونِ، وفي صحةِ الأسنانِ واستصلاحِها باستعمالِ السواكِ والسنوناتِ. وأولُ من كتبَ في مهنةِ الأطباءِ والكحالينَ، وهو أيضاً صاحبُ أولِ مدرسةٍ طبيةٍ في بغدادَ وكانَ من تلاميذِه كبارُ أطباءِ هذه المدينةِ، في مقدمتِهم حنينُ ابنُ اسحاقَ العباديِّ، واسحاقُ بنُ عمرانَ، وإبراهيمُ بنُ عيسى وغيرُهم.

وفي بغدادَ ظهرَ كتابٌ موسوعيٌّ يعدُّ الأولَ من نوعِه لأبي علي بن سهل بن الطبريِّ طبيبِ الخليفتينِ المعتصمِ والمتوكلِ باسمِ (فردوسُ الحكمةِ)، تضمَّنَ معلوماتٍ منوعةً وغزيرةً في العلومِ الطبيعيةِ والطبيةِ، أخذها عمن عاصرَهُ ومن سبقَهُ من الأطباءِ العربِ و الهنودِ والفرسِ واليونانيينَ. وقد توفيَ ابنُ ربنِ الطبريِّ في أيامِ الخليفةِ المتوكلِ أو بعدَ وفاتِه سنةَ ٢٣٦هـ (٨٦١م) وتركَ وراءَهُ أكثرَ من تسعةِ كتبٍ إضافةً إلى كتابِ فردوسِ الحكمةِ.

وتلى ابن ربنِ الطبريِّ من عظماءِ أطباءِ بغدادَ، أبو بكرٍ محمدُ بن زكريا الرازي، وهوَ طبيبُ المسلمينَ دونَ منافسٍ له في هذهِ المهنةِ، ولهُ الفضلُ في إدارةِ المستشفى المعتضدي في بغدادَ، ثم رحلَ إلى الريِّ في طبرستانَ ليديرَ مستشفاها. وقد توفيَ بحدودِ سنةِ ٣٢٠هـ (٩٣٢م) وله من المؤلفاتِ أكثرُ من مئةٍ وعشرةِ كتبٍ، أشهرها وأضخمُها كتابُ الحاوي في الطبِّ.

وفي بغدادَ أيضاً ظهرتْ أكبرُ حركةِ ترجمةٍ واسعةٍ في تاريخِ الإسلامِ نقلت من خلالها الكتبُ الطبيةُ من اللغةِ الهنديةِ واليونانيةِ إلى العربيةِ، وكانَ لحنينَ بن اسحاقَ دورٌ مهمٌّ وواسعٌ في هذه الحركةِ العلميةِ. وقد يكونُ لولا ترجماتِه لتأخرَ انتقالُ الطبِّ اليونانيِّ إلى العربِ سنواتٍ أو قرونٍ، وبالتالي لتأخرَ العربُ في معرفةِ هذه المهنةِ. وأصلُ حنين من عربِ الحيرةِ وقد ورثَ عن أبيه الصيدلانيِّ الميلَ إلى دراسةِ الطبِّ، فدرسَ من أجلِ هذه الغايةِ اللغةَ اليونانيةَ في الإسكندريةِ، والعربيةَ على تلاميذِ الخليلِ بنِ أحمدَ الفراهيديِّ، ومبادئَ الطبِّ في مدرسةِ جنديسابور، ثم على يوحنا بن ماسويه في بغدادَ وترأسَ بيتَ الحكمةِ في أيامِ الخليفةِ المتوكلِ، ودخلَ في خدمةِ الخلفاءِ من أيامِ المأمونِ حتى أيامِ الخليفةِ المعتمدِ على اللهِ، وتوفيَ في أيامه سنةَ ٢٦٠هـ (٨٧٣م). وتعتبرُ شخصيةُ حنينٍ مثاليةً بين العلماءِ، سلوكاً وعملاً في الطبِّ والترجمةِ، فله زهاءَ مئةٍ وأربعينَ كتاباً بينَ موضوعٍ ومترجمٍ. وكانَ

من تلاميذه ابنهُ اسحاق وابن أخته حبيش ابن الأعسم، وعيسى بن يحيى بن إبراهيم، وغيرُهم ممن شاركَ في أعمالِ الترجمة وهم كثُرٌ، نذكرُ منهم: أيوب الرهاوي، وأبو زكريا يوحنا بن البطريق، والحجاج بنُ يوسفَ بن مطرَ الكوفي، وعبد اللهِ بن علي، وسرجيوس الرأسعينيَ وشهدي الكرخي، وإبراهيم بن الصلتِ وإبراهيم بن بكر والعباس بن سعيد الجوهريّ.. وغيرهم وكانَ الأمراءُ والخلفاءُ وأعيانُ الناسِ يدعمونَ حركةَ الترجمةِ ويبذلونَ لمن يعملُ فيها المالَ بسخاءٍ. ويروى أن حنيناً كانَ يحصلُ من الخليفةِ المأمون ذهباً بقدرِ ما تزنُ ترجماتُه، إضافةً إلى ما يحصلُ عليه من الوزيرِ محمدِ بن عبد الملك الزيات شهرياً. ويعدُ عصرُ الترجمة في بغدادَ الذي استمرَ طيلةَ القرونِ الثلاثةِ الأولى من حكمِ الدولةِ العباسيةِ عصراً ذهبياً في تاريخِ الإسلام.

وقد حملَ التجارُ الكتبَ المترجمةَ والموضوعةَ في بغدادَ إلى أطرافِ الأقطارِ الإسلاميةِ، فاستفادَ منها الخاصةُ والعامةُ، وكانت حافزاً لعلماءِ الأقطارِ العربيةِ البعيدةِ عن بغدادَ في الاستمرارِ في البحثِ والتأليفِ كما حصلَ في الأندلسِ وتونسَ والقاهرة.

وكثُرَ عددُ الأطباءِ في بغدادَ بوقتٍ قياسيٍّ، فكان في أيامِ الخليفةِ المقتدر، في بغدادَ وحدها ما يزيدُ على ثمانمئةِ طبيبٍ ممارسٍ غير أطباءِ الخليفةِ وشيوخِ الطب الكبارِ أمثالِ أبي الفرج عبدِ اللهِ بن الطيب، وابنِ بطلان وعلي بن عيسى الكحال. وفاضَ عددُ الأطباءِ عن حاجةِ بغداد، فتفرقوا في البلادِ الإسلاميةِ شرقاً وغرباً بدافعٍ من ذاتهم أو وراءَ الجاهِ والمالِ أو بطلبٍ من الحكامِ المسلمينَ في تلك البلدانِ، فرحلَ إلى القيروانِ اسحاقُ بن عمران بدعوةٍ من الأميرِ الأغلبي إبراهيم الثاني ليكونَ طبيبهَ الخاص، وليعلِّمَ الطبَ في بيتِ الحكمةِ في القيروان، ورحلَ إبراهيمُ بن عيسى إلى الفسطاطِ بمصرَ وراء أميرها أحمدَ بن طولونَ، كما رحلَ إلى الشامِ مهدي الدين بن النقاش وفيها أقامَ مدرسةً يعلمُ فيها الطب، كذلكَ رحلَ إلى القاهرةِ كلٌ من الكحال عمار بن علي الموصلي، والجراح ماسويه المارديني البغدادي، والموسوعي الكبيرِ عبدِ اللطيف البغدادي. ووصلَ طبُّ بغدادَ إلى الكوفةِ وواسطَ والبصرةِ والموصل. فظهرَ فيها أطباءٌ كان لكلِ واحدٍ منهم دورٌ مشكورٌ في ممارسةِ الطبِّ والتأليفِ في فنونه نذكرُ من هؤلاءِ طبيبَ الأميرِ محمد بن أبي العباس السفاحُ في البصرةِ وموسى بنُ إسرائيل في الكوفة وابن بختويه في واسط.

وحظيَ الأطباءُ بكل ضروبِ التبجيل والتقديرِ والهباتِ والصلاتِ العينيةِ والنقديةِ من الخلفاءِ والأمراءِ ما لم يحصل على مثله

أيٌّ ممن التحقَ بحاشيتهم، فقد نالَ جبرائيلُ ابن بختيشـوع من مخدومه الخليفة هارون الرشـيد مليوناً وثمانيةً وثمانين ألفَ درهم، كما كان سـلمويهُ بن نبان طبيـبُ الخليفةِ المعتصـم بالله يطلعُ على رسـائلِ مخدومه الخليفة ويمهرُها قبل صـدورها من بلاطِ الخلافـة، وكان الخليفةُ يناديـه بـ(يا أبي) احتراماً وتقديراً، وولَّى الخليفةُ أخاه إبراهيمَ ابن نبان خزائنَ الدولة، وهو منصـبٌ كبيرٌ وخطير. ونالَ أبو نصرٍ بن سـعيد المسيحي منْ مخدومه الخليفة المسـتنصر بالله ألفي دينار لخدمةٍ جراحية بسيطة.

لقد كانَ الأطباءُ في العصـور العباسيةِ يعتمدون في ممارستهم الأولى على القواعد اليونانية، ويحلونَ مشـاكلَ تشخيصٍ وعلاجِ الأمراضِ بالمفاهيم الفلسـفية التي تعنى بتفسيرِ كلياتِ الطب، وبخاصة منها الأخلاط الأربعة والأمزجـة الأربعة، واعتبروا الطبَّ كمـا اعتبره اليونانيونَ من فروع الفلسـفة. وقـد رأى أطباءُ العراق في وقـتٍ مبكرٍ أن مفاهيمَ الأخلاطِ والأمزجةِ التي كانت بنظرِ اليونانيين سـببَ عافية الجسم إذا توازنت واعتدلت، وسـببَ مرضه إذا فاضت كميتُها أو اختلفتْ نسـبُ بعضـها إلى بعض، فرأى الأطباءُ العـرب أن هذه المفاهيـمَ لا تُفَسِّرُ جميعَ علـلِ وأعراضِ الأمراضِ، وأوَّلُ من فكرَ بهذا الاتجاه هو أبو بكرٍ الرازي المتوفى بحدود سنة ٣٢٠هـ (٩٣٢م) ولذلك لم يتطرقْ إلى موضـوعها في أكـثرِ مؤلفاتـه إلا لماماً وبتردد وحذر.

أمَّا أوَّلُ من جاهرَ ودعا إلى عزلِ الطبِّ عـن الفلسـفةِ فهو أبـو سـعيد عبيد الله البختيشوعي المتوفى بعدَ قرن وثلث من حياة الرازي في كتابه (رسالةٌ في الطبِّ والأحداث النفسـانية). وكان أبـو سـعيد يومئـذ من الأطباءِ الكثيرين الذين يعملونَ في المستشفى العضديِّ في بغداد، فاستنجدَ به بعض أطباءِ البصرة سـنة ٤٢٩هـ (١٠٣٧م) لينصرَهم علـى من يريدُ أن يُبقي الطبَّ مربوطاً بحلةِ الفلسـفة، فوضعَ الرسـالة التي مرَّ ذكرها، وفيها يبعدُ الطبَّ عن الفلسـفة، وحجته في ذلكَ أن الطبَّ علمٌ تطبيقيٌّ بينما الفلسـفةُ نظرياتٌ صرفة، وهي من دونَ ريبٍ كما يرى أبو سعيد تعيق مسيرةَ الطبِّ وتطويره فكانَ لرأيه نفوذٌ قوي على الحدِ من تغلغلِ الأفكارِ الفلسفية في ممارسة الطب.

وفي العصرِ العباسي أيضاً ظهرتْ عواملُ ستة ساهمت في تفسيرِ الأمراض ومعالجتها فذاعت شـهرتها وعُرِفَت باسـم الأسـبابِ الستة وهي:

١- المأكلُ والمشربُ.

٢- الحركـةُ والسـكون ومنهـا اليقظةُ والنوم والرياضةُ.

٣- الهواءُ والماءُ والسكنُ.

٤- الأسرُ والانحباسُ (حَصْرُ البول وإمساكُ الأمعاء).

٥- الاستفراغُ بأنواعه (التعرق والتبول والتغوط والإمناء).

٦- العوارضُ النفسية.

ولإعادة العافية إلى المريض يُعالج بما يلائمهُ من المأكولات والمشروبات أو بالرياضة أو الراحة والنوم أو بتناول المقيئات والمسهلات والمدرّات أو المعرّقات أو باستفراغ الدم بالحجامة أو الفصد أو بالعلق الطبيِّ حسبما تستلزمهُ حالةُ المريض بتقدير الطبيب المعالج.

وكان الأطباءُ يعتمدونَ في تشخيص الأمراض على سحنةِ الوجهِ ولون البشرة وجسِّ النبض، وفحص البول والبراز ليعرفوا منها موضعَ الإصابة في جسم المريض وخطورتها. وقد وُضعتْ في البول والنبض كتبٌ كثيرة يؤكدُ مؤلفوها أنَّ معرفتها نظرياً لا تكفي لممارسة الطبِّ بنجاح، بل يجب التدربُ على معرفتها عياناً وحساً. فيفحصُ البول عن لونهِ والراسبِ الذي فيه، والرغوة التي تطفو على سطحه، وكدره ورائحته وطعمه، ومن المحتمل أنّ الأطباءَ استدلوا من حلاوةِ البول على الداءِ السكري، إضافة إلى أعراضه الأخرى ككثرة التبول وجفاف الفمِ وما إلى ذلكَ من أعراضِ هذا المرض. كما استدلوا من رائحته وكدره ولونه على معرفة بعض أمراض الكبد والكليتين. وفي كتبِ التراثِ كثيرٌ من المؤلفاتِ التي وُضعت في هذا الموضوع.

ويُفحصُ النبضُ بسرعته وانتظامه، وشدة قرعه وامتلاء العِرْق الضارب فيه فيُعرفُ من هذه الأعراض ما يُعبر عن حالة المريض عموماً وحالة قلبه بوجه خاصٍّ.

وفي علاج الأمراض كانت الحميةُ أي الانقطاع عن تناول الطعام أو تحديد كميته أو تعيين نوعه هي أوّلُ خطوات العلاج، كما كان استفراغُ سوائلِ الجسم ومحتويات المعدة والأمعاء مما فسدَ فيها من طعام، بالقيء أو الإسهال، هي الخطوةُ التالية فيه، فإذا فشلتْ هذه المحاولاتُ العلاجيةُ في إبراءِ المريض، وصفَ له تناولَ الأدوية مفضلين منها الأدويةَ المفردة على المركبة.

وكان اهتمامُ الأطباءِ بالأدوية المفردة شديداً لدوام الحاجة إليها فهي مادةُ الطبِّ العلاجيةِ التي لا غنى عنها. وازدادَ اهتمامهم بها بعد أن ترجموا كتابَ هيولى مادةَ الطبِّ لديسقوريدس العين زربي وقد وصلَ هذا الكتابُ اليوناني إلى بغدادَ في أيام حركة الترجمة فنقلهُ إلى اللغة العربية كبارُ المترجمينَ منفردينَ أو بالمشاركة فيما بينهم، نذكرُ منهم حنين بن اسحاق، وعيسى بن يحيى بن إبراهيم.. وغيرهم.

ووصلتْ هذه الترجمةُ إلى قرطبةَ أيامَ

الخليفةِ عبد الرحمــن الثالث المتوفى سنة ٣٥٠هـــ (٩٦١م)، وفي تلــكَ الأيام كانت قد وصلتْ قرطبةَ نسخةٌ من كتاب هيولى الطبِّ بلغته اليونانية، إلا أنَّ أطباءَ الأندلس فضلوا الاعتمادَ على الترجمةِ البغدادية ولم يُترجموا النسخةَ اليونانيةَ التي وصلتهمْ.

وصُنفتْ كتبٌ كثـيرةٌ في الأدوية المفردة، وفي الأدويــة المركبة باسم «أقرباذين»، وكان أوَّلُ هذه الأقرباذينــاتِ أقرباذينَ سابور بن سهــل المتوفــى سنة ٢٢٢هـــ (٨٣٦م) الذي بقــيَ قيدَ الاستعمال في دكاكــين الصيادلة وصيدلياتِ المستشفياتِ أكثر من ثلاثة قرونٍ تالية.

وكانت الأدويــةُ الصالحــةُ للاستعمال تُختبرُ من لونها وروائحتهــا ومذاقها وكانت تُؤخذُ شراباً أو على شكلِ مراهمٍ أو ذروراتٍ أو نطولاتٍ أو أقماعٍ أو فرزجات.

واستعمــلَ الأطبــاءُ في بغــدادَ الأدوية الباردةَ لبعضِ الأمراضِ التي تتصفُ بالتشنجِ كاللقوةِ وبعضِ أنواعِ الفالج، وهو خروجٌ عن القاعــدةِ اليونانيــةِ التي تستطــبُ الأدويةَ المقويــةَ الحــارةَ لأعراضِ تلــكَ الأمراض.

وكانَ صاعدُ بن بشرٍ أول من ابتكرَ هذا النوعَ مــن العلاجِ ونبهَ إليه في بغدادَ وأخذ يداوي المرضى به وطرحَ غيره منْ طرقِ العلاجِ التي كانَتْ معروفةً حينذاكَ.

وسارَ ابنُ بطلانِ البغدادي المتوفى سنة ٤٥٥هـ على طريقة بشر بن صاعد إلاَّ أنَّهُ لم يكنِ المبادرَ إلى هذا النوعِ من العلاج.

وعلى الرغم مــن وفرةِ الأطباءِ والأدوية في حواضرِ العراقِ، فقد كان للطبِّ الشعبيِّ التقليــدي مكانٌ فسيحٌ في التطبيق، ولبعض المتطببين بــه مؤلفاتٌ باسم «مجربات» ليسَ في مضامينهــا مــادةٌ علميةٌ بــل جُلّها من تجربةِ المؤلف الشخصية، فهو يصفُ لبعضِ الأمراضِ الباطنية كالاستسقــاءِ واليرقانِ حَمْلَ المريضِ لبعضِ الأحجار، كما يصفُ لحالاتِ الــولادةِ المتعسرةِ قطعــاً من عظامِ الزواحــفِ الميتةِ الجافة، ومــن هذا القبيلِ الشيءُ الكثير.

كما كان للتنجيمِ في ممارسةِ الطبِّ مجال ينافسُ فيه الطبَّ نفسه. ولم يكنْ الجهلةُ من العامةِ وحدَهم يؤمنــونَ بتأثيرِ النجوم على الإنسانِ في حالتي الصحةِ والمرض، بل كان المثقفــونَ منهــم أيضاً، والأمــراءُ والخلفاءُ والأطبــاءُ أنفسهــم. وكان من هــؤلاءِ كبيرُ فلاسفــةِ العرب أبو اسحــاق الكنديُّ الذي وضعَ في علمِ الفلكِ والنجوم ما يزيدُ على العشرينَ كتاباً نذكرُ منها كتابَ (رسالةٌ فيما ينسبُ إليه كل بلــدٍ من البلدانِ إلى برجٍ من البروجِ وكوكــبٍ من الكواكب). أمَّا يوحنا بنُ بختيشــوع طبيبُ الموفق طلحــةَ بن المتوكل فيقررُ في كتابه (فيمــا يحتاج إليه الطبيبُ من علمِ النجوم) بأنَّ النجامةَ عنصرٌ ضروريٌّ

لإنجاح معالجة الطبيب. وكثيرٌ من الأطباء الكبار في بغدادَ كانوا يترددون في معالجة المريض قبل استشارة المنجم ولا سيما في توقيت تناول المسهلات والحجامة وفصد العروق. فالحجامةُ في رأيهم أصلحُ للمريض حين يكونُ القمرُ مقترناً بالمشتري، وغيرُ صالحة له حين يكونُ مقترناً بزحل. ويعملُ بعضُ المرضى برأي المنجمين، بقدرِ إن لم يكنْ أكثر، مما يعملونَ برأي الأطباء.

ومن مفاخرِ الطبِّ العربيِّ في العصرِ العباسيِّ «نظامُ الحِسْبَة». والحسبة تنظيمٌ مارسهُ العربُ في صدرِ الإسلام جوهره (الأمرُ بالمعروفِ والنهي عن المنكر) فيحاسبُ الحكّامُ بموجبهِ العاملينَ بتجارة السلع. وقد تطورَ وتوسعَ هذا النظامُ في العصرِ العباسيِّ، تبعاً لما جدَّ من أنواع المهن وفي مقدمتها صناعةُ الطب. فوُضِعَ نظامٌ خاصٌ للمحترفينَ ومنهم الفصّادونَ والحجّامونَ والصيادلةُ والأطباء، يفرضُ عليهم الاستقامةَ في أعمالهم والصدقَ والإخلاصَ للمهنة وللمرضى.

وفي بغدادَ أيضاً ظهرَت أولى كتبُ الجراحة مترجمةً عن اللغة اليونانية أو موضوعةً من قِبَلِ الأطباء العرب، كان أولها كتابُ (العملُ بالحديد) لحنين بن إسحاق العباديَ، وكتابُ (صناعةُ العلاج) لابنه اسحاق بن حنين وكتابُ (الأورامُ) لابنِ أخته حبيش بنِ الحسنِ الأعسم وكتابُ (الأورام) لجالينوس بترجمةِ إبراهيمَ بن الصلت.

وفي بغدادَ ظهرَ تقليدٌ لهُ حكمُ القانون يُعيّنُ بموجبهِ الخليفة أحدَ شيوخ الطبِّ رئيساً على من يمارسُ هذهِ الصناعة. ويكونُ هذا الرئيسُ على الأكثرِ من أطباءِ الخليفة المتضلعين في فنونِ الممارسة وعلى تجربة واسعة فيها.. ورئاسةُ الطبِّ هذه منصبٌ فنيٌّ أكثرَ مما هو إداري، من اختصاصها امتحانُ الأطباءِ الذينَ يخطئونَ في معالجة المرضى ويسببونَ لهم ضرراً أو عطلاً في أحدِ أعضاءَ جسمهم.

إن أبرزَ رؤساءِ الأطباء في بغدادَ حسب التسلسلِ الزمني هم: جورجيوسُ طبيبُ أبي جعفرِ المنصور، وسلمويه بنُ نبان طبيب المستعصم بالله، وحنينُ بن إسحاق طبيبُ المأمونِ والمتوكل على الله، وابنُ التلميذ طبيبِ الخليفة المقتفي بالله وآخرون. وأمّا الذي يرفعُ شكوى على الأطباءِ المخطئين ويوصلها إلى رئيس الأطباءِ فهو المحتسبُ الذي يعينه الخليفة من بين أعلام الناس المعروفينَ بالعلمِ والتقوى والحرصِ على مصالحِ المسلمين.

وهكذا نجدُ أنّ الطبَّ العربيَّ الإسلاميَّ إبانَ الدولةِ العباسية وإن كانتْ بداياتهُ امتداداً للطبِّ اليونانيِّ إلاّ أنَّ العربَ طوروه وصارَ علماً عملياً أكثرَ مما هو نظريٌّ، كما

أضافوا إليه مبتكرات لم يكن لها مثيلٌ في نظيره الطبِّ اليونانيّ. إضافةً إلى ذلكَ فإن أقلَّ أفضالِ العرب في هذه الصناعة هو أنهمْ حفظوا التراثَ اليونانيَّ من الضياع واستمروا يعنونَ بأمره ويذكرونَ من عَمِلَ به بتقدير واحترام كما يقتضيه السلوكُ المهنيُّ في احترام الخلَف للسلف.

وكما في بغدادَ كذلكَ كان الأمرُ في القاهرة والقيروانِ والأندلس حيث نبغَ أطباءُ أسسوا للنهضة الطبية الأوروبية في عصر النهضة وسرَّعوا في ظهورها.

المصادر

١- ابن أبي أصيبعة - عيون الأنباء في طبقات الأطباء - نزار رضا بيروت ١٩٦٥م.
٢- ابن بطلان- دعوة الأطباء / بشارة زلزلي- الإسكندرية ١٩٠٢م.
٣- ابن تغري بردى جمال الدين /وزارة الثقافة والإرشاد القومي/ القاهرة ١٩٦٨م.
٤- ابن الأثير، عز الدين الشيباني - دار صادر - بيروت ١٩٦٥م.
٥- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي. حيدر آباد ١٣٥٧هـ.
٦- ابن صاعد الأندلسي، صاعد بن أحمد -طبقات الأمم/ لويس شيخو- بيروت -١٩١٢م.
٧- ابن عبد ربه- العقد الفريد/ أحمد أمين ومشاركوه ط٢ - القاهرة ١٩٦٥م.
٨- ابن العماد الحنبلي- شذرات الذهب في أخبار من ذهب- بيروت (بلا تاريخ).
٩- ابن القفطي، جمال الدين الخزرجي- تاريخ الحكماء يوليوس لبيرات، لايبزغ ١٩٠٢م.
١٠- ابن النديم- الفهرست/ رضا تجدد.
١١- أحمد عيسى بك- تاريخ البيمارستانات في الإسلام، دمشق ١٩٣٩م.
١٢- أوليري - مسالك الثقافة الإغريقية إلى العرب- إحسان تمام، المؤسسة المصرية، القاهرة (بلا تاريخ).

ثورة في مفهوم المادة الحيّة

جان- فرانسوا دورتييه[1]
تريستان فيي[2] Tristan Vey
ترجمة: د. ماري شهرستان ✪

هل هبطت اللبنات الأساسية للحياة من السماء[3]؟

بينت الأبحاث الفلكية أن الظروف الحاصلة بين النجوم بدت ملائمة لتشكل العديد من الحموض الأمينية حيث قد يكون حمض منها أحد مركبات الحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين الأولي، وقد تم إعادة إنتاجها في المخبر.

قام فريق علمي فرنسي- ألماني بأبحاث جديدة على «مذنب اصطناعي» فبدا وكأنه تربة مثالية لبزوغ بعض الجزيئات العضوية التي يمكن أن تحوي مكونات الحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين. ويُعتبَر ذلك برهاناً يضاف إلى النظرية التي قد تكون، وفقاً لها، العناصر العضوية الضرورية لنشوء العضويات الحية الأولى، ذات أصول سماوية.

وقد بدأ الباحثون في المعهد الفلكي الفيزيائي في جامعة باريس الجنوبية l'université de Paris- Sud في تصنيع «مذنب صغير» في المخبر. استخدموا غبار - حبة من فلورور المغنزيوم- وغمروه في مزيج من أبخرة الماء والأمونياك والميتانول، مكونات نجدها في بيئة ما بين النجوم. الظروف ضمن هذا النطاق الصغير هي نفسها التي نجدها في الفضاء تماماً: حرارة-٢٠٠$^{\circ}$C وبالفراغ. تكثفت المادة لتشكل «معطفاً من الجليد» حول الغبار: لقد ولد مذنب بوزن بضعة ميكرو غرامات.

لقد تلقت هذه المادة الأولية في قطعة الجليد المجهرية أشعة فوق بنفسجية لمدة

✪ مترجمة وباحثة سورية.

عشـرة أيام مــا يعادل مــا تتعرض له غبرة مذنــب حقيقــي خلال ملايين الســنين في الفضــاء. هذا الإشعاع العنيف حرّض على ظهــور علاقات بــين ذرات الكربون. بتعبير آخر، لقد تشكلت مادة عضوية.

طلب المعهــد الكيميائي في نيس Nice قطعة الجليد الصــغيرة ليفحصــها بجهاز تحليلي كروماتو غرافي متعدد الأبعاد يقيس في الطــور الغــازي.(٤) وهو جهــاز ذو دقة عالية جداً يسمح بتحديد طبيعة الجزيئات التي تشــكلت.«لقد وجدوا فيها ٢٦ حمضاً أمينياً (اللبنات الأساسية للبروتينات)، أمر لم يحدث مثله من قبل أبداً».(٥) إذ لم يتكوّن في الماضي سوى ثلاثة حموض أمينية فقط في عملية مماثلة.

والمدهش في الموضوع، أنه قد تم اكتشاف ستة حموض تحوي مجموعتين أمينيتين، إنها ســابقة هامة. من بينها الأمينو إيتيلغليسين Aminoethylglycine-٢-N الذي قد يكون مكوّناً رئيساً للحمض البيبتيدي النووي l>acide peptidique nucléique APN الجــد المحتمــل للحمــض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين. ويعلمنا أوفيي مايرهنريشUwe Meierhenrich:«نحن نعمــل مع مخبر في كامبريــدج ومع المخبري الحائــز على جائــزة نوبل جاك زوســتاك Jack Szostak في هارفرد كي نرى في أية ظروف يستطيع هذا المركب أن يولّد تلقائياً الحمض البيتيدي النوويAPN».

تهــدف هذه الأبحاث إلى تهيئة وصــول المســبر روزيتا Rosetta الذي سوف يحط عــام ٢٠١٤م – أو ٢٠١٥م علــى مذنب، في سابقة هي الأولى من نوعها في العالم. والجهاز الكروماتو غرافي المحمول على المسبر ينبغي أن يســاعد في تحديد المكونات العضــوية المحتملة الموجودة على السطح. ويشرح أحد الكيميائيين قائلاً: «وكي نســتطيع إيجادها ضــمن عينة، من المفضــل أن نعرف وزنها التقريــبي ســلفاً». ويعتقد الباحثــون أنهم سيحصلون على مؤشرات متينة جداً.

ماذا لو أن الحياة ظهرت في الجليد؟(٦)

دلــت التجربــة على أن خلاصــة المادة الوراثية يمكن أن تتكوّن بشــكل أكثر فعّالية في مزيج من الماء والثلج بشكل متوازن. مما يقدم حجة جديدة لمصلحة ظهور الحياة في البرودة!.

هــل يمكــن للحيــاة أن تخلــق في البــرودة؟ الفكــرة لاتبــدو بدهيــة لكنهــا غير شــاذة ولابعيــدة عن الصــواب.. لقد وُضــعت الفرضــية قيد الممارسة منذ فترة وجيــزة من قبــل جيمس آتواتــر James Attwater في مخــبر البيولوجيا الجزيئية في كامبريــدج Cambridge وقــد نشــر نتائجه في مجلة اتصــالات نيشر Nature

Communications وهي مقنعة جداً: فقاعات الماء المحتواة داخل الجليد كوّنت وسطاً ملائماً جداً لانبثاق الحياة وذلك بتسهيلها إعادة إنتاج المادة الوراثية الأوّلية بشكل دقيق.

إن سيناريو «الخثيرة قبل الحيوية» الباردة التي قد تكون الحياة قد بدأت فيها ليس جديداً. لقد بزغت الفكرة في عام ١٩٩٠م عندما أيقن العلماء أن مناخ الأرض البدئي كان أكثر اعتدالاً مما هو متوقع ومتناسب مع وجود كميات كبيرة من الجليد. فرضية «البرودة» سمحت بتفسير ظهور مكونات أساسية للمادة الوراثية أي للحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين[٧] AND والحمض الريبي النووي ARN، التي تبدو غير ثابتة في الحرارة المرتفعة. ظهور الحياة بالقرب من الينابيع الكبريتية الساخنة الواقعة على خط القمة المحيطية يبدو شأناً معقداً. فالحمض الريبي النووي، إذا وضع في وسط بارد يكون أكثر ثباتاً.

والحمض الريبي النووي هو النظير «المفيد» للحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين: هو الجزيء الوسيط الذي يُدخِل المعلومة الموجودة في النواة وفي معمل بروتين الخلايا. يعتقد فريق من المجتمع العلمي منذ ٢٥ عاماً أن هذا الجزيء هو أوّل كائن ظهر للوجود وأنه هو الأصل في نشوء الحياة. صاغ هذا السيناريو «والتر جيلبيرت Walter Gilbert» الحائز على جائزة نوبل في الكيمياء، ونشره في مقال عام ١٩٨٦م في مجلة Nature بعنوان: عالَم الحمض الريبي النووي[٨] Le monde ARN وهذا الحمض الريبي النووي هو على عكس الحمض المنقوص الأوكسجين[٩]، لأنه قادر على التوالد بمفرده من دون مساعدة البروتينات المعقدة الأخرى، ولهذا السبب قد يكون هو الشكل الأوّل للحياة في هذا الوجود.

تسجِّل الأبحاث الحديثة في كامبريدج ضمن إطار هذا السيناريو للحمض الريبي النووي، مدعومة منذ مطلع عام ٢٠٠٩م بنجاح باحثين إنكليز آخرين شاهدوا النشوء التلقائي لهذا الحمض في خثيرة من الجزيئات البدائية (ملاحظة: وهذا لم ينجح أبداً مع الحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجينADN.) وهنا برهن جيمس آتواتر James Attwater أن شكلاً من الحمض الريبي النووي بسيط جداً كان قادراً على التوالد في الماء بدرجة حرارة صفر°، وأن الآلية كانت أكثر بطءاً لكن أكثر فعالية على المدى الطويل وأن هذا الحمض المنتج كان أكثر ثباتاً. تحمي فقاعات الماء المجهرية هذه المادة الوراثية السريعة العطب، كما تفعل الخلايا. وبإضافة هذه الملاحظات

الأنيقة جداً إلى دراسات عام ٢٠٠٤م التي بينت أن لبنات أساسية كانت تتجمع بشكل طبيعي لتكوين الحمض الريبي النووي في درجات الحرارة هذه، حصل الباحثون (الإنكليز) على سيناريو أكثر متانة وتماسكاً بأن الحياة قد نشأت في «البرودة!».

إذا ثبت سيناريو «البرودة» في العقود القادمة، سيكون ذلك ثورة حقيقية في البحث عن الحياة خارج الكرة الأرضية طالما أن الجليد دائم الحضور في كل مكان من الكون.

وتستمر الثورة داخل علوم المادة الحيّة لتعطينا رؤية جديدة عن الحياة والتطوّر تختبئ خلف كلمات غامضة مثل: تخلّق متعاقب[١٠]، وتكوّن تشكّلي أو تعايش[١١]، سيكون لها تداعيات كبيرة على مفهومنا للحياة الإنسانية.

كيف تتصرف الطبيعة كي تصنع كائناً حيّاً: فيلاً مثلاً، أو وردة، أو فراشة، أو شجرة كرز، أو إنساناً؟ لقد ظل المعتقد خلال نصف قرن يقول بأن الجواب يكمن في ثلاثة أحرف:ADNأي الحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين.[١٢]

كل واحد فينا تعلّم في المدرسة أن هذا الحمض أي الـ ADN هو الجزيء الطويل المعشش في قلب نواة كل خلية حيّة، والمؤلف من آلاف المورثات (الجينات). كل مورثة تحمل معلومة تأمر بصناعة البروتين، وهو العنصر الأساس لكل مادة حيّة: فهو يشكل كلوروفيل الأوراق، وعضلات الفيل، والخضاب الملونة للوردة.

كانت المعلومات المشفرة الموجودة فوق كل مورثة تشكل «برنامجاً وراثياً»، هكذا كان المعتقد حتى زمن قريب.

وعندما تمّ تفكيك رموز هذا البرنامج، المسجل على طول سلسلة الـADN، أصبح التوصل إلى اختراق لغة الحياة أمراً ممكناً. وكانت البداية بعزل جينات مسؤولة عن بعض الأمراض وعن بعض السلوكيات في الكلام أو الزيشوفرينيا (لأنه كان يسمى «جين الزيشوفرينيا»).

في عام ١٩٩٠م، تمّ إطلاق مشروع كبير باسم «مورّث بشري»، هدفه التوصل إلى خريطة وراثية كاملة للـ ADN. بدأت الفرق العلمية بالتنافس وعلى الأخص الاتحاد الدولي العام الذي دخل في منافسة مع جمعية خاصة اسمها: سيليرا جينوميك Celera Genomics بقيادة كريغ فنتر Craig Venter.

في ١٢ شباط من عام ٢٠٠١م، أعلن فنتر Venter أنه حقق الهدف. وكانت عناوين الصحف العالمية قد أعلنت عن كشف كامل للمورث البشري. لكن هذا الاكتشاف الكبير كان أيضاً مترافقاً بمفاجأة كبيرة: لقد كان

عدد الجينات البشرية أقل بكثير مما كان يُعتقد: ٢٣٠٠٠ جين فقط، أي أقل بأربعة أضعاف مما كان يتصوره العلماء قبل ذلك. إن ٢٣٠٠٠ هو عدد الكلمات الموجودة في ٤٠ صفحة من هذه المجلة التي نحن بصدد ترجمة بحث منها، فكيف يمكننا التفكير ببرنامج شديد التعقيد كبرنامج صناعة كائن بشري بعينيه وأذنيه ويديه وجهازه الهضمي ومئات الأنواع من الخلايا المختلفة ...أن يكون محمولاً على عدد صغير من الجينات؟! وكانت الطامة الكبرى عندما علمنا أن عدد الجينات عند الكائن البشري هو أقل بمقدار النصف مما هو في الأرز: ٢٣٠٠٠ مقابل ٥٠٠٠٠ مورثة للأرز! هنا تبرز لنا المسألة بشكل واضح تماماً.

في الواقع، منذ بضع سنوات، تيقن علماء الوراثة بأن كشف سلسلة المورث لم تفتح الطريق إلى تفكيك رموز «البرنامج الوراثي»، لأن هذا البرنامج،كان وبكل بساطة خديعة.[١٣]

الثورة التخلقية التعاقبية[١٤]

كانت هناك في الفترة نفسها، أبحاث جديدة في طريقها لتغيير طريقة التفكير في بناء المادة الحية. وبينما كان السباق إلى إبراز التعاقب في أوجه، كان علماء البيولوجيا وعلماء الوراثة يقومون باكتشافات أخرى تدور حول مفاهيم ومناهج جديدة: في التخلق المتعاقب، والتكوّن التشكّلي، والتخلق الجنيني ونظرية النمو التطوري،[١٥] علوم أدخلت مفهوماً جديداً للحياة. وبينما كان العمل جارياً على تعميق معرفة المورِّثات (في الإنسان وفي الأرز وفي الجزر والأرانب)، ظهر أن العضويات ليست مبنية انطلاقاً من برنامج واحد موجود ضمن جيناتها. وبناء على ذلك سقطت فكرة البرنامج الوراثي.

أوّل ثغرة كبيرة ضد فكرة البرنامج الوراثي هي نظرية التخلق المتعاقب. لكن هذه النظرية لا تعيد طرح دور الجينات في بناء العضوية، بل تهتم بآليات عملها بتحريض من عوامل خارجية. فمن أجل إنتاج كائن حي ينبغي إنتاج جزيئات عضوية، التي هي لَبنات المادة الحيّة، حيث تلعب هنا المورثة دوراً حاسماً. لكن من يأمرها لتقوم بالعمل؟ في الإجابة يكمن مجال علم التخلق التعاقبي.

لنأخذ مثال النحل. كل النحل في الخلية تولد من بيوض متماثلة، وكلهم يحملون المورث نفسه، ومع ذلك يلقون مصائر مختلفة: عاملة، أو ذكر أو ملكة. للملكة حجم ضعف حجم العاملة، وتكتفي بالإباضة. العاملة تسعى إلى جمع المؤونة وبناء الحويصلات وإطعام اليرقات. فكل من الملكة والعاملة تنتُجان عن يرقات متماثلة تماماً، لكن التغذية هي التي سوف تحسم

المصير. اليرقة التي تتغذى بالخثيرة الملكية تصبح ملكة، أما التي تتغذى بغبار الطلع فتصبح عاملة. وإن لم يتم إلقاح البيضة التي تبيضها الملكة فإن اليرقة تصبح ذكراً (يعسوباً) مختلفاً بالحجم والسلوك عن النحل العادي، إنه نتاج يرقة غير ملقحة. أما إذا تمّ إلقاحها، فتصبح النحلة أنثى، إمّا عاملة أو ملكة وفق الغذاء الذي تتلقاه. وبذلك تكون البيضة نفسها أي المورث[16] نفسه أي الـ ADN يمكن أن ينتج يعسوباً أو ملكة أو عاملة، وفق التغذية المتلقاة.

الذكر وزنه ضعف وزن العاملة وذو بطن كبير وعيون كبيرة (مع أكثر من ٨٠٠٠ وجيهة مقابل ٥٠٠٠ عند العاملات)، يُحدث بطيرانه ضجيجاً صاخباً جداً ولا يمتلك إبرة، وقرون الاستشعار عنده طويلة. لا يشارك في تغذية اليرقات ولا في بناء الحويصلات إنّما يكتفي بانتظار تفتح الملكات ليحاول التناسل والتكاثر.

اكتشف باحثون في جامعة كامبرا في أستراليا منذ مدة وجيزة أن القضاء على خميرة واحدة فقط، l'AND méthylétranférase كاف لتغيير مصير يرقة بتحويلها إلى ملكة خصبة ولودة أو إلى عاملة. الخثيرة الملكية تمنع آلية تشكل الميتيل ووجود أو غياب الخميرة نفسها في بضع ٥٦٠ مورثة في اليرقات سوف يغير المصير. الوسط يؤثر ويفعل في الجينات التي سوف تنشط أو لا تنشط، هذه هي آلية التخلق التعاقبي المسماة épigénétique.

ففي البدء المورث أي الـADN نفسه وفي النهاية عضويات متنوعة. ويحدث الأمر نفسه عند جميع الحيوانات القابلة للتحوّل (مثل دودة القز التي تتحوّل إلى فراشة). وتجدر الإشارة إلى أن الآلية نفسها تحصل في خلايا جسمنا. فانطلاقاً من الخلايا القاعدية المتماثلة كلها وحاملة المورث نفسه، بعضها سيصبح خلايا حمراء، وبعضها الآخر عصبونات، وخلايا عضلية، وعظمية، وجلدية وكبدية، إلخ. فليس إذاً البرنامج الوراثي هو الذي يقرر مصيرها. يعمل المحيط على تنشيط الجينات تماماً كما تأليف الأنغام المختلفة بالضغط على ملامس البيانو نفسه. فالمورثة ليست إذاً ذاك الطلسم الذي فيه دُوّن واُستودِع سر الحياة. إنها أشبه بأبجدية مؤلفة من بضعة آلاف من الأحرف: لكن كيف تتحد هذه الأحرف لتشكيل كلمات (أي: الجزيئات)، وعبارات (أي: خلايا)، ونصوص (أي: عضويات)[17]؟ إنها قصة أخرى مختلفة.

بناء تسلسلي

إذا كان بناء كائن حي ليس مبرمجاً منذ البدء وفق مخطط محدّد ومقرر مسبقاً في الإرث الوراثي، كيف نفسّر أن الفيلة تولد

دائمـاً فيلة والورود تولد وروداً والبشر تولد بشراً؟

معنى ذلك أنـه لا يوجد مخطط مسبق مسجـل داخـل الجينوم، بل هنـاك منطق لآليـة العمل... لكننـا لا نعلم ما هو. يعمل الباحثون حالياً حول نماذج تطورية محاولين الإجابـة عن هذه الأحجية الكبيرة وهي سر نشوء الأشكال الحيّة.

بالنسبة إلى العالم البيولوجي والفيلسوف هنري أتـلان Henri Atlan، إن عصر ما بعد الجينومي الذي نعيش فيه يفتح الطريق أمام نظريات التكـوّن الذاتي والتعقيد.[18] تركـز نظريات التكوّن الذاتـي على البزوغ الطبيعي التلقائي للأشكال الثابتة انطلاقاً من عناصر غير منتظمة (على شاكلة بلورات الثلج التي تشكل بالتبلور جزيئات ماء).

إن نماذج التكوّن الذاتي التي تعود إلى ما قبل ثلاثـين سنة لم تستطع الوفاء بوعودها. لقـد نقدها عـالم البيولوجيا جـان- جاك - كوبيك Jean-Jacques Kupiec الذي يطرح طريقاً آخـراً. فوفقه، يحصل تشكل الأفـراد نتيجة لآلية داروينية تحصل داخل العضويات نفسها[19]. المخطط هو كالتالي: كل عضوية تنتج العديد من الخلايا لا يعيش منها إلا التي تكون قابلة للحياة والاستمرار. لقـد تمت البرهنة على هـذا المخطط على صعيد العصبونات ونقاط الاشتباك العصبي في الدماغ. إن تشكل العصب البصري الذي يصـل العـين بالدماغ على سبيـل المثال لا يتبـع مساراً مبرمجاً سلفـاً. الألياف تتكاثر انطلاقاً من العين باتجاه المناطق الدماغية مجذوبة بظاهرة جذب (المسماة «غذائية»). جزء واحد من هذه الأليـاف سوف يستمر ويظل على قيد الحيـاة ويتم استعماله، أمّا البقية فسوف تتلف وتموت. يطلق على هذه العملية اسم «الداروينية الدماغية».

الطبيعة المتكافلة المتضامنة

التكوّن التشكّلي هو ساحة أخرى واعدة لفهم بناء العضويات الحيّة. إن دراسة نشوء الأشـكال تستند إلى فكرة أن العضوية تُبنى انطلاقاً من ضغوط فيزيائية بسيطة تفرض أشكالاً ثابتـة ومتسلسلـة. وإذا كان للقمر والأرض والشمـس وكل الكواكب والنجوم في الكـون الشكل الكروي نفسه، فذلك وفق قانون الجاذبية الذي يقـود المادة المندمجة إلى التجمـع نحو المركز. مـن هنا لن يكون هنـاك كواكب مسطحـة أو مكعبة أو بشكل الكمـثرى. ويصـح هذا المبـدأ بالنسبة إلى جميع الأشكال الحيّة.

التخلـق المتعاقـب، والتكـوّن التشكّلي، والتنظيـم الذاتي، وعلـوم التعقيد ونظرية علم الوراثة التطوري للنمو، كل هذه النماذج التفسيريـة تهـدف إلى الإجابـة عن السر الكبـير في بناء المـادة الحيّـة في حقبة ما

بعد الجينات. وجميعها متفقة على فكرة أن الحياة ليست مدرجة ضمن برنامج، بل هي تنجم عن تسلسل علل غائية[20] تترابط فيما بينها. غير أنه يوجد تصورات أولية تقود العملية وحلقات ارتجاعية ومستويات تنظيمية مترابطة، وخطوط تطورية، وأقطاب جذب ومنطقيات مساعدة على التطور تتجمّع وتتلاقى لتكوين أشكال ثابتة ومتواترة.

فمع التخلق التعاقبي ونهاية الكل الجيني، برزت فكرة أخرى قلبت علوم المادة الحية رأساً على عقب: وهي التكافل. وجهة النظر بالنسبة إلى المادة الحية السائدة في الداروينية هي رؤية «صراع مرير من أجل الحياة»، صراع الكل بين الكل حيث الأفراد والأنواع تتصارع وتتنافس مع بعضها بعضاً. غير أن البيولوجيا قد بيّنت منذ بضع سنوات كيف أن الحياة كانت تعرف كيف تظهر متضامنة ومتعاونة.

نعلم منذ زمن بعيد أن النحل يتغذى بغبار الطلع وبرحيق الزهور، وبتنقله يحمل هذه الغبار من زهرة إلى أخرى فتخصبها: شكل مانح، مانح ضروري لحياة كل واحد. هذا ما يسمى التشاركي أو التعاوني.

في نهاية القرن التاسع عشر، اكتشف بعض العلماء أنه يوجد في الطبيعة شكل من أشكال التشارك أكثر اندماجاً: وهو التعايش. كما هو حال حزاز الصخر[21] التي هي عضويات هجينة متشكلة من تجمع مندمج بين نبتة وحيوان. لقد ساد الاعتقاد لفترة طويلة أن هذه المجموعات كانت حالة استثنائية. ومنذ فترة وجيزة، انتبه علماء البيولوجيا لأهمية وحضور مجموعات عديدة منها في عالم الأحياء.

في معدة كل كائن بشري تعيش مليارات من البكتيريا المفيدة جداً طالما أنها تساعد في إخضاع عدد من الأغذية لعملية هضم كيميائية مسبقة أو أنها تركّب بعض الفيتامينات ذات حاجة حيوية بالنسبة إلينا نحن نغذي هذه البكتيريا والتي هي بالمقابل تساعدنا في غذائنا. هذا الشكل من التعايش هو في حالة متقدمة جداً بما أن هذه البكتيريا تعيش في داخلنا! فبالتبادل والتعايش والتجمع والاشتراك في التطور ضمن عالم الأحياء المصنوع من أشكال متعددة من التجمعات من هذا النوع، تتحد العضويات وتتعاون وتنتشر وتركّب أنظمة وعضويات عملاقة تدعم بعضها بعضاً بالتبادل والتكافل.

عندما نعمم حالة التجمعات العضوية بين الأفراد الحية، نصل إلى ثورة نموذجية في علوم الأحياء. فعوضاً عن اعتبارها عضويات مستقلة وفي حالة تنافس، نجد أفراداً (بكتريا، عضويات مجهرية، نباتات،

حيوانـات، مجتمعـات حيوانيـة) وكأنهـا وحدات مرتبطة عضوياً فيما بينها: كل فرد منها عضو في وحدة أكثر اتساعاً أو يحتوي في داخلـه وحدات أصغر منه. ففكرة الفرد المستقـل سقطت[٢٢] كل كائـن هو في داخل الآخر بعض الشيء.

دوائر اجتماعية ضرورية

لنعـد إلى المسألة الأوّليـة: كيف يصنّع فيـل، أو خزامى،[٢٣] أو سلطعـون، أو كائن بشـري؟ الحل الذي ترتسـم خطوطه اليوم هـو كالتالي: الحيـاة ليسـت منغلقة ضمن الجينـات بـل تتجلـى كنتـاج تسلسل علل غائية. يبقى أن نفهم الطريقة التي تتجه بها مختلف التفاعلات نحو بنـاء هذه الأشكال الثابتة والمتواترة التي هي الفيلة والخزامى أو البشر.

الطبيعة هي أكـثر تضامناً مما نعتقد: العضويات ليست جماعات متوحدة مستقلة الواحدة عن الأخرى. هذه الرؤية للحياة لها عواقب كبيرة على تصورنا للكائن الإنساني.

يبنى الكائـن البشري مثلـه مثل جميع العضويـات الحيّـة، انطلاقـاً مـن أساس بيولوجي ليس مسجلاً بالكامل ضمن برنامج وراثي.

يتجـه نمـو الجنـين البشـري وفـق الواردات الغذائية مـن الأم ثم من الأغذية الخارجية. العين البشرية مهما كانت مكوَّنة بشبكيتهـا وقزحيتهـا، وعصياتها وخلياتها المخروطيـة،[٢٤] لا تعمل مـن دون وارد من الفيتامين Aوالكاروتـين الذي نتناوله من الأغذيـة الخارجية. عندما يُحـرم الكائن البشري من الأغذية الطازجة يصبح أعمى. وكما يلخص كلود غودانClaude Gudin هذه الفكـرة بالمقولة التالية: «البصر، يؤكل أكلاً».

ومثل جميـع اللبونـات، الطفل بحاجة للحليب ليعيش وينمو. يمكن لهذا الحليب أن يؤخذ من الأم أو من أم بديلة أي من مرضعة. في جميع الأحـوال، لقد برهنت الخبيرة في علم الإناسـة[٢٥] سارة هـردي Sarah B. Hrdy أنـه لا يوجد والدة يمكنها أن تعيش وحدها مـن دون دعم اجتماعـي خارجي مهما كان المجتمـع بدائياً، بما فيه المجتمع البشري.[٢٦] الطفل بحاجة لأم وهي بدورها بحاجة لفريـق اجتماعي (الـذي بدوره لا يمكن لـه الوجود مـن دون أدنـى حد من النظم والتقنيات). يرتبط النمو البيولوجي إذاً بدوائر اجتماعية ضرورية لاستمراره.

وعلـى العكس مـن ذلـك إن الشبكات الاجتماعية والثقافيـة والتقنية عند البشر لا يمكـن لهـا أن توجـد وتنتشـر من دون التجذر في عـالم الأحيـاء. إن إنشاء أصغر وحدة اجتماعية يفترض أن يكون أعضاؤها مجهزيـن بالاستعـداد الذهنـي والعاطفي

الذي يسمح لهم بالاتصال وبإقامة الرابط الاجتماعي.

عندما يصاب هذا الفريق بالأذى (كما في حال اضطرابات النمو العصبية مثل حال «الانطواء»)، يصاب الوضع الاجتماعي بشدة ويصبح انطلاق الحياة الاجتماعية مستحيلاً. كل الأجناس الاجتماعية من جرذان وطيور وسنوري وبشريات، قد نما لديها عبر مسار التطور مجموعة من الغرائز والعواطف والكفاءات الاجتماعية الآمرة بالحياة الجماعية وبالتعاون.

دون هذا التجهيز الأساسي لا يمكن لأي مجتمع مركب أن يتمم بناءه.

حتى في القرن الواحد والعشرين، شبكات التواصل الاجتماعي مثل الفيسبوك Facebook أو التويترTwitter، لم يكن لها أن تحقق هذا الازدهار الصاعق لو لم تكن منتشرة في جنس من اللبونات الاجتماعية منهمكة جداً بالتواصل مع الآخرين.

فمن جهة، تتغذى الدوائر البيولوجية من الدوائر الاجتماعية والتقنية، ومن جهة أخرى لا يمكن للدوائر الاجتماعية والتقنية أن تنتشر من دون أن تغرس جذورها في المادة الحيّة.

الهوامش

١- جان – فرانسوا دورتييهJean-François Dortier، مؤسس ورئيس تحرير مجلة العلوم الإنسانية Sciences Humaines.

٢- تريستان فييTristan Vey صحفي في صحيفة لوفيغارو الفرنسية.

٣- صحيفة لوفيغاروLe Figaro ٢٠١٢/٠٣/١٤

4- chromatographe multidimensionnel en phase gazeuse

٥- المشرف على هذه البحوث الكيميائي أوفه ماير هنريش le chimiste Uwe Meierhenrich.

٦- تريستان فييTristan Veyصحيفة لوفيغارو ٢٠١٠/٠٩/٢٣ (Le Figaro).

٧- لقد تمّ اكتشاف بنية المنقوص الأوكسجين من قبل فرانسيز كريك، وروزالين فرانكلين وجيمس واتسن١٩٥٣م

découverte de la structure de l'ADN par Françis Crick, Rosalind Franklin et James Watson.

٨- الحمض الريبي النووي ARN هو أحادي التركيب (مكوّن من خيط واحد) سكره هو الريبوز؛ فيه يكون الأوراسيل مكان التيمين.

٩- الحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين هو ثنائي البنية أي مؤلف من خيطين، السكر فيه منقوص الأوكسجين désoxyribose، خيطاه متجهان بشكل مضاد التوازي. الجذور التي تكونه هي من جهة الأدينين (A) الذي يتحد مع التيمين (T) ومن جهة أخرى السيتوزين (C) الذي يتحد مع الغانين (guanine (G.

١٠- تخلّق متعاقب épigénèse: نظرية تقول بأن الجنين يتكوّن من سلسلة من التشكلات المتعاقبة.

١١- تكوّن تشكّلي: morphogenèse . symbiose: بمعنى اتحاد وثيق وتعايش متعضيين غير متشابهين.

١٢- Acide desoxiribonucleique ويرمز له بالأحرف الثلاثة ADN باللغة الفرنسية والـDNA باللغة الإنكليزية.

١٣- هنري آتلان، نهاية «الكل الوراثي»؟ نحو نماذج جديدة في البيولوجيا، إينرا

Henri Atlan, La Fin du «tout génétique»? Vers de nouveaux paradigmes en biologie, Inra, 2001

١٤- انظر ريتشارد فرانسيز، التخلق التعاقبي: آخر أسرار الوراثة، نورتون:

:Voir Richard C. Francis, Epigenetics: The ultimate mystery of inheritance, Norton, 2001

وهنري آتلان، الحياة بعد الوراثية أو ما هو التكوّن الذاتي؟، أوديل جاكوب:

Henri Atlan, Le Vivant postgénomique ou qu'est que l'auto-organisation?, Odile Jacob, 2011

١٥- évo-dévo: بالفرنسية:

La génétique évolutive du développement وهو علم الوراثة التطوري للنمو ويعرف باللغة الإنكليزية بـevolutionary developmental biology وهو فرع علمي في بيولوجيا التطور هدفه فهم منشأ التعقيد التخلقي للعضويات (نباتات أو حيوانات) عبر دراسة مقارنة للجينات التي تنظم نموها.

١٦- الحمض الريبي النووي المنقوص الأوكسجين في الملكات والعاملات، فرانك ليكو وآل، بلوس بيولوجي تشرين الثاني ٢٠١٠م

The honey bee epigenomes: Differential methylation of brain DNA in queens and workersFrank Lyko et al., PLoS Biology, novembre 2010.

١٧- ليس التشبيه هنا سطحياً: فمثلما يلزم أحرف عدة لتشكيل كلمة، ولكن كل حرف يدخل في كلمات مختلفة، كذلك كل وظيفة معقدة تحرِّك العديد من الجينات وكل جين يدخل في تكوين وظائف عديدة.

١٨- هنري آتلان، Henri Atlan، op. cit.

١٩- جان- جاك - كوبيك، أصل الأفراد، فايار

Jean-Jacques Kupiec, L'Origine des individus, Fayard, 2008.

٢٠- علة غائية: العلة الموجودة إذا أوجدت بمعلولها توخت غاية، وإلا لما خرجت عن سكونها.

٢١- حزاز الصخر: lichens.

٢٢- كلود كومب، الفن أن تكون طفيلياً. تجمعات المادة الحيّة، فلاماريون

, Claude Combes, L'Art d'être parasite. Les associations du vivant, nouv. éd., Flammarion, coll. «Champs», 2010.

٢٣- توليب tulipe، أو خزامى:جنس زهر معمر بصلي من الفصيلة الزنبقية.

٢٤- خليات الإحساس في شبكية العين.

٢٥- علم الإناسة أو علم الإنسان: علم يبحث في أصل الجنس البشري وتطوره وأعراقه وعاداته ومعتقداته.

٢٦- سارةب. هردي، أمهات وغيرهن. الأصول التطورية لمفهوم التعايش، بلكناب بريس

Sarah B. Hrdy, Mothers and Others. The evolutionary origins of mutual understanding, Belknap Press, 2009.

حاجتنا لنظرية جديدة تفسر الظواهر الكونية المجهولة

د. ناصر محي الدين ملوحي ✪

(نحن نحاول باستمرار وبأسرع ما يمكن إثبات أننا مخطئون لأن تلك هي الوسيلة الوحيدة للتقدم، والطبيعة ذات خيال أوسع من خيالنا بكثير، وليس من السهل إيجاد فرضيات ونظريات علمية عميقة توضح آليات الظواهر الكونية، كما أن فن تخمين قوانين الطبيعة يحتاج إلى ذكاء حاد وتأمل واسع ونقد هادئ، فقد تراكمت الغرائب وأصبحت القوانين المعروفة تعطي نتائج متناقضة، ودخلت طريقة جديدة تستند إلى اعتبارات التناظر، وأصبح الوضع صعباً جداً، فلأول مرة أدرك الناس أن شيئاً مهماً كقوانين نيوتن يمكن أن تبدو صحيحة فترة طويلة وهي في نهاية الأمر خاطئة، واليوم ليس عندنا غرائب مبدئياً، صحيح أن لدينا تلك اللامتناهيات التي تتدخل عندما نضع جميع القوانين معاً، لكن الناس الذين يكنسون الأقذار، ليضعوها تحت السجادة، هم ماهرون لدرجة أنهم يقنعونكم بعدم وجود غرائب خطيرة، هذا وأن وجود هذه الجسيمات لم يزد في معلوماتنا شيئاً سوى أن معلوماتنا ناقصة، فالاكتشافات الجديدة لا تأتي إلا من أفكار جديدة)(1)، ونستعرض بعض الظواهر الكونية الغامضة التي تحتاج إلى نظرية علمية جديدة لتفسيرها بشكل عميق وجميل:

✪ باحث سوري.

١- النجوم النابضة (النجوم النيترونية):

النجوم النابضة في مجرتنا لا يتجاوز قطرها ٢٠كم، بينما قطر شمسنا ١٣٩٢٠٠٠كم، وقطعة منها بحجم رأس الدبوس العادي وزنها حوالي ١٠٠٠,٠٠٠طن، وتنعدم فيها المسافة ما بين الإلكترونات والبروتونات في بنية الذرة، بحيث يتحدان معاً، وهي ثقيلة وتدور حول نفسها بسرعات خيالية، فالنابض PSR 1937+ 215 يدور حول نفسه أكثر من ٥٥ مليون مرة في اليوم الواحد، أي بمعدل مرة كل ١,٥٥٧ ميلي ثانية، وعددها الحالي في مجرتنا لا يقل عن ٥٠ مليوناً، ويتشكل نابض جديد كل ٥٠-١٠٠ سنة، فتأمل!؟ وحرارة سطح شمسنا ٦٠٠٠م°، أما حرارة سطح النجم النيتروني ١٠ مليون درجة، فهي أشد سخونة من سطح شمسنا بأكثر من ١٦٦٦مرة.(٢)

٢- الثقوب السوداء:

يوجد في مجرتنا على الأقل ١٠٠ مليون منها، نتيجة انهيار النجوم الكبيرة في آخر عمرها، فتصبح كثافتها لا نهائية لدرجة لا يستطيع الضوء الإفلات من جاذبيتها، وتحاط بمنطقة أفق الحدث تبلغ بضعة كيلومترات، لا يستطيع أي شيء أن يخرج منها، وهذه المنطقة بالنسبة لشمسنا سوف تبلغ ٣كم في قطرها فقط، وتختل فيها كل قوانين الفيزياء المعروفة، وتصبح القوانين المسيطرة مجهولة، مما يؤكد حاجتنا الضرورية لنظرية علمية كونية جديدة أعمق تحليلاً وأوسع خيالاً وأقوى رياضياً من النظريات المعاصرة لتفسير الظواهر المعقدة والغريبة، ويعتقد أنه يوجد في مركز مجرتنا ثقب أسود نتج عن انهيار نجم حجمه ٤مليون مرة من حجم شمسنا، وللمقارنة، فإنه في مجرة M87 يوجد ثقب أسود كتلته حوالي ٣٥٠٠ مليون مرة قدر كتلة شمسنا.(٣)

- عرض ونقد التناقض المنطقي والقصور العلمي في تحليل تشكل الثقوب السوداء:

تفسر النظريات المعاصرة السيرورات الفيزيائية المؤدية لتشكيلها بالمراحل التالية:

الاندماج النووي الحار في قلب النجوم← تحويل الهيدروجين إلى هليوم+ طاقة تظهر على شكل إشعاع وضوء وحرارة، ولكن بمرور الزمن← ينفذ الوقود النووي لتتحول الكتلة إلى طاقة عبر ملايين السنين أو مليارات

السنين← ينهار النجم إلى الداخل تحت تأثير ثقالته الذاتية← انقباض النجم← زيادة سرعة الانفلات من النجم لزيادة الجاذبية فيه، وعندما يتقلص نصف قطر النجم إلى ٣٠كم تصبح سرعة الانفلات ٣٠٠ ألف كم/ ثا وهي سرعة الضوء،[4] وبالتالي لا يستطيع الضوء الذي يصدر عن النجم أن يفلت منه← الثقب أو النجم يصبح أسوداً، وهنا يظهر التناقض العلمي كما يلي:

آ – فطالما النجم استنفد وقوده النووي فمن أين يأتيه الضوء؟ لأن الضوء من نتائج الاندماج النووي الحار، وهو لا يحدث فيه لاستنفاذ وقوده، وهذا هو التناقض الأول.

ب – أما التناقض العلمي الثاني فإنه حسب النظرية النسبية الخاصة، لاشيء يستطيع التحرك بسرعة تفوق سرعة الضوء فكيف يعتقد ستيفن هوكينغ، ويبرهن على إشعاع وتبخر الثقب الأسود؟ حيث يقول في كتابه الثقوب السوداء والأكوان الطفلة، ص(٩١-٩٢): (إن الثقب الأسود يخلق ويشع جسيمات كما لو أنه جسم ساخن عادي ذو درجة حرارة متناسبة مع ثقالة سطحه ومتناسبة عكساً مع كتلته، وبالتالي فإن الثقب الأسود يشع وينير)، وهذا يدعى إشعاع هوكينغ، وتفسيره بالاعتماد على نظرية الكم التي تقر بالجسيمات المضادة الوهمية للجسيمات الحقيقية، التي تتولد معها باستمرار كأزواج من مادة حقيقية، ثم ينفصل الزوجان أحدهما عن الآخر، ثم يعودان للاندماج حيث يفني كل منهما الآخر، تدعى هذه بالجسيمات الوهمية، لأنها لا يمكن أن ترصد مباشرة من خلال كاشف الجسيمات، كما هو الحال مع الجسيمات الحقيقية، إلا أن آثارها غير المباشرة قابلة للقياس، وبوجود الثقب الأسود، يسقط أحد عنصري زوجي الجسيمات الوهمية فيه، تاركاً في الخارج شريكه، وقد يسقط الجسيم أو الجسيم المضاد المتخلف في الثقب بعد شريكه الأول، لكنه قد ينقلب أيضاً مبتعداً عن الثقب، فيبدو عندئذ وكأنه إشعاع صادر عن الثقب الأسود، لذلك يسمح ميكانيك الكم للجسيم بالفرار من الثقب الأسود، بعكس الميكانيك الكلاسيكي، هناك كثير من الظواهر الفيزيائية الذرية والنووية التي توجد فيها حواجز لا تستطيع الجسيمات اختراقها وفقاً للمبادئ الكلاسيكية، بينما تستطيع اجتيازها بموجب مفعول النفق في ميكانيك الكم، يستطيع الثقب الأسود خلق

أزواج إلكترون - بوزيترون وجسيمات ذات كتلة تساوي الصفر، كالفوتونات والنيوترينوات والغرافيتونات (الحوامل المفترضة للطاقة الثقالية)، إن الثقب الأسود البدئي قادر على تحرير طاقة بمعدل ستة آلاف ميغا واط، أي ما يكافئ ما تنتجه ست محطات توليد كهرباء نووية كبيرة، بينما يقوم بإشعاع الجسيمات، تتناقص كل من كتلته وحجمه، وهذا ما يجعل أمر الفرار سهلاً لمزيد من الجسيمات، فيستمر الإشعاع بمعدلات متزايدة شيئاً فشيئاً إلى أن يكون قد أشع ذاته، وزال من الوجود، وبالتالي سوف يتبخر كل ثقب أسود في الكون على هذا المنوال، إلا أن الزمن اللازم للثقوب السوداء الكبيرة لتتبخر من الوجود طويل جداً، فالثقب ذو الكتلة المساوية لكتلة الشمس سوف يدوم مدة تساوي 10^{66} سنة تقريباً، من ناحية أخرى، يجب أن تكون الثقوب السوداء البدئية قد تبخرت تقريباً في غضون عشرة مليارات من السنين التي انقضت منذ الانفجار الأعظم، في بداية الكون، ونتوقع أنها تشع حالياً أشعة غاما ذات أمواج شديدة القصر بطاقة تساوي حوالي مئة مليون إلكترون-فولت، تسارع المرحلة النهائية من تبخر الثقب الأسود على نحو تنتهي فيه بانفجار هائل، تكون للانفجار النهائي طاقة مكافئة لمليون قنبلة هيدروجينية من فئة الميغا طن[5]، وهنا يتوضح التناقض العلمي كما يلي: إذا كان الثقب الأسود يشع، فإن هذا يؤدي إلى كون الإشعاع أكبر من سرعة الضوء لكي يستطيع الانفلات من جاذبيته وبالتالي نستنتج ضفيرة من التناقضات والأخطاء العلمية والمنطقية ومنها ما يلي:

- خطأ آينشتاين في اعتبار أن سرعة الضوء هي السرعة القصوى للأجسام في الكون.

- خطأ في المعادلات الرياضية التي وضعها آينشتاين في نظريته النسبية الخاصة والعامة والتي تقول: بأن أي جسم تساوي سرعته سرعة الضوء فإن كتلته تصبح لا نهائية وزمنه يتوقف وطوله يساوي الصفر، فكيف تنطبق هذه المفاهيم الفيزيائية على إشعاع الثقب الأسود؟ وكيف تكون سرعته أكبر من سرعة الضوء ليتحرر منه؟

ج - التناقض العلمي الثالث حول خرافة تبخر وانفجار الثقب الأسود: إذا كان الثقب الأسود يشع كالجسم الحار (جسيمات كالإلكترونات والفوتونات والنترونونات)

فهذه طاقة نووية هائلة، وهذا يعاكس مفهوم تشكل الثقب الأسود بالأصل الذي يحدث عند نفاذ وقوده النووي، فمن أين أتت هذه الطاقة النووية الهائلة؟ أمّا إذا كان الثقب الأسود يشع جسيمات مضادة وهمية غير قابلة للقياس، فإننا نستنتج بأن الثقب الأسود نفسه وهمٌ بوهم، ولا وجود له إلا في خيال البعض.

د- **التناقض العلمي الرابع:** إذا كان الثقب الأسود يتبخر ويضيع في الكون بإشعاعه فكيف ينفجر؟! فالانفجار الهائل حسب تعبير هوكينغ يدل على طاقة نووية هائلة، وهذا يعاكس آلية تشكله، وإنني أستغرب وأتعجب كيف يقع بعض العلماء الذين تعتبرهم الدول الأوروبية والأمريكية قمماً في مجال العلم والفيزياء الكونية والنووية، ويمنحونهم جوائز نوبل من أمثال آينشتاين وهوكينغ، بينما تمتلئ كتاباتهم ومقالاتهم بالتناقضات العلمية والمنطقية، التي لا تخفى حتى على طلبة المراحل الإعدادية والثانوية في كشفها، وهذا يدل على أهمية النقد العلمي والشك الفلسفي لكل ما يصدر من الآخرين، في شتى مجالات العلوم لأن الإعلام الأوروبي والأمريكي المتصهين يجعل من الحمار حصاناً لدرجة أن من نظنه جبلاً عندما يتمخض يلد فأراً.

فلماذا يلجأ الباحثون للنظرية النسبية في تفسير ظاهرة الثقوب السوداء، ولا يطبقون عليها استحالة تجاوز سرعة الضوء، أو يستخدمون ميكانيك الكم ومبدأ النفق والارتياب وظاهرة الجسيمات الوهمية لتفسير بعض الظواهر الغامضة فيه، فضلاً عن تناقضهم في تحليل الكثافة اللانهائية للمتفردة المركزية في الثقب الأسود، وتعليل تشكله وتطوره في الكون، وهل هي حقيقة أم خيال من اختراع عقول الباحثين؟

وهذه التناقضات الكثيرة جعلت بعض العلماء يفتشون عن نظرية علمية فيزيائية جديدة، فمثلاً افتتح الباحث روبرت لافلان في آذار ٢٠٠٥م، جدلاً محموماً في الأوساط العلمية حول هذا الأمر، ونشرت له دار Basic Books كتاباً بعنوان (عالم مختلف: إعادة كتابة الفيزياء من البدء)، يؤكد فيه أن جميع قوانين الطبيعة منبثقة، بمعنى أنها تنتج عن سلوك جماعي أو كلاني، وأنها من الناحية العملية لا علاقة لها بالقوانين التي تهيمن على السيرورات

الفردية الضمنية، والمثال البسيط على ذلك هو قوانين الشواش: (لأن قوانينه تصف وضعية المنظومة ككل، من دون إعطاء أهمية تذكر إلى أنه مكون من ذرات وهذا ما قام به في البدء عدد من الفيزيائيين)، مثال ذلك أمكن للنظرية الذرية أن تفسير ظواهر الترموديناميك كضغط الغازات أو انتقال الحرارة بين الأجسام، نتيجة للسلوك الإحصائي لعدد هائل من الجزيئات التي تخضع بدورها لقوانين الميكانيك الكلاسيكي، ولكن الكائنات الحية مثلاً، تتحدى قوانين الفيزياء وخصوصاً الترموديناميك، أفليس سلوكها الغائي الموجه لهدف متنافياً مع القوانين السببية؟ ثم ألا يبدو نموها الذي يسير بها نحو مزيد من التنظيم متعارضاً مع المبدأ الثاني للترموديناميك، الذي يقتضي أن تسير المنظومات نحو مزيد من الفوضى؟ أو أليس من الواضح على الأقل أنه لم يكن في كل ما عرف من قوانين الفيزياء والكيمياء وحدهما ما يمكن أن نتنبأ مقدماً بالظواهر البيولوجية، ولكن إذا كان اختزال الكائن الحي إلى مجرد فيزياء أمراً مستبعداً، أفلا يلزمنا عندئذ الاستعانة بمبدأ حيوي ضمن منظومة نظرية علمية فيزيائية جديدة.[٦]

- نقد عام للنظريات المعاصرة وقوانينها المضحكة والمتناقضة:

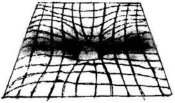
نستنتج من نقدنا لمنهج وأفكار ونظريات الباحثين الفلكيين المعاصرين، أن السيرورات الكونية منافية للنظام والتوازن ومستعصية على الفهم -حسب تحليلهم- ويحمل مصادفات غريبة جداً وآليات مفرطة في التخيل والوهم، وهذا الاضطراب العلمي النظري يدل على ابتعادهم عن فكرة التوحيد الإيماني وخلق الكون مع اعترافهم، بأن سيرورة الظواهر الكونية متصاعدة التطور التدريجي من الشواش إلى النظام، لدرجة أنهم بعجزهم العلمي وأفكارهم الإلحادية اخترعوا مفهوم الفيزياء الكمومية لتحل محل الميتافيزيقا (ما وراء الطبيعة)، ليعطوا لأنفسهم القلقة الراحة ولمنطقهم المشوش النظام، فكل احتمال وارد عندهم، فحسب مبدأ عدم اليقين تعم الفوضى الظواهر الكونية والمصادفات التي تحوّل العدم إلى مادة وطاقة وحياة وإرادة حتى لو كانت عجيبة وغريبة وشاذة وشديدة الندرة ومفرطة التخيل، وهذا ما لاحظناه في تحليلنا ونقدنا لهذه النظريات والقوانين المضحكة والمتناقضة، وهذا المصطلح:

قوانين مضحكة ليس من عندنا، وإنما ذكره بعض الباحثين الفلكيين وخاصة في مجلة العلوم الأمريكية.[٧]

- نقد خاص لنظرية الكم والنسبية:

- يقول ستيفن هوكينغ في كتابه موجز تاريخ الزمن: (يقدم العلماء اليوم أوصافاً للعالم نابعة من نظريتين جزئيتين أساسيتين، نظرية النسبية العامة ونظرية ميكانيك الكم، إنهما أعظم النظريات الكبرى نجاحاً ما بين ما أنجز في القرن العشرين، تهتم النسبية العامة بقوة التثاقل وبنية العالم في مداه الواسع أي بنيته في سلّم يذهب من بضعة كيلو مترات إلى مليون مليار مليار كيلو متر -واحد متبوع على يمينه بـ ٢٤ صفراً-، وهو المجال الذي استطعنا رصده حتى الآن، أما ميكانيك الكم فيهتم بما يحدث في سلّم صغير جدّاً جدّاً/ من قبيل جزء من مليون جزء من السنتمترات، لكن هاتين النظريتين مشهورتان مع الأسف بتناقضهما، فلا يمكن إذن أن تكونا كلتاهما صحيحتين معاً، وأحد الجهود الجبارة التي تبذل في الفيزياء اليوم، يتجه إلى البحث عن نظرية تحتويهما معاً -نظرية كمومية في التثاقل، لكننا لم ننعم بها بعد وما يزال بيننا وبين هذا الهدف طريق طويل)[٨].

١- مفهوم الزمكان والكون في النظرية النسبية:

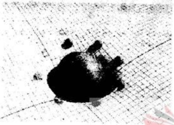


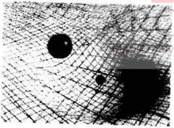
شكل يوضح انحناء المتصل الزمكاني (منظومة المكان- الزمان) حول الشمس بفعل كتلة الشمس حسب النظرية النسبية، وتتبع الكواكب مسارات معينة في داخل هذا الفضاء- الزماني المنحني.[٩]

أ- المتصل الفضائي- الزماني Space-time continuum شيء واحد، رباعي الأبعاد، وفيه يتحد الزمان والفضاء، يمثل بيانياً بمخطط يكون فيه الفضاء بالمحور الأفقي، والزمان بالمحور الرأسي[١٠]، ويُقال بأن آينشتاين صاغه في نظريته النسبية، ويعني وجود مجال حول الأجرام من كواكب ونجوم متناسب طرداً مع الكتلة، فكلما كان الجرم أكبر كان انحناء المتصل الزمكاني أكبر، وبالتالي جذبه للكواكب حوله أكثر، وهذا الانحناء الزمكاني يفسر قوة جاذبية الأجرام السماوية، ونعتقد بأن هذا المفهوم

يشبه فكرة خرافة الأثير التي أثبت العلم خطأها، ونحن نبحثه وننقده في هذا التحليل العلمي:

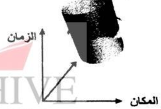
ب - فرضية انحناء الزمكان تعجز عن تفسير العديد من الظواهر الكونية[11] ومنها: الاختلاف الكبير في سرعة دوران كواكب المجموعة الشمسية حول نفسها وحول الشمس فمثلاً الاختلاف الكبير في سنة ويوم عطارد والزهرة والأرض، والمريخ معاً في أنهما في الجزء الداخلي من المنظومة الشمسية، فكيف تفسر الاختلاف بين يوم الزهرة ٢٤٣ يوماً أرضياً، بينما سنته ٢٢٥ يوماً أرضياً، بينما يوم الأرض حوالي ٢٤ ساعة، وسنتها حوالي ٣٦٥ يوماً، رغم أن قطر الزهرة والأرض متقاربان، ولا يختلفان بشكل كبير في بعدهما عن الشمس، بعد الزهرة عنها ١٠٨ مليون كم، بينما بعد الأرض عنها ١٤٦ مليون كم، وكيف نفسر بكون كوكب الزهرة يدور باتجاه معاكس لدوران الكواكب الأخرى بحيث يكون يومها يساوي -٢٤٣ يوماً أرضياً، وهذا لا يمكن تفسيره بمفهوم الزمكان، كما أن كوكب المشتري المؤلف تقريباً من غاز الهليوم وغاز الهيدروجين أثقل من الأرض بأكثر ٣١٥ مرة، ويستطيع أن يخفي بداخله أكثر من ١٤٠٠ كرة أرضية حقيقية يدور حول نفسه بسرعة رهيبة أشد من دوران الأرض حول نفسها بـ٢٧ مرة، ومع ذلك يكون يومه ٩ساعات و٥٥دقيقة، وهذا لا يمكن تفسيره بمفهوم الزمكان أيضاً.[12]





لا يمكن أن يتكافأ التسارع والجاذبية إلا إذا سبب جرم ضخم انحناء المكان، الزمان، ويؤدي ذلك بالتالي إلى انحناء مسار الأجرام في جيرته. تمثل الكرة الكبيرة في المركز جرماً ضخماً مثل أحد النجوم، يؤدي وزنه إلى انحناء البساط بالقرب منه، عندما تتدحرج كرات بلي الصغيرة فوق البساط فإنها تنحرف بوساطة هذا الانحناء وتدور حول الكرة، بالطريقة نفسها التي يمكن بها للكواكب، التي في المجال الجذبوي لأحد النجوم، أن تتخذ مداراً حوله[13].

- الكون ساكن: إن كون آينشتاين ستاتيكي ساكن لا يتغير بالزمان، ولا يتمدد ولا يتقلص، وينساب زمنه من ماض لا نهائي إلى مستقبل لا نهائي، بينما اتجاهات المكان محددة ومغلقة على نفسها كسطح الأرض، ولكن مع وجود بعد آخر (الزمن) يمكننا أن نتصور هذا المكان- الزمان على شكل أسطوانة حسب المخطط:



يشبه كون آينشتاين الأسطوانة: فهو محدد في المكان وثابت في الزمان، وكنتيجة لحجمه المحدد، فإنه يستطيع الدوران بسرعة أقل من سرعة الضوء في كل مكان.

وكون آينشتاين مخالف للكون الذي نعيش فيه، لأن كوننا متحرك ومتغير ومتوسع وهذا يشكل خللاً أساسياً في أسس النظرية النسبية لاعتمادها على كون ساكن مناقض للكون المرصود.(١٤)

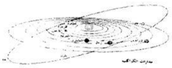
ج - الكون عنده متقوس:

بينت حسابات آينشتاين في مقالته تأملات كونية في نظرية النسبية العامة عام ١٩١٧م أن الكون متقوس على هيئة كرة ذات أبعاد أربعة قطرها ١٠٠ مليون سنة ضوئية، ولنموذجه الكوني الرياضي خاصية مضطربة غير مريحة وهي أن أجرامه ومجراته، إما أن تتباعد أو تتقارب، ومع جهله بما سوف يكتشفه هابل، كان ذلك مناقضاً لقناعات آينشتاين، ومثله كمثل معظم علماء عصره، كان يعتقد أن الكون الحقيقي ساكن لا يتغير، ولكي يوقف المجرات عن الحركة، أدخل حداً إضافياً إلى معادلته أسماها الثابتة الكونية وهي قوة تعمل ضد جاذبية الثقالة.(١٥)

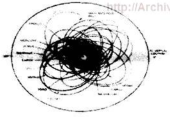
٢- سذاجة ستيفن هوكينغ في دفاعه عن آينشتاين: يقول هوكينغ في كتابه الكون في قشرة جوز ص٣٤: (إن معادلات آينشتاين عن النسبية العامة، أفضل تذكار له، فسوف تبقى مادام الكون باقياً..)(١٦)، وظهرت سذاجته بوضوح عندما وصف الأبحاث النووية في ص٣٤ من كتابه الكون في قشرة جوز بأنها (العلم اليهودي)، مع أن هذا العلم هو للبشرية جمعاء يجب استخدامه في المجالات المفيدة للإنسانية كتوليد الطاقة الكهربائية والدراسات الطبية والعلمية، وليس لصنع القنابل الذرية كما فعل علماء اليهود

كآينشتاين، الذي حض الرئيس الأمريكي روزفلت على صنعها في بداية الحرب الغربية (العالمية) الثانية عام ١٩٣٩م، فيما عرف بوثيقة آينشتاين (ص٢٣)، ومن نتيجة هذا التشجيع اليهودي لأمريكا ظهور مشروع مانهاتن الذي تمخض عن صنع قنبلتين ذريتين ألقيتا فوق هيروشيما وناغازاكي، وقتلوا أكثر من ربع مليون إنسان مدني بريء، إضافة إلى تلويث البيئة والطبيعة وتخريب المدن، وهذه أول مرة يستخدم فيها السلاح النووي في التاريخ، وتعتبر هذه مهزلة للحضارة الغربية المريضة حيث تُسيَّر كما يريد اليهود، وهم المفسدون في الأرض على مدار التاريخ.(١٧)

٣- هناك عوامل وآليات فيزيائية كثيرة ومعقدة، تحكم وتضبط الساحة الكونية الكوكبية والنجمية، وليس فقط سذاجة مفهوم انحناء الزمكان، فهناك كتلة الكوكب وحجمه، وبعده عن الشمس ودرجة ميلان محوره على المدار، والنجوم القريبة من مجموعتنا، وسباحة المجموعة الشمسية حول مركز مجرتنا، وتباعد المجرات وتوسع الكون والحراك الكوني المتبادل كتأثير النجوم النابضة وانفجارات نجوم السوبرنوفا والشهب والنيازك والمذنبات والغبار الكوني والأشعة الكونية والمجالات المغناطيسية والثقالية للأجرام القريبة والبعيدة وميلاد النجوم وانهيارها وتشكل الثقوب السوداء، وسنعرض بعض الصور مع الشرح والتحليل:



المجموعة الشمسية بعناصرها الكوكبية التي تدور حول نفسها وحول الشمس حسب النظرية الفلكية المعاصرة التي تعطي صورة مبسطة لا تعبر بدقة عن الحقيقة الواقعية الكونية لبنية وتركيب ومدارات عناصر النظام الشمسي وما يحويه من كواكب وكويكبات ومذنبات ونيازك وشهب وغبار كوني (أشعة كونية) أو مجالات مغناطيسية وجاذبية، كل هذه المركبات الوفيرة تتأثر ببقية أفعال وقوى وحركة النجوم التي تعد مئة مليار في مجرة درب التبانة.



عينة من عدد قليل من الكويكبات السيارة الأكبر، والتي يقدر عددها بحوالي ٢٠٠٠- وتتقاطع مداراتها مع مدار كوكب الأرض، ويمكن لها أن تتقاطع مداراتها مع بقية كواكب المجموعة الشمسية.(١٩) وتسمى الجسيمات الكويكبية نيزكاً عندما تدخل الغلاف الجوي الأرضي قبل أن تحترق ويمكنها أن تسبب كوارث إذا كانت كبيرة وعندما تحترق تسمى شهاباً وينزل يومياً على الأرض ٢٠٠ مليون شهاب

كل هذا الحراك الكوني والفعال والحيوي، يدخل بشكل مباشر أو غير مباشر بانسجام وتوازن، مع سباحة مجموعتنا الشمسية، ولكن ليس بأسلوب فوضوي حسب سذاجة النظريات العلمية المعاصرة، الأمر الذي يؤكد ضرورة هندسة وصياغة نظرية علمية كونية جديدة، تنسجم مع روعة وجلال الظواهر الكونية، وتعبر عن وحدة الخالق سبحانه وتعالى، الذي خلق كل شيء بقدر، وهذا ما نبحثه بوضوح في نظريتنا الحلزونية الكونية الجديدة.[٢٠]

الهوامش

١- يُنظر: طبيعة قوانين الفيزياء، رؤية واضحة وعصرية لبنية العالم، رتشارد فاينمان، ترجمة: د.أدهم السمان، منشورات وزارة الثقافة والإرشاد القومي، دمشق، ١٩٧٩م، طرائق البحث عن قوانين جديدة، ص١٦٢- ١٦٦- ١٦٧- ١٦٨.

٢- الكون، تأملات رياضية، د.أنور حمدي، دار القلم، دمشق، الدار الشامية، بيروت، سلسلة كتب قيمة ٣٠، ط١، ١٤٢٠هـ/١٩٩٩م، النجوم والنوابض، ص١٢٤-١٢٥.

٣- الكون، تأملات رياضية، د.أنور حمدي، م.ن، الثقوب السوداء!!، ص١٢٦-١٢٧.

٤- الثقوب السوداء والأكوان الطفلة ومواضيع أخرى، ستيفن هوكينغ، ترجمة: د.حاتم النجدي، مراجعة: د.عبد الحليم منصور، دار طلاس للنشر بالتعاون مع المعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، دمشق، ط٢، ٢٠٠٤م، ميكانيك الكم والثقوب السوداء، ص٨٧-٩٦.

٥- الثقوب السوداء والأكوان الطفلة ومواضيع أخرى، ستيفن هوكينغ، ميكانيك الكم والثقوب السوداء، م.س، ص٩١-٩٣.

٦- مجلة المعرفة، وزارة الثقافة، دمشق، سورية، العدد٥٥٢، السنة ٤٨، رمضان ١٤٣٠هـ/ أيلول ٢٠٠٩م، بوادر تحول في منهج البحث العلمي: الانبثاق، وائل الأتاسي، ص٣٣٩- ٣٥٤.

٧- مجلة العلوم، الترجمة العربية لمجلة ساينتفك أمريكان، مؤسسة الكويت للتقدم العلمي/ المجلد ٢٠، العددان ٤-٥، أبريل/ مايو ٢٠٠٤م، بعيداً عن العتمة، G دفالي، ص٨٠-٨٧، وفقرة: قوانين مضحكة، ص٨٧، للتوسع: أينشتاين أكذوبة القرن العشرين، د.ناصر ملوحي، دار الغسق للنشر، سلمية، سورية، ط١، ١٤٣٠هـ/ ٢٠٠٩م، ص١٢٣.

٨- موجز تاريخ الزمن من الانفجار الأعظم إلى الثقوب السوداء، تأليف: ستيفن هوكينغ، ترجمة: أدهم السمان، دار طلاس للنشر والمعهد العالي للعلوم التطبيقية والتكنولوجيا، دمشق، ط٣، ١٩٩٩م، ص٢٥-٢٦.

٩- فكرة الزمان عبر التاريخ، مستشار التحرير، كولن ولسون، المشرف على التحرير: جون جرانت، ترجمة: فؤاد كامل، مراجعة: شوقي جلال، عالم المعرفة، الكويت، ع: ١٥٩ شعبان/ رمضان ١٤١٢هـ/ مارس/ آذار ١٩٩٢م، ص٢٣٨.

١٠- السفر في الزمان الكوني، الألف كتاب الثاني، الهيئة المصرية العامة للكتاب ١٩٩٩م، د.باري باركر، ترجمة: د.مصطفى محمود سليمان، مراجعة: جلال عبد الفتاح، أهم المصطلحات الواردة في الكتاب، ص٤٤٤- ٤٤٥.
١١- للتوسع في نقد الزمكان في النظرية النسبية، آينشتاين أكذوبة القرن العشرين، د.ناصر ملوحي، م.س، ص٢٥١- ٢٥٦.
١٢- الكون تأملات رياضية، د.أنور حمدي، دار القلم، دمشق، دار الشامية، بيروت، ط١، ١٤٢٠هـ/ ١٩٩٩م، ص٤٠- ٤١، ٤٨-٥٠، ٧٥.
١٣- الكون في قشرة جوز شكل جديد للكون، عالم المعرفة، الكويت، تأليف: ستيفن هوكينغ، ترجمة: د.مصطفى إبراهيم فهمي، عدد ٢٩١، ذو الحجة ١٤٢٦هـ/ مارس ٢٠٠٣م، تاريخ موجز للنسبية، ص٢٧، شكل الزمان، ص٣٩.
١٤- الكون في قشرة جوز شكل جديد للكون، ستيفن هوكينغ، ترجمة: د.مصطفى إبراهيم فهمي، م.س، حماية الماضي، ص١٤١، للتوسع: آينشتاين أكذوبة القرن العشرين، د.ناصر ملوحي، م.س، ص٢١٢.
١٥- البحث عن اللانهاية حل أسرار الكون، تأليف: غوردون فديزر، إيغيل ليلستول، إنجة سيليفاك، تقديم: ستيفن هوكينغ، ترجمة: د.مكي الحسيني، د.أحمد حصري، مراجعة: أدهم السمان، دار طلاس للنشر، المعهد العالي للعلوم، دمشق، ط١، ١٩٩٧م، يوم بلا أمس، ص٩٨.
١٦- الكون في قشرة جوز شكل جديد للكون، حماية الماضي، م.ن، ص٣٤.
١٧- الانفجار الكبير أو مولد الكون، تأليف شمشك، ترجمة عن التركية، أورخان محمد علي، دار الكلمة للنشر والتوزيع، مصر- المنصورة، طبعة عام ١٤٢٣هـ/ ٢٠٠٣م، ص٢٦-٢٧، للتوسع: آينشتاين أكذوبة القرن العشرين، د.ناصر ملوحي، م.س، ص٢٢٤.
١٨- أطلس الكون والفضاء، د.محمد درويش، دار الرضوان للنشر، حلب، د.ت، ص١٠.

www.alrdwan.jeeran.com.

١٩- كوكب الأرض نقطة زرقاء باهتة رؤية لمستقبل الإنسان في الفضاء، تأليف كارل ساجان، ترجمة: د.شهرت العالم، مراجعة: حسين بيومي، عالم المعرفة، الكويت، عدد ٢٤٥، شوال ١٤٢٠هـ- فبراير/ شباط ٢٠٠٠م، ص٤٩٠، للتوسع آينشتاين أكذوبة القرن العشرين، د.ناصر ملوحي، م.س، ص١٨٨.
٢٠- ينظر: النظرية الحلزونية الكونية- التوحيدية (رؤية جديدة لواقع ومستقبل العلوم)، د.ناصر ملوحي، دار الغسق للنشر، سلمية، سورية، ط١، ١٤٣٢هـ/ ٢٠١١م.

باقة ورد في زيارة شاعر

✿
سليمان العيسى

وفد من طالبات كلية التربية في دمشق برئاسة الدكتور مهند الشعبي يزور الشاعر في ١١/١١/٢٠١٠م

جيلٌ به وَهَجُ الحياة ودَفقُها
ورفيف بسمتِها، وطيبُ عبيرِها..
من بانياسَ.. ومن ثنايا موجةٍ
زرقاءَ.. من ألَقِ السماءِ ونُورِها
من لاذقيتِنا[1] التي تَهفو لها
شَفةُ الغروبِ وتَستقي من حُورِها..
من بَلدةٍ.. زُرِعتْ على كَتِفِ الذُّرا
مِصياف، سَمَّاها نشيدُ طُيورِها

وتجيءُ من بَلَد الرجولةِ والفِدَا
أعني حَماه.. أجَلَّ أرقَ زُهورِها

✿ ✿ ✿

يا باقةَ الوردِ التي حَمَل الضُّحى
أزكى الطُيوبِ إليَّ من مَنْثورِها
قد كنتُ أرتجلُ الحديثَ مُحَطماً
هذي يَدِي.. عُذراً على تقصيرِها

✿ ✿ ✿

✿ شاعر العروبة والطفولة الكبير.
العمل الفني: الفنان رشيد شمه.

الجيلُ بعد الجيل..

إلى طالبات كلية التربية.. بقيادة الأستاذ الصديق الدكتور مهند الشعيبي.. في زيارة لبيت الشاعر



الجيلُ بَعْدَ الجيل.. من فَتَياتنا
يَأتي إليَّ.. يَـزورُ بُقيا شاعرٍ
يَحمِلن ناضرةَ الشبابِ وزَهْوَهُ
يَسألنَ عما قُلتُهُ لِدَفاتري
لا تَسْألي هُوجَ العواصفِ يا بُنتي
عَمَّا تركْنَ من الغُبارِ الثائرِ!
أنا لستُ أذكُرُ.. غيرَ أني ريشةٌ
طَلَعتْ على الدُّنيا بِحُلمٍ ناضرِ
أعطيتُهُ شعري وعُمري يا بُنتي
أعطيتُهُ حَدَقي وضوءَ الناظرِ

أنا أُمّةٌ.. نَبَضتْ بريشةِ شاعرٍ ... ويَظَلُّ هذا الضوءُ مِلْءَ مَحاجري
الجيلُ بعد الجيلِ من فَتَياتنا ... وشبابُنا يُملي عليَّ خواطري..

دمشق٢/١٢/٢٠١٠م

ماذا كتبتُ لها؟

كتبتُ لها ما يهمسُ الصبحُ للندى

وما يحملُ الظمآنُ للمنهلِ العذبِ

كتبتُ لها..

هل أطفأ الشوقُ جَمرهُ؟

وهل قال ما يكفي

المحبُّ عن الحبِّ؟

الهوامش

١-لاذقية العرب.

البرابرة أصبحوا في الداخل

نهلة كامل ✪

من جوزف سماحة وإلى روحه العبقرية الشجاعة [1]

البرابرة قادمون،
دوماً،
كلما اختمرت النوايا
واكتملت النيران
ونضجت الهمجية.
يجعلنا إعصارهم
قلب العاصفة:
هنا،
....
متشابهون،
كعادتهم،
يعلنون حرق التاريخ
يعجنون الجغرافيا

ويوزعون فتاتها
بعد الحريق
إعاشة للاجئين
في شتات الغزو.
....
ياه..
يا لوقاحة زمنهم،
الداهم تحت رايات القيامة،
ينشرون الفوضى الموعودة
بقوتهم القادرة على ممارسة الرداءة،
وفوق خيولهم:
الرهان المعقود
على شياطين الماضي القريب والجديد،

✪ شاعرة وصحفية سورية مقيمة في بيروت.

وعلى بغل مقدمة حملتهم:
رجل صفته «قرضاي».
....
متجددون
تقول رسالة جوزف سماحة:
إذا آن الأوان اليوم كما الأمس
البرابرة يقرعون الأبواب
يرسمون مكان القيامة:
من بابل إلى أرماجدون،
البرابرة يقتحمون
«يتجشمون عبء:
نازعي الأرواح الشريرة»
وشعارهم:
وعيد الحرية،
يوزعون التهم،
وهم يلعبون دور «الله»،
بأنك من جديد
في شرق أوسط - هم
تمارس عقوقك
ضد مصالحهم الخالدة.
....
سيغلقون بوابات العودة
-كما ختمت رسالة سماحة-
فالبرابرة أصبحوا في الداخل:
بروؤس فارغة
وقلوب جافة
وقدرك أن تمشي،
على حد الشفرة،
مدركاً خطر السقوط.
وانتصارك أن تصمد طويلاً،
كقابض على جمر قدره،
ريثما تجعلهم يعودون بشراً
يركبون قطار التدهور السريع:
يملأ رؤوسهم الندم
وتخفق قلوبهم بالفشل،
سيتركون حرائقهم الفوسفورية
وراءهم.
وهنا وهناك ألغامهم.
وأمراء حربهم:
يريدون عجن الغنائم
وخبزها
وتقاسمها من جديد
وهم يطلقون لحظة اقتتالهم
الحتمي
حشرجة أخيرة..

الهوامش

١- قلت للكاتب والصحفي المبدع الكبير الراحل جوزف سماحة أنني أجد في مقالاته التي تابعتها في بيروت بعد غزو العراق حتى العدوان على لبنان ٢٠٠٣-٢٠٠٦م رؤى شعرية أريد أن أقتبس منها رسالة من نصوص «رسائل على موقع القيامة» الذي كتبته ولم أنشره بعد..

وقد اطلع على هذا النص قائلاً: أوافق على الرسالة، وأحببت جعلها رؤية شعرية جامعة.

(لقاء في.... بابل)

قصة: محسن يوسف ✪

((إذا كنت لا تفهم ما يحدث ...
فعليك أن تصمت، أو تدّعي الجنون))
/ حكيم قديم /

سيدي ومولاي، أتمنى أن ألتقيك، وأمثل بين يديك، فأنا لا أخشى أحداً، وأعتبر نفسي من رعاياك، وأفهم ما يحدث، ولا أستطيع الصمت، وربما كنت أحد مجانين هذا العصر الذي لا يعرف التاريخ البشري، مثيلاً له..

لن أستبق ما أود إيصاله إليك، وبيننا من الزمن المديد، ما يكفي من القرون، يقارب الأربعين، وهو زمن يسمح لي باللجوء إلى الخيال الذي يتفوق على المعرفة، كما قال العالم آينشتاين، مخترع القنبلة الذرية، إحدى الوسائل التدميرية التي ميّزت عصرنا المجنون .....

ولأني أنتمي بوجودي، إلى عصر آينشتاين التدميري، يحرضني جنوني لكي أقارب الخيال، فأقترب من الشاب الطموح، وهو يعتلي عرش بابل المقدس، وها أنا أقف أمامك، وجهاً لوجه، وخلفي يسطع زمن وجودي (٢٠٠٩) بعد الميلاد، وفي مواجهتي يتألق زمن وجودك (١٧٩٢ق.م)، والرجلان، أنا وأنت، يبتسمان. يتصافحان. يجلسان متجاورين، كأي صديقين.

✪ أديب وقاص سوري.

واسمح لي أن أسأل، من دون انتظار إجابة: ((أليس الخيال أهمّ من المعرفة؟ وأضيف إلى مقولة آينشتاين، بعد كلمة أهمّ، كلمة أخرى هي: وأجمل، أمّا السؤال الذي وددت طرحه فهو: هل الخيال أحد وجوه الجنون؟.. وبعد.. أيها الصديق القديم، سأخبرك بأشياء، تناقض ما جئت به، وعملت على تطبيقه، في مملكتك المقدسة التي تسمّى الآن: الوطن العربي، لكني في البداية، أذكرك بأنك كنت أوّل من قال: العين بالعين والسن بالسن، وأنك ستمحق المفسد والظالم، وتأخذ حق الأيتام والأرامل، وتنصر الضعيف على القوي.

تغيّرت ملامح الرجل. اكفهرّ الوجه، وغابت الابتسامة، ويده ترتفع و تهتزّ أمام وجهي:

– قل لي.. ماذا يحدث؟..

ازددت اقتراباً منه:

– ما يحدث أيها المبجّل، يفوق الخيال والجنون. إنّهم يبيعون الماء والهواء والأجساد والابتسامات، ويتاجرون بالقيم والأخلاق والمخلوقات. تصوّر يا سيدي: مئات.. ملايين البشر، يعانون من الفقر والجوع والمرض والبطالة، وثالثة الأثافي . ما حاولت أن أخفيه عنك..

التزم الصمت لحظة، فهوت يده المهتزّة، لترتطم بجسدي، وصوته يدوي كصاعقة:

– لا تخف.. قل كل ما لديك.. أجبته، والخوف يطوّقني:

– سأفعل، لكني أخشى أن تقدم على فعل يؤلمني.

اجتاحه الغضب، والصوت الصارخ يعود أكثر دوياً:

– قل ما تشاء..

تحوّل الرجل إلى عاصفة:

– سيدي.. أسياد العصر، دمروا بابل، وتدمّر يبوس، وسواها، وربما أقدموا على تدمير العالم، فلقد زرعوا أديم الأرض بالجرائيم الفتّاكة، وغمروا البحار بالسفن العملاقة، وحجبوا السماء بالطائرات والسفن الفضائية.

سأل، وهو يستلّ سيفاً مذهّباً:

– دمّروا باب بعل؟..

انزويت في زاوية من المكان:

- دمّروا بابل وما حولها، وغصّت خرائبها بملايين الأرامل والأيتام، والمعوقين والمشردين..

مضت لحظات، وعيناي تلاحقان السيف المذهّب. خفت أن يهوي الرجل، بما يحمل، فيقتلني، أو يقتل نفسه.

أغمضت عينيّ، وغادرت مجلس حمورابي، وأنا أشكر آينشتاين، وأترحّم على ذلك الحكيم القديم الذي قال:

((إذا كنت لا تفهم ما يحدث، فعليك أن تصمت، أو تدّعي الجنون)).

اغتراب

اسكندر نعمة *

من دون أن يدري، وجدَ نفسه خارج الحلبة، بعيداً عن كل شيء، مفصولاً عن عمله. صاحَ به داخله: «العملُ هو الحياة. أنت الآن خارجَ الحياة».

منذُ أكثرَ من سنة التحق بالشّركة الكبيرة. عملَ فيها بكلِّ ما يملك من جدٍّ وتفانٍ وإخلاص. يُغادر غرفته المتواضعة مع الصباح الباكر، ويعود إليها وقد تلاشى النهار

قدّم للشّركة كلَّ ما لديه من خبرةٍ وعلم، وأفنى أيّامه فيها.

لماذا؟؟. مزّقهُ هذا السؤال. لم يكن يدري!!

أبلغه مدير الشّركة عن طريق التسلسل بأنه مفصولٌ عن العمل. قرارٌ لا مناقشة فيه. تلك هي الأساليب المتبعة. ذُهل تخثّر كل شيءٍ في داخله. تساءل الحيرة تأكله: «هل ارتكبتُ خطأً ما؟!». «هتفت به أفكاره المبعثرة»: إنها مقتضيات الأزمة الاقتصادية. البلادُ في أزمة الاقتصاد في مِحنة. تلك هي طبيعة «البيزنس» هنا.

ولماذا أنا؟!.. أنا الذي..

لستَ وحدك يا رجل. ألوفُ العاملين مثلك، عصفت بهم رياح الأزمة العاتية. طردتهمُ القوة النابذة. طرحتهم على مفارق الشوارع والأرصفة.

تشرذم داخله وتقوقع، وغابَ في تداعيات دهاليز مُعتمة..

عندما أقلعت به الطائرة من عاصمة وطنه. كان مُتخماً بإحساس آخر. لم يكن يمتطي متن آلةٍ تشقّ الجوّ، بل كان يمتطي

* أديب وقاص سوري.

متن أحلام واسعة الطيف، تتماهى به عبر تخيلات وردية مجنّحة. البلادُ المتطورة. الدِّراسة العليا. الحياة الراقية العمل والمال الوفير.. ساعتئذٍ، أغمضَ عينيه وراح يحسدُ نفسه «حظُّهُ من السّما».

بعد سنوات تخرّج في الجامعة وحصل على شهادة الدّراسة العليا. سريعاً ما تلقّفتهُ تلك الشّركة الكبرى. غاص في رُدُهاتها. تـوارى خلف غيومها المتراكمة. تحوّل إلى رقم مجهول بين مئات الأرقام.

أغمض عينيه وغاب أكثر في زحمة التداعيات. حُلوة ومرّة تلك الذكريات. تُرى لو بقي في وطنه، هل يُتاح له ذلك؟!. ليس يدري. تذكّر عشرات الخرّيجين الذين يطرقون في كلّ يوم أبواب العمل بلا جدوى. كان واحداً منهم. لقد حصل على شهادته الجامعية في إدارة الأعمال. لكنّه لم يجد عملاً. إنه يعمل هنا. حصل على شهادة عليا، وأقبل العمل إليه سريعاً قبل أن يطلبه. ما كان أجمل ذلك!. لكنّه فقد الكثير. تحوّل إلى رقم ضائع، والعملُ استنزف منه حياته قطرةً إثر قطرة. يلهث وراء الحياة والحياة تجلده بسياط السّرعة والإرهاق والتعب المُضني والمسافات القاتلة.

● ● ●

كان يجلس وحيداً على مقعد في حديقة عامّة، يجترّ ذكرياته وأوهامه. الحديقةُ غاصةٌ بالمستريحين. لكنّه لاهٍ عن كل شيء. أخرج من جيب سُترته بطاقة «جرين كارد». راح يتأملها ساخطاً. لماذا أسموها «جرين كارد»؟!. إنّها رمادية اللّون، ليست خضراء. عندما منحته الشّركة هذه البطاقة اعتقد أنه ملك الدّنيا. لكنّه الآن على قارعة الطريق. وخزهُ شيء ما في داخله: «قلتُ لكَ، إنها رياح الأزمة الاقتصادية التي عصفت بكل شيء». شطره السؤال من جديد: لماذا أنا؟؟!!.

تلفت حوله فجأة. الحديقة تكاد تخلو من روّادها. لملمَ أجزاءَهُ المُبعثرة وراح يمتطي الأرصفة باتجاه البيت. بدا له البيت كالكهف المهجور، ولكن أين يذهب؟؟.

امتدّت يده إلى صندوق بريده الخاص. استلّ مغلفاً صغيراً، وارتمى إلى أقرب مقعد في غرفته الصغيرة وراح يقرأ. مالكُ البناء يُنذره بالإخلاء في أوّل الشهر المقبل، لأنه تخلف عن دفع الإيجار للشهر الحالي. صُعق. هبَّ واقفاً. ارتمى على المقعد من جديد. تخثر كلّ شيء في أوصاله. غامت رؤاه وتدحرج في غمرة تساؤلات مرعبة..

«البطالة سوف تطول، الدّولارات القليلة التي اختزنها قد تسدُّ رمقهُ لأشهر قليلة

جداً، ولكنّها سرعان ما تنفد، أين سينام؟؟. هــل يفترشُ الأرصــفة؟؟.». تناوبت عليه أحاسـيس التشرّد والبرد والحـرّ. ارتعدت مفاصلـه. ارتسـمت في مخيّلتـه مشـاهدُ «الهومليس» المنتشـرة في كثير مـن زوايا الشّوارع والأحياء.

حطّمتهُ تلك الرُّؤى، دفعت به إلى مسارب لا يـدري مداها. ماذا عليه أن يفعل؟. عليه أن يجد حلاً. أن يُنقذ نفســه.. هل تلاشت الحلول؟. لا.. ولكن كيف؟!. من أين سيبدأ أشهرٌ مرّت وهو رهنُ البطالة. لعن الله تلك السّـاعة. التمعت في ذهنه خواطر مشتّتة. لفته في دوّامتها. حزم أمره. مسـح جبينه المتعرّق. أصلـح من جلسـته. تذكّر سـالماً. صـديقه الوحيد الذي تعاطف معه بعد أن لفظته الدّوّامة. لقد وعده بأن يسـاعده في إيجاد عمـل جديد ينقذه من بطالته..«هل سيصدق سالم.. لاشكّ في ذلك. إنّه ابن وطني ومدينتي. صديقي منذ أيّام الطفولة. سبقني إلى المغـترب. لكنّه يرفل بالاسـتقرار. ينعم بكل شيء. لم تطله زوابع الأزمة الاقتصادية. إنّها الأخرى تخبطُ خبطَ عشواء.. لله هذا الزّمن».

ازدردَ ريقــه عــدّة مرّات. شـدّ قامته. امتدّت يده إلى الهاتف الجاثم على الطاولة ووقّع بأنامله أرقاماً مُبعثرة.

- أهلاً سعيد.

- مرحباً سالم.. أنا لستُ سعيداً، بل..

- لا عليك يا رجل. كُنتُ سأتصـل بك. وجـدْتُ لك عمــلاً مؤقتاً، ريثمـا يفرجها الله.

- عظيم.. أصـحيح ما تقـول؟!!.. وما العمل؟.

- قلتُ لك إنه مؤقت. مؤقت فحسـب. حارسٌ ليليٌ لبناء شركة كبيرة. مديرُ الشركة صاحبي.

تجمّـدت الكلمات بين شـفتي سـعيد. أخرجته أخيراً مُداعبات سالم عن صمته.

- حارسٌ ليليّ!!.. ماشي الحال.

- قلتُ لك إنّـه مؤقت. صـدقني. قد يحالفنا الحظّ إلى ما هو أفضل.

- الحـظّ!! الحــظّ!!.. ماشـي الحال. ومتى سنبدأ؟.

- غداً.. منذ السّـاعة السّادسـة مساءً وحتى السّادسة صباحاً.

- طيّب. ولكن هناك مأزق آخر.

- مأزقٌ آخر!!.. ماذا؟؟.

- سأخلي الغرفة بعد أيام. لم أدفع أجرة الشّهر الحاليّ.

- لا عليـك.. عنـدي غرفةٌ إضـافية فارغة. تستطيع أن تنام فيها.

● ● ●

البــردُ يمــزق المفاصل، يصــدعُ الرأس والأعصاب. ارتدى معطفه الشّتويَّ الطّويل. أرخى على أذنيــه قبعةً صوفيّة. البردُ ينخرُ عظامه ولمّا تبلغ السّاعة بعد منتصف الليل: «كيف سيقضي ما تبقى من ليلته الصّعبة؟؟. لا بأس. عليه أن يتحمل. إنّه العمل. عليه أن يرضــى وإلاّ.. لا بأس. البــردُ في كل مكان. إنّه الشتاء».

كان يســير متجــولاً ببطء حــول البناء الكبــير. يرصد كلَّ حركة. يلجــأ أحياناً إلى الرُّدهات الخارجيــة المحيطة يلتمس بعض الدّفء والاطمئنان. ارتاب لكثير من الحركات والأصــوات المُفاجئة. لعلّها أصوات الطبيعة في ليــل لم يألفه: «يالهذا العمــل ما أقساه. مــا أَلِفْتُ مثل هذا. أهي لعبة القدر؟!. وأي قــدرٍ هذا؟!. إلام سأظــلُّ الكرة المتدحرجة بلا هدف؟. من سدد الكــرة باتجاه المرمى الآخــر؟. من قــذف بي من مرمــى مدير الأعمــال- إلى مرمــى الحارســ الليلي؟!. سامحك الله يــا ســالم. أردت مساعدتي!!. أهكــذا.. لا.. سالم صديقي. لا يبغي إهانتي وإيلامي.. لا بأس. إنّه العمل. سينتهي الليل وتنتهي معه المعاناة».

بين الحين والآخر، يوجّــه نظراته نحو حقيبتــه الكبــيرة التي حزم فيهــا ملابسه وأمتعته القليلة. لقد وعده سالمٌ أن يأتي إليه في تمام الساعة السادســة صباحاً، ليأخذه وحقيبته إلى غرفته الجديدة المجانية.

جمّد البردُ مفاصلــه وشفتيه، والخوف المفاجئ بلّدَ نظراته وأحاسيسه. كالحصان المربوط إلى حجر الرّحــى، كان يدور حول بنــاء الشركة الكبير، يرصــدُ فيه كلَّ حركة ونأمــة. عشرات المرّات استسلم لجلوس قلق على المقعــد المركون في المدخــل الرئيس، سابحاً مــع تداعيات مــرّة مؤلمــة مُشتّتة. ساقته تلك التداعيات بعيداً عبر المحيطات والقارات. أرّقته الذكريات والماضي الجميل. استسلم لأحلام ورديــة وراح يتذكر وفاء..» حــبٌّ جارفٌ كان يجمعنــا، لقاءات حميمة. عواطــف جيّاشــة. مواعيدُ مُترفــة بالأمل والشفافيــة. ولكنّنــا اختلفنا.. وفــاء.. ألا تزالين غاضبة مُستاءة. يومَ أخبرتك بعزمي علــى الرحيل، صعقــت ودخلت في عالم من الجمود والألم. لم تنفع كلُّ المبرّرات بإقناعك. قلتِ لي: وحبُّنا يا سعيد هل يرحل؟!. أجبتك بسذاجة: تلحقين بي. عندئذٍ ثُرتِ في وجهي وعنّفتني. ولمّا هدأت ثائرتك، قلت لي بهدوء: ارحل وحدك. أمّا أنــا فسأبقى. واستدرتِ عائدةً. كنتُ مخطئاً وكنتِ على حقّ. ما أزال أحتضــنُ حبّك ملء جوارحــي، وأعتذرُ عن خطئي الكبير».

دقّــت ساعة النّهايــة. الساعة السادسة

صباحاً. تنفّس الصُّعداء. تلفّت حوله بلهفة وتساءل: «لم يأتِ سالمٌ بعـــد!!. ماذا عليه أنْ يفعل؟. سالمٌ لا يكذب». حانت منه نظرةٌ بلهاء إلى الحقيبة المركونــة بسذاجة في منعطف المدخل: «أين سأنـــام؟. سالم لم يأتِ والسّاعةُ تجاوزت السّادسة بكثير. أين سأذهب وكيف؟. سالم لا يكذب. إنّه صديقي. يحبُّني. وأنا هنا وحيدٌ مع هذا البناء الشّاهق الكبير».

لمعــتْ في ذهنه فكرةٌ خاطفـــة. سيتصل بسالم. يوقظه مـــن نومه: «هنيئاً لك يا سالم، إنّك الآن تستمتع بالدّفء والرّاحة و و».

مشـــى خطـــواتٍ متثاقلةً نحـــو الهاتف المُعلّـــق علـــى الحائـــط في منعطـــف الباب الرّئيس. الهاتف ذو حصّالة. تجوّلتْ أنامله في قـــاع جيبـــه. أخـــرج بعضـــ«السّنتات» ودسّها في حلقوم الهاتف. ابتلعتها الحصّالة بسرعة. وقّع بأنامله أرقاماً يعرفها: «لا بأس فليستيقظ ســـالم». إلاّ أنّ الهاتف لم يعمل. لم يصله رنين الجهة الأخـــرى. صاح في سرّه: «يا ســـالم أنا سعيد». لكـــنّ الهاتف لم يعمل، والحصّالـــة ابتلعـــت «سنتاتـــه». استشاط غضباً. بلغ به الانفعال حـــدّاً بعيداً. أهوى بجُماع قبضته على جهاز الهاتف الآثم لعلّه يعمل.

يا للهـــول.. المفاجأة مذهلة. «الدّولارات وأرباع الـــدّولارات والسّنتـــات» تنهالُ على الأرض وتحدث رنيناً عشوائياً.

فغرَ فـــاهُ. رفعَ حاجبيه. حملق بشراهة. استبدّت به تساؤلات مُضنية: «كم أنا بحاجة لهذه الأمـــوال!!». استعـــرَ في داخله صراعٌ حادٌّ.. تلاشى الزّمان والمكان. اختزل الحياة كلّها في كلمة.

استدار على عقبيه. مدّد قامته. نظر إلى السّماء. مشى بخطوات متثاقلة. جلس على كرسيٍّ في منعطف باب الشركة الرّئيس. شدّ حقيبته وضمّها بين ساقيه.

«لم يأتِ سالم بعـــد.. ولكنّهُ سوف يأتي.. سالمٌ لا يكذب».

الاقتراضات اللغوية بين لغة الإعلام ولغة الشباب

د. محمد فاتح زغل ✪

ليس هناك من لغة حية كانت أو ميتة انفردت بذاتها ولم تأخذ من غيرها حتى العربية أخذت وأعطت قبل الإسلام وبعده، فالأخذ والعطاء من العربية وغيرها يعد قانوناً تفرضه طبيعة حياة الناس وعلاقاتهم، لذلك وجدنا أن العربية في مراحل وجودها طعمت الكثير من اللغات بمادة لغوية غزيرة وكذلك هي أخذت ما احتاجت إليه بحكم تلك العالمية.

ولقد وضع العلماء العرب آلاف المصطلحات العلميّة، وصنعوا عشرات المعجمات بجهودهم الفرديّة والجماعيّة، بعون من الجهات الرسميّة والمجامع اللّغويّة أو من دون عون منها، واكتسبوا تجارب خوّلت بعضهم الحديث عنها حديث العارف بأسرارها وتاريخها وإيجابياتها وسلبياتها. بيد أنني، في حدود ما أعلم، لا أعرف واحداً منهم شكا من أن اللغة العربية حالت يوماً دون وضعه مصطلحاً من المصطلحات العلميّة. بل إنني قرأتُ شيئاً مخالفاً هو الإقرار بمرونة اللغة العربية وطواعيتها لاستيعاب العلم الحديث.

والمشهد اللغوي الجديد الذي سوف نتحدث عنه هو مشهد خرج من بين ظهرانينا يجاورنا ونجاوره، وهو يأخذ بالتناسل بشكل مستدام ويشكل سيلاً كلامياً جارفاً لا يعيق تقدمه حاجز لغوي، أو عقبة مفهومية، أو صعوبة تواصلية.

إنها لغة أجيالنا الجديدة الشابة الطالعة من عالم الإنترنت، والتقنيات الجديدة، ووسائل الاتصال الحديثة، لغة فرضها السلوك

✪ أديب وباحث في التراث العربي سوري مقيم في دولة الإمارات العربية المتحدة.

التحرري الذي سيطر على الشباب في المأكل والمشرب، وفي مجالات الزي وتسريحة الشعر والرياضة وفنون قيادة المركبات والدراجات على أنواعها؛ ناهيك عن اقتناء الهواتف الخلوية أو المحمولة، وملاحقة تطورات الموضة واكتساب «نيولوك»، وممارسة هواية التسوق، والاستمتاع بحضور الحفلات، والاستماع إلى الموسيقى، وارتياد دور السينما والمطاعم و«النايتات»، وسواها من مراكز اهتمام الأجيال الشابة.

هذا الانفلات السلوكي واكبه انفلات لغوي، وسيتفاجأ المرء بهذه الغابة التعبيرية المترامية الانعطافات، وسيدهش آخرون من هذه التحولات البنيوية التي جاءت بمنطوق الجيل الشاب وما فيها من تداخل والتباس، وسيصاب الأهل بخيبة أمل جراء معاينتهم هذا التذرر التعبيري الذي تجري به ألسنة فلذات أكبادهم وأصدقائهم والمحيطين بهم.

إن حديث الشباب الذي عايناه من خلال الحياة، ومن خلال عملنا في الجامعة، ومن خلال قراءتنا ومعاينتنا للجرائد والصحافة ووسائل الإعلام المختلفة التي قامت باستخدام هذه المقترضات في لغتها سواء أكان عبر الصحافة، أو عبر البرامج التلفازية المتنوعة، كما لمسناه في لقاءات الشباب وسهراتهم أو دردشاتهم الإلكترونية، ولم نعد نفاجأ بهذه اللغة تنساب على ألسنتهم أو «تكرج» على مفاتيح حواسيبهم الثابت منها والمحمول، أو تلك التي تتآلف حروفها وأرقامها اللاتينية عبر رسائلهم النصية الخلوية وعلى موقع «الفيس بوك» خاصتهم. هذه الرسائل التداولية والدردشات الإلكترونية باتت بلا منازع لغة حياتهم وصوت حداثتهم والأداة الناقلة لأصداء الحراك الاجتماعي الشبابي.

والاقتراض اللغوي من الظواهر اللغوية التي حظيت باهتمام اللغويين العرب وهي العملية التي تأخذ فيها لغة ما بعض العناصر اللغوية للغة أخرى وهي عملية نسخ صورة مماثلة لنمط لغوي لإحدى اللغات في لغة أخرى، وهذا الاقتراض مجازي لأن حقيقة الاقتراض أن يأخذ المرء شيئاً من آخر؛ لينتفع به فترة من الزمن ثم يعيده إلى صاحبه.

وليس الاقتراض بين اللغات مثل ذلك؛ لأن اللغة التي تقترض لفظاً من لغة أخرى لا تحرم صاحبة اللفظ من استعماله، ولا تعيده إليها.

طرحت سؤالاً على طلبة الجامعة فيما يتعلق بهذه الظاهرة. وتلقيت إجابة صافعة من إحدى الطالبات رداً على هذا

السؤال، قالت: «كيف لا تكون هناك لغة جديدة طالما أننا نرتدي «الجينز»، والـ «تي شرت»، ونحتسي القهوة في «ستار باكس»، والغذاء في «تشيليز»، ونستمع إلى موسيقى «البوب»، ونأخذ «البوكت ماني» من الأهل، ونتناول «السي فود»، و«الفاست فود»، و«الماكدو»، والدليفري، ونقوم بالشوبينغ، ونعمل الشاتينغ، وألفاظ كثيرة لا يمكن أن تحصى، ولا يمكننا الاستغناء عنها أيضاً!».

لقد لخصت هذه الطالبة في إجابتها المشكلة اللغوية، وفيها بعض مكونات اللغة الافتراضية الجديدة، بل فيها ثقافة الجيل الجديد. وسنعرض لبعض هذه المقترضات التي شاعت اليوم في عالم الإعلام ووسائل الاتصال وعبر لغة الشباب.

دَوْبَل: وهي اسم مفعول من الفعل الفرنسي (doubler) بمعنى ضاعف، وتستخدم بصيغة فعلية «بعضهم يُدَوْبل على فلان لينال بركات فلان»، واستحدث لها مصدر الدوبلة، وفي السياسة والإعلام استخدم اللفظ للتلون وعدم الثبات على موقف.

فَبْرَك: من المقترض الفرنسي المعرب (fabriquer) وهو بمعنى صنع وعمل، لكنه استخدم بمعنى اختلق ولفق، ويرد بصيغة فعلية في النقاشات مثل: «يفبركوا عليّ أخبار»، واشتقت منه صيغة جمع لغير العاقل (فبركات)، واستخدم في التعليقات السياسية مثل معلومات «مفبركة»، ومشاهد أو لقطات «مفبركة».

رَوْدَج: وهي لفظة متداولة شبابياً وسياسياً من المقترض الفرنسي (rodage) مثل يرودج ابنه على الزعامة، أو يرودج نفسه على قبول الحوار مع الآخر، بمعنى أنه يهيئ نفسه لذلك، وكانت تستخدم عند استبدال محرك السيارة القديم بواحد جديد إذ لابدَّ من «الروداج».

مَرْك: وهي لفظة مقترضة من اللغة الفرنسية (vous remarkez) وتستخدم من قبل الشباب بمعنى علّم وترك أثراً، أو وضع علامة عليكن ومنه «تمريك» ويرد هذا المصدر معرباً في سياق خبر سياسي حول التمريكات الروسية على أمريكا.

التَّفويل: وهو من المقترض الإنكليزي (full)، وقد شاع وتعددت صيغ استخداماته وخاصة في دول الخليج، وقد ابتدعت العامة اشتقاقات لتيسير استخدام هذا المقترض ومنها (مُفَوّل) أو مُفَوّلة ويطلق في حالة إطلاقها على شخص رفض الاستجابة لأي رجاء، بمعنى أغلق دماغه عن أي استجابة، أو السينما «مُفَوّلة» أي ممتلئة.

ومن المقترضات في الخطاب الشبابي قولهم: «الميسد كول، والإنترنت، والشاتينغ». وقد وردت أغنية يغنيها مطرب مغمور يقول فيها: «صحيت م النوم على ميسد كول.. من حبيبي ميسد كول» وأحيانا يحذفون الدال فتصبح «مس كول».

التَّمْسيج أو المَسجات: وتندرج ضمن التقنيات التخابرية وهي الرسائل الهاتفية الخلوية عبر المحمول ومنه يقولون: «مَسِّجْلي» أي أرسل رسالة نصّية لي.

سَيِّفْ: وهو مقترض إنكليزي من «save» من عالم الكمبيوتر ويرد في جملة مثل «سيِّفْت» هذا النص، أو من خلال المحادثة: «سَيِّفْ» هذا الموضوع عندك.

كَنْسَل: وهي صيغة رائجة في المجال الإلكتروني مشتقة من الفعل الإنكليزي (cancel)، وتعني يلغي أو يبطل، ومنه «كنسلة» بعض الوظائف، وأحدهم «كَنْسَل» سيارته بعد الحادث.

التَّفْنيش: وهي كلمة مقترضة من الفعل الإنكليزي (to finish) بمعنى ينتهي، واسم المفعول منها «مُفَنَّش» وهي باتت عنواناً لثقافة التفنيش، وهي مستخدمة في لغة الإعلام وهي بمعنى مطرود من العمل.

التشييك: من صيغة «شَيَّك»، وهي منسولة من الفعل الإنكليزي «to check» بمعنى يراجع أو يفحص شيئاً للتأكد من صحته وحسن سيره، وأصبحت تطلق على مراجعة صحة الجسم أو مراجعة «تشييك» على الإيميل.

ومن المقترضات التي استخدمت كمصطلحات في لغة الصحافة:

الإسلامفوبيا: وهو مركب من عنصرين الأول: عربي إسلام، والثاني: فوبيا وهو رهاب الخوف غير المبرر من الإسلام.

سينمجلة: وهو مركب من عنصرين: «cine»، ومجلة، وهو مختصر لكلمة «مجلة السينما»، وقد كان هذا المركب عنواناً لبرنامج تلفزيوني على قناة المستقبل اللبنانية.

هذا فيض من غيض مما التقطناه في عجالة من المقترضات اللغوية التي شملت مناحي الحياة كافة، ويظهر منها ضياع القيمة التعبيرية للجذر العربي، وتغيير البنية الصوتية العربية بإدخال أصوات غريبة عنها، وإرباك المعجمية العربية، وغموض معنى المقترض في معاجمنا، وصعوبة ضبط اللفظ المعرّب، وخرق القواعد الصرفية العربية، وتضييع خصائص اللغة العربية.

إن انصهار المقترضات الأجنبية في جسم اللغة العربية دليل على مرونتها وطواعيتها التركيبية وقدرتها على هضم واستيعاب الكلمات والتعابير الدخيلة ذات الأصل

الأجنبي الوافدة إلينا، ولكن من شأن هذا الشيء أن يعيق عملية اكتساب المهارات اللغوية عموماً وتأصيل قواعد اللغة الأم، وتحديداً مهارات الفهم والقراءة والكتابة والتحادث. لذا لا يمكن التراخي أو التهاون في معالجة هذه الظاهرة التي باتت تطغى على كل شيء.

إنّ موجة ما بعد الحداثة التي جاءت بمثل هذه الاقتراضات ليست موضة بل هي، وقبل كلّ شيء، فضاء للسجال. وسواء كنا معها أو ضدّها، فإن النظريات المختلفة عن المعنى، والهوية، واللغة، والسياسة في عالم اليوم، أصبحت بؤرة لنقاشات عميقة، حامية الوطيس في المشهد الفكري العالمي، ومن الضروري مواكبة هذا الجدال بعقل منفتح، يحول دون الاستلاب الثقافي والفكري واللغوي.

ثنائية النعت في مدوّنة القصة القصيرة جداً

محمود علي السعيد ✿

١ - القصة القصيرة جداً (معادلة الكم والكيف):

تخضع عناصر الوجود الدنيوي بضرورتها الحياتية المادية والمعنوية، المجسدة والمجردة، لقانون الكم والكيف، بتوازن في الكفتين حيناً، وبترجيح إحداهما على الأخرى حيناً آخر، نخص منها في هذه الإلمامة ظاهرة الإبداع قاطبةً وبالتحديد الحصري جنس القصة القصيرة جداً ((very short story مليكة الأجناس من دون وصيفاتها، لانبجاس حضورها وزخم كثافته في أروقة العطاء الكتابي الخلّاق وفيض سواقيه في راهن الحقبة الزمنية وطورها التاريخي.

١- معادلة الكم:

بالرصد الدقيق الجاد والموضوعي للكم الحسابي بوقائعه العيانية لجنس القصة القصيرة جداً في جهات المعمورة الأربع عامة وبأفقها المحلي الأضيق خاصة تلحظ طغيان مدها العارم بجيشان عددي منقطع النظير أمام انحسار موجة الكيف، تسوّقه باحتراف ضالع بالمهارة ماكينة إعلام عصرية تمتلك من التقانة (technicality) أحدثها، ومن الحركة أسرعها فإذا أطلقت العنان لمجهر البصر يجدول بمشهدية بانورامية أرقام القص القصير جداً الملقى على قارعة الضخ الورقي لمطبوعة هنا وأخرى هناك فسوف تحتطب قوائم يصعب على المتلقي مهما أوتي من الفطنة ونهم سليقة القراءة هضمها وتمثلها فما بالك بالضخ العرمرم لشبكة الإنترنت (العنكبوتية) المستعصي على اللحاق والقبض مما يصدر عنه ركام كتابي هائل تنوء من دون حمله العقول وبالأخص

✿ أديب وقاص فلسطيني.

إذا افتقر إلى أدنى حدود الكيفية، وإن كنّا لا نغمط مقولة الجدل الاقتصادية المتداولة كمسلمة شاخصة قسطها من قسمة العدالة بقولها الذائع الصيت (التراكم العددي يفضي إلى تغيير نوعي) ولو بشكل جزئي من دون أن نغضّ الطرف عن نقطة استفسار جوهرية المفاد: مدى تطبيق هذه القاعدة على منتج المعمار الجمالي الخاضع للذوق الروحي والحساسية القلبية المشاد بلبنات الكلمات ومداميكها بكثرة وعلى كينونة القصة القصيرة جداً بقلة؟

٢- معادلة الكيف:

معادلة النوعية بتدرجات مستويات الجودة في المنطق السلعي محط أنظار الأسواق الجانحة بشغف وتوق إلى تسنم قمة الواجهة الاقتصادية في الاستيراد والتصدير، وتصنيفها من دون أترابها في الدرجات العظمى من سلم التبادلات التجارية هذا بخصوص السلع المادية المجسدة بتكتل متفارقة ومتجاذبة شكلاً وحجماً ونوعاً الخاضعة لقانون العقلنة، أمّا بخصوص السلع المجردة (الكلمات) (بإيجابية المصطلح وليس بسلبيته) الخاضعة لقانون الوجدنة فهي مركز (center) هذه القماشة الكتابية أفقية الطرح وعاموديته بكل معطياتها وأبعاد مراميها التشكيلية والجمالية والأسلوبية وإن كان مسقطها المحوري القصة القصيرة جداً حيث التعويل على الكيفية في الصياغة وعلو الصرح ليكون محجاً للذوّاقة من المتلقين وضامناً للرواج والتبضيع الأدبيين، وإن تجلت المفارقة بلونها الفاقع بين معادلة الكم والكيف بالرجحان التسويقي لصالح الكم (القاعدة) من دون الكيف (الاستثناء) في تضاريبات بورصة الأدب الرخيص وأعمدتها النظرية من دون الأدب عالي الهمة وفارع القامة المتحصن بمناعة الكيف ليربح الفريق الأول -اعتباطاً- الحاضر ويخسر المستقبل، في حين يربح الفريق الثاني -إنصافاً- المستقبل ويخسر الحاضر، وشتان بين الربحين وأيضاً بين الخسارتين.

٣- معادلة الكم والكيف:

من خطل الأقوال والسلوكات أن يتطع مقياس مادي أو معنوي ليتبوّأ المكانة الأرقى في التبني وهو يجار بعدم الإقرار بصوابية معادلة الكم والكيف إذا اجتمعا، وبالتالي تفضيل قائمتها في مهرجان المفاضلة الانتخابية لتتويجها أميرة المنصة شريطة العدل القيمي وجدارة المعيار نخص: حقول الخلق على كل المستويات والصعد الكتابية بأوسع مجالاتها وأدق تفاصيلها وبصورة بؤرية القصة القصيرة جداً منها كونها جوهر الموضوع المتناول ومظهره، وجرعة الإمتاع الحق وفائدته، فوفرة المحصول على

جـودة وغنى أفضل من قلتـه على غيرها، وإن كنت أقر بصماً بمشط الأصابع لا يكون تحقق هذه الظاهرة إلا على ندرة ومن قبل بعض الخوارق يأتـي في مقدمتها أنموذجاً الروائـي الحائـز على جائـزة نوبل نجيب محفوظ الذي أثلج صـدر السوق الإبداعية بثلاث مجموعات من القصـص القصير جداً (أصـداء السيرة الذاتيـة -صدى النسيان- أحلام فـترة النقاهة) بوقـت قياسي نسبة لعمـره الـذي أثقلته الشيخوخـة، وجسده الذي أسقمه المرض.

أقـول: معادلـة الكم الناضـج جميلة، ومعادلـة الكيف الناضـج جميلة، والأجمل من كليهمـا معادلة الكم والكيف الناضجين معاً، وبقلب ظهـر المجن: معادلة الكم الفج قبيحـة، ومعادلة الكيف الفج قبيحة أيضاً، والأقبح منهما معادلة اجتماعهما معاً.

٢- (القصـة القصيرة جـداً بـين معجمين):

مـن أهم مقولات فقهاء اللغة ومنظّريها الـدوّارة علـى ألسـن الرهـط الأوسع من عشاقهـا أنهـا تتدرج مـن قبيـل التوءمة النسبية وليس المطلقـة في قائمة الكائنات الحيـة بأطوارهـا المتعاقبـة (الطفولة - الشبـاب - الشيخوخـة) في طول وعرض، عمق وسطح، (الأمكنة - الأزمنة) من فجر انبثاقهـا ودبيبهـا حتى آخـر الدقائق في عمـر الحقبة الماثلة. نعرّج في هذه القسيمة الكتابيـة على تموضع عناصرها وتمظهرها في لوحـة النصوص الإبداعيـة التشكيلية نخـص القصة القصيرة جـداً منها -بعد أن أضحت مدار حلقات مدارسة- بمختلف مقالعها وتباين قواميسها، كمحرك فاعل في عملية الضخ مراعين حـال التوصيف أولاً والتصنيف ثانياً بجدْوَلة منتظمة.

١- معجم القدم المفرداتي:

يروق لكوكبة يستعصـي إحصاؤها من خالقي المنجز الجمالي ومروجيه في أجناس العطاء الكتابي قاطبة والقصة القصيرة جداً شرقية القلب واللسان تحديداً أن يعلي صرح بنيانه بأنماط وأشكال هندسية تتقوى بأعمدة جبلـت من عناصر معجـم زراعية المقلع أو صناعيته، ترعرع تحت سقف القدم ومظلة أنساقه من منطلـق حرية الانتخاب وفرادة مسطرة الأمزجة وذلك بتوافق طبائعي بين الكينونـة الطينية المجسمـة بكامل محمول عريكتهـا العيشي وكينونـة اللفظة المجردة بمخـزون طاقتها ومكنون محتواها وجوهره في الركنـين البوْريـين لكل منهمـا (واقعاً ومجازاً) الزمرة الدموية والجينات الوراثية، ناهيك عن نبض الأوردة وتواشج المضامين وغالبـاً ماتكون مخـارج حروفها من مركب صعب قساوة وصرامة متخطين عتبة الجار مـن رافعي بيارق الحداثـة وراهنية تألقها

بالتقسيم سلباً للنيل من المهابة على رباب الأصالة وفلسفة الأعماق المضادة لأنغام أسطوانة معتقدهم ومراميه المستقبلية.

٢- معجم الحداثة المفرداتي:

على النقيض المتوخى طلباً واعتناقاً يستوي معمار الحداثة اللغوي بأقلام طاقم سبّاق من الجمهرة التي اعتقت حرفة الكتابة وفن الكلم بالحفر العميق والتنقيب الحاذق المعتد بفراسة وسائله في طبقات المنجم المختلط مع الحبات الماسية من دون أقرانها الفحمية رغم جذرهما السلالي الواحد لتنضيدها عقوداً لجياد النصوص المشرئبة المعني فيها أولاً نصوص القصة القصيرة جداً -وقد أمست أكثر من أن يقف من وراء عددها واقف- بغية المجاراة العصرية واللحاق بقاطرات المقصد اللحظي وذلك بالتعويل الناصع على أرومة الحروف بمنبتها المكتظ بسلاسة النطق، المفعم برحيق الواقعية ووسائط نقلها في آخر طروحات تجلياتها الحداثية، وموطئ أقدام صيرورتها.

٣- المواءمة بين المعجمين:

١- يتطع الضلع الثالث في مثلث الموضوع المتناول كفريق أنضجته حرارة التمحيص والمقايسة، التجريب والدأب والتصفية بالمواءمة بين معجمي (القديم والحديث) بكامل مخزونهما من الألفاظ بإخضاعها لمنطق الذائقة الرائقة والعقل الموازن، والاحتراف الضليع في الاختيار والتفضيل لعناصر عمارة التشكيل الإبداعي وتدبيج أسطر أسلوبيته البلاغيه بتقبله لمعطى الواقع وراهنيته من دون قتل للمح معياري ناشط أو شطب لمؤدى قيمي، آخذاً بعين اليقظة والاعتبار موت بعض المفردات والألفاظ سريرياً بعد طول مرض شيخوخة وتقاعسها عن القيام بمهامها الوظيفية في تشكيل الوحدات (الصغرى- الوسطى- الكبرى) من طرف، وشحن نبض العافية والصحة من جديد في شريان بعضها العمقي من طرف آخر، لمواكبة المستجدات الوجودية من دون تهوّر، والأقلمة معها روحاً وجسداً، مترجمين عدالة النظرية والسلوك في الأخذ والعطاء، القبول أو الرفض، الظهور أو التواري، خدمة للغة الضاد وديمومتها، الجامع المحوري، والعمود الفقري لصفات القوام الآدمي الشخصية، وبصمة الحضور والتواجد، في المطارحات والمباسطات النصيّة بسرّائها وضرّائها، قيامها وقعودها، المتجلية جلاء قرص شمس اليقين في ظهيرة الأفئدة.

٣- (القصة القصيرة جداً بين التعميم والتخصيص):

يتجوهر المنطق الوجودي المتعلق بظواهر الإبداع الصرف بمثوية الخاص

والعام كل على حدة، ليس من قبيل الفصل والقطع، بل من قبيل التصنيف والتبويب فقط، فالخصوصية والعمومية، الذاتي والموضوعي، وجهان لعملة حياتية واحدة وإن اختلفتا بالكم والكيف، نسقطهما باقتضاب على جنس القصة القصيرة جداً من إضمامة العطاء الجمالي من دون أقرانها لنمسك بخيوط تجليات كل منهما الضوئية في مرآة الأخرى، وتجلياتهما في مرآتها.

١- تعميم الخاص:

لكل تجربة سلوكية مقترح في جماليات الكتابة الإبداعية خصوصية مذاق صغرت التجربة أم كبرت، استفحلت أم ضمرت تكمن في منطوياتها نواة بصمة، وفي جيناتها نقطة علام ماهية، تتمايز جهاراً عن أترابها، تتبلور مضموناً ومحتوى(content)، شكلاً وثوباً (form) في كينونة المنتَج المقصود في هذه الإحاطة، وقد تتماهى خيوط شبكة تضاريسها مع خيوط شبكة تضاريس تجارب أخرى في أصقاع متفرقة بفلسفة تماثل، وبوصلة توجه، سواء أكانت حجارة معمارها التشكيلي اللفظي من مقلع معجم المفردات الزراعية أم من مقلع معجم المفردات الصناعية، أم من مقلع المعجمين معاً أو قل: سواء أكانت العناصر الكلامية المنتقاة والمنتخبة من الحقل اللغوي (الكل) بشطريه الريفي الرعوي أم المدني التقني لإقامة بنيان النص (الجزء) أو من كليهما وصولاً إلى إشاعة طقس تعميم الخاص مظهراً وجوهراً في فضاءات الخطاب (القصة القصيرة جداً) ليعمل القضاء الذوقي والمنطقي للمتلقي بصنفيه العادي والمدرب، الضليع بالاستيعاب والأقل ضلاعة بقانون العموم من دون شطب قانون الخصوص.

٢- تخصيص العام:

يتخصص جمال العموميات والشموليات الكلية بمعيار القيمة الجمعية المتفق عليها وجودياً المكونة من خلاصة تجارب وسلوكات أمصار آدمية، المتشيئة في مقطوعات تشكيلية إبداعية يتصدرها المرمى المقصود أولاً، القصة القصيرة جداً (very short story) في جل الأحايين بطابع أحادية القسمات، فردية الجبلات على أصعدة ومستويات الأمكنة (المناطق) والشخوص (الأهواء والأذواق والمشارب) بصيغ وأشكال تنسجم مع الطبائع المادية والمعنوية للمركز والأطراف المنبثق منها، وإذا شئت بمنطوق المادة البحث: تصهر نفائس المعدن المنشودة قاطبة بمجامع عناصرها لتتشظ قلائد يسطع منها ألق الخصوصية المتوخاة من دون أن تغمط خيط العمومية المتسرب كطيف الرؤى في نسيجها حقه في تلويحة اليد لتقديم قطرات المتن والهامش العام

خلاصــة تقطــير وجرعة موقــف في أوردة الإبداع الخاص.

٣- جدل التعميم والتخصيص:

جدل الترابط بــين ظاهرتي تخصيص العام وتعميــم الخاص في النــوع والمقدار، الوسيلة والغاية، السبــب والنتيجة، لبعض حصــاد المنجز الفني والخلــق الكتابي أرياً أن أصرح: كلــه معطى وظيفي تغتبط جملة من متيمي العطاء القلمي هواية أم احترافاً التشبيب به واللعــب بأوتار قلبه نقصد من قطوفها حصراً القصة القصير جداً (very short story) أيقونــة الحقبــة الكتابيــة الأحــدث تقانة وعصرية، مــن منطلق كسر رتابة إيقاع القص النمطي، ومألوف الطرح، لتنشيط ذاكــرة المتلقي، لتلقــف الشحنات الجمالية الوافدة بوقــار الأجلاء، وشراهة الجوعى، وتفوّد العشــاق، لنخلص بالإدلاء قولاً وفعلاً: تخصيص العام وتعميم الخاص وجــدل الترابــط باستيعاء منطقــي قوامه العقــل ونبض ذوقي قوامه الوجدان ظاهرة عافية صميمية من جملة الظواهر المحيقة ولهاً بهوية (القصة القصيرة جداً).

مفهوم القراءة وأهدافها

رحاب محمد ○

تمثل القراءة في يقيني ألف المعرفة، وباء الفهم، وياء اليقين، فهي ألف المعرفة لأنها أوّل طريق السالكين دروب المعرفة، وهي باء الفهم لأنها ترتقي بنا من دروب المعرفة إلى دروب الفهم والتنوير، كما أنها ياء اليقين الذي هو منتهى غاية الإنسان الساعي نحو المعرفة، بل إن القراءة تؤسس لكل حروف اللغة العربية «لغة القرآن»، التي نزلت «بلسان عربي مبين». وليس مصادفة أن يتجلى الإعجاز الإلهي في أن تكون أوّل كلمة (فعل) نزل على الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم، كان يحث على القراءة «اقْرَأْ



بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ». لذا فإن القراءة فعل حركة، فعل تدريب، فعل اكتشاف: اكتشاف الذات واكتشاف الآخر، الاكتشاف الذي يروم فهم هذه الذات، وفهم الآخر، وصولاً إلى فهم العالم الذي يحيط بنا، وجعل ما يبدو غامضاً واضحاً وجلياً، قدر الطاقة والجهد والمثابرة.

○ كاتبة وناقدة (سورية).

العمل الفني: الفنانة وفاء كريدي.

والقراءة هي الدائرة التي يجتمع عند مركزها رأس المال المعرفي، ورأس المال الثقافي، ورأس المال الاجتماعي، في نسيج واحد يغزله الإنسان (رأس المال البشري) الساعي نحو اكتساب المعرفة التي لا تكف عن التجدد والتطور. ونظراً لما تمثله عملية القراءة في بناء الوعي الفردي، والوعي المجتمعي، بل وفي بناء مجتمع المعرفة، نحاول الحديث عن أهداف هذه العملية وإستراتيجياتها.

أهداف وإستراتيجيات القراءة

هناك أربعة أهداف للقراءة هي:

١ - القراءة بهدف الاستيعاب الشامل لكل الأفكار والمعلومات التي يتضمنها النص، والقدرة على استرجاع تلك المعلومات بسهولة، مثال ذلك قراءة الكتب الدراسية والقراءات العلمية.

٢ - القراءة بهدف استعراض النص بشكل سريع لمعرفة الموضوع الذي يناقشه النص، وتسمى هذه الطريقة (-Skim ming)، وتستخدم عندما نريد اقتناء الكتب، أو عندما نريد أن نقرر قراءة كتاب لنعرف مدى أهميته، وهل هو جدير بالقراءة، وتساعدنا هذه الطريقة على معرفة الأفكار الرئيسة التي يتحدث عنها الكتاب أو النص بشكل سريع.

٣ - القراءة بهدف زيادة حصيلتنا المعلوماتية، أو إعطاء رأي معين فيما نقرأ، وهذا الهدف لا يتطلب استرجاعاً كاملاً لكل المعلومات التي يحويها الكتاب أو النص.

٤ - القراءة بهدف استخراج معلومة من النص أو تاريخ محدد، وهذا النوع من القراءة يتم بسرعة فائقة ويسمى (-Scan ning).

ومعرفة القارئ الهدف الذي يقرأ من أجله أمر مهم يتوقف عليه استخدام الطريقة التي تقرأ بها، فلا نقرأ مثلاً كتاباً مدرسياً للهدف نفسه الذي نقرأ من أجله جريدة يومية، ولا نستخدم الطريقة التي نقرأ بها الكتاب المدرسي لقراءة الجريدة اليومية. وهناك أربعة عوامل تؤثر في درجة الصعوبة عند القراءة:

١ - عدم وجود خلفية لدى القارئ عن موضوع النص، فإذا كان القارئ يألف النص، كانت قراءته سريعة واستيعابه أعمق.

٢ - مدى احتواء النص على مصطلحات علمية تخصصية غير مألوفة، وتزداد صعوبة النص إذا احتوى على قدر كبير من هذه المصطلحات.

٣ - تعقيد الأسلوب باستخدام عبارات طويلة وأسلوب رمزي غير مباشر.

٤ - مدى قدرة القارئ على تحديد هدف القراءة واستخدام الطريقة المناسبة لذلك الهدف.

ولهذا النوع الرابع إستراتيجية محددة لابدّ من اتباعها للتغلب على الصعوبة التي يجدها القارئ، فإذا كنّا مثلاً نقرأ كتاباً مدرسياً بهدف الاستيعاب الشامل، فلابد أن نقرأ ببطء (في حدود ٢٥٠ كلمة في الدقيقة)، وتسمى هذه «الطريقة الدراسية» وهدفها كما ذكرنا الاستيعاب الكامل. أما القراءة السريعة التي تسمى «الطريقة العمودية» فترمي إلى الحصول على المعلومات وإعطاء تعليق عليها، والسرعة مطلوبة لهذا النوع من القراءة (بين ٢٥٠ و ٨٠٠ كلمة في الدقيقة)، وهنا لا نقرأ كل كلمة، بل نقرأ كل فكرة بطريقة عمودية فلا تساهم كل كلمة في هذا النوع من النصوص إلى زيادة الاستيعاب، فلو كان لدينا في النص مثلاً ٣٠٠ كلمة، فقد تقوم خمسون كلمة فقط بتقديم كل ما نريده من معلومات من هذا النص، على أن يتم التركيز على الكلمات الأساسية، ويجب تدريب القرّاء على معرفة الكلمات الأساسية في النص والتركيز عليها أثناء القراءة بهدف تدريبهم على القراءة العمودية، أو القراءة السريعة، وهذا النوع من القراءة من أهم أنواع القراءة وأفضلها، ومعرفته والتدرب عليه أمر بالغ الأهمية، ونستخدم هذا النوع من القراءة في قراءة الصحف والمجلات والروايات، وبعض القراءات الحرة. ولا يستطيع أي قارئ أن يلتصق بالكتاب ويتعلق به ويكون قارئاً جيداً وفعّالاً من دون الإلمام بهذا النوع من القراءة، ويكون التدريب على هذا النوع من القراءة بإعطاء القرّاء نصاً معيناً، ونطلب منهم وضع خط تحت الكلمات الأساسية لتدريبهم على معرفتها في النصوص، ونكرر ذلك لوقت مناسب حتى يتم تدريبهم على هذه المهارة. ولو جربنا أن نقرأ نصاً حذفت منه كل الكلمات ما عدا الكلمات الأساسية لوجدنا أننا نحصل على كمية المعلومات نفسها فيما لو قرأنا النص بكل كلماته، ولا أتصور طالباً أو قارئاً يتعلم القراءة بهدف الالتصاق بها من دون أن يلم إلماماً كاملاً بهذا النوع من القراءة (العمودية السريعة)، ويجب أن نعرف أن التدريب على هذا النوع من القراءات غاية في السهولة إذا اتبعنا الأسلوب الصحيح في التدريب عليه.

أمّا المصطلحان (Skimming) و(Scanning) اللذان سبق الحديث عنهما، فإنّ السرعة في الأولى تكون في حدود ألف كلمة في الدقيقة، ولنتذكر أن هذا النوع من القراءة يرمي إلى مسح الكتاب أو النص لمعرفة الموضوع الذي يتحدث عنه، وهذا هو الهدف الوحيد له، أمّا النوع الثاني، فالسرعة تصل فيه إلى آلاف عديدة من الكلمات في الدقيقة، لأن الهدف هو فقط استخراج تاريخ أو اسم معين أو معلومة محددة من النص، وهاتان

الإستراتيجيتان أيضاً تحتاجان إلى تدريب، كأن نسأل القارئ أن يستخرج تاريخ إنشاء مؤسسة معينة، أو تاريخ استقلال دولة، أو اسم بطل الرواية من النص في حالة الـ (Scaning)، أو أن نعطيهم نصوصاً ونطلب منهم في دقيقة واحدة أن يتعرفوا على الموضوع الأساس الذي يتحدث عنه النص في حالة الـ (Skimming)، أي المسح الشامل.

هذه هي أهم إستراتيجيات القراءة، وهي قد تبدو صعبة للوهلة الأولى، لكنها في الحقيقة وبعد التدرّب عليها لفترة محددة تلين قيادتها للقارئ والمتعلم، فهذه الإستراتيجيات عبارة عن خبرات وتجارب لابدّ أن يعيشها القارئ لفترة محددة تختلف من قارئ إلى آخر، حتى يصل القارئ إلى مرحلة انتقالية، عندها يقوم القارئ باستخدام هذه الإستراتيجيات بشكل عفوي وغير مباشر مثلها تماماً مثل قيادة السيارة التي نؤديها في البداية بانفعال وارتباك، ثم لا تلبث أن نؤديها بشكل عفوي لا يحتاج منّا إلى تركيز كبير.

القراءة والإبداع

إن القراءة بالنسبة للقارئ غير الكاتب تختلف عن القراءة لدى القارئ الكاتب، فالأول ينتفع بقراءته لنفسه وبناء شخصيته الفردية وتنمية مستواه المعرفي والثقافي، أمّا الثاني فإن القراءة عنده لها أبعاد لا نهائية، فهي تتجاوز بكثير آفاق وحدود الانتفاع الذاتي بالمعرفة والثقافة، فالأخذ عنده لا يختلف معناه عن العطاء، بل هو مرتبط به ومتمازج معه، إنه يشبه إلى حد بعيد عمل النحلة، فهي تمتص رحيق الأزهار المختلفة الألوان في شتى الحقول، لكن هذا الامتصاص وإن بدا ظاهرياً أنه أخذ إلا أنه في واقع الأمر عطاء، لأنها لا تلبث بعد امتلاء المعدة الخاصة بالعسل أن تعود إلى خليتها لتفريغ الرحيق الذي يكون بعد وقت قصير قد تحول إلى عسل، فهذا أقرب مثال للذهن في تصوير الهدف من القراءة المفيدة المتنوعة للكاتب.

وحتى وقت قريب كان كثيرون من أدبائنا ومفكرينا وعلمائنا يأخذون أنفسهم بالقراءة المفيدة المستوعبة، وتقل الأيام التي عاشها هؤلاء في حياتهم من دون قراءة واستيعاب وتحصيل، فقد كان العقاد يقرأ ثماني ساعات كل يوم، وكان محفوظ يقرأ عشر ساعات، ولاشك عندي أن هناك الكثير غيرهم من يقرأ مثلهما أو أكثر، وهناك أيضاً من تداخل الليل بالنهار عنده، فلم يعد بمقدوره التمييز بين وقت وآخر، جراء كثرة القراءة وتنوعها لديه، مثل أنيس منصور الذي يقرأ عشرات من روايات الحب أسبوعياً، إضافة إلى القراءات الأخرى المختلفة في مجال التاريخ والعلم والسياسة والحضارة..

ومن الدعاة والعلماء والمفكرين والمعاصرين الذين اشتهروا بكثرة وتنوع قراءاتهم الإمام الغزالي، فقد ذكر في مذكراته (قصة حياة) علاقته الوطيدة المبكرة بالقراءة، حيث كانت نشأته الأولى يميزها حب الاطلاع، وفي غير هذه المذكرات، أثبت هنا كلمات وردت في مقابلة معه: «طفولتي كانت عادية ليس فيها شيء مثير، وإن كان يميزها حب القراءة، فقد كنت أقرأ كل شيء، ولم يكن هناك علم معين يغلب علي، بل كنت أقرأ وأنا أتحرك، وأقرأ وأنا أتناول الطعام».

إن الحديث عن هذه الميزة لدى قادة العلم والفكر والثقافة في تاريخنا الفكري، بقدر ما هو شرف وفضل لهم ينبغي الاستفادة منه والتذكير به في أدبيات ثقافتنا المعاصرة، إلا أنه قد يحرج البعض منَّا نحن مثقفي الجيل الحاضر، لاسيما ممن يحرصون على الكتابة واستعجال النشر والظهور وتصدر المواقع المختلفة، أكثر مما يحرصون على القراءة المنظمة والاستيعاب المطرد المتواصل. وكثيراً ما يحدث لبعض الكتّاب، تحت تأثير بريق النشر والظهور لجمهور القرّاء، أن ينسى وربما يتجاهل أن لا كتابة جادة ومؤثرة وناجحة من دون قراءة واعية متنوعة منتظمة. ونورد هنا ما نصحت به الكاتبة الإنكليزية «جين أرستن» تنصح كل صاحب قلم يرغب في أن يكون له قرّاء: «إذا أردت أن تكون كاتباً، فلابد أن تكون قارئاً غير عادي، قارئاً مدمناً يبحث عن الطبق الشهي في كل مطبخ في أي مكان من الدنيا، ثم تجلس وحدك في ركن قصي هادئ تأكل وتأكل كل ما حوته هذه الوجبة الدسمة من شتى ألوان الطعام، ولكن إياك أن تصاب بعسر الهضم، فلابد أن تكون معدتك قوية سليمة من أي مرض، فالعقل السليم هو (معدة) الكاتب الناجح».

القراءة وبناء الذات

المقصود بمفهوم الذات: الصورة التي يكوّنها الفرد عن نفسه، وعن الآخرين، ككيان يتملك إمكانيات وقدرات بعينها، وله ميول وحاجات يسعى إلى تحقيقها، ولا شك أن هذه الصورة تختلف باختلاف المراحل العمرية والخبرات الحياتية التي يمر بها الفرد، كما تختلف باختلاف، المؤثرات التي يتعرض لها الفرد طوال مسيرة حياته، وتساهم العديد من العوامل والمؤثرات، المتداخلة والمتنوعة، في تشكيل هذه الصورة وفي تطورها، كما تساهم في الوصول بهذه الذات الفردية إلى بلوغ الغايات والأهداف التي تسعى هذه الذات إلى تحقيقها، ولا نريد الدخول في تفاصيل هذه القضايا ذات الصلة بعلم النفس وعلم النفس الاجتماعي، حسبنا أن نؤكد على الدور الذي تلعبه عملية

القراءة في بناء هذه الذات، وفي ارتقائها وتطورها، وفي أن تتحول هذه الذات إلى ذات فاعلة، بمعنى أن تكون ذاتاً تمتلك القدرة على التفكير والعمل، وتمتلك القدرة على التأثير الإيجابي على المستويين الفردي والاجتماعي، حيث لا تعيش هذه الذات في جزيرة منعزلة بل تتفاعل مع محيطها الاجتماعي والثقافي الذي تعيش فيه.

ولاشك أن عملية بناء الذات الفردية وارتقاءها عملية تراكمية تتشكل من خلال القيم والمعارف والخبرات وأشكال السلوك والمهارات التي يكتسبها الفرد، والمؤثرات التي يتعرض لها، خلال مسيرة حياته، فما الدور الذي تلعبه عملية القراءة في بناء هذه الذات، وفي ارتقائها؟

تتجلى طبيعة هذا الدور في ما تمثله القراءة من حيث كونها إحدى الوسائل الأساسية لاكتساب المعرفة، تلك المعرفة التي تعني في أبسط معانيها (كما يحددها معجم التربية وعلم النفس، الصادر عن مجمع اللغة العربية)، كل عملية يتمكن الفرد من خلالها معرفة شيء ما أو الحصول على معلومات عنه، وتشمل كل أنواع المعرفة من إدراك حسي وتذكر وتخيل وتصور وحكم واستدلال، فهي إذن عملية مكتسبة ومتطورة، وهي الإطار الذي تنصهر بداخله كل العمليات النفسية والعقلية الأخرى التي يكتسبها الفرد. فمن ذا الذي يشك في أن القراءة تشكل رافداً من أهم الروافد التي تمدنا بمعارف ومعلومات جديدة، وترتقي بخيالنا، وتنمي قدرتنا على التخيل وعلى الحكم على الأشياء.

والحاصل أن اكتساب المعرفة يفضي إلى ارتقاء القدرات النفسية، والتي تأتي على رأسها الاتجاهات والميول والرغبات والمشاعر والقدرات العقلية، وأهمها القدرات اللغوية ومهارات الكتابة، والقدرات المعرفية للفرد، والتي تأتي على رأسها القدرة على التفكير والقدرة على الإدراك والفهم والتخيل والاستنتاج، وإذا كانت هذه القدرات تتداخل وتتفاعل، ومن الصعب أن نفصل بينها، فمن المؤكد أن عملية القراءة تساهم في ارتقاء هذه القدرات جميعها، بل إننا نرى أن القراءة تمارس وظيفة إيجابية ذات طبيعة مزدوجة، فهي إذ ترتقي بقدرات الفرد النفسية والعقلية والمعرفية، فإنها تساهم في الوقت نفسه في أن تتحول هذه القدرات إلى طاقة وقوة تزيد من دافعية الفرد وشغفه بعملية القراءة، الأمر الذي يساهم بدوره في تطور هذه القدرات، في عملية من التطور والتجدد لا تكف عن التوقف، حيث تتسع وتتشابك وتنمو كلما ارتقى الفرد مدارج السالكين دروب المعرفة.

وعلى هذا النحو تكون القراءة أحد السبل

التي تؤدي إلى تكوين وتشكيل البنية المعرفية للفـرد، تلك البنية التي يرى بها الفرد العالم الطبيعي والاجتماعي بكل ما فيه من حقائق ومدركات وعقائد، ونمط التفاعل بين هذه الأشياء، كما تسـاهم في الوقت نفسـه في تطور هذه البنية وفي ارتقائها، حيث تكسبه القـراءة قدرات ومهارات جديـدة وأنماطاً متجددة من التفكير تجعل الفرد ليس قادراً على رؤية عالمه الطبيعي والاجتماعي بصورة متجـددة فقط، بل تمكّنه مـن فهم وإدراك أنماط التفاعل بين هذين العالمين (الطبيعي والاجتماعـي) بطريقة جديـدة ومتجددة، وتمكّنـه كذلك من اكتشـاف حلول جديدة للمشكلات التي تتحدى وعيه وإدراكه، وتبدو لـه غير مفهومة، في هذيـن العالمين اللذين يعيشـ فيهما، ويشـكلان الإطار الطبيعي والاجتماعـي والثقافي لمجمل تفاعلاته، ولا ينفصل ذلك عن تمكينه من اكتشاف حقائق جديـدة عن ذاته وعـن الآخرين، على نحو يجعله أكثر قدرة علـى الوعي بهذه الذات، وأكثر قدرة على تحقيق ما تصبو إليه، وأكثر قدرة علـى امتلاك زمام المبـادرة والفعل، بمعنى آخر أن تكون هذه الذات فاعلة.

والـذات الفاعلـة هـي القـادرة على التفكير وعلى العمل، وهي التي تمتلك وعياً إيجابياً تجاه نفسـها وتجاه العالم (الطبيعي والاجتماعي) الذي تعيش فيه، بحيث يسهم هذا الوعي في أن تمتلك هذه الذات القدرة على التأثـير والفاعلية في هـذا العالم، بما تمتلكه من روح المبادرة، والدافعية للإنجاز، حيث تسـهم القراءة، بما توفره من رصـيد معـرفي، في تغيـير عـادات وميـول الفرد واتجاهاته، تجـاه ذاته وتجاه الآخرين، كما تسهم في أن يمتلك الفرد القدرة على التعبير عن نفســه، ومن تحقيـق احتياجاته، بما لا يتعارض مع قيـم المجتمع الذي يعيش فيه.

وهنا نؤكد على أن القراءة تسهم فيما يمكن أن نسـميه «التربية الوجدانيـة والمعرفية» للفرد، تلك التربية التي من شأنها أن تجعل الفرد قـادراً على التفكـير والعمل، وقادراً علـى إدراك مسـؤوليته تجـاه ذاته وتجاه عالمـه الاجتماعي، متسـقاً مـع ذاته ومع الآخرين، وأكثر قـدرة على التكيف مع قيم المجتمع الذي ينتمـي إليه، وأكثر قدرة على التفاعل والتكيف مع المسـتجدات المعرفية التي يشـهدها العالم الذي يعيش فيه، على الصـعيدين المحلـي والعالمي، مـن دون أن يضـحي بهويته الوطنيـة، ولن يتم ذلك من دون أن تكـون القـراءة قنطـرة العبور إلى مجتمع المعرفة، والزاد المعرفي والثقافي الذي يغـذي قيم المحافظة علـى هويتنا الوطنية التي نعتز بها دائماً.

القراءة المنتجة

القراءة المنتجة هي تلك القراءة التي تحدث أثراً إيجابياً في وعي الفرد (القارئ)، بحسبان أن هذه القراءة عملية أو فعل يسعى القارئ من خلاله إلى فهم أو تفسير ظواهر الحياة أو العالم الذي يعيش فيه، على اختلاف هذه الظواهر وتنوعها، ومهما اتسع نطاق هذه الظواهر أو ضاق، فقد تتصل هذه الظواهر بالدائرة المباشرة للفرد، وتمس حياته مساً مباشراً، كما يمكن أن تتصل بالتحولات التي تجري في العالم الواسع الذي يعيش فيه الفرد، وفي كلتا الحالتين يسعى الفرد إلى أن يجد في القراءة سبيلاً لفهم هذه المشكلات والتوصل إلى طرق مبتكرة للتعامل معها، ولا شك أن وعي الإنسان بهذه المشكلات، وطرق التعامل معها يختلف اختلافاً نوعياً بعد عملية القراءة، ذلك لأن عملية القراءة تسهم في بناء وعي الفرد بطريقة إيجابية، بفضل ما تحققه من تراكم معرفي يزيد من قدرة الفرد على اكتشاف الذات واكتشاف الآخر، لكن ما السبل الكفيلة بتحقيق غاية القراءة المنتجة؟

إن تحقيق هذه الغاية مرهون بمجموعة من الشروط التي ينبغي أن تتوافر في عملية القراءة ذاتها، وتتمثل أول هذه الشروط في أن تكون عملية القراءة ذات طبيعة تراكمية، تتسم بالاستمرارية والاطراد، حيث يجب ألا تخضع للمصادفة أو العشوائية، بل يجب أن تكون عملية منظمة، تحتل جانباً مهماً في حياة الفرد، مهما كانت مشاغله، ومهما كانت ضغوط الحياة التي يواجهها، وتحتل هذه السمة -سمة التراكمية- أهمية خاصة بوصفها أحد السبل المهمة لتحقيق القراءة المنتجة، بما تساهم به في بناء وعي الفرد وزيادة رصيده الفكري والمعرفي بما يمكّنه من فهم وتفسير كل ما يحيط به من ظواهر، ولا نبالغ إذا قلنا إن سمة التراكمية لا تساهم فقط في الارتقاء بوعي الإنسان، بل إنها تساهم -بالقدر نفسه- في بناء وتطوير نظريات العلم والمعرفة في مختلف صنوف التخصصات العلمية، على تعددها وتنوعها، سواء أكانت علوماً إنسانية أو علوماً طبيعية، حيث يضيف، أو يعدل، أو يطور، أو يغير اللاحق من السابق.

وتتلازم خاصية التراكمية التي تميز عملية القراءة مع خاصية أخرى تكاد ترتبط بها ارتباطاً عضوياً، ألا وهي الطابع النقدي لعملية القراءة، أو ما يسمى بـ «القراءة الناقدة»، بل إن الطابع النقدي لعملية القراءة هو الذي يفسح مجالاً لعملية التعديل والتطوير والتغير الذي يحدث في وعي القارئ، ويحدث بالقدر نفسه داخل نظريات العلم، إذ كيف يمكن للفرد أن

يعدل، أو يغير، أو يطور من وعيه تجاه ما يواجهه من مشكلات في الواقع الذي يعيش فيه، وكيف يمكن للعالم أو الباحث أن يغير أو يعدل أو يطور في نظريات العلم الذي ينتمي إليه إلا إذا استطاع -كل منهما- أن يعمل عقله بشكل نقدي في كل ما يقرأ. ولا يصبح مجرد مستقبل أو متلق سلبي لما يقرأ.

إن القراءة الناقدة تفضي إلى تكوين الوعي النقدي الذي يسهم بدوره في صقل وعي الفرد، وفي تكوين رؤية للعالم تجعله قادراً على النفاذ إلى عمق الواقع الذي يعيش فيه، ويكون قادراً على التعبير عن آماله وطموحاته، سواء ما اتصل منها بمحيطه الذاتي، أو محيطه المجتمعي، أو محيطه العالمي أو الكوني، وذلك بحكم الدور الذي تقوم به القراءة المنتجة في تنمية وتخصيب خيال القارئ، ذلك الخيال الذي يجعله قادراً على القبض على كل ما هو جوهري وأصيل في كل ما يحيط به، أوليس التأمل هو الذي قاد «نيوتن» إلى اكتشاف قانون الجاذبية؟ ولَمِ نذهب بعيداً؟ أوليس التأمل، أو قراءة صفحة السماء ومواقع النجوم، وكذلك تأمل أو قراءة أفق الصحراء هو الذي قاد أجدادنا العظماء إلى معرفة دروب ومسالك البر والبحر؟ على الرغم من أن جلهم لم يكن يعرف القراءة والكتابة؟ وهذا ما يجعلنا نقول إن كل إنسان هو إنسان قارئ ومتأمل بالضرورة، حتى وإن لم يكن يعرف أبجديات القراءة، حيث يصبح العالم الذي يعيش فيه الفرد هو النص المقروء، ويغدو التأمل سبيلاً للاستنتاج والاستنباط والفهم والتفسير.

وفي النهاية يمكن القول إنه إذا كانت القراءة غاية يسعى إليها كل فرد مسكون بحب المعرفة والسعي إليها، فليس ثمة طريق واحد لتحقيق هذه الغاية، أي لا توجد طريقة واحدة للقراءة، بل تتعدد طرق القراءة بتعدد ميول ورغبات القرّاء أنفسهم، وإن هذه الميول والرغبات محكومة بالعديد من العوامل التي تتداخل فيها العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية، وتتمثل العوامل الذاتية في ميول الفرد واهتماماته المعرفية الذاتية أو الشخصية، ولا شك أن هذه العوامل الذاتية هي وليدة المناخ الاجتماعي والثقافي الذي يغذي في الفرد حبه للقراءة، وتتمثل العوامل الموضوعية في الموقع الذي يحتله الفرد على خريطة المجتمع الفكرية والثقافية، وما يترتب على هذا الموقع من انتماء الفرد أو تخصصه في أحد فروع المعرفة العلمية، وما يفرضه هذا التخصص من ضرورة اطلاع الفرد على أحدث منجزات العلم في التخصص الذي ينتمي إليه، لكن ينبغي التأكيد على أن القراءة عملية عابرة للحدود التي تفرضها العوامل الذاتية والعوامل الموضوعية، كما أنها عمليه عابرة للتخصصات العلمية.

قراءةٌ فوق لحظتين!
تمكينُ «التأريخ المعماري العربي» عالمياً

د. بغداد عبد المنعم*

من أراد أن يصنع مستقبلاً جديداً فيجب أن يصنع ماضياً جديداً.. والهدف بالنتيجة الخروج من الماضي والتمرد عليه من خلال تجاوز سكونيته.. لأنَّ الماضي بمكوناته المُنجزة التاريخية أو التراثية أو التراثية غير المادية هو حالةٌ خاميَّةٌ مستوية.. وإنَّما الحركة البحثية الجديدة في هذه الحالة قد تُطلِقُ سراحها في الفضاءات الكثيفة مما يعني احتمالاتٍ وولاداتٍ جديدة..

في هذه القراءة والتي تنتمي زمنياً إلى اللحظات الأولى من الألفية الميلادية الثالثة، وإلى بداية الثلث الثاني من القرن الخامس عشر الهجري.. يبدو وكأنها قراءةٌ تقفُ فوق لحظتين اثنتين..! أليس للزمن نسبيته أيضاً.. نسبياتُهُ المُتكئة إلى تعريفاتٍ تاريخية وسياسية- حضارية قد تكون متباينة أو إشكالية؟

فمازلنا نريد أن نعيدَ الحروفَ الممحية إلى هوية مدننا العتيقة.. التي تعبثُ من التسطيح والتهميش.. تلك الهوية التي قد يُغرقها الزمنُ الجديد بـ(تسونامي إعلامي) ماحق.. ليقول لنا أنها ليست مُهِمَّة.. وأنها سكونية.. وأنها تقاعَدَتْ..

في هذه القراءة.. سنتهجى حروفَ (ابن شداد) المؤرخ الذي عاصرَ حضورين خارجيين عدائيين: الحملات الصليبية والاجتياح المغولي.. حضوران ساحقان تناولا على نحو أكيد الهوية العربية الإسلامية لمدننا.. حاول هذا المؤرخُ الرفيعُ أن يجدد أحرفَ هذه المدن بإصرار محمولٍ على ثقافة

* باحثة في التراث العربي وأستاذة جامعية (فلسطين).

عريضة.. ففعل ذلك بهاجسه الإستراتيجي البعيد وحَدْسه الصادق النظيف..

مؤرِّخٌ بأدواتٍ سياسية ورؤية عالمية.. ارتفع إلى سويتي الحدثين السياسي والإبداعي، وطار إلى حد بعيد في فضاءات الحرية الإبداعية ليشكل طريقةً جديدة وجدية بذائقة ثقافية وجمالية.. كان هو مَنْ جَدَّدَ في أدواته وحوامله فحملت عيناه «السعة البانورامية في السياسة» و«الحسَّ الجمالي العالي بالعمارة» فكتب ما كتب بحسٍ عالٍ من المسؤولية في تأكيد نسيج وخيوط المدينة العربية الإسلامية حتى وإن بلغ التدمير أقصى احتمالاته وأطبقَ من كل الجهات.

لم يحمل تماماً لغةَ المؤرخين الموصولة بالأسانيد والأحاديث كمنطلق وحيد للشرعية.. ولا هو حمل أيضاً تلك اللغة البلدانية التي يمكن أن تحمل أحياناً طابعاً عابراً وإنْ كانت تحملُ إحصاءً ووصفاً لكنها تنأى نوعاً ما عن التحليل والاستشفاف.

ها هو يترك أكداساً من الأوراق وراءَهُ.. ويحملُ قلماً جديداً وأوراقاً بيضاء.. يترك الغرفة القديمة بجدرانها العالية التي تشبهُ قلعةً.. ها هو يقلعُ تجاهَ مدينة تمنحُهُ التجددَ فيمنحها إبداعاً غيرَ مسبوق..

يصحُ أن تكون المئةُ السابعة بعد الهجرة مئةً لهذا المؤرخ.. فقد ولد في أولها تقريباً /٦١٣ هـ - ١٢١٧م/ وتوفي في منتصف الربع الأخير منها /٦٨٤ هـ - ١٢٨٥م/.. ويحدثُ كثيراً أن يولدَ الإنسانُ في مدينة فتكونُ «أمهُ».. ويعشقُ مدينةً أخرى فتكون مدينتهُ الأثيرة الملهمة.. يولدُ في زمنٍ فيأتي على قده فكأنما (المؤرخُ والزمن) بعدان يتبادلان الأدوار.. فتكونُ للعملية التأريخية إشراقاتٌ وإبداعات.. وربما استشرافٌ بعيد المدى..

دخلَ كواليسَ السياسة وجاسها وجلس فيها، وشاهد بأم عينه الصدمتين الصليبية والمغولية فارتدَّ إلى «المدينة».. إلى عماراتها التي تحدد أبعادها وهويتها وترسم حركةَ ناسها.. إلى تلك العمارة التي تعشقت بمرور اللحظات وعبور المئات من السنين في لغة الناس وامتصت همساتِ قلوبهم.

وهكذا وبناءً على وعيٍ إستراتيجي عميق وبعيد كان كتابُ (الأعلاق الخطيرة)[1] وفي معنى هذا العنوان الأشياء ذات الأهمية القصوى، قدَّمَ ابن شداد في خلاله تأريخاً معمارياً مهماً للجوامع والمدارس والزوايا والأبواب والقلاع.. ولعلَّ التأريخ الهندسي الذي قدَّمه للقنوات والأنهار كان دقيقاً وحاسماً.. وكذلك تأريخه لقلعتي دمشق وحلب كتكوينات معمارية.. تجاوز في تأريخه لهما التسجيلية والإحصائية.. ووصل إلى (قيم فنية معمارية).

ألَّفَ ابنُ شداد (الصاحبُ عز الدين

محمد بن علي بن إبراهيم بن شداد الأنصاري) كتابَ «الأعلاق الخطيرة» بعد أن تجاوز الستين واستغرق في تأليفه عشر سنوات من ٦٧١هـ/ إلى ٦٨٠هـ/.. فحملَ من الحكمة مثلما حملَ من الإبداع، ومن خلاصةَ تجربته الحياتية والسياسية في قرن عربي كان سيئاً للغاية.. ومن وجوه المنهجية العميقة في تأريخه استنادُهُ إلى المصادر، وهذا أمرٌ شديد الأهمية في عملية التأريخ وذلك كآلية وكنتيجة.. وقد صرح بمصادره في كتابه، نذكرُ منها: ابن الأثير وابن العديم وابن أبي طيء وابن الأزرق وابن عبد الرحيم وابن القلانسي والعظيمي وابن زريق وأسامة بن منقذ وابن عساكر وغيرهم.. وهذا الصف الرصين من المصادر منحتْ كتابَهُ مرجعيةً وأهميةً بالغة في تاريخ بلاد الشام والجزيرة.

حين دخل ابن شداد دمشقَ كان في الثامنة عشرة وكان ذلك في سنة ٦٣١هـ/ فهو يقول «وكنت قد دخلت دمشق سنة إحدى وثلاثين. ثم ترددت إليها مراراً عديدة. ثم قطنت بها في الأيام الناصرية مدة عشر سنين»[٢] وقد استمر حكم الناصر صلاح الدين من ٦٣٤/ إلى ٦٥٨ هـ/ وهي من أكثر سني دمشق ازدهاراً في ذلك التاريخ.. وخلال هذه الفترة تقلّد ابنُ شداد وظائفَهُ السياسية كوزير أو سفير فاستطاع أنْ يُدقق في عماراتِ المدن الشامية ويحصيها إحصاءً دقيقاً.. فعَدَّدَ في دمشقَ وحدها ستمئة وستين مسجداً وثلاث وتسعين مدرسة.. فكانتْ الممارسةُ السياسية لابن شداد قد وَسَّعَتْ نطاقَهُ التأريخي وطَوَّرَتْ أدواته وسَيَّرَتْهُ نحو خصوصية تأريخية لعلّه امتلكها وحده.. فقد تولى شؤوناً مالية واقتصادية وظلَّ طوال حياته ملازماً للملوك[٣].. فشَكَّلَ بذلك فرعاً جديداً في العملية التأريخية أفرزتْهُ التطوراتُ الحضارية والمدنية والتناقضات السياسية الحادة التي غطتْ المنطقةَ العربية في القرن السابع الهجري، تلك التي وضعت الوجودَ العربي الإسلامي أمام تحدي البقاء الإنساني والحضاري.. فخرج هذا الفرعُ التاريخي من عباءة المؤرخين القُدامى، مثلما خرج أيضاً عن دروب الرحّالة والبلدانيين فكان ما نسميه اليوم بـ(تاريخ العمارة)، ولعلَّ ابنَ شداد يستحقُ منّا مزيداً من الضوء البحثي والرفع الإعلامي عالمياً لاسمه ولإنجازه وذلك من فوق هذه اللحظات الراهنة لهذا الزمن الجديد الحامل بتغييرات عميقة!

التأريخُ المعماري.. مُنْجَزٌ عربي مُهمَل!!

لم يلقَ هذا الفرعُ المهمُ من التأريخ استحواذاً عربياً معاصراً، ولا ثمة من قام بالانتباه إلى وجودِ مرموق لنصوص معمارية وفنية عربية قديمة.. وذلك على الرغم من

أنّ الاهتمام العربي قد توجه إلى تقديس وتبجيل المنجزات والتأطيرات التي قدمها الغربُ في مجال التاريخ المعماري والفني اليوناني واللاتيني والأوروبي في عصر النهضة..

لكنّ، يبقى أنَّ زمناً لا يتمايز على زمن إلا بمقداره التاريخي كفعل تراكمي تغييري تم ويتم تسجيله، يمتلك أسباب قوته وحضوره من عنف التجربة وحيويتها ومن سويتها في ميزان العالم.

فهل كانت العملية التأريخية على سوية الحدث دوماً سواء كان حدثاً سياسياً أم حدثاً إبداعياً؟ من أمراض العملية التأريخية التقليدية «سَجْنُ التاريخ» وفي هذا السجن يسري ما يسري من عادات وتقاليد سلبية منها، سكبُ النصوص والأحداث من كتاب سابق إلى كتاب لاحق.. هذا التكرار يظل تكراراً.. ولعلَّ التأريخَ هو التجدد في طرح الأحداث بتراكماتها وخلفياتها من رؤى جديدة إلى أهداف جديدة.

تجنَّبَ ابنُ شداد أمراضَ العملية التأريخية، وفي قربه السياسي من مراكز القرار تكوَّنَتْ رؤيتُهُ الأكثر اتساعاً فأدرك من عملية التأريخ أموراً مُهمات نُدْخِلُ بعضاً منها في وقتنا الحاضر في «تاريخ العمارة» أو في «تاريخ الفن».. وهو بذلك خرج إلى حد معقول عن المحتوى السياسي المباشر.

ذكره المؤرخون[4] اللاحقون ذكراً جليلاً وذلك لشخصيته ومنهجه ولكونه شغل المناصب السياسية الرفيعة فكان وزيراً وسفيراً ومُفاوضاً.. وكأنه حين دخل في هذه المناصب دخل بحمله الثقافي العميق والذي كمنتْ بداخله بذورُ إبداع سيأتي لاحقاً حين بدأ ينتقل إلى القلم والأوراق..

حملَ الثقافة إلى عمله السياسي وحمَّلَتْهُ السياسةُ جراَةَ التناول والابتكار.. ولعلها فسحة حرية شاملة داخلية وخارجية كوَّنَتْ عقلَهُ باتجاه الإستراتيجيات والجماليات شأنه في ذلك شأن الأعلام المشهورين العالميين الذين تميزوا بالشمولية ورؤية جديدة لعصر قادم.. هؤلاء الأعلام الذين ضجت بأسمائهم الأرضُ كلها فأصبحوا شيئاً مهماً من الثقافات حتى المحلية أو الوطنية. فابنُ شداد السياسي مؤرِّخُ الفن والعمارة لم نحتفِ به تحت هذه العناوين مطلقاً.. مثلما احتفى كاتبو ومؤرخو الغرب بـ(ليوناردو دافنشي) على سبيل المثال فتركوا لاسمه أن يدخل بسهولة في نسيج أدمغتنا.. وأمّا مؤرخنا العتيد فلجهلنا وتجاهلنا ما زال إلى اليوم -حتى المثقفين- يخلطون بينه وبين عنترة بن شداد الشاعر العربي المظلوم أيضاً إلى حد بعيد والمُبْعَد عن الشرعية التأريخية الغربية التي منحتْ شعراءَ اليونان القداسةَ العالميةَ وأما نحن فما زلنا بعيدين عن الانتباه إلى

تشكيل شرعيتنا وتصدير شعرائنا بأهميائهم غير العادية على الإطلاق ..

لقد أطَّرَ الغربُ (ليوناردو دافنشي) تأطيراً حاسماً بمخترعاته ومنجزاته ومخططاته الباقية وكذلك لوحته (الجوكوندا) التي دخلت التاريخ والمستقبل لكثرة ما خضعت له من قراءات وعمليات إعلامية توظيفية وسياحية.. حتى غدت بديهية أرضية أو عالمية تلك اللوحة البسيطة العميقة.. تلك المرأة العادية جداً.. والتي حُمِّلَتْ بعينيها وراحتيها حِمْلَ الفلسفة والتشكيل والغموض والجمال.. وما.. وما شاؤوا!!

وقبل ذلك تمَّ غربياً و(نيابةً عن العالم كله) إعطاء الشرعية والأسبقية لكتاب معماري - هندسي هو كتاب (في الفن المعماري De Architecture) لفتروفيس والذي يعود إلى ما قبل /٢٧ق م/ واعتُبِر أهم كتاب تقني باللغة اللاتينية(٥) وهو عبارة عن عشرة أجزاء والكتاب الثامن منها عُنِيَ بشبكات المياه وأساليب إنشائها الهندسية.. ومن المعروف أن الدولة الرومانية وفي جميع الأراضي التابعة لها في العالم أقامت مشروعات معمارية تميزت بالضخامة والاستمرارية، لكنها ليست الحضارة الوحيدة التي أنتجت ذلك، بل عرفت ذلك حضارات تميزت بالعظمة والتفوق مثل الحضارة الصينية الشرقية البعيدة نسبياً عن مركز العالم، والحضارة العربية بامتداداتها المختلفة التي شملت مناطق كبيرة من القارات الثلاث القديمة.. فقد تركتْ إرثاً من المشروعات ومن التأريخات.. كان من بينها ما يحمل كاملَ الأهلية ليمثل الإرث المعماري والفني وبخصوصياته الإسلامية.

ينسجُ ابنُ شداد في كتابه نسجاً مختلفاً كأنه أراد أن ينظر إلى عصر جديد بعدما شهد من انهيارات عميقة تناولت عرش الخلافة العباسية بصفتها الكرسي الإسلامي الأول، وكانت الفروع الأيوبية والمملوكية والتي عايشها المؤرخ قد نجحتْ فيما بعد نجاحين مهمين للغاية وفاصلين في تاريخ العالم هما: الانتصاران الإسلاميان في معركتي حطين (٥٨٣ هـ - ١١٨٧م) وعين جالوت (٦٥٨ هـ - ١٢٥٩ م)..

انطلق ابنُ شداد من العملية التأريخية السابقة عليه مباشرة، من ابن العديم والقاضي ابن شداد (غير مؤرخنا) والحافظ ابن عساكر صاحب التاريخ الطويل لمدينة دمشق. كان لهذا الصف الرصين من المؤرخين أبوةٌ شرعية على مؤرخنا.. ولكنْ يبقى له تجديده خاصة حين يقفز فوق اللغة الزخرفية البديعية المرصعة والمسجوعة.. إلى لغة (هندسية) يرصد فيها تفاصيل

التكوينات المعمارية.. ندركُ حينذاك أيَّ تجدد سار إليه ابنُ شداد حين أرَّخ لمدن الشام والجزيرة حين كان التدمير في أعلى وتائره وتأثيراته.. وإننا إذ نقرأ كلماته كأننا نريدُ أن نعيدَ تشكيلَ (مدينتنا) وتاريخها المعماري على شاشات قنوات هذا العالم باعتبارها من الأصالات الحضارية التي يجب ألا تزول.

الهوامش

١- الأعلاق الخطيرة في ذكر أمراء الشام والجزيرة، ابن شداد عز الدين. الجزء الأول والمتعلق بحلب، حققه يحيى زكريا عبارة. صدر عن وزارة الثقافة السورية عام ١٩٩١م. والجزء الثاني المتعلق بدمشق، حققه سامي الدهان. صدر عن المعهد الفرنسي بدمشق ١٩٥٦م.

٢- المصدر السابق، ج٢، ص ١٨٨.

٣- انظر : الجزء الثالث من الأعلاق قسم الجزيرة. الورقة ١٩و. أيضاً الورقة ١٣٧و. وكذلك الأعلاق ج٢، ص ١٧٨ وص ٢٧٣.

٤- من هؤلاء المؤرخين : ابن كثير في (البداية والنهاية)، وابن عماد الحنبلي في (شذرات الذهب) وتاريخ ابن الفرات.

٥- جورج سارتون، تاريخ العلم. ترجمة لفيف من العلماء. دار المعارف- مصر ١٩٧٦م- ج٥، ص ٢٤٩.

المجتمع وسلوك القراءة

عبد الباقي يوسف*

شغلت مسألة توفير الكتاب الكثير من المؤسسات والفعاليات الثقافية والتربوية في العالم، فكان الاتجاه نحو تيسير الحصول على الكتاب، وتوفيره في مختلف الأماكن التي يتواجد فيها الناس حتى يجد الإنسان الكتاب في متناول يده، فيتناول الكتاب ويقرأ ولو شيئاً يسيراً منه وهو في السفر، أو في حالة انتظار، أو في وقت فراغ، أو يسعى إلى القراءة في أوقات يبرمجها لنفسه.

كان الاتجاه إلى دعم وجود مكتبات الاستعارة في مختلف الأماكن حتى يدخل الشخص إلى مكان ما في المدينة التي يتواجد فيها، فيقرأ ما يشاء من الكتب، مكتبات المراكز الثقافية، مكتبات الجامعات، مكتبات دور الكتب الوطنية، مكتبات المعاهد والمدارس، مكتبات المساجد، مكتبات دور النشر، مكتبات الصحف والمجلات، مكتبات مجالس المدن.

إضافة إلى ذلك باتت بعض الصحف اليومية تصدر الكثير من الكتب كهدية لقرائها، كما دأبت بعض المجلات الثقافية إلى إهداء قرائها كتباً جديدة، وتحدث مناسبة هذا الكلام إلى نشر المجلة العربية السعودية كتابي الجديد /حساسية الروائي وذائقة المتلقي/ في أوّل يناير/ كانون الثاني ٢٠١٢م مستهلة به عامها الجديد، وتقديمه كهدية إلى القرّاء، وكانت قد نشرت كتاب /عالم الكتابة القصصية للطفل/ عام ٢٠١٠م. كما قامت وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية في دولة الكويت بطباعة روايتي /إمام الحكمة/ ضمن سلسلة إصدارات مشروع روافد عام ٢٠١٠ م، وهذا ما جعل

* أديب وباحث سوري.

الكتب متوافرة لدى غالبية شرائح الناس وهي تجربة شخصية لمستها بالنسبة لتلك الأعمال وبعض أعمالي الأخرى التي نشرتها مؤسسات ثقافية وأدبية مثل اتحاد الكتّاب العرب، وبعض النوادي الأدبية في الوطن العربي وغير ذلك.

ظلمة الإنسان ومنارة الكتاب

يرتقي الإنسان على قدر ما يقرأ، ويلبث مراوحاً في موضعه على قدر حالة اللاقراءة التي يدور في تيهها.

يوسّع القارئ الماهر والمدبر لما يقرأ مدركات القراءة لديه حتى تغدو سلوكاً يومياً، وتغدو تقليداً في عرفه، إنه ينهل علوم الحياة، وعلوم الإنسان من صيده الثمين في بواطن الكتب، ويشعر أنه يرتقي على قدرما يقرأ.

إن كل وجله يكمن في أن تخفت شعلة الاندفاع نحو القراءة في نفسه، ولذلك يعزز في نفسه هذه القيمة، ويبلغ مرحلة لايكتفي فيها بتلقي العلوم والمعارف والآداب من ثنايا السطور، بل يستمتع بحالة القراءة، وهي درجة متقدمة من درجات تعزيز سلوك القراءة في النفس.

في مختار الصحاح: «كَتَبَ من باب نصر و(كِتَاباً) أيضاً و(كتابة) و(الكتاب) أيضاً الفَرْض والحُكْم والقدر. و(الكاتب) عند العرب العَالِمُ ومنه قوله تعالى: «أَمْ عِندَهُمُ الْغَيْبُ فَهُمْ يَكْتُبُونَ». و(الكُتّاب) بالضم والتشديد (الكتبة). و(الكُتّاب) أيضاً و(المكتب). و(اكْتَتَبَ) أي كَتَبَ ومنه قوله تعالى: «اكْتَتَبَهَا»، واكْتَتَبَ أيضاً كتب نفسه في ديوان السلطان. و(المُكْتِب) بوزن المُخْرِج الذي يُعَلِّم الكتابة، و(اسْتَكْتَبَه) الشيء سأله أن يكتبه له. و(المُكاتَبَة) و(التَّكاتب) بمعنى. و(المُكاتَبُ) العبد يُكَاتب على نفسه بثمنه فإذا سعى وأداه عُتِقَ».

محبة الكتاب تأتي من الاعتناء به والتعامل معه باحترام إذ لايجوز أن يأتي أبٌ فيقرأ كتاباً، ثم يقذفه جانباً أمام أولاده، أو يكتب عليه شيئاً، أو يتناول شراباً فيضع الكأس على كتاب، أو يهمل الكتاب حتى يمسي بالياً، وعلى الآباء الذين يرغبون في زرع محبة الكتاب في نفوس أولادهم أومَنْ هم معهم تتبع القواعد التالية:

١- لدى شراء كتاب جديد، حمله بعناية ويُفضل أن يكون مغلفاً وتجنّب حمله بعشوائية أو طويه أو تمزيق أي جزء منه.

٢- عند القراءة المتقطّعة، يفضل استخدام ريشة بدلاً عن طي أعلى الصفحات، ثم وضع الكتاب في مكان مؤقت يحفظه ويحميه من آثار الطعام أو الشراب أو الغبار إلى حين العودة إليه.

٣- عند القراءة الواحدة، أن يؤخذ الكتاب من موضعه المخصص له في المكتبة،

ثـم يُعاد إليه مباشرة من دون أن يُكلّف ذلك من قِبل أحد.

٤- الحفـاظ علـى مـكان كل كتاب في قسمه المخصص له ضمن المكتبة.

٥- في حال تعرض كتاب للتلف، المسارعة في تجليده وصيانته.

٦- التعامل مـع الكتاب بلطف واحترام وكذلـك أن تقوم الأم بتعليم أطفالها عبارة: «هدوء.. بابا يقرأ» على غرار: «بابا نائم».

عند الالتزام بهذه التعليمات وما يتفرع منها، فإنه يتولد شعور بالاحترام نحو الكتاب خاصة لدى الناشئة ومن هذا الاحترام يتعزز إحسـاس بالحب في نفوسـهم تجاه الكتاب ومتى ماحـل الحب، حل التعلـق بالكتاب. فالأب هو قدوة لأبنائه والأبناء دوماً يميلون إلى القيـام بأفعال آبائهـم وعندما يكبرون وينجبون

فـإن صـورة الآباء تلبـث في مخيلاتهم فيقومـون بما قام به آباؤهم. إن الكتاب هو زاد فكري ومعرفي يحتاجه كل إنسـان مهما كان تخصصه في الحياة.

فُقراءُ اللاقراءة

لقـد تم الحديث مطـولاً عـن الأمية المنتشرة لأسـباب متفاوتة، وفي تقديرنا أن هذه الأمية تضـاءلت ولسـوف تتضاءل في السـنوات القادمة على نحو أوسـع،لأن أي أب ومهمـا كان موقعه فهـو لن يترك أبناءه مـن دون دخول مدارسـ في عصر التفجر المعلوماتي. لكن الخوف كل الخوف من تفشي الأمية الثقافية بين شرائح واسـعة من فئات مجتمعاتنا المتعلمة. فالطبيب، أو المدرّس،أو المحامـي، أو المهندس، ما إن يتخرج ويواجه عملـه حتى تـراه يتوقف كلياً عـن تثقيف نفسه. فلدى البعض قناعة أن كل ما يدفعه إلى التفـوق في مهنته هـو الإلمام بمزيد من النشرات والكتب والمحاضرات والمكتشـفات الطبيـة. وقـس هذا على الاختصاصـيين الآخرين.

الواقـع أن كل أجناس المعرفـة تكمل بعضـها، وهؤلاء جميعاً عليهم أن يحسـنوا التعامـل مع الثـورة المعلوماتية الكبرى وفي هذا ما أسـميه: انفتاح العلوم البشرية على بعضـها وتلاقـح أجناس المعرفة بعضـها ببعض. في حياتنا اليومية نقع على أشخاص من ذوي الاختصاصات وعندما نزورهم في بيوتهم تحل الصـدمة علينـا. فما المانع أن يقرأ الطبيب شـيئاً من الشعر أو المسرح أو الرواية أو الفقه أو يشترك في مجلة ثقافية أو دينية أو فكرية إلى جانب اشتراكه في مجلات طبية وهذا يصحّ على الفئات الأخرى.

إن محبـة الكتـاب هي محبـة المعرفة البشريـة برمتها،والكتـاب لايعنـي أبـداً اختصاصاً من الاختصاصـات، بل الكتاب هو المعرفة بمختلف أجناسـها وألوانها. من

هنا علينا أن نعزّز مكانة الكتاب في نفوسنا ونوليه قدراً أكبر من وقتنا وجهدنا ومالنا لأن الأمية الثقافية هي أشد بؤساً وجهالة من الأمية التعليمية وإذا كانت الأمية التعليمية تُمحى على طاولات المدارس، فإن الأمية الثقافية لايمحوها إلاّ الكتاب.

يبني الإنسان ذاته عن طريق القراءة، القراءة تقدم إليك الكثير ولكن عليها أن تكون قراءة منتقاة، فقبل أي شروع في محاولة قراءة نص أدبي، يمكن الذهاب نحو آفاق تمنحك شذرات فقهية في محراب ثقافة أدب القراءة، فتمسي بمثابة مشكاة تنير أمام روحك ما خفي في ظلمة اللغة، وما توارى خلف إيقاعات الأحرف، حينها تشرق شمس اللغة أمام ناظرَيك، فتغدو قراءتك: داخلية، تأملية، جمالية، تخييلية. تستمد من ثناياها إشراقاً روحياً ومتعة ذهنية في مملكة النص البهية لو أدركها ملوك وسلاطين الأرض لحسدوك عليها.

هذه المراحل المتقدمة في فقه تلقي النصوص الإبداعية تؤتيك ثمارها في مناحي الحياة كافة، فتجعلك متفقهاً في أدب التحاور مع الآخرين بصفة عامة، ومع ذاتك بصفة خاصة، وتتيح لك فرصة ذهبية للإبحار في حديث الذات من دون الخروج عن قواعد أدب الحوار، وكذلك تهبك فرصة ثمينة لمحاورة الآخرين بذهنية منفتحة إلى جانب تمتعك بخصلة أدب الإصغاء.

الإنسان مدعو لأن يقرأ قبل أن يسمع أو ينظر، وعلى ذلك فإن الذي لا يقرأ، يكون سمعه ضعيفاً وتكون نظرته قاصرة. وما أن يبدأ الإنسان في القراءة حتى تراه يسمع جيداً، ويرى جيداً.

سلوك القراءة من خلال ترسيخ دعائم المكتبات

المكتبة هي عقد من اللؤلؤ في جيد أي مدينة تكون في أحضانها، والمكتبة هي البيت الدافئ والخالد لأي مدينة من مدن العالم، وأي مدينة تخلو من وجود مكتبة فيها تكون مدينة باردة يرتجف سكانها من برد اللامعرفة.

إذن، المكتبة تحتوي على الزاد المعرفي كما أنها تحتوي على الذاكرة الثقافية للمدينة وللدولة وللعالم.

على مدى التاريخ فإن المكتبات العامرة والثرية بالمؤلفات والمخطوطات هي دليل على غنى وثراء المدينة التي تحتويها، وكذلك هي دليل على حيوية السكان الذين بنوا مكتبة مدينتهم فتبقى المكتبة شاهدة ومؤرخة لإيقاع الزمن والناس معاً.

إذا كان الناس بمختلف شرائحهم يدينون للمكتبات التي نهلوا منها الثقافات والعلوم والآداب، فإن الكتّاب أيضاً يدينون للمكتبات التي تحفظ لهم مؤلفاتهم عبر الأجيال،

فمعلوم أن المكتبات التجارية التي تبيع المؤلفات يأتي يوم تنفد فيه هذه المؤلفات، بيد أن المكتبة العامة تحفظ هذه المؤلفات وتعيرها بشكل مجاني للناس بهدف نشر الثقافة والمعرفة، ففئة كبرى من القرّاء قد اطلعت على هذه المؤلفات من خلال نظام الاستعارة لأن وجود الكتاب غير ميسر في كثير من الأحيان، بيد أنه يكون في متناول يد الناس في أي زمان ومكان إذا دخلوا المكتبات وتصفحوا عناوين القوائم.

جامعات العالم تكاد تلاحق إصدارات الكتب من مختلف أنحاء العالم وعلى الأخص النصوص الإبداعية الجديدة، فدور النشر تعتمد بشكل جيد على ترسيخ هذه العلاقة بينها وبين مكتبات الجامعات، وأحياناً تسعى بعض الجامعات إلى كتاب بعينه وتجهل عنوان الكاتب حتى تراسله، فتعتمد في ذلك على المكتبات التي تتعامل معها من ذاك البلد الذي ينتمي إليه الكاتب. وهنا فإنني أرى ضرورة ترسيخ العلاقة بين المكتبات العامة وبين دور النشر من جهة وترسيخها بين مكتبات الجامعات العربية وبين دور النشر من جهة أخرى فقد نجد مؤلفات إبداعية من بلادنا متوافرة في غالبية مكتبات جامعات العالم بيد أنها غير متوافرة في مكتبات جامعات الوطن العربي.

إذن، نحن نتحدث عن دور المكتبات بصفة عامة وأهميتها في مختلف مراحل حياتنا، سواء في المدرسة أو في الجامعة أو في العمل أو لمتعة القراءة في البيت، فالكثير من المؤلفات لايستطيع المرء أن يصل إليها بيسر إلا عبر نظام الاستعارة من مكتبة مدينته، ولذلك فإن المكتبة التي لاتتجدد بتجدد المؤلفات تبقى مكتبة واهنة.

دور المكتبة يكمن في تجددها وحيويتها وشبابيتها واستيعابها لمختلف إبداعات العصر، كما أن هذه المكتبات تستقطب الزوار والسياح الذين يزورون البلاد.

الكلمة التي وردت إليك بوساطة صفحة بيضاء هي عالم بحد ذاته، عالم بتقلب فصوله، تماماً كالإنسان الذي يشكل كل فرد منه عالماً خاصاً به، فهي تحمل جزءاً من ماضيك وحاضرك ومستقبلك بكونك حامل تاريخ ملايين البشر.

إنك هنا تحتاج إلى صفاء وركون وجهد كي تتعرف على هذه الكلمة، لأن كل جيل من سلسلتك البشرية حملها لغزاً وبصمة وتحية إليك، فإن لم تتقن فنية فض غلاف هذه الكلمة لن تقع على اللب المستقر في كوامنها، والذي ينبض في ثناياه ذاك التاريخ الحافل الذي انتهى بك. فإن استعصى

عليك أمر التعرف على الكلمة التي تنظر فيها، يمكن أن تتخذ منظاراً مكبراً يتيح رؤية أكمل في تمظهرات جسد الكلمة، في نقاطها، وحروفها، وهيكليتها، فتصغي آنئذ لحركاتها، وسكونها، وانفعالاتها، وموسيقاها، ولابأس أن تسكن الكلمة فتلقي بجسدك في فراشها، وتتوسد إحدى نقاطها، وفي البرد تلتحف حرفاً منها، وتداعبها وتأتنس بها، حينها ستداعبك وتأتنس بك فتعوم ذراتها مع ذراتك في فضاء النفس المنتشية برفقة ما تحب، حتى أنها في ذروة انسجام ذراتها مع ذراتك تفضي الذرات للذرات ما لم تفض به لمخلوق غيرك.

وهذا يستغرق أياماً طوالاً، وإياك أن تركن لضجر، أو يستوطنك نفور من هذه العلائق في جسد وروح الكلمة، وتلافياً لكارثة كهذه يمكن أن تنطلق إلى الطبيعة بين حين وآخر للترويح ولتجدد روح العلاقة بينك وبين الكلمة، كذلك لإراحتها من سطوتك وهيمنتك عليها، ومن سطوتها وهيمنتها عليك تلافياً لأي بؤرة تمرد عليك، أو الانفجار في روحك. هذه الحميمية السحرية مع الكلمة الواحدة تولد حالة صفاء لانهائية في الذهن، فليس ثمة ما هو أرقى وأنقى من الإصغاء لموسيقى الأحرف من داخل الكلمة، عندها ستدرك أي شقي ذاك المغفل الذي يفوته الإصغاء والاستئناس بموسيقى الكلمات الطبيعية، فليس ثمة موسيقى في الكون أعذب منها على الروح، ولن تجد بدّاً من الرأفة بذاك الشقي الذي يُمضي ساعات في قراءة آلاف الكلمات في ليلة واحدة من دون أن يبني علاقة روحية مع كلمة واحدة من تلك الكلمات المباركة التي تتطاير أمام ناظريه فلو اكتفى هذا المفرط بقراءة صفحتين قراءة تدبرية من الداخل، لأغناه ذلك عن قراءة مئات صفحات قراءة خارجية شكلية لفظية.

واعلم أن للتلقي وجوه عدة متفاوتة: يمكن أن تلقي نظرات تأملية في جسد الكلمات الموضوعة على الصفحة أمام ناظريك، ثم تمرر بصرك على الحروف حرفاً حرفاً، وتقف أمام إشارات وعلائم الترقيم والتشديد والتقطيع والتسكين والتلوين والتوصيل.

لاتدع كلمة دون أن تنظر فيها من الصفحة التي هي أمامك وتكون في حالة من الصفاء الذهني لاستقبال نص أدبي وفني وتذوقه، وستكون حواسك خلال مدة النظرات التأملية قد استعدت لاستقبال غذاء الذهن والحواس والروح، فتشرع في تركيز عينيك وذهنك على السطر الأوّل من النص، وتمرّ على السطور سطراً سطراً مستوعباً معاني ومدلولات المفردات اللغوية، وإن كان بك نقص في علوم اللغة، يمكن أن

تستعين بجملة قواميس محيطية تنير أمام مخيالك ظلمة اللغة التي تخفي اللآلئ الثمينة في دواخلها.

هذا وجه من وجوه القراءة التأملية المفتوحة، ويمكن الولوج إلى وجه آخر، كأن تباشر في القراءة جملة واحدة، ثم تستريح أسبوعاً تراقب خلاله عما علق في ذهنك، فتعود مرة أخرى لإعادة القراءة قراءة معرفية تأملية، ثم بعد وقت غير محدد آخر تعود إلى النص قراءة ثالثة متقطعة بغية استخراج عناقيد اللآلئ من جوف اللغة بعد أن تكون قد تملكتها

واعلم أن اللغة لاتهب لآلئها للقارئ الواهن الذي يبدو ضعيفاً أمام قوتها، بيد أنها تهب كنوزها المعرفية الثمينة لقارئ قوي تبدو واهنة أمام قوته، وقد تملكها وانتزع مبتغاه انتزاعاً من كوامنها.

على هذا المنوال ستتفرز النصوص إلى مقامات من تلقائية ثرائها أو خوائها، فتجد نصوصاً لاتستحق منك إضاعة وقت لإعادة قراءتها، وتجد نصوصاً تقف عندها في قراءتين، وتجد نصوصاً تدعها نصف أو ربع مقروءة، وكذلك تجد نصوصاً ترجع إلى قراءتها مدى العمر فلا ترتوي نفسك من قراءتها.

الذي لايمتلك فقه القراءة، يصعب عليه أن يمتلك فقه الإصغاء، أو فقه المشاهدة، فكم من ناظر إلى لب الطبيعة وليس به فقه النظر ولاعلاقة له بنبل الكنوز الخفية.

كل هذه المدركات مرتبطة ببعضها البعض وفي جميع الأحوال إنَّ شخصاً يقرأ لهو أفضل من شخص لايقرأ غير بطاقات النعوة والأعراس واليانصيب.

زهور القراءة

إن كلَّ كنوز العالم تعجز أن تهبك سنة واحدة، ولكن ثمة كتب تقرأها تهبك خمسين سنة من الحياة في خمس ساعات قراءة.

دوماً أعجز لإيجاد الكلمة المضبوطة التي تتحمل المسؤولية الكبرى في تقديم الكلمة، وحتى في الدين كان وصف الكلمة يزيدها جمالاً وقيمة ومعنى: «إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ» (سورة فاطر، الآية ١٠)، «أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِي السَّمَاءِ× تُؤْتِي أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍ بِإِذْنِ رَبِّهَا وَيَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ» (سورة إبراهيم، الآيتان ٢٤-٢٥).

وهنا أذكر كيف أن شاعراً مثل الشيرازي استطاع أن يؤثر بقوة الكلمة بروح الشاعر الألماني الكبير يوهان غوتيه ليغدو مريداً له وينشده قائلاً: / ياحافظي الأقدس ياحافظي إن أغانيك لتبعث السكون. ياحافظي الأقدس إنني مهاجر إليك بأجناس البشرية المحطمة المتناثرة بهم جميعاً، أرجوك أن تأخذنا في

طريق الهجرة إلى المهاجر الأعظم محمد بن عبد الله/.

القراءة دوماً تعزز حالة السلم لدى القارئ، وأبداً ليست كل هذه الحروب بين الإنسان والسلاح، بل هي بين كائن يقرأ وكائن لايقرأ، فهي حروب بين السلاح والكلمة بالدرجة الأولى، وأي طلقة تتجه إلى إنسان فإنها لاتتجه إلى جسده قدر ما تتجه إلى كلمته.

يمكننا أن نتساءل عن أهمية القراءة، الإنسان الذي يقرأ كثيراً تراه غنيا في حديثه ومهما طال به الحديث لايضجره السامع، بيد أن الذي لايقرأ ليس لديه شيء يقوله، إن حديثه مهما كان جاداً لايكون إلا عبارة عن كلمات مباشرة يلقيها على السامع ويظل يكررها أينما حل.

أعرف رجلاً سمعت منه بعض الوقائع التي وقعت معه مئة مرة لأن ليس لديه شيء آخر يضيفه، الذي لايقرأ يكون من العسير عليه أن يكتشف شيئاً جديداً، وحتى لو اكتشف فإنه لايكون مدركا لأبعاد هذا الاكتشاف الجديد ولقيمته المعرفية، إنه فقير بكل أشكال الفقر، إضافة إلى أنه يمكن أن يجرح الآخرين بألفاظه الحادة والمباشرة ببساطة شديدة، بينما حديث شخص مواظب على ألوان القراءة يقدم لك المعلومة، ويقدم لك حلاوة وعذوبة اللغة، يقدم لك إشراقة البسمة التي تحمل الكلام إلى سمعك، ويفوح برقة الإنسان وهو يحدّث إنساناً، القراءة هي الغنى الذي لاغنى عنه.

كان عرب ماقبل الجاهلية يقولون: «إن الأدب كاد أن يكون ثلثي الدين».

القراءة هي إحدى أهم مصادر المعرفة، ومهما بلغ الإنسان من تطور وتقنية لتلقي المعرفة، فإنه لايستغني عن القراءة من كتاب، فثمة معرفة لاتتحقق إلاّ عبر الكلمة مهما تقدّم الزمن.

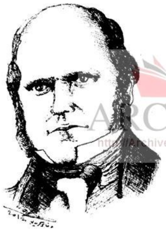
القراءة هي ذاكرة الإنسان، والإنسان هو ذاكرة القراءة، ولذلك فإن هذا الإنسان لم يجد طريقاً إلى كماله إلاّ بعد أن تعلّم كيف يقرأ.

الكتاب هو الوسيلة الأكثر نجاحاً في تعزيز سلوك القراءة في المجتمع، ولذلك كان حرص دعاة نشر سلوك القراءة إلى توفير الكتاب بأسعار زهيدة حتى يكون في متناول أيدي مختلف شرائح الناس.

نظرية داروين
في التطور والنشوء والارتقاء

د. حسين فاضل ✪

أكثر من قرن من الزمن قد انقضى على وفاة تشارلز داروين، الذي ارتبط اسمه في أذهان المثقفين عامة بأنه الرجل الذي نادى بنظرية «التطور والنشوء والارتقاء» وتحدي فكرة الخلق، إنها فترة كافية لظهور آلاف الكتب والمقالات التي تناولت حياة هذا الرجل ونظريته التي ذهبت إلى حد القول بانحدار البشرية من سلالة القرد العليا، عشرات آلاف الكتب والمقالات التي انطوت على العديد من الآراء المختلفة، منها من هاجم النظرية وصاحبها ووجه إليه الانتقادات اللاذعة، ومنها من حاول إدخال بعض التعديلات الهامة على هذه النظرية، وقد بدأ الانقسام في الرأي حول نظرية التطور لدى صدور كتاب داروين «أصل الأنواع» الذي تحمس له العديد من العلماء



البيولوجيين والباحثين والمهتمين، وفي مقال «أفكار داروين أمام القضاء» للدكتور أحمد أبو زيد، وتحت عنوان هل مات داروين حقاً، جمع بها آراء وأفكار العديد من العلماء

✪ كاتب سوري.

العمل الفني: الفنانة وناء كريدي.

مؤكـداً أن دارويـن لم يكـن مؤسسـاً لتلك النظرية، إذ سـبقه إليها الكثير من العلماء الطبيعيـين الذيـن رأوا أن صـورة الحياة المختلفة تطورت جميعها على شـكل واحد بسـيط، أي إن هذه الأشـكال لم تخلق خلقاً مستقلاً ومتميزاً كل منها عن الآخر، وكذلك أكد علمـاء الجيولوجيا أن عمر الصـخور وعمـر الحفريات أكـبر وأقـدم بكثير من الفكرة العامة التي كانت سائدة آنذاك لدى معظم الناس في القرن التاسـع عشر، والتي كانت ترد عمر الأرض إلى ما يزيد على ستة آلاف سـنة، وقد انتشرت هذه الأفكار قبل ظهور كتاب داروين عن أصل الأنواع بسبعين عاماً على الأقل، وكل ما فعله داروين هو أنه قام بتجميع الأفكار والآراء المبعثرة المتناثرة وتحليلهـا بطريقـة عمليـة منهجيـة فيها قـدر كبير من محاولة الفهـم والتعمق، وقد سـاعد كتاب أصل الأنواع على توطيد فكرة التطور وترسـيخها، ومن الطبيعي أن تأتي أول حركة للانتقاد والاعتراض وأشدها من رجال الدين، وأن معظم الانتقادات لم تصدر بالأصـل لرفض فكرة إمـكان وجود علاقة بين الإنسـان والقردة العليـا، بقدر ما كان ناشـئاً عن موقف داروين من فكرة الخلق.

وبعـد أن سردنا هذه المقدمـة عن النظرية المسماة «التطور والنشوء والارتقاء» نشرع في الرد فنقول: إن الرد على هذه النظرية يكون من شقين:

- الأول: الـرد عليهـا مـن حيـث أنها «نظرية» لا حقيقة علمية.
- الثاني: الرد على مضمون النظرية.

الرد على النظرية

أعلـم أن الكيميائيـين والفيزيائيـين والبيولوجيـين ونحوهم يقسـمون العلم إلى حقائق علمية (لا شـك فيها) وإلى نظريات، وإذا نظرت في أي كتاب معتمد لدى دارسي النظريـات تجـد أن تعريـف النظرية هو أنها مجموعـة قوانين والقانون هو مجموعة فرضـيات والفرضية هي شـيء غير أكيد، فهـذه النظرية – كغيرها مـن النظريات– أساسها فرضيات غير متأكد منها، فهي غير ثابتة وإنما يظن فيها أنها صحيحة وحقيقة علمية، وهذا ليس كلامنا نحن بل هو اعتراف القائلـين بهـذه النظريات، فعجبـاً لهؤلاء الذين يتلقون هذه النظريات وغيرها وكأنها حقيقة علمية، مع أن مؤلفي هذه النظريات يقدمونها كنظريات وآراء لا كحقائق علمية فـلا «داروين» ولا أي واحد من أسـلافه أو أتباعه متأكد من هذه النظرية.

ثـم إن السـبيل للوصـول إلى «النظرية العلمية» يكون عـن طريق البدء بالملاحظة والنظـر والتأمل ولكن ما يسـمى بنظرية «التطور والنشوء والارتقاء» لا تحتوي على

هـذا العنصر، لأن أحداً لم يشـاهد سـمكة تتحول إلى تمسـاح، أو تمسـاحاً يتحول إلى قرد، أو قرداً يتحول إلى إنسـان، ولم يشاهد أحـد من أنصـار هذه النظريـة اليوم بدء الخلق، فتبين أن هذه النظرية ليست علمية. والبـاب للرد على هذه الناحية واسـع جداً يحتاج إلى مؤلفات خاصة.

الرد على مضمون النظرية

لقد وجد الباحثون أخطاء كثيرة متنوعة في هـذه النظرية، وألفـوا المؤلفات الكثيرة ضدها مثل الكتب المسماة:

١- العلم مقابل نظرية التطور والنشـوء والارتقاء (Science vs Ev- olution)، لمؤلفه «M. Bowden».

٢- نظريـة التطور والنشـوء والارتقاء: نظرية في محنة (Evolution: A Theory In Chrisis)، لمؤلفه «M. Denton».

٣- القضية ضد التطور والنشوء والارتقاء (The Case Against Evolution)، لمؤلفه «G. O. Toole».

٤- نظرية تطور ونشوء وارتقاء الإنسان مفندة في خمسين حجة (The Evolution of Man Scientifically Disproved in ٥٠ Arguments)، لمؤلفـه « W. Williams».

٥- النباتـات المنقرضـة وعيوب نظرية التطـور والنشـوء والارتقـاء (Extinct Plants and Problems of Evolution)، لمؤلفه «D. Scott».

وغيرها كثير كثير، فإن ما ذكرناه هنا من الكتب ما هو إلا على سبيل المثال، وإلا فإننا -وحتـى الآن- أطلعنا على مـا يزيد على الخمسين كتاباً ضـد هذه النظرية، ناهيك عن المقالات والأبحاث التي تفند أقوال من تعصب وتمسك بمضمون هذه النظرية.

• قضـية ما يسـمى بالحلقات المفقودة « Missing Links»

ولعلَّ أكثر الأخطاء التي مازالت تظهر في هذه النظرية هي قضية ما يسمى بالحلقات المفقـودة، والتي تتلخـص فيما يلي: يدعي داروين أن السمكة أخذت تتطور شيئاً فشيئاً حتى صارت تمساحاً ثم ذلك التمساح بدوره تطور تدريجياً حتى صار قرداً، وهكذا حتى نصـل إلى الإنسـان، فعلى مقتضى كلامه وعلى ما ادعاه هناك مخلوقات بين السمكة والتمسـاح وبين التمساح والقرد وبين القرد والإنسان وهنا الرد المفحم والسؤال الذي لم ولن يجد «داروين» ولا أتباعه جواباً عليه. ولم ولـن يجـد «داروين» أو أي مـن أتباعه وأنصـاره أي مخلـوق منحدر من السـمكة متطور إلى التمسـاح، ولا مخلوقـاً منحدراً من التمسـاح متطوراً إلى القرد، ولا مخلوقاً منحدراً من القـرد متطوراً إلى الإنسـان. ولم يجـدوا «أحافـير» لمثل هـذه المخلوقات

إن كانت قد وجدت في عصر من العصور كما يدعون مع العلم أنهم وجدوا أحافير للأسماك والتماسيح والقردة ونحوها ولم يجدوا أحافير لما يزعمون أنه متطور من أحدها إلى الآخر.

وها هو أحد مؤيدي «داروين» المدعو «ريموند دارت» (Raymond Dart) من جامعة «Witwaterstand» نقب في جوهنسبرغ لمدة ثلاثين عاماً بحثاً عن أحافير كهذه ثم عاد إلى بلده صفر اليدين إلا من قطعتي عظم لا تثبتان أي شيء من هذه النظرية، وذلك باعترافه. فإن قال قائل إن مثل هذه الحلقات لا نجدها لأنها قليلة جداً، فالجواب ما قاله البروفسور «مايكل دينتون M. Denton» إنه على مقتضى كلام «داروين» يلزم أن يكون هناك البلايين من هذه المخلوقات. وإن قيل إن هناك الكثير من المجسمات والهياكل العظمية في المعارض يكون شكلها بين الإنسان والقرد. فالجواب أن هذه لا تكون حقيقية (باعترافهم) بل تكون مركبة من أكثر من هيكل عظمي واحد لإيهام الناس، فقد نشرت جريدة «الشرق الأوسط» (١٩/ ٨/ ١٩٩٩م): «علماء أكسفورد خدعوا العالم لأكثر من ٨٠ عاماً، اتهم عالم أجناس بريطاني بالتزوير» حيث إن المدعو «أرثر كيت» أدين لأنه زعم اكتشاف هيكل عظمي نصفه لإنسان ونصفه لقرد، لكن اتضح بأنه كان قد قام بتجميع العظام وإعادة تركيبها. والذي اكتشف هذا التزوير هو البروفيسور «فرانك سبنسر» المدرس في جامعة كوينز (نيويورك).

يقول البروفسور «مايكل دنتون» إن كل ما عرض هؤلاء الذين يصدقون هذه النظرية الفاسدة من مخلوقات يزعمون أنها حلقات مفقودة يتضح أنها ليست كذلك بل تندرج تحت أصناف مكتشفة من المخلوقات وليست حلقة من هذه الحلقات المفقودة.

• **رد رياضي:**

يقول «وليام وليامز» (W. Williams):

إنه حسب الإحصاءات فإن المدة التي يحتاج إليها البشر ليتضاعف عددهم هي ٢٥ . ١٦١ من السنين مع احتمال زيادة أو نقصان عشرين سنة (وذلك أخذاً بعين الاعتبار الولادة والوفاة والحروب... إلخ). وإن داروين ادعى أن الإنسان ظهر على الأرض قبل مليوني سنة، فيلزم من كلام «داروين» أن يكون عدد سكان الأرض هذه الأيام $(١٢٤٠)^٢$ أي ١٨٩٣٢١٣٩٧٣٧٩٩١ وإلى جانبها ٣٦٠ رقماً على اليمين وهذا على حساب أن عدد سكان العالم يتضاعف كل ٢٥ . ١٦١ سنة. وإذا قيل إن الإنسان ظهر منذ مليون سنة يكون الرقم ٤٣٥١٠٨٢٤٣٣٧ وإلى يمين هذا الرقم ١٧٧ رقماً، وحتى لو قيل إن الإنسان ظهر منذ ألف سنة يكون

على قولهم الرقم الحالي لسكان الأرض ٦١١٦٨٠١٨، ٤٦١١٦٨٦٠١٦٤ وإلى يمينها ٩ أرقام. وهاك المفاجأة: إن عدد سكان الأرض الحاليين من البشر كما تقول الإحصائيات لا يقترب من ١/١٠٠٠٠٠٠/ (واحد على مليون) من هذا الرقم الأخير فضلاً عن أن يقرب من الرقم الذي يقترحه «داروين» لما قال إن أوّل إنسان ظهر منذ مليوني سنة.

• **رد بيولوجي:**

أما بالنسبة إلى نظرية «داروين» المسماة «الاختيار الطبيعي (Natural Selection)» والتي تنص على أن الطبيعة تختار من المخلوقات الصفات التي تناسبها، فهو يقول إن الزرافات مثلاً لها رقاب طويلة لأنها عندما عاشت منذ الملايين من السنين كان هناك مجاعة ولم يبق إلا الأشجار العالية فعاشت الزرافات ذوات الرقاب الطويلة وتزاوجت فأعطت هذه الزرافات ذوات رقاب أطول وهي الموجودة حالياً، فعلى زعم «داروين» يلزم أن يكون الإنسان الذي يستعمل يده اليمنى أكثر من اليسرى قد صار بعد المليوني سنة يولد بيد يمنى ضخمة ويد يسرى صغيرة. ثم ألا يعلمون أن ذكور الزرافات أطول رقاباً من إناثها، وإناثها أطول رقاباً من صغارها فلو كان الاستمرار للأطول رقاباً لمات كل الصغار وانقرضت فصيلة الزرافات وإن كانت الصغار في أوّل حياتها ترضع.

• **رد كيميائي:**

وقد ردَّ الكيميائيون على هذه النظرية الفاسدة بقولهم إن ما يسمى الخلية البسيطة «Prokaryot» مكونة من عدة مركبات معقدة ويمكن تركيب كل من هذه المركبات على حدة في المختبر ولكن إن أتينا بكل هذه المركبات ووضعناها معاً واستعملنا أكثر العمليات التكنولوجية تطوراً فلن نستطيع أن نصنع خلية واحدة مع أننا حصلنا على مكوناتها.

• **رد آخر:**

وإليك قول واحد من أشهر الفيزيائيين في هذا العصر البروفيسور «فرد هويل» (Fred Hoyle) من جامعة «Cambridge» والذي قال في أوّل كتابه المسمى «العالم الذكي» (The Intelligent Universe) ما نصه: «هل يمكن أن تبدأ الحياة بهذه العمليات العشوائية؟ لا ... هل يمكن أن تعمل المصادفة على مثل هذا النطاق الواسع؟ لا .. ، هل نظرية «داروين» لا تزال معتبرة؟ لا ...». ولكن داروين نفسه اعترف بأنه لا يستطيع إثبات نظريته، نعم، داروين بنفسه اعترف أنه يتشبث بالتخمينات والأوهام

والآراء والخواطر وبما كتبه جده «إراسموس داروين» من الشعر حول هذه النظرية قبله بسنوات عديدة حيث قال «تشارلز داروين» إن الاعتراض على نظريته بقوله إن تغير المخلوقات في نظريته إلى مخلوقات أخرى أمر لا يمكن إثباته هو اعتراض صحيح.

وذلك في رسالة بعثها «داروين» إلى «هوكير J. D. Hooker» في شهر آذار من عام ١٨٦١م.

إن ما ذكر هنا ما هو إلا شيء قليل من كثير جداً في الرد على هذه النظرية المسماة التطور والنشوء والارتقاء ومن أراد المزيد فسيجد الكتب تفيض بمثل ما ذكرنا.

المراجع

١- موسوعة «علم البيولوجيا» (biological Sciences)، الجزء الثاني.

٢- «مغامرات مع الحلقات المفقودة (Adventures with the Missing link) لمؤلفه رايموند دارت « Raymond Dart».

٣- «التطور والنشوء والارتقاء: نظرية في محنة: (Evolution: A Theory in Chrisis)، «مايكل دنتون» (M. Denton).

٤- «نظرية تطور ونشوء وارتقاء الإنسان مفندة في خمسين حجة»
(The Evolution of Man Scientifically Disproved in 50 Arguments)
لمؤلفه «ويليام ويليامز».

٥- داروين ونقاده (Darwin and his Critics) لمؤلفه «دافيد هل».

إضافة إلى جريدة «الشرق الأوسط» عدد ١٩/ ٨/ ١٩٩٩م، والكتاب المسمى «العالم الذكي» (The Intelligent Univrse) لمؤلفه « فرد هويل».

التنـــوير
ديكـــارت

ترجمة: أحمد العمري*



بدأ عالمُنــا المعاصر بالظهور إلى الوجودِ على أيدي علماء ومفكري أوروبة في القرنين الســابعِ والثامن. ولولا تدخلهم لعشنا الآنَ على نحــوٍ مُختلف، رُبما في حالــةٍ مرتجلة أولية. ولكــنَّ الأمرَ احتاجَ ثــورات وثورات مضادة، وأبطـــالاً وأبطالاً معارضين، ودماءً ودموعاً لتحقيقِ تحول الفكــر الذي أصبحَ يُعرفُ باسم «التنوير».

لقدْ كانَ ذلك كله منْ عملِ أربعة علماء، على وجهِ التحديد، هم الذينَ مهدوا الطريقَ لهــذا الأسلــوبِ العلمي الجديــد. فنسفتْ اكتشافاتهــمْ معتقدات القرون الوسطى عَنْ علــم الكونيات. وأوّلُ مفاجأة مذهلة حرَّرت العــالَم، الــذي كانَ منزعجــاً بمعتقداته في القرونِ الوسطـــى كانَ الاكتشافُ القائل إنَّ الأرضَ لمْ تَكنْ مركزَ الكون. ولحكمــةٍ ما، لمْ يَذكر «كوبرنيكوس» ذلكَ علنــاً إطلاقــاً «Copernicus ١٤٧٣-١٥٤٣». ولكن موجات الصدمة التي خرجتْ مــنْ نظريته حــولَ مركزية الشمس هَزَّتْ

* أديب ومترجم سوري.

- العمل الفني: الفنانة منى القداد.

الكنيسة في العصور الوسطى على كل حال.

وَبَـيَّنَ «كيبلـر» Kepler «١٥٧١ - ١٦٣٠». أنَّ الكواكـب لا تتحرك على شكلٍ دائري وإنَّما على شكل بيضوي.

إضافـةً لذلـكَ استخـدمَ «غاليليـو» ((Galileo ١٥٦٤ -١٦٤٢)). التلسكـوب ليبيِّنَ أن ليس كل شيءٍ يبلغُ حدَّ الكمالِ فيما يتعلّق «بالأجسام السماوية»، فالقمرُ تُغطيه الفوهات البركانية والبراكين. ولكوكب جوبيتر أقمار، ويتألفُ غطـاء المجرة في الواقعِ من ملايين وملايين منَ النجوم. وتابعَ «نيوتون» «١٦٤٢-١٧٢٧». ليبينَ أن الكواكبَ لا تملك قانوناً لنفسهـا وإنَّما تتبعُ قواعـدَ الأشياءِ نفسها على الأرض.

والأهـمُ من ذلـكَ بكثيرٍ، قـالَ «كيبلر» و«غاليليـو» و«نيوتـون»، إنَّ كلَّ شـيءٍ بدءاً مــن أباريـقَ الشاي إلى الكواكـب «ينصاع» إلى قوانـين ميكانيكيـة دقيقـة رياضيـاً، مُستحضريــنَ في أذهانهـم الكـون شديد التنظيم، الذي تحكمه «قـوى» ميكانيكية بـاردة. ولم يَعد هنالـكَ متسعٌ لـلأرواح أو ادعاءات الكهنة ولا متسعٌ لقوى إمبيدوكليس «Empedocles» عــن الحــب والنــزاع. فالأشياءُ لم تتحرك «ولم تتوقف كذلك» لأنها أرادت أن تفعـل ذلك، ولكـن لأنّها أجبرت على ذلك. وحسـبَ «نيوتــن» « و«غاليليو» عــنِ القانون الأوّل للحركــة، لم تعد الحركة تشيرُ إلى الحيـاةِ أو الروح. وإنَّ مجرد تغيير السرعة أو الاتجاه كانَ عملية نشيطة بسبب «قوة» خارجيــة. وهكذا، وعلى نحو مُذهل، إن كل الحركــة في العالم، بصرف النظر عن الحيوانــات الحية، يمكــنُ أن تفسّر كحركة سلبية ميكانيكية. وفجـــأةً، أصبحَ العالمُ غير المـادي بارداً للغاية وفارغاً وميتاً. وبدلاً من الأرواحِ والأشكالِ والنوايا، كانَ هنالكَ قوى. وفي الواقـع لم تكن «القوى» التي سكنت عالمَ «نيوتن» مختلفةً جذرياً عن الأرواح السابقة. فالقــوى الجديدة كانتْ غــير مُفسَّرة، ولكن كانَ لها أساس ميكانيكي غير حي، بالمقارنة مع الحرية الحية «لــلأرواح» وأطاعتْ هذه القوى، رغماً عنها قوانــين رياضية دقيقة، بينما تبعــت الأرواحُ أهواءها. أما المعجزة التكنولوجية لذلكَ الزمــن، فكانت الساعة الميكانيكيــة، التي أصبحــت بدورها المعنى المجازي للكون نفسه. وباختراع الساعة بدأ الزمنُ يُسجِّل وأُجبرَ الكون أنْ ينبضَ بالوقت المحدد.

لمْ تكنْ فقــط الأشياءُ غــير الحيّة التي أرغمــت على الانحناء إلى الروح الميكانيكية الجديدة للعصــر، فقدْ رأى «رينيه ديكارت» ((René Descartes ١٥٩٦ - ١٦٥٠)) أنَّ الحيوانات أيضاً كانتْ أجهزة ميكانيكية محضة، أي أجهزة أوتوماتيكية بلا شعور أو وعــي. كما يمكنُ أن تُعلّــل عمليات الجسم باستخدامِ القوانين الميكانيكية. فالأعصابُ

مثـلاً، كانتْ تعمـل كأنابيـب هوائية تنقل تغيرات ضغط روح الحيوان «النفس العقلية» مـن نهايات الأعصـاب إلى الدمـاغ. ومن هنالك، خلال أعصاب أخرى، إلى العضلات حيثُ كانَ الضغط يضخّم العضلات.

وتابعَ مقارناً الوظائف العصبية للجسم والعقـل بالدمـى المتحركة والأنيقـة، التي تتحرك بأنابيـب هيدروليكيـة، ويمكن أن تتحرك وتتكلم في ما يبدو.

وتـركَ ديكارت فتحة صـغيرة للروح في الغدة الصـنوبرية، وهي غدة لوزية الشكل في مركـز الدماغ. وقـالَ إنَّ الـروحَ كانتْ مختلفـةً جوهريـاً عـن المادة ولا تخضـع لقوانين الطبيعة، ولكنها تتفاعل مع الجسم، من خـلال الأرواح الحيوانيـة داخل الغدة الصنوبرية. وقالَ إنَّها تتألفُ من مادة تفكير غير قابلـة للانقسـام أو التمدد، وتشـكّلُ العقل وكل الأفكار والإرادة والرغبات. ولكن كل شـيءٍ على الأرض، أي الجسـم البشري والدمـاغ كذلـك، هو عبارة عـن آلية عمل ساعة ضخمة.

قيلَ إنَّ ديكارت كانَ خاضـعاً لسـيطرةِ الشـياطين أو العفاريـت لابتـكاره مذهب «الثنائية» والذي مفـادهُ أنَّ العالم يتكوَّن من مادتـين مختلفتين جوهريـاً: العقل والمادة. والثنائية على كلِّ حال مفهومٌ قديمٌ وموجودٌ في كل الثقافات الأولى، ففي عصر النهضة في بـلاد الإغريق، كانَ المفهـومُ «لأفلاطون Plato» هـو عبارة عن عالمين منفصـلين يتكونان من مظاهـر خارجية وأفكار بالغة درجة الكمال، وكذلكَ حسبَ مفهوم «أرسطو Aristotle» حولَ المادّة والشكل، والثنائية موجـودة كذلـك وباسـتمرار في كل مكان من الفكر الهندوسـي واليهودي والمسيحي والإسـلامي، وتقول بانفصـال الجسم عن الروح. ولم يبتكر ديكارت الثنائية. على العكس تماماً، كانَ ماديـاً، راديكاليـاً، معتبراً كل الأشـياء تقريباً تتكونُ من شيءٍ واحدٍ فقط وهو المادة. ولكن ربما خانته شجاعته عندما وصـلت إلى إنكار الروح. ويمكن أنْ نتصور أنَّ ديكارت فعلَ ذلـكَ بعدَ أنْ أدانتْ محاكم التفتيـش، سـنة ١٦١٦ و١٦٣٣، «غاليليو» بسبب معتقداته الهرطقيَّة.

سواء قصـدَ ديكارت ذلكَ أمْ لمْ يقصد، فإنَّ فلسفته والفلسفات الميكانيكية الأخرى كانت تفصـل الجسـم عن العقـل إلى حد بعيـد. ولذلكَ اعتُبرت عمومـاً أنها مختلفة بصـورة جذريـة. وكانَ يُنظر إلى الجسـم والعقل كآلتين باردتين وكانـا يُحللان وكأنَّ الواحدَ منهما دمية فنية حديثة أو ساعة أو رافعة أو دمية هيدروليكيـة أو آلة بخارية، أو إنسان آلي كهربائي أو كمبيوتر إلكتروني، وهكذا أصـبح العقل شيئاً غير واضح وغير مادي، ويتزعزعُ عند التحليل والأفضـل أن

يُترَكَ لعلماء اللاهـوت والفلاسفة ليفكِّروا بـه. وبالتالي ينقسـمُ السعـي وراء الطاقة الجسدية والطاقة الفكرية إلى قسمين هنا، إلا أنهمـا يجتمعان مرةً أخـرى في الوقتِ الحاضر تقريباً.

كانَ ديكارت منْ أعظم فلاسفة ورياضيي وعلماء العالَم، ولكن يبدو أنَّه كان كسولاً فعلاً. فنادراً ما كانَ ينهضُ قبلَ منتصف النهار، وكانَ يعملُ لساعاتٍ قصـيرة، ويقرأ قليلاً. ولكن مـن أينَ جاءَ بإبداعاتـه التي ظهرتْ في أعمالـه العظيمة؟ قدْ يكمـنُ واحد من الإجابات في تجنبه للروتين. ولم يكن بحاجة لوظيفـة، لأنه بـاعَ ممتلكات والـده، وكانَ ينفق من ريع استثماراته. ولذلكَ انهمكَ في أبحاثه. وعندما هدده الملل التحقَ بالجيش، فاختبر جيوش فرنسا وهولندا وبافاريا. لقدْ كانَ اجتماعياً ولكن إذا صرفهُ أصدقاؤه عن عمله، كانَ يبتعد عنهم.

لم يتزوج ديـكارت قط، وماتَ طفله غير الشرعي في الخامسة مـن عمره، ولذلكَ لم يكن هنالكَ حاجة لكـي يتكيَّف مع الروتين المنزلي. وكانَ قادراً على التركيز الشديد في فتراتٍ قصيرة. ففي صباح يوم باردٍ منْ شتاء سنة ١٦١٩ - ١٦٢٠م، عندما كانَ في الجيش البافـاري، دخلَ إلى فرنٍ كبير ليحافظَ على دفء جسمه. ومكثَ هنالكَ كل اليوم مفكراً. وعندما خرجَ كانَ قـد أنهى نصف فلسفته الإنتقاديـة، التي أصبحـت أساس الفلسفة الحديثـة. تؤكد هذه الحكاية الطريفة على أهمية إبعاد كل ما يَصْرف الذهنَ من المحيط الخارجـي الذي يمكـن أنْ يشوش المجهود الفكري. ولكن مـا كانَ لديكارت أنْ يتوصل إلى هذا العمل الفذّ من دون أنْ يُبعدَ كذلكَ كل الإغواءات الداخليـة للأفكار الروتينية والمشاعر والرغبات.

والأهـم من ذلك كله، أنَّـه ما كانَ لهُ أنْ يحقـق شيئاً من دون تلـك الدرجة الرفيعة مـن الثقـة بالنفس. ولـو لم يكـن مُسلّحاً بالتفاؤل لما استطـاع أن يرفض كل التفكير السابـق، وأن يجدّد المصـوَّر الفكري للعالَم. والثقةُ شرطٌ ضروريٌ للإبداع. ولكنَّ عزيمتهُ انهارت أخيراً عندما أغرته الملكةُ «كريستينا Christina» للذهـاب إلى السويـد وكانَ مُرغمـاً علـى إعطائها دروســاً يوميةً عندَ الساعة الخامسة صباحاً. وكانَ ذلكَ مُرهقاً بالنسبة لبنيتـه الضعيفة فماتَ خلال ستة أشهر.

وإذا كانَ التمييـزُ الفلسفـي بينَ العقل والجسم يُنسبُ إلى الإغريق، فإنَّ أوَّل تفسير نظامي ومتطـور حولَ العلاقـة بينَ العقل والجسـم يُنسـبُ إلى «رينيه ديـكارت» عالم الرياضيـات الفرنسي والفيلسـوف والعالم بوظائف الأعضاء.

ولد ديـكارت في بلـدةٍ صغيـرةٍ تُدعى

«Haye» وتعلم منــذُ الثامنة من عمره في مدرســة «Jesuit College» في بلدة «La Fleche» وفي هذه البلدة التزمَ بعادةٍ تقومُ على تمضيــة الصباحِ في السريــرِ مُنهمكاً بتأملٍ نظاميٍ وتفكر.

ومنذُ عــام ١٦١٢ م عندما غــادرَ بلدة «La Fleche» وحتــى عام ١٦٢٨ م عندما استقــر في هولندا أمضــى الكثير من وقته في السفــرِ والتأمل والمراســلات ومنذ عام ١٦٢٨م وحتى رحلتــهِ المشؤومة إلى السويد سنة ١٦٤٩، مكثَ في هولندا معظم الوقت. وفي تلكَ الفــترة أنهى سلسلــة من مؤلفات حددت جدول أعمــال للدارسين والباحثين في العقل والجسم.

وأوّل هذه المؤلفات ((De Homine)) الذي أنجزه عام ١٦٣٣ في الليلة التي صدرَ فيها حكمٌ على «غاليليو».

وحينما علمَ بمصــير «غاليليو» على يد محاكم التفتيش أســرعَ إلى بحثه وأبقاهُ طيّ الكتمان وأوقفَ انتشاره.

ونتيجةً لذلكَ كلــه فإنَّ أوّل بحثٍ موسعٍ عن علمِ نفــس وظائف الأعضاء لم يُنشر إلا بعدَ وفاةِ مؤلفهِ «رينيه ديكارت».

المراجع

Energy Of Life By Guy Brown.

Originally Published In English By Harper Collins Publishers.

الرشدية: إشراقة شرقية من غرب أوروبة

د. خير الدين عبد الرحمن ✪

ما خبا بريق ابن رشد - أبو الوليد محمد ابن أحمد (١١٢٦- ١١٩٨م/ ٥٢٠-٥٩٥هـ) في تاريخ الفكر الأوروبي، على الرغم من مرور قرون عديدة على وفاته. فقد كان هذا الذي أسماه الأوروبيون (أفيروس)، ولقبه مفكروهم، وأولهم دانتي، (الشارح الأكبر) لشرحه أفكار أفلاطون وأرسطو وفلسفتهما، أحد أبرز أركان النهوض الفكري الأوروبي في القرن الثالث عشر وما بعده. ليس أمراً عادياً أن يرسم فنان عصر النهضة الأوروبي الشهير رافائيل ابن رشد إلى جانب أفلاطون وأرسطو في لوحته الشهيرة مدرسة أثينا. ولا هي مجاملة أن يقول المؤرخ والمفكر الفرنسي الكبير غوستاف لوبون: «كان ابن رشد الحجة البالغة للفلسفة في جامعاتنا منذ أوائل القرن الثالث عشر الميلادي.

ولما حاول لويس الحادي عشر تنظيم أمور التعليم في سنة ١٤٧٣م أمر بتدريس مذهب هذا الفيلسوف العربي ومذهب أرسطو..». بما يداني هذا الإنصاف، أنصفه أيضاً كاردانوس وبريفولت وماسينيون وفلنت وأرنولد توينبي وبرتراند راسل وآن ماري شيمل وول ديورانت وكثير سواهم من كبار مفكري أوروبة، وأشادوا بفضله الكبير على النهضة الفكرية الأوروبية، مثلما أشادوا بإسهامات ابن خلدون والفارابي والكندي وابن سينا والغزالي وابن عربي وجلال الدين الرومي والحلاّج. وفي حديثه عن الفلسفة القروسطية العربية واللاتينية كتب جان جوليفيه، مدير الدراسات في قسم العلوم الدينية بالمدرسة التطبيقية للدراسات العليا

✪ أديب وناقد ودبلوماسي سابق.

في جامعة السوربون، ومن أهم المتخصصين الأوروبيين بالفلسفة العربية الإسلامية، قائلاً: «بدءاً من منتصف القرن الثالث عشر احتل الفلاسفة العرب مكانة خاصة في التفكير المسيحي اللاتيني، سواء كان فلسفياً أو دينياً. في الواقع ما كان معظم فلاسفة أوروبة آنذاك يعرفون عدداً كبيراً من فلاسفة العرب، ولكن كان هناك اثنان لا يمكن لأي فيلسوف أوروبي يحترم نفسه أن يتجاهلهما هما ابن رشد وابن سينا. وكان ينبغي على كل فلاسفة أوروبة آنذاك أن يختاروا بينهما، فإما أن يتبعوا هذا أو يتبعوا ذاك..».

يدين الفكر الغربي كثيراً، بصورة خاصة وبلا شك، لرائد التفكير العقلاني قاضي قضاة قرطبة ابن رشد الذي تُرجم كتابه (الكليات) والعديد مما نجا من الحرق والإتلاف من مؤلفاته إلى اللاتينية في القرن الثاني عشر[1]. فقد ارتفع ابن رشد بالفكر السياسي من مستوى الجدل الحواري الأفلاطوني النظري إلى مستوى العلم المنطلق من وقائع قابلة للتطوير بوسائل وشروط متاحة. وإذ نظر إلى المسألة السياسية من زاوية الواقعي المتاح إجراء الإصلاح على أساسه والبناء عليه، والممكن الذهني القابل للتحول تدريجياً إلى واقع فعلي، لا من زاوية تشييد نظري لنموذج ذهني بعيد عن معطيات الواقع، على نحو ما اعترف به أفلاطون نفسه واصفاً نموذجه بعدما فرغ من عرض جمهوريته. إننا هنا أمام حل اقترحه ابن رشد منطلقاً من تجربة صاحبه الواقعية في بيئته العربية/ الإسلامية، وإن اختلف زمانها ومكانها وأحوالها عن واقعنا الراهن، تجربة أحاطت بواقع تجاوز موطن صاحبها إلى آفاق بعيدة في الزمان والمكان والإنسان، ولم تتوان عن مراعاة فكر الآخر، والاستفادة خاصة من أرسطو وأفلاطون، دونما انبهار أو تعصب.

فلئن كتب الفارابي مثلاً بتناص مع أفلاطون، لا بدافع وانطلاق من التجربة الحضارية العربية/ الإسلامية، وإن اضطر إلى الإشارة للمدينة الفاضلة التي حققتها هذه التجربة في زمن النبوة وما تلاها من خلافة راشدة، فإن ابن رشد قد كتب مدفوعاً من الواقع السياسي الذي ساد الأندلس والمغرب العربي في زمانه، ومنطلقاً منه، واصفاً إياه بخطاب سياسي واضح مباشر، دون تقية أو تورية[2]. لقد رأى ابن رشد العالم مسرحاً للكون والفساد، أشياء تتكون وأخرى تفسد، وهذا كل ما نشاهده فيه، وبالتالي فالعالم لا هو قديم ولا هو حادث، بل هو حدوث دائم. كما انطلق من أن الفلسفة نظر عقلي، والعقل هو ما يميّز الإنسان، والفلسفة بحث عن الحقيقة،

وهذا ملازم للإنسان بالفطرة. وشدّد على أن التقدم في الفلسفة، أي في فهم العالم، ممكن بتعاون الناس وباستفادة الخلف من السلف.

تجاوز مشروع ابن رشد للإصلاح السياسي نظرية أفلاطون وتقدم عليها إذ برهن على إمكان إقامة مدينة فاضلة من خلال تتابع حكومات الأخيار في بلد من البلدان، تقيم العدل، وتحافظ على الاستقرار، وتواصل الإصلاح والتجديد. جاء هذا المشروع في تلخيص ابن رشد لكتاب الجمهورية لأفلاطون، وهو تلخيص تضمن تحليلاً ومعالجة ومناقشة وتعليقات لابن رشد. نشير هنا إلى أن المرحوم د.محمد عابد الجابري قد أبلغنا أن النص العربي الأصلي لهذا التلخيص قد فقد -مع ما أتلف وفقد من مؤلفات ابن رشد - إلى أن عثر الجابري وزميل له على ترجمة ذلك النص إلى العبرية، ضمن ترجمة عدة مؤلفات لابن رشد عقب وفاته مباشرة من قبل يهود في بلدة موسى بن ميمون (اليسانة) القريبة من قرطبة، والتي جرى نفيه إليها. وقد أشرف المرحوم د.محمد عابد الجابري وزميله على إنجاز ترجمة النص من العبرية إلى العربية مجدداً، فأعيد بذلك إلى لغته الأصلية.

وإذا كان من الواضح أن أوروبة قد تلقفت فكر ابن رشد، فكان ركناً رئيساً في صحوتها الفكرية المؤسسة لنهضتها الشاملة، من الإنصاف التذكير بأن ابن رشد لم يكن وحيداً أو متفرداً في التأثير الكبير لفلسفته وفكره ورؤيته على الفكر الأوروبي. لقد كان ابن باجة المغربي الأندلسي مثلاً أسبق فلاسفة العرب دخولاً إلى ساحة المعترك الفكري الأوروبي، وخاصة في كتابه (تدبير المتوحد) الذي شرح سيرة الرجل الفاضل في المدينة الفاضلة، مشبّهاً إياه بوردة في حقل من الشوك، فإذا ما تكاثر الفضلاء صارت المدينة فاضلة، مثلما تصبح الأرض حديقة بتكاثر الورود فيها. لقد تتلمذ الفيلسوف المسيحي بيير أبيلار على تراث الفيلسوف العربي الكبير ابن باجه، وتأثر تأثراً عميقاً بعقلانيته وتحكيمه للمنطق العلمي والفلسفي في توجهاته الفكرية، وكان هذا التأثر سلاحه في تجديد علم اللاهوت الغربي على قاعدة الفكر العقلاني الاحتمالي، متصدياً بقوة وفعالية للفكر الكنسي الوثوقي الأحادي الجامد. وبهذا شكل تراث فكر ابن باجة القاعدة الراسخة لأول معارك العقلانية الأوروبية ضد الجمود الفكري الكنسي آنذاك. ثم توالى انتشار الموجات الفكرية العربية في أوروبة: فكر الفارابي وابن سينا، ثم فكر ابن رشد، الذي كان دخول فلسفته، المتمثلة أساساً في الرجوع إلى أرسطو الحقيقي وتراثه

الأصلي، بعيداً عمّا هو منحول عليه من قبل الأفلاطونية المحدثة، عاملاً رئيساً في غرس بذور العقلانية في أوروبة إلى الحد الذي شكلت فيه فلسفة ابن رشد تياراً فلسفياً في أوروبة خلال عصر النهضة، عرف باسم (التيار الرشدي) أو (الرشدية اللاتينية). لكن قوى التخلف الأوروبي والأصولية المغلقة والأحقاد العنصرية المتوارثة على العرب والمسلمين قد حاربته بشراسة آنذاك. نتذكر هنا قرار المجمع الكنسي الفرنسي الذي صدر عام ١٢١٠م، والقرار الصادر عن الكاردينال (روبير دو كورسون) عام ١٢١٥م اللذين قضيا بمنع قراءة كتب أرسطو وكتب شُرّاحه من (الوثنيين والكفار)، والمقصود بهؤلاء الوثنيين الكفار تحديداً: شُرّاح أرسطو من الفلاسفة العرب كالفارابي والكندي وابن رشد! لقد تحملت فلسفة ابن رشد بقوة، كما رأى فرح أنطون، هجمات الأفلاطونيين واللاهوتيين ومجمعي لاترن وترانتة وحملات القديس توما واضطهاد ديوان التفتيش، وردت هؤلاء جميعاً على أعقابهم خاسرين(٣).

انتشرت فلسفة ابن رشد في أوروبة مع ميخائيل سكوت سنة ١٢٣٠م، وتفاعل معها الفكر الأوروبي، إلى أن باتت جزءاً رئيساً من جوهر النهضة والتنوير في أوروبة. لكن هذا لم يتم ببساطة، فقد انقسم فلاسفة أوروبة في القرون الوسطى ما بين رشديين وأكوينيين (أتباع توما الأكويني فيلسوف اللاهوت المسيحي)، لكن الغالبية قد انتهت إلى الرشدية، بعدما هاجم اللاهوتيون المسيحيون الأوروبيون ابن رشد بقسوة، إذ رأوا في كتبه -بما فيها تفاسيره لأرسطو- هجوماً على الدين، بينما كان هو يردّ عملياً على الفلاسفة والمتكلمين الإسلاميين الذين وظفوا أفكار أرسطو ترويجاً لأفكار فرقهم، وخاصة الأشعرية. لقد اعتبرت الكنائس الأوروبية كافة آنذاك الأفكار العربية الوافدة، وأبرزها أفكار ابن رشد خاصة، بمثابة غزو فكري يراد به (تحطيم عقائد الناشئة)، وأوجبت بالتالي على المسيحيين كافة (أن يهبّوا لحماية ثقافتهم ودينهم من الهجمة الثقافية الوافدة التي تريد النيل من المقدسات والعقائد)! وبلغ الخوف من هذا الغزو الفكري الإغريقي/ العربي حداً استنفر معه البابا غريغوريوس التاسع المسيحيين كافة للتصدي له قائلاً لهم: «لن تكون للإيمان أية قيمة إذا كان بحاجة لمساعدة العقل البشري». وهكذا كان تصدي الكنيسة التقليدية قوياً بعد احتدام المناقشات والتساؤلات الجديدة كلياً على الفضاء المسيحي الأوروبي، والتي أثارها تراث ابن رشد المترجم إلى اللاتينية آنذاك في كتابه (فصل المقال فيما بين الشريعة

والحكمة من الاتصال) وكتابه الآخر الذي احتوى مناظرته مع أبي حامد الغزالي المسمى (تهافت التهافت)..

يتضح التأثير الرشدي في قلعة الإيمان المسيحي إذا استعرضنا تجربة الفيلسوف المسيحي الكبير توما الإكويني (١٢٢٥-١٢٧٤م) الذي استطاع بمهارة أن (يعقلن) المسيحية نسبياً بإيجاد توليفة فلسفية استطاعت إيجاد مصالحة مؤقتة بين الفلسفة الأرسطية والعقيدة المسيحية.. هذه التوليفة الفلسفية التي استطاع من خلالها الإكويني زرع الطمأنينة في قلوب المسيحيين إلى حين، لم تكن في حقيقتها إلا إعادة إنتاج لتوليفة ابن رشد[٤]. وحتى في الطب، ناهيك عن الفلسفة والإصلاح الديني والسياسي، انقسم أطباء أوروبة بين أتباع ابن سينا وأنصار ابن رشد. وجدّد كتاب ابن رشد (الكليات في الطب) آخر الأمر عملياً علم الطب الأوروبي الذي اتكأ قبل ذلك إلى كتب ابن سينا، وأبرزها كتابه (القانون).

ولا شك في أن مارتن لوثر، زعيم حركة الإصلاح الديني في أوروبة (١٤٨٣-١٥٤٦م) الذي تأثر بالقرآن الكريم، وبالعقيدة الإسلامية عموماً، قد تأثر بأفكار ابن رشد خاصة. وكان أساس نشوء تيار الرشدية اللاتينية المؤسس للعقلانية النهضوية الأوروبية هو ترجمة أعمال ابن رشد إلى اللاتينية، بعد نصف قرن من ترجمة معاني القرآن الكريم. وبهذا تمكّن النموذج العربي الإسلامي للفيلسوف من فرض نفسه على جزء من المجتمع الأوروبي عبر فلاسفة جامعيين. أقرّ الفيلسوفان الألمانيان المتنافسان كانط وهردر مثلاً بمرجعية ابن رشد، وخاصة في مقولته عن أزلية العقل الهيولاني (المادي)، أو ما أسماه أرسطو (العقل بالقوة)، إذ اعتبره ابن رشد المكان للمعقولات النظرية، أي تصور الفلسفة البرهانية عن الكون، وأزلية هذا العقل تستتبعها أزلية معقولاته، أي الفلسفة، ومعها أزلية الإنسان ذاته، باعتباره نوعاً، لا فرداً. على أن من أبرز إسهامات ابن رشد في الحداثة الأوروبية نظريته في الفصل ما بين الدين والفلسفة، بعد المشاكل التي واجهها كل من الفارابي وابن سينا في محاولة الدمج بين الدين والفلسفة، تلك المحاولة التي بدت للإمام الغزالي متهافتة، فتصدى لنقضها وبيان نتائجها. فجاء ابن رشد في رده (تهافت التهافت) قائلاً بحقيقتين: دينية وعقلية، يجب أخذهما معاً ولو تعارضتا. (الجابري، الموروث العربي الإسلامي مرجعية للحداثة في أوروبة).

لقد شدّد ابن رشد على أن العلم الطبيعي الذي يعتمد الحس والعقل معاً عبر المشاهدة والملاحظة يؤسس لعلم النفس، وأن علم

النفس يؤسس لعلم الأخلاق الذي يدبر أمر نفس الفرد، وعلم الأخلاق يؤسس للسياسة التي تدبر نفوس الجماعة، أو تدبر الدولة عبر رعاية نفوسها الساعية إلى كمالاتها في عيشها المشترك. ولم يقتصر تراث ابن رشد على الفلسفة والسياسة والاجتماع والفقه، وإنما شمل عدة حقول معرفية وعلوم أخرى.

أما عربياً، فلم تتوقف حملات التشكيك بأفكار ابن رشد وعقيدته، حتى بعد وفاته بمئات السنين، بل اعتبره بعضهم يهودياً، واعتبره آخرون مسيحياً، وأدانه سواهم بالكفر! لقد ضاع كثير من كتب ابن رشد، وعندما اهتم الغرب بالذي اكتشفه مما تبقى منها بعد قرون بدأنا نسمع في بعض أوساطنا عن ابن رشد ونقرأ شيئاً من إبداعه برؤية غربية من خلال كتّاب أوروبيين، لا عربياً. بل ورحنا نكتب ونتحدث عنه أيضاً بنفس الرؤية الأوروبية غالباً، لا بالرؤية العربية التي يستحقها مفكر عربي من وزن ابن رشد.

الهوامش

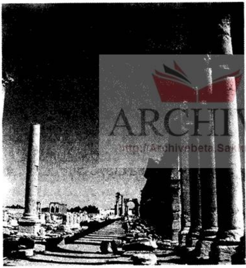
١- د.خير الدين عبد الرحمن، الوجه الآخر لمسألة التثاقف، المعرفة، دمشق، آب ٢٠٠٨م، ص١٠٤-١٠٥.
٢- د.محمد عابد الجابري، ابن رشد والتأسيس العلمي للسياسة، الاتحاد، ٢٩/٤/٢٠٠٨م، ص٢٨.
٣- فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، دار الفارابي بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م.
٤- يوسف أبا الخيل، الغزو الفكري، أيديولوجيا الثقافات المغلقة، صحيفة الرياض، ٢٠/١/٢٠٠٨م.

المراجع

١- الأب بويج (مترجماً)، تفسير ما بعد الطبيعة، ط٢، بيروت، دار المشرق، ١٩٦٧م.
٢- ابن رشد، فصل المقال وتقرير بين الشريعة والحكمة من اتصال، مكتبة القصيمي، الرياض.
٣- ابن رشد، تهافت التهافت، ت.سليمان دنيا، دار المعارف بمصر، ١٩٦٤م.
٤- إدريس حمادي، إصلاح الفكر الديني من منظور ابن رشد، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ٢٠٠٧م.
٥- حمادي العبيدي، ابن رشد: حياته، مؤلفاته، تأثيره، منهجه في الفقه، مؤسسة المعارف للطباعة والنشر، ٢٠٠٠م.
٦- د.خير الدين عبد الرحمن، حقوق الإنسان غاية الشريعة، الهيئة العامة السورية للكتاب.
٧- د.فهمي جدعان، أسس التقدم عند مفكري الإسلام، دار الشروق، عمّان، ١٩٨٨م.
٨- د.محمد عابد الجابري، ابن رشد، سيرة وفكر.
٩- غوستاف لوبون، حضارة العرب.
١٠- ألبرت حوراني، الإسلام في الفكر الأوروبي، الأهلية للنشر، بيروت، ١٩٩٤م.
١١- فرح أنطون، ابن رشد وفلسفته، دار الفارابي بيروت، ط٣، ٢٠٠٨م.

الشارع الرئيس (الديكومانوس decumanus) في مدينة تدمر والمنهج التنظيمي للمدينة

أ. د. خليل المقداد*



كان للتجارة الدولية والإقليمية الدور الهام في خلق المدن الكبرى والشوارع الفخمة، ومن أبرز هذه المدن في سورية على سبيل المثال لا الحصر مدن: تدمر - أنطاكيا - أفاميا إضافة إلى دورها العسكري- دمشق- بصرى - البتراء..إلخ. وكانت تعرف هذه المدن بمدن القوافل التجارية سواء لموقعها على طريق الحرير كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة تدمر أو طريق القوافل كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة البتراء، أو موقعها الساحلي كما هو الحال بالنسبة إلى مدينة اللاذقية.

وكان الشارع الرئيس هو العمود الفقري لمثل هذه المدينة، أمَّا الشوارع الفرعية فتعتبر كشرايين الدم لدى الإنسان، لذلك تعتبر المبدأ

* باحث في التاريخ والآثار القديمة.

الأساسي للنقل والحركة والحياة العامة، ولذلك فإن امتدادها واتساعها وتجميلها وغناها يعود إلى أهمية المدينة إدارياً وسياسياً واقتصادياً وعسكرياً وتنظيمياً.. إلخ. وقد تمّ تطوير الشوارع وتزيينها في سورية منذ فترات زمنية مبكرة، ثم أخذت تزود بالأروقة والأعمدة والتبليط وأقواس النصر والمصلبات (الترابيل) والمناهج المتعددة منذ بداية العهد الهلّينستي لتبلغ قمة جمالياتها في القرن الثاني للميلاد.

وفي مدينة تدمر التي نحن بصدد الحديث عنها فقد تمّ التأكد من تاريخ بعض الأعمدة التي تعود إلى عام ١٦٠م في القسم الثاني من الشارع بين قوس النصر والمصلبة (الترابيل). كما توجد أعمدة مؤرخة في عام ٢٢٤/٢٢٥م. إلا أن أقدم قسم من الشارع فهو القسم الواقع بين بوابة دمشق وساحة المصلبة حيث يعود إلى منتصف القرن الأوّل الميلادي ٤٠/٥٠م، كما توجد مبانٍ حجرية في منطقة معسكر دقلسيان تعود إلى بدايات القرن الأوّل الميلادي، بمعنى أن هذا القسم من المدينة يعتبر الأقدم من القسم الشرقي الواقع بالقرب من معبد بل حيث نجد الأبنية المدنية والدينية التي تعود في بنائها إلى الخطة التنظيمية اللاحقة وحسب مخطط تحسين المدينة.

وضمن هذا المنهج التنظيمي أصبح القسم الأوسط من المدينة هو القسم الإداري والتجاري، ومن هنا نجد أن الشارع الرئيس أخذ امتداده نحو الشرق بينما الشوارع الفرعية فأخذ امتدادها يطول نحو الشمال، بينما بقي الطريق المحاذي إلى المقابر أو الوادي والواقع إلى الجنوب من المدينة كطريق رئيس للقوافل التجارية حيث يستمر في سيره شرقاً حتى حدود معبد بل ثم يتجه إلى الشمال الشرقي ليمر أمام معبد الإله بل الذي أصبح المعبد الرئيس للمدينة.

ومع تطور المخطط التنظيمي للمدينة لاحقاً أصبح يشكل هذا المحور عقبة أمام تجميل المدينة لذلك تمّ تغيير مسار هذا الطريق ليأخذ مساراً جديداً من الجنوب إلى الشرق، بينما أخذت القوافل المارة في الحي الغربي طريق بوابة دمشق محور المصلبة قبل أن يصبح هذا المحور امتداداً للشارع الرئيس (الدوكومانوس) ولهذا تمّ إنشاء ساحة متسعة عند بوابة دمشق لاستقبال البضائع التي كانت تحملها القوافل ومن ثم إدخالها إلى المدينة بوساطة العربات لتوزيعها على المحلات والوكالات التجارية، وقد طبق المنهج نفسه في مدينة بصرى عند البوابة الغربية.

وقد بلغ طول الشارع في مدينة تدمر١١٣٥م، بينما في مدينة أفاميا والذي

يعتبر الشارع الأطول والأعظم في العالم فقد بلغ طوله ٢كم، وعرضه ٤٠م. بينما في مدينة دمشق فقد بلغ طول الشارع ١٥٠٠م كما هو الحال في مدينة بصرى، وفي مدينة أم قيس (قدرا) فقد بلغ طول الشارع الذي يبدأ من البوابة الشرقية ٨٠٠م، وكان عرضه ١٣،٥م، وعرض كل رصيف ٣،٧٥م. وفي مدينة بصرى بدأ الشارع عند مدخل المدينة الغربي واستمر حتى السور الشرقي حيث البوابة الشرقية، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الشارع الرئيس المتقاطع الآخر (الكاردو) وعند تصالب هذين الشارعين تمّ بناء مبنى التترابيل الذي تشابه وتزامن مع كل من البنائين اللذين نفذا في كل من مدن تدمر وجرش ودمشق، بينما كان المنهج مختلفاً في مدينة أفاميا.

وبلغ عدد الأعمدة الموجودة حتى الآن ٣٥٠عموداً، مع العلم أن العدد تجاوز هذا الرقم. وكان الارتفاع المتوسط لكل عمود ٩م وهو الارتفاع نفسه المنفذ في مدينة جرش التي مازال موجوداً من أعمدة الشارع فيها ٥٢٠عموداً، بينما في مدينة أفاميا فبلغ الارتفاع ١٤م.

أمّا الفراغ الحاصل بين كل عمود والآخر فبلغ ٤م بشكل متوسط، وكذلك الأمر في مدينة تيمقاد في الجزائر فقد بلغ عدد الأعمدة ٦٠٠عموداً تفصل بين كل واحد والآخر مسافة ٣م بشكل متوسط. وبالطبع فهذه المسافات كانت تتحكم فيها عوامل متعددة كما سنذكر ذلك في سياق الحديث.

وكان منهج التعميد في مدينة تدمر يأخذ بشكل عام منهج الطراز الكورنثي مع تزويد الأعمدة بالقناصل لحمل التماثيل والإنارة والأروقة التي تأخذ عرضاً متوسطاً ٦م. بينما في مدينة بصرى فيأخذ منهج الطراز الإيوني، أمّا في مدينة جرش المجاورة لها فنجد أن أعمدة القسم الجنوبي من الشارع قد تمّ تنفيذها حسب الطراز الكورنثي، بينما القسم الشمالي فيأخذ الطراز الإيوني.

ونذكر هنا أنه مع بداية القرن الثاني للميلاد تمّ البدء باستخدام مناهج طرز التعميد الكورنثي والإيوني التي أخذت تتزايد على حساب الطرز الدورية والتوسكانية والنبطية والبسيطة. وقد أصبح استخدام التيجان الكورنثية في مدينة تدمر يتطور منذ هذه الفترة وخاصةً في المباني الدينية والمعابد الرئيسة وعلى وجه الخصوص مع مطلع العهد الإمبراطوري، بينما بقي الطراز الدارج في جنوب سورية هو طراز التيجان النبطية الفريدة والتي هيمن استخدامها بشكل ملحوظ في الفترة الهلّينستية في المنطقة الواقعة بين شمال الجزيرة العربية وحتى منطقة دمشق بما فيها منطقة فلسطين، وقد استمر ذلك حتى

القرن الثاني للميلاد، بينما في باقي المناطق فقد كان يشتمل الطراز البسيط منذ عهد السلالة الفلافية التي نقلت هذا الأسلوب إلى مدينة روما.

ونظراً لتوسع مدينة تدمر في جميع الاتجاهات ولضرورة المحافظة على الأبنية والمناهج المعمارية السابقة فقد أخذ الشارع الرئيس كباقي مدن المنطقة انحرافات عدة منها انحراف الشارع عند القوس بـ٢٨،٥ درجة وعند المصلبة (الترابيل) بـ١٠درجات. ولم تكن هذه المصلبة(الترابيل) في البداية إلا عبارة عن نقطة تصالب شوارع كما هو الحال في مدن بصرى وجرش وغيرها، وكذلك مركز منطقة انحراف محور الشارع نحو الغرب والجنوب الغربي، وعند نقطة الانحراف تمّ بناء مبنى الترابيل في المرحلة التنظيمية اللاحقة. كما اقتضى الأمر بموجب التنظيم الجديد والمحافظة على الأبنية السابقة تنظيم شارع آخر مقابل بناء المسرح يقود إلى مبنى معبد بعل شامين بعرض ٣،٧٠م إضافة إلى شبكة الشوارع الأخرى في المدينة.

وقد بلغ امتداد الشارع في القرنين الثاني والثالث للميلاد ١٢٥٠م. وتمّ تسقيف بعض الأروقة بالخشب. وفي مرحلته الأخيرة أخذ امتداد الشارع أربعة محاور الأول من معبد بل وحتى قوس النصر، ويعتبر هذا القسم هو الأعرض بين بقية الأقسام، كما يعتبر ذو طابع ديني ويبلغ طوله ١١٠م. والثاني من قوس النصر وحتى المصلبة (الترابيل) ويبلغ طوله ٣٦٠م. والثالث من المصلبة (الترابيل) وحتى المعسكر ويبلغ طوله ٢٥٠م. والرابع من المصلبة (الترابيل) وحتى بوابة دمشق وينحرف بعشر درجات، بينما تنحرف البوابة بـ٢٨ درجة ويبلغ طوله ٥٣٠م.

ونجد أن عرض الشوارع في مدينة تدمر قد نفذ بشكل عام حسب منهج قانوني تمّ اعتماده بناءً على قانون المهندس فيتروف حيث تمّ اعتماده في مدن الإمبراطورية الرومانية كافة. فقد حدد القانون الشوارع في المدن ضمن ثلاثة مستويات بحيث يسمح عرض الطريق في الشارع الصغير بمرور عربتين باتجاهين مختلفين أي ثمانية أقدام مزدوجة، بمعنى ٨×٢=١٦قدماً +٤أقدام للحيوانات+٢ قدم للمارة. كما حدد القانون العلاقة بين عرض الشوارع وارتفاع الأبنية المجاورة للشارع، إضافةً إلى حركة السير التي تشمل المارة والحيوانات والعربات، ولهذا السبب تمّ تزويد الشوارع بالأرصفة والأروقة، ومن هنا نجد أن عرض الشوارع في المدن الصغرى بلغ ٦ إلى ٧م، وفي المدن الكبرى ١٢م. بينما في مدن المتروبول فقد تراوح العرض بين ٢٠ إلى ٣٠ متراً. وقد بلغ عرض الشارع الرئيس (الكاردو) في مدينة

القدس ٤٠قدماً بمعدل ٢٣م، والأروقة كل واحد ١٥قدماً، وسوف نستعرض هذا الأمر حسب سياق البحث.

ومن هنا نجد أن عرض الأرصفة من كلا الطرفين يساوي عرض «الشوصة» وهذا ما نجده في مدينة جرش أيضاً حيث يكون عرض الشارع الفرعي ١٢م نصفها للأرصفة. وقد طبق هذا المنهج في مدينة تيمقاد الجزائرية التي حوى شارعها الرئيس ٦٠٠عمود بقطر ٩٠سم وارتفاع ٦م، ثم يعلوه نظام التعميد (أرشتراف archétrave). وقد بلغ عرض الشارع٢٢م ورواق من كل جهة بعرض ٦،٥، ثم أصبح العرض الكامل للشارع ٣٥م. وقد زين الشارع بالأعمدة الغرانيتية التي جلبت من مصر مع البلاط الذي فرش في أرض الشارع والأروقة.(١)

ونجد الكثير من الأمثلة على منهج الشوارع الرئيسة في سورية من جهة وفي مدن الإمبراطورية الرومانية سواء في العهد الهلّينستي أو الروماني أو البيزنطي، ولدينا نموذج منهجي من مدينة أنطاكيا عاصمة سورية في العهد السلوقي ومدينة ميتروبول التي تعتبر من أكبر وأشهر مدن العالم. فقد كان عرض الشارع الرئيس فيها في العهد السلوقي ١٣م، وهو العرض الوحيد مع وجود رصيف ضيق من كل جهة، وفي عهد الإمبراطور تيبير فقد بلغ عرض الشارع ٢٧،٥٠م، وفي هذه المرحلة زود الشارع بنظام التعميد والأرصفة الجانبية والأروقة. أما في عهد الإمبراطور تراجان فقد بلغ عرض الشارع ٣٦م حيث أضيف إلى عرض الشارع الحوانيت الجانبية.(٢)

وبالعودة إلى الشارع في مدينة تدمر نجد أن الطول من أوّل الواجهة الغربية للقوس وحتى الساحة البيضوية عند المصلبة يبلغ ٣٠٤،٥م. وهذا يعني أن قطر الساحة يساوي ٥٥م، وعدد الأعمدة في هذا القسم من الشارع في الواجهة الجنوبية ٨٦عموداً يتخللها قوسان أحدهما قبل القسم المحاذي لبناء المسرح والآخر بعد المسرح. وفي الواجهة الشمالية فمن الصعب تحديد عدد الأعمدة بدقة لعدم وجود أعمدة في الواجهة المقابلة لبناء المسرح والتي يبلغ طولها ٤٠متراً.

والملاحظ في هذا القسم أن عرض الشارع جاء متبايناً في المقاييس بين منطقة وأخرى، فنجده عند قوس النصر يبلغ ١٠،٨٠م، بينما يبلغ بعد مسافة ١٠،٤٠م ١٢،٦٥م، ويستمر بالعرض نفسه حتى بناء الكليبة حيث يبلغ عرضه في هذا الموقع ١٥،٢٠م ويستمر في هذا العرض حتى يتلاقى مع انفتاح الساحة البيضوية المحيطة في المصلبة (الترابيل).

وكذلك الأمر بالنسبة إلى عرض الأروقة المحيطة في الشارع فجاء غير متساوٍ أيضاً، وكذلك الأمر بالنسبة إلى المسافات الفاصلة

بين الأعمدة. فنجد أعمدة ترتكز فوق قواعد وركائز مربعة بطول ضلع ١،٤٠م وارتفاع ٤٤سم ينتصب فوقها أعمدة بقطر ٩٤أو ٩٥سم والمسافة بين كل ركيزة وأخرى ١،٧٠م، وبين محاور الأعمدة ٣،١٢م، بينما يكون عرض الرواق من الداخل ٦،٧٠م وعرض الفراغ الواقع بين الأعمدة ذات الأرقام ٣١-٣٢=٤م.

والسبب في ذلك وقوعها في مقدمة شوارع فرعية، ومن هذه النقطة وحتى بداية بناء المسرح يبلغ عرض الرواق ٧،٥م، والانفراج بين الأعمدة يبلغ ٣م. أمّا عرض الرواق أمام الحوانيت الواقعة في هذه المنطقة فيبلغ ٥،٥م وعرض واجهات هذه المحلات فيتراوح بين ٣،٨ و٥،٥م، بينما نجد عرض الرواق الواقع أمام مبنى المسرح وبين الأعمدة رقم ٥٠ و٧٥ فيكون أكثر اتساعاً من أقسام الرواق الجنوبي الأخرى، كما أنه أعرض من جميع أقسام الشارع كاملةً حيث يبلغ عرض الرواق ٩،٧٠م بينما الانفراج بين الأعمدة فيبلغ ٣،٣م، ولكن بعد تجاوز منطقة المسرح تتراجع مسافة الانفراج بين الأعمدة أو تزداد، وفي هذه الحالة تتراوح المسافات لتصبح بين ٢،٩م و٤،١٥م. والسبب في هذا الانفراج الكبير كونه يقع مقابل مدخل بناء محاذ.

أمّا من الجهة الشمالية من الشارع فنجد أن الانفراج بين الأعمدة انطلاقاً من قوس النصر فيبلغ ٣،٣م وعرض الرواق ٧،٩٥م، وبعد الشارع الفرعي نجد الرواق يتقدم قليلاً على حساب الشارع، إلا أنه أقل عرضاً ليبلغ ٥،٩م بينما يكون الانفراج بين الأعمدة ٢،٨م، كما نلاحظ أن ارتفاع الأعمدة يبلغ ٩،٦م بدلاً من ١٢م. وهذا التباين نجده مُنفَّذ في مدينة جرش، حيث نجد أن التباعد بين الأعمدة أحياناً يأخذ مسافات تتراوح بين ٢،٥ و٣،١م.

ونجد كذلك أن الأعمدة القائمة هنا تنتصب فوق رصيف مؤلف من درجة واحدة، ولذلك يختلف هذا المنهج عن بقية الأنظمة المتبعة في الشارع، كما نجد هنا في هذا القسم سلسلة من محال تجارية يبلغ عددها ثمانية محلات متماثلة في المظهر ومختلفة في المقاييس بعمق داخلي يبلغ ٤،٦٥م وعرض يتراوح بين ٣،٣ إلى ٤م يتوسطها حانوت يعتبر الأكبر، وربما يكون هذا الحانوت عبارة عن مدخل لبناء يقع خلف الرواق.

ومن المؤكد أنه يوجد ارتباط بين هذا الرواق وبناء قوس النصر حيث يصل الرواق إلى القوس لدرجة الالتصاق مما يعطي انطباعاً بأن هذا القسم هو الوحيد الذي بني وفق المخطط التنظيمي الأصلي للشارع الذي تمّ تعديل توجيهه وانحرافه في مراحل

زمنية وتنظيمية لاحقة وخاصةً على أثر تشييد القوس في المرحلة الأخيرة حيث أخذ أقصى توسع له.

يلي ذلك الرواق الواقع أمام مبنى الحمامات حيث تتوسطه بداية مدخل يقود إلى الحمامات التي ترتفع فوق عتبة مرتفعة يتقدمها صف من أربعة أعمدة غرانيتية تنتصب فوق مقدمة تبرز نحو وسط الشارع. ويُقسم مدخل الرواق هذا إلى قسمين غير متساويين، فبينما نجد الشرقي منها تنتصب فوقه أربعة أعمدة يتباعد كل واحد عن الآخر بمسافة ٣،١م وعمق داخلي بمسافة ٧،١م.

بينما نجد هنا جداراً نفذ في داخله مدخلان يفتحان على قاعة مثمنة الزوايا تتبع إلى مبنى الحمامات. بينما القسم الآخر من الرواق فتتقدمه سلسلة من الأعمدة يبلغ عددها ٢٣عموداً تتراوح مسافات الانفراج بين كل عمود والآخر بين ٣،٣م و٣،٥م، وتشكل هذه الأعمدة مقدمة رواق يتقدم سلسلة محلات تجارية تقع بعد مبنى الحمامات. ويتراوح عرض الرواق هنا بين ٧،١ و٧،٤٥م، بينما عمق المحلات التجارية نحو الداخل فيبلغ ٥،٥م. وبعد هذه المحلات التجارية يوجد مدخل شارع فرعي ثم يليه رواق معمد بمسافة ٥٠م مع جدار أصم يليه رواق معمد يتخلله مدخلان. وكل مدخل لشارع فرعي كان يأخذ عرض الشارع نفسه.

والانفراج بين الأعمدة في هذه الأقسام يبلغ ٢،٨٥م، بينما يكون عرض الأروقة ٧،٤م. وقبل زاوية التقاء الرواق مع ساحة المصلبة (التترابيل) نجد بناء الكليبة التي يتقدمها هيكل تزين واجهته أربعة أعمدة، والسبب في ذلك ليكون موقعاً يمحي ويجمل نقطة التقاء رواق الشارع مع المصلبة، ومن جهة أخرى ليتناسب تنظيمياً مع بناء التترابيل وسط الساحة.

وإلى الغرب من بناء الكليبة بمسافة ١٠م يوجد شارع فرعي آخر يقود إلى معبد بعل شامين، ثم يلي مدخل الشارع الفرعي رواق بعمق ٨،٠٣م يتقدمه صف من خمسة أعمدة ثم يلتحم مع الساحة البيضوية التي تحيط بمبنى التترابيل بامتداد ٥٥م وعرض ٣٢م يتفرّع عنها شارعان فرعيان أحدهما يتجه جنوباً والآخر شمالاً وكلاهما مزين بأروقة معمدة.

ومن هنا نجد أن القسم الأوسط من الشارع الرئيس يتفرع عنه شوارع فرعية بلغ عددها ستة شوارع من الجهة الشمالية تقسم الحيز الشمالي إلى جزر تنظيمية، بينما من الجهة الجنوبية للشارع فيوجد شارع واحد فقط وهو شارع المصلبة (التترابيل) الشمالي. ومن جهةٍ أخرى نجد أن عرض

الشوارع الفرعية ليس موحداً وإنما ينحصر بين ٣،٥ و٥م.

ولا بد من التذكير أن نقاط تلاقي الشوارع الفرعية مع الشارع الرئيس من الجهة الشمالية تكون مزينة بتزيينات معمارية مختلفة منها على سبيل المثال التباعد بين الأعمدة المتقابلة، أو ببناء دعائم تزيينية بدلاً من الأعمدة باستخدام العضائد في الزوايا، ثم هناك أبعاد الشوارع غير المتساوية، وهذا يعني أن أبعاد الجزر التي تحيط بها هذه الشوارع تكون غير متساوية.

ونجد أن الأروقة التي تشرف على الشارع ذات مناهج وأساليب معمارية متعددة، كما أنها متعددة الأغراض، فهي إمّا أن تكون مقدمة للمحلات التجارية، أو مقدمة لأبنية خاصة أو عامة مثل مبنى الحمامات العمومية أو مبنى المسرح أو مبنى الكليبة أو مساكن خاصة، ولكن هذه المساكن تكون نادرة الوجود في إشرافها على الشوارع الرئيسة إلا في حال كونها مساكن لشخصيات مرموقة أو أصحاب محلات تجارية يقطنون فوقها في الطوابق العلوية أو الخلفية، ولكن هذه المساكن تتواجد بشكل عام مجاورة للشوارع الفرعية، وفي هذه الحالة تكون الأروقة جزءاً من الأبنية التي توجد خلفها، ويبلغ ارتفاع البناء المشرف على الشارع عندما يكون هناك مبانٍ طابقية ١٧م، وهذا الأمر يحتاج إلى دراسة تفصيلية خاصة تتعلق بعدد سكان المدينة.

وبشكل عام نجد أن الغرض من الأروقة هو تزيين للشوارع والأبنية التي تقع خلفها، كما أنها تقي الناس من أشعة الشمس أو الأمطار في الشتاء، كما كان لها دور هام أيضاً في التهوية وتمرير تيارات الهواء الملطفة في فصل الصيف الحار. ومن الملاحظ أن الأروقة التي تحيط بالشارع الرئيس في مدينة تدمر لم تُبنَ جميعها في فترة زمنية واحدة، وإنما كانت تتعرض للتغيير إمّا في التوسعة أو إعادة بناء المنهج العمراني الذي يتناسب دائماً مع المنهج التنظيمي الجديد.

ففي المنطقة الغربية تمّ الاهتمام بالشارع كونه يخدم منطقة المعسكر منذ بداية القرن الأوّل للميلاد، كما تمّ الاهتمام بالشارع في المنطقة الشرقية كونه يخدم منطقة المعابد، إلا أن الاهتمام الأكبر كان بالمنطقة الوسطى كونها شملت العديد من الأبنية الدينية والإدارية والخدمية والترفيهية والتجارية والسكنية وغيرها من شؤون الحياة المتعددة. وفي هذه المنطقة أصبح عرض الشارع ١٢م يضاف إليها مسافة ٤،٥م من كل جهة خصصت للأرصفة ، ثم الأروقة المحيطة به من كل جهة أيضاً.

وقد أصبحت ظاهرة تزيين المدن بأقواس

النصر منتشرة في جميع مدن الإمبراطورية، وكانت أماكن نصبها تتركز بشكل عام وسط ساحة المصلبة (التترابيل) حيث تقاطع الطرق كما هو الحال في مدن تيمقاد - بصرى - جرش - تدمر، وعندما تتعدد الأقواس توضع على مسار الشارع الرئيس كما هو الحال في مدينة لبدا الكبرى في ليبيا حيث نجد قوس النصر للإمبراطور سبتيموس سيفيروس بني في نقطة تقاطع الشوارع الرئيسة، بينما قوس النصر الذي بني على شرف الإمبراطور كراكلا فقد بني في وسط شارع الكاردو الرئيس. وكذلك الأمر في مدينة دمشق فقد وجد على مسار الشارع الرئيس قوسان كل واحد عند تقاطع الشوارع (المصلبة /التترابيل).

كما كان يزين المكان حول المصلبة بالعديد من الأبنية التي كان من أهمها سبل المياه المكرسة لآلهة المياه أو الينابيع (نمفة) كما هو الحال في مدينة بصرى ومدينة لبدا الكبرى ومدينة البتراء، أو ببناء معبد الكليبة كما هو الحال في مدينة تدمر.

منهج التعميد للشارع والأروقة

تمَّ التأكد من خلال أعمال الحفريات الأثرية والأسبار والكشف عن مباني المدينة منذ بداية الاستقلال عن وجود شبكة شوارع رئيسة وطرقات فرعية موزعة على كامل أحياء المدينة والحيز التنظيمي فيها، إلا أنه لم يتم تحديد عدد الشوارع الرئيسة المعمدة وذات الأروقة باستثناء شارع واحد تكلمنا عنه مسبقاً وستة شوارع فرعية منها الشارع الذي يقود إلى معبد بعل شامين المعمد أيضاً، ثم هناك شبكة الشوارع الفرعية للأحياء الغربية الواقعة بين المصلبة والمعسكر ومعبد اللات، ناهيك عن الشوارع الفرعية والثانوية الأخرى.

المنهج التنظيمي للشارع وقد تمَّ تنفيذه على الشكل التالي:

يتوسط الشارع مسلك العربات، أو(الشوصة)، ثم رصيف يحيط به من كل جهة يليه حيز مكاني في مقدمة الرصيف العلوي أو مقدمة الرواق مخصص لركائز الأعمدة ثم أرضية الرواق من كل جهة ثم واجهات الحوانيت. وبذلك يكون عرض الشارع متوافقاً بشكل كامل مع باقي المدن الكبرى. ولو أخذنا نموذج شوارع بصرى كمنهج عام لشوارع مدينة تدمر فيكون لدينا طول إجمالي للشوارع ستة آلاف متر، يضاف إلى ذلك الشوارع العرضية المتقاطعة معها بطول كل واحد ألف وخمسمئة متر وبطول إجمالي أربعة آلاف وخمسمئة متر، والمجموع تسعة آلاف متر. وجميع هذه الشوارع مبلطة ببلاط حجر كلسي أو غرانيتي تتراوح أبعادها بين ٥٠×٤٥سم أو ٥٠×٤٠سم أو ٤٥×٦٠سم، أي بمقياس متوسط ٥٠×٥٠ سم.

ويحيط بهذه الشوارع أروقة معمدة بأعمدة تزين الواجهات مع ملحقاتها. وقد شمل كل عمود ركيزة رباعية الشكل بمقاييس متوسطة بلغت متراً واحداً تقريباً وارتفاع ٣٠سم وأحياناً ٩٠×٩٠×٣٠ سم، ثم قاعدة العمود المستديرة بقطر يتراوح بين ٦٠ إلى ٧٠سم وارتفاع ٤٠ سم، ومن ثم طبلة العمود المكونة من ثلاث قطع بقطر يتراوح بين ٦٠سم في الأسفل و ٥٠سم في الأعلى وارتفاع خمسة أمتار. يليه في الأعلى تاج بقطر سفلي بلغ ٥٠سم وارتفاع ٥٠سم. وفوق هذه الأعمدة تبنى طبقة ثلاثية الأقسام (خرجة السطح- أو سطح التعميد) مكونة من الكورنيش والإفريز والأرشتراف بارتفاع ١٠٥سم بحيث تأخذ كل طبقة ٣٥سم ارتفاعاً. أمَّا المسافة الفاصلة بين كل عمود والآخر فكانت تتراوح بين مترين ومترين ونصف وحتى ٤م.

حساب عدد بلاط الشارع:

ونعتمد هنا أيضاً المنهج الذي تمّ اعتماده في دراسة سابقة عن الشوارع المعمدة في مدينة بصرى[٣] كمنهج عام لدراسة بلاط الشوارع في مدينة تدمر كما يلي:

أ- بلاط الشوصة: بما أن الطول الكلي للشوارع يبلغ ٩٠٠٠م×٦م عرض المسلك الأوسط لكل شارع فتكون المحصلة ٥٤٠٠٠م طول×٥٠سم طول بلاطة الشارع المتوسطة= ٢٧٠٠٠ بلاطة استخدمت في ذلك.

ب- بلاط الرصيف السفلي الأيمن والأيسر: بلغ عرض الرصيف متراً واحداً وطول كل بلاطة يساوي عرض الرصيف أيضاً أي ١م، كما أن عرضها المتوسط ٥٠ سم، وبذلك تكون النتيجة:

٩٠٠٠م × ٢ رصيف=١٨٠٠٠× ٥٠سم =٩٠٠٠ بلاطة استعملت في الأرصفة السفلى.

ج- بلاط مقدمة الرصيف العلوي الأيمن والأيسر: ٩٠٠٠م × ٢ رصيف = ١٨٠٠٠× ٥٠سم=٩٠٠٠ بلاطة استعملت في الأرصفة السفلى.

د- بلاط أرضية الأروقة الأيمن والأيسر: ٩٠٠٠ م طول الشوارع×٢ رواق=١٨٠٠٠× ١٢ عرض أرضية الرواقين (٦+٦) = ٢١٦٠٠٠ × ٥٠سم عرض البلاطة = ١٠٨٠٠٠حجر بلاط. وبذلك يكون مجموع البلاط المستعمل في أرضية شوارع المدينة المعمدة مع الأروقة على الشكل التالي: ٢٧٠٠٠+ ٩٠٠٠ + ٩٠٠٠ + ١٠٨٠٠٠= ١٥٣٠٠٠بلاطة. مع الأخذ بعين الاعتبار أن هذه الدراسة تبقى مبدئية وكمنهج يمكن اعتماده عندما تكتمل عمليات الكشف النهائي عن شوارع المدينة ويتم عند ذلك حساب أو إعادة عمليات الحساب بدقة.

حساب عدد الأعمدة وأبعادها:

وما ينطبق على دراسة البلاط والمنهج التنظيمي ينطبق على الأعمدة ومنهج التعميد وتوابعها وبالمعايير نفسها التي قمنا بها في دراسة سابقة عن شوارع مدينة بصرى المعمدة كما يلي:

بلغ طول الشوارع ٩٠٠٠م× ٢ رواق= ١٨٠٠٠م طول الأروقة.

وبلغت المسافة المتوسطة بين كل عمود والآخر ٢،٢٥ م. وبذلك يكون عدد الأعمدة المستخدمة في الأروقة على الشكل التالي:

١٨٠٠٠ ÷ ٢،٢٥ = ٨٠٠٠ عمود.

أما بالنسبة إلى الطول الكامل للأعمدة فيكون على الشكل التالي:

بما أن ارتفاع كل عمود من دون الملحقات من ركيزة وقاعدة وتاج وغيرها بلغ خمسة أمتار، وعدد الأعمدة المستعملة بلغ ٨٠٠٠ عمود فتكون النتيجة ٨٠٠٠ × ٥ = ٤٠٠٠٠م الطول الكامل للأعمدة، أي ٤٠كم. يضاف إلى هذا العدد ثمانية آلاف ركيزة عمود+ ثمانية آلاف قاعدة عمود+ ثمانية آلاف تاج عمود. أي ٢٤ ألف كتلة تزيينية تتبع الأعمدة.

حساب عناصر مقدمة السطح المعمد (الخرجة)

أ - **العناصر الأمامية** (عناصر سطح التعميد) الكورنيش والإفريز والأرشتراف:

١ - **الكورنيش**: وهو إطار تزييني محدب إلى الأمام ومزين بمنحوتات وزخارف مزينة بالورود والزهور وأغصانها وأوراقها وكذلك الكرمة وعناقيدها والفواكه بأغصانها وأوراقها على شكل جدلات وضفائر. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر.

٢ - **الإفريز** وهو أيضاً إطار تزييني مسطح ومزين بزخارف هندسية ونباتية تتوسطها تقسيمات رباعية نحتت في داخلها أشكال بشرية تمثل الآلهة العربية وشخصيات رمزية متنوعة. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر. مع الاحتفاظ بفرضية الزيادة أو النقصان وعدم أخذ هذا العدد كعدد محدد وثابت.

٣- **الأرشتراف** وهو إطار تزييني محدب إلى الأمام، ومزين بمنحوتات تشابه منحوتات الكورنيش. وقد تناسب طوله مع طول واجهات الأروقة المحيطة بالشوارع والتي بلغت بمجملها ثمانية عشر ألف متر. وهذا الأمر تمّ اعتماده في المدن الأثرية في الإمبراطورية كافة.

وبذلك يكون طول الإطار التزييني

(الخرجة) أو مقدمة سطح الرواق على الشكل التالي:

١٨٠٠٠م × ٣ طبقات= ٥٤٠٠٠م.

ب - **بلاط سقف الأروقة**: ويأخذ مسافات الشوارع نفسها ولكن بشكل مضاعف على اعتبار أن كل شارع يحيط به رواق أيمن، وآخر أيسر أي ٩٠٠٠×٢= ١٨٠٠٠م طول بعرض ٦م.

إلا أن بلاط السقف يختلف عن بلاط الأرضيات، بمعنى أن عرض الرواق يكون مسقوفاً بعرائض على شكل بلاط، وكل بلاطة واحدة يتجاوز طولها الخمسة أمتار بعرض حوالي ٥٠سم ، ويرتكز كل رأس بلاطة على طنف متقدم بحوال ٥٠سم من كل جهة، وبذلك يبلغ الطول الكامل لبلاط أسقف الأروقة على الشكل التالي:

١٨٠٠٠×٦= ١٠٨٠٠٠م طول بعرض ٥٠ سم. أي ١٠٨ كم.

ب - **عناصر واجهات المحال التجارية**:

تميزت واجهات المحال التجارية في مدينة تدمر بجماليتها وغناها بالأبواب والنوافذ والمنحوتات التي تحيط بها والغنية بالديكورات والزينات على شكل إطارات مستقيمة متعددة تكون مسطحة أو محدبة أو مزينة بعناصر نباتية أو متداخلة بين المسطح والمحدب بوساطة حقول عمودية في الجوانب، أمَّا السواكف فتكون أكثر غنىً من الإطارات الجانبية، أو موحدة في الأسلوب.

وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأبواب حيث تميزت المقاييس بالرتابة والمساواة بين بعضها البعض من جهة وكذلك المساواة والتناسب بينها وبين واجهة كل محل والفتحات المناظرة لها بين الأعمدة المتقدمة. كما أن هذا الأمر كان يختلف في الصغر والكبر والجمالية حسب موقعها في المدينة.

وعلى هذا الأساس فقد بلغ عرض كل محل وبشكل متوسط خمسة أمتار، وفي منتصف هذه المسافة يكون عرض الباب. وتوزع المسافة على الشكل التالي: ١٥٠سم+ ٢م+ ١٥٠سم. وهكذا، مع الأخذ بعين الاعتبار سماكات الجدران التي تفصل بين كل محل والآخر، وكذلك مداخل المنازل، أو الأبنية العامة وغيرها.

الوسائل والأدوات التي كانت تستعمل في تنفيذ الأعمال:

تمَّ استعمال كامل المعدات والأدوات والوسائل التي سهلت للفنيين والعمال إشادة مثل هذه الأبنية الضخمة، وعلى سبيل المثال العرائض والألواح الخشبية، والحبال التي كانت تنسج من الصوف والشعر والقنب والصفائح والعوارض والقضبان الحديدية بأقطار ومقاييس مختلفة. وتمَّ استعمال البكرات الحديدية مع الحبال في رفع الكتل الحجرية الصغيرة أو متوسطة الحجم بعد

عمل السقائل التي كان يتم التكيف في ارتفاعها حسب العلو المطلوب.

ولكن عندما كان الأمر يتطلب رفع الكتل الحجرية الكبيرة فكان المنهج المتبع بناء أقواس متكررة ومتصاعدة في الارتفاع وزيادة الأقطار بما يتناسب مع الارتفاع المطلوب ومن ثم فرش الأرضية العليا بطبقة مخلوطة من العوريات والأتربة بحيث يصبح على شكل منحدر مستقيم (عرف محلياً باسم المقرص) وبهذه الطريقة يتم نقل هذه الكتل المعمارية بطريقة الدحرجة على المنحدر أو فوق عوارض خشبية أو حديدية أو عربات مختلفة وإيصال الحجر إلى المكان المطلوب بسهولة مطلقة. وهذا المنهج هو الذي كان يتبع في جميع الأبنية الأثرية من أهرامات ومبانٍ عملاقة في المدن الأثرية كافة عبر التاريخ وحتى استعمال الآلات الميكانيكية الحديثة.

وقد استعملت هذه الطرق أيضاً منذ الخمسينات، أثناء عمليات الكشف والترميم عن المباني الأثرية كافة في المدن السورية ومنها: المسرح والقلعة وباقي الأبنية الأثرية في مدينة بصرى الأثرية وباقي الأبنية الأثرية في مدينة تدمر وأفاميا، كما يستعمل بعضها أحياناً عند الضرورة.

وفي الختام يبقى الشيء الأهم من كل ما تقدم وهو الإنسان العربي السوري، وقد ثبت بالبرهان القاطع ومن خلال ما تمَّ استعراضه من عمل في مدينة بصرى أو المدن الأخرى في بلاد الشام والبلاد العربية أن هذا الإنسان العربي ذا الجذور الحضارية المتعمقة في القدم كان وسيبقى قادراً على إعادة بناء مثل هذه الأبنية العملاقة ومتابعة مسيرته الحضارية كما بدأت مع أجداده.

الهوامش

١- مؤتمر تدمر- ميشيل قاولووسكي ص ١٥٣-١٦٣- جان لاسوس مؤتمر تدمر - ص١٧٥-١٨٩.

٢- أرنست فيل - آثار وتاريخ سورية ص٢٤٣.

٣- أضواء على مدينة بصرى - المعرفة السورية - العدد ٥٦٠ عام٢٠١٠م.

التدريب وتنمية الموارد البشرية.. الأهداف والخطط

د. نزار عوني*

الإنسان عماد التنمية وحجر الأساس في البناء الاقتصادي والاجتماعي والحضاري للأمم، ورغم أن الجميع يسلم بهذه الحقيقة إلا أن اهتمام الدول -سواء المتقدمة أو النامية- بالعنصر البشري من حيث تربيته وتعليمه وتدريبه وتنميته برفع قدراته وكفاءاته يختلف ويتباين تبعاً للظروف ومعطيات كل دولة. والتدريب يكتسب أهمية خاصة في عصرنا نظراً للتطور التكنولوجي المتسارع وما يحتّمه هذا التطور من ضرورة مسايرة المجتمعات لكل ما هو حديث في العلوم وأساليب العمل والإنتاج بهدف اللحاق بركب التنمية والحضارة، وتختلف الاجتهادات حتى في بعض المراجع العلمية في طرح مفهوم التدريب ومدى ارتباطه وتأثيره في تنمية قدرات وطاقات وملكات البشر، ولعل الاختلاف في الاجتهادات مرتبط إلى حد كبير بمعطيات معينة في كل دولة والتي يمكن تلخيصها فيما يلي:

١ - مستوى التنمية الصناعية الذي وصلت إليه الدولة، إذ إن هذا المستوى متصل عضوياً بمدى النجاح الذي حققته تنمية الموارد البشرية وتدريبها والارتفاع بقدراتها بالطرق التي تتلاءم والمستويات الفنية والإدارية والإشرافية المطلوبة أصلاً لإحراز التقدم الصناعي في البلاد.

٢ - نظم التعليم والتدريب ومدى ترابطها ببعضها البعض وكذلك درجة استجابتها لمتطلبات خطط تنمية الموارد البشرية على مستوى الدولة، فلاشك أن نجاح دولة بعينها في وضع هياكل التعليم المتناسبة مع تطور وحاجة البلاد، وكذلك سياسة ونظم التدريب

* باحث وناقد سوري.

التي تتماشى ومتطلبات التنمية مع الحفاظ على توفير قنوات اتصال مدروسة وفعّالة بين التعليم والتدريب، وسوق العمل كفيل بإحداث التغييرات المناسبة في بنية القوى العاملة لخدمة التطور المنشود في البلاد على جميع الأصعدة وخاصة الاقتصادية والاجتماعية.

٣ – مستويات المهارة والقدرات الفنية والإدارية والإشرافية في سلم العمالة في الدولة، ومن الطبيعي أن هذه المستويات تعكس مباشرة الاحتياجات التدريبية وتحدد أنواع التدريب المطلوبة للشرائح المختلفة في هياكل العمل والوظائف والإنتاج، وتجدر الإشارة هنا إلى أن لكل من هذه المستويات أنواع محددة الأهداف والتدريب قد تختلف من مكان إلى آخر حتى في الدولة نفسها.

٤ – التطور الاجتماعي للدولة والنظرة نحو المرأة ومشاركتها في عمليات التنمية، إذ تثبت تجارب الدول أن الأنظمة الاجتماعية السائدة فيها ومدى تقبلها لمشاركة المرأة في مسيرة البناء والتنمية لها كبير الأثر فيما قد يحققه التدريب كونه أصلاً مرتبطاً بالإنسان وسلوكه ومعطيات النشأة والمجتمع كمحصلة عملت على فرز نوعيات معينة من الأفراد حسب أطر اجتماعية محددة، والمجتمع في نظرته للمرأة وما تسمح لها به التقاليد المرعية من مشاركة في التنمية قد يحد من أنشطة التدريب ومؤسساته التي تستهدف في الأصل إعداد البشر من الجنسين للمشاركة في بناء المجتمع والحضارة.

٥ – تطور أنظمة التدريب ومدى عناية الدول به، ففي الدول النامية خاصة نجد أن عناية الدولة بالتدريب ومؤسساته وتطوير نظمه يشكل حجر الزاوية في تحقيق تنمية الموارد البشرية، ولذلك فإن نجاح التدريب أو فشله مرتبط بقناعة الدولة في أهميته من عدمها.

٦ – تطور الدولة من الناحية الاقتصادية ومدى ارتباط هذا التطور وإحداثه بالعمل المادي والعامل البشري في البلاد، ومن الطبيعي أن تطور الدولة إلى جانب أمور أخرى على العاملين المادي والبشري، ولكن مدى مساهمة كل من هذين العاملين في عملية إحداث التطور ينعكس بشكل أو بآخر على أنشطة وأنظمة التدريب في الدولة.

٧ – نظرة المجتمع إلى الفئات الوسطى من الفنيين والعمالة اليدوية بشرائحها المختلفة ومدى أهمية دور هذه الفئات في مسيرة التنمية.

٨ – مدى مشاركة القطاع الخاص والقطاعات الأخرى غير الحكومية في أنشطة التدريب وتنمية الموارد البشرية.

ويكتسب التدريب دعماً مميزاً في البلاد التي تفرض على القطاعات الاقتصادية

المختلفة غير الحكومية المشاركة في دعم أنشطة التدريب والأجهزة المشرفة عليه، ولذلك نجد أن الدول الصناعية قطعت أشواطاً ملموسة في مجال إشراك قطاعات التنمية في جهود التدريب نظراً لأن المخرجات التدريبية لسوق العمل تخدم أهداف جميع القطاعات، ولقد وضعت معظم الدول المتقدمة تشريعات تحكم العلاقة بين أجهزة التدريب والقطاعات الاقتصادية المختلفة، وأهمها ينحصر فيما يلي:

- وجوب مشاركة جميع المؤسسات والشركات أو المنشآت في جهود التدريب استجابة لعوامل ومتطلبات إنجاح تنمية الموارد البشرية وتطوير الاقتصاد الوطني.
- الأعداد اللازم تشغيلها من الخريجين سنوياً في كل مؤسسة أو منشأة طبقاً لخطة توزيع اليد العاملة المدربة على القطاعات الاقتصادية لتحريك جميع مرافق الدولة مع متطلبات التنمية.
- قيمة المشاركة المادية لكل مؤسسة أو منشأة في موازنة التدريب السنوية تماشياً مع مدى الاستفادة من العمالة المستخرجة وعوامل أخرى كثيرة.

يتضح مما سبق تزايد اهتمام العالم بالتدريب يعكس التطور الذي وصلت إليه بعض الدول أو الرغبة عند البعض الآخر في إحداث تطور من خلال تحسسه لأهمية تنمية الموارد البشرية كعماد للاقتصاد الوطني والتقدم والرفاهية، ولهذا نجد أن التدريب لأغراض إعداد العمالة وتنمية القدرات والكفاءات البشرية أصبح علماً قائماً بحد ذاته يرتكز على أسس ونظريات وقواعد وخطط تهدف في محصلتها إلى ضمان الاكتفاء الذاتي من الأيدي العاملة المدربة الوطنية، ونخلص إلى تحديد المفهوم الحديث للتدريب كركيزة أساسية لتنمية الموارد البشرية بأنه عبارة عن نظام علمي مدروس يقوم على مجموعة من العمليات المتكاملة بهدف إعداد الأفراد للعمل على استمرار تنميتهم وترقيتهم من خلال اكتسابهم معلومات ومهارات قد تكون فنية أو مهنية أو إشرافية في مجالات محددة، وعلى مهن ووظائف تماشياً مع برامج تدريبية موضوعة طبقاً لمواصفات علمية مستندة إلى تحليل دقيق للوظائف في سوق العمل.

الارتقاء بمستوى الأداء

إن من أهم أولويات التدريب هو إيصال معلومات وتكوين مهارات واتجاهات معينة لمجموعة من المتدربين بوساطة وسيلة من وسائل الاتصال وأساليب التدريب، وذلك بهدف التأثير على سلوك المتدربين الوظيفي والاجتماعي للارتقاء بمستوى الأداء لديهم، ولكي نحقق هذا الهدف علينا أن نبني

أساليب التدريب على أسس علمية مدروسة تستند على مبدأ التحليل الوظيفي للمهام والمسؤوليات، والمهارات والمعلومات والمواقف والسلوك، بغية الحصول على مواد تدريبية تشتمل على القدرات والمعارف والاتجاهات المتعلقة بالدور الوظيفي المباشر للعاملين، ولمواجهة متطلبات العمل الوظيفي التي سيقابلها المتدرب في مواقع العمل بعد حضور البرنامج التدريبي، مع تهيئة المناخ المناسب الذي يساهم في تنشيط عملية الاستفادة من المعلومات التي يتلقاها المتدرب داخل قاعات التدريب، ومن هذا المنطلق فإن التدريب الناجح يعمل على رفع مستوى أداء العاملين بالكيفية التي تمكّنهم من أداء واجباتهم الوظيفية على أكمل وجه.

والتدريب بطبيعة الحال يعتبر إحدى الأدوات الرئيسية التي يمكن من خلالها إحداث التوازن بين قدرات العاملين والدور المعقد للوظائف، والتدريب لا يقتصر على مجرد تزويد المتدربين بالمعلومات بل يعتبر محاولة جادة لإكسابهم الخبرات والمهارات الجديدة وتغيير سلوكهم، وكذلك تمكينهم من اكتساب القدرة على استخدام الوسائل والأساليب الحديثة بالممارسة الفعلية، والتدريب على هذا النحو يعود بالنفع على جهة العمل وعلى الفرد في الوقت نفسه.

وتعتبر أهداف التدريب هي الغايات التي يسعى التدريب إلى تحقيقها، وهي عبارة عن نتائج يجري تصميمها وإقرارها قبل البدء بأي عملية تدريبية، فنكون قد حققنا أهم خطوة نحو فهم واستيعاب الأساليب والوسائل الكفيلة بوصولنا إلى هذا الهدف، وإذا لم نتمكن من تحديد الهدف من التدريب فإن التدريب في هذه الحالة سيصبح عملية محكوماً عليها بالفشل، وعلى ضوء ذلك فإنه يمكننا استخلاص عدد من الأهداف التي تحاول الأجهزة الحكومية والمنظمات تحقيقها من وراء وضع البرامج التدريبية وهي على النحو التالي:

- المساعدة على تحسين مستوى أداء الأفراد العاملين ورفع الكفاءة والإنتاجية.
- المساعدة على تنمية معرفة العاملين بسياسات وأهداف وإجراءات العمل، وزيادة مهاراتهم وقدراتهم على التخطيط والرقابة واتخاذ القرارات، وتنمية الشعور بالمسؤولية نحو التعاون مع الزملاء والرؤساء.
- تغيير سلوك الأفراد لسد الثغرة بين الأداء الفعلي ومستوى الأداء المرغوب.
- المساهمة في عملية تخطيط القوى العاملة.

أهداف التدريب

وعلى هذا الأساس فإنه يمكننا تصنيف أهداف التدريب إلى ثلاث مجموعات أساسية هي على النحو التالي:

١ - أهداف تدريبية عادية:

وتعني الغايات التي يهدف التدريب إلى تحقيقها، والتي تتخذ عادة لمواجهة مواقف عادية متكررة من حين لآخر، ويشمل هذا النوع من التدريب (التدريب الأساسي) أو التمهيدي، حيث يتم من خلاله تزويد العاملين الجدد بالمعلومات المتعلقة بالعمل الذي سيقومون به في الأجهزة أو الإدارات التي سيعملون بها، وتتضمن هذه المعلومات أهداف الجهاز أو الإدارة وأنظمتها وتعليماتها، وكذلك واجبات الأفراد، ومما لا شك فيه أن هذا النوع من التدريب لا يحتاج إلى جهد ذهني أو إبداع من جانب مصمم البرامج لأنه يستمد من تاريخ الجهاز أو الإدارة واحتياجاتها، ويهدف في المقام الأول إلى المحافظة على مستوى الأداء المعتاد والمألوف من دون الارتقاء به إلى الأحسن.

٢ - أهداف تدريبية لحل المشكلات:

وهذا النوع من الأهداف يتجه نحو إيجاد حلول مناسبة وصالحة لحل المشكلات التي تواجه العاملين في الإدارة أو الوحدة، ومحاولة الكشف عن المعوقات والانحرافات التي تعوق الأداء، وبطبيعة الحال عن البرامج التدريبية التي تستهدف تخليص الوحدة أو الإدارة من المشكلات التي قد تعيق أداءها المألوف، وهي لا شك أفضل من تلك البرامج التدريبية التي تقتصر أهدافها على تحقيق استمرارية وبقاء الوحدات أو الإدارات في حدود أنماط الأداء المقررة، أي المحافظة على المتحقق ولو كان من دون الهدف المنشود.

٣- أهداف تدريبية ابتكارية (إبداعية):

وهي تعد أعلى مستويات المهام التدريبية، حيث تضيف أنواعاً من السلوك والأساليب الجديدة لتحسين الأداء الوظيفي وخفض تكاليف التدريب، وتستهدف الأهداف الابتكارية تحقيق نتائج غير عادية (إبداعية) لرفع مستوى الأداء الوظيفي نحو آفاق لم يسبق التوصل إليها، ويظهر لنا الفرق واضحاً بين الأهداف التدريبية لحل المشكلات والأهداف الإبداعية الابتكارية، وهو أن الأولى تستهدف حل المشكلات واستعادة التوازن للوحدة أو الإدارة ومعالجة مصادر انحراف الأداء عن الأنماط المقررة، بينما تستهدف الأهداف الإبداعية الابتكارية نقل الوحدة أو الإدارة إلى مستويات من الكفاءة والفعالية والخروج بها من أسر المعتاد والمألوف، أي بمعنى آخر البحث عن التطوير والتجديد وعدم الرضا بالمتحقق.

خطط التدريب

مما لا شك فيه أن أية خطة لأي عمل كان لابد من أن يوضع إلى جانبها خطة

أخرى لمتابعة وتقييم ذلك العمل، وإذا ما أردنا تحقيق أهداف النشاطات التدريبية المرسومة، فإن بادئ ذي بدء يجب وضع الخطط اللازمة لمتابعة وتقييم النشاط التدريبي للتأكد من أنه يسير وفقاً للخطط المرسومة له، وأن إنجازاته تتم في حدود التوقيتات المقدرة له مع التأكيد على محاولة اكتشاف نقاط الضعف والفجوات التي تظهر أثناء مرحلة التنفيذ لتداركها، والمقارنة لما تم تحقيقه نتيجة للتدريب بالمجهود والمال اللذين بذلا في سبيله.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن خطة التدريب – شأنها شأن الخطط الأخرى – وضعت لتحقيق أهداف وإنجازات محددة يجب أن يصاحبها إجراءات للمتابعة، للتأكد من أن الخطة التدريبية تسير وفق ما تم التخطيط له لتحقيق أهدافها المنشودة. وعلى هذا الأساس، وبما أن المتابعة تسير في اتجاه تنفيذ الخطة التدريبية، فإنها تقترن تلقائياً بعملية التقييم، فهما عمليتان مترابطتان تهدفان أساساً إلى الارتقاء بمستويات التدريب وتطويره تطويراً سليماً حتى يمكن أن تتحقق الكفاية الإنتاجية المستهدفة للأفراد العاملين عن طريق التدريب، ومن هنا فإن عمليتي المتابعة والتقييم تتطلبان وضع خطتين فرعيتين ملحقتين بخطة التدريب ومكملتين لها، إحداهما للمتابعة والأخرى للتقييم.

أولاً – عملية المتابعة:

هي عملية مراقبة تنفيذ الخطة التدريبية للوقوف على مدى التقيد في التنفيذ بخطوط الخطة العريضة، وللتأكد من أن عملية التنفيذ تتم في حدود التوقيتات المحددة لإنجاز مراحل الخطة التدريبية حتى تحقق الهدف النهائي لها، مع مواكبة التنفيذ والتدخل لإزالة أية معوقات قد تعترض سير تنفيذ خطة التدريب. وقد يكون التدخل أحياناً للتعديل والتطوير في الإجراءات التنفيذية للخطة، والمهمة الأساسية لعملية المتابعة هي تجميع البيانات والمؤشرات والإحصائيات التي تعتبر أساساً لعملية التقييم، أي إن عملية المتابعة تخدم عملية التقييم وتحضر لها. فالمتابعة إذن ما هي إلا مجموعة إجراءات تضمن مراقبة تنفيذ الخطة التدريبية ومراقبة انتظام نشاطاتها وسيرها نحو الهدف المرسوم. وعملية المتابعة تسعى إلى تحقيق عوامل عدة، منها مراقبة تنفيذ الخطة التدريبية للتأكد من أنها تسير في الاتجاه الصحيح وفقاً للمنهج المحدد لها، ومتابعة تنفيذ الخطة لمعرفة ما إذا كانت تسير في حدود الموازنة المحددة لها وأن ما يصرف على العمل التدريبي لا يقل ولا يزيد عن الاعتمادات المقررة، والتدخل

الفوري للمعاونة وإزالة معوقات التنفيذ وزيادة القوة الدافعة لمواصلة السير بالخطة نحو تحقيق أهدافها، ومتابعة تنفيذ الخطة التدريبية للتأكد من أنها ستتجز في الوقت المحدد لها، والتعديل والتطوير لأي مرحلة من مراحل التنفيذ وفقاً لمتطلبات الظروف الطارئة.

ثانياً - عملية التقييم:

هي قياس مدى التأثير الذي تركه التدريب على المتدربين، وكمية التحصيل التي حصل عليها المتدربون من العملية التدريبية والعادات الجديدة والمهارات والمعارف والاتجاهات التي اكتسبوها، ونوعية التغيير الحادث في سلوكهم. وعلى هذا الأساس فإن التقييم عملية هادفة لقياس كفاءة العمل التدريبي ومقدار ما تمَّ تحقيقه من أهداف الخطة التدريبية، وإبراز نواحي الضعف والقصور للاستفادة منها في تطوير العمل التدريبي والارتقاء به. ومن هذا المنطلق يمكن اعتباره أيضاً مجموعة الإجراءات التي تقاس بها كفاءة البرنامج التدريبي ومدى نجاحه في تحقيق أهدافه المرسومة له، وكذلك الإجراءات التي تقاس بها كفاءة المتدربين ومدى التغير الذي نجح التدريب في إحداثه في سلوكهم، وأيضاً مجموعة الإجراءات التي تقاس بها كفاءة المدربين الذين قاموا بتنفيذ العمل التدريبي. وعادة ما تسعى العملية التقييمية إلى تحقيق عوامل عدة، منها التعرف على مقدار ما تمَّ إنجازه من الخطة وما تمَّ إحرازه من أهدافها مع قياس صلاحية البرامج التقييمية وأساليب التدريب التي استخدمت في تنفيذها ومدى مساهمتها في تلبية الاحتياجات التدريبية، والتعرف على مدى ما وصل إليه الأفراد الذين تمَّ تدريبهم من كفاءة، وتقدير مدى الفائدة التي حققت لهم من التدريب، والمتابعة والتأكد من مدى الالتزام بالخطة الزمنية الموضوعة للعمل التدريبي، ومتابعة التقيد بالالتزامات والاعتمادات المالية المخصصة للإنفاق على العمل التدريبي.

ثالثاً - مجالات المتابعة والتقييم في التدريب:

إن عمليات المتابعة والتقييم في العملية التدريبية يجب أن تشمل جميع أبعاد ومجالات عملية التدريب، وبشكل أساسي لابدَّ من أن تغطي المجالات الثلاثة التالية:

- متابعة وتقييم البرامج التدريبية.
- متابعة وتقييم المدربين.
- متابعة وتقييم المتدربين.

وسنتحدث فيما يلي عن كل مجال من المجالات الثلاثة بالتفصيل مبتدئين بمجال تقييم البرامج التدريبية أولاً، وهذه العملية تتم في ثلاث خطوات لقياس كفاءة البرامج

التدريبيــة ومــدى صلاحيتهــا لسد فجوة الاحتياجات التدريبية:

١- **الخطـوة الأولى:** تقييـم البرامـج التدريبية قبل التنفيذ، ونوردها على النحو الآتـي: تبدأ عملية تقييـم العمل التدريبي بوضع موضوعات المنهج التدريبي في ثلاث أسبقيات:

- **الأسبقيـة الأولى:** المعلومات والخبرات والمهــارات والاتجاهات التــي يتحتم تزويد المدربين بها، والتي تعتبر الحد الأدنى الذي يلي الاحتياجات التدريبية للمتدربين.

- **الأسبقية الثانية:** المعلومات والخبرات والمهــارات والاتجاهات التــي ينبغي تزويد المتدربين بهــا، والتي تعتــبر أساساً لزيادة كفاءة البرنامــج التدريبي في تلبية الاحتياج التدريبي والوصــول بالمتدربين إلى معدلات الأداء الأمثل.

- **الأسبقية الثالثة:** المعلومات والخبرات والمهارات التي يمكن تزويــد المتدربين بها، والتي لا ترتبط ارتباطاً مباشراً بالاحتياجات التدريبيــة وإنّما تعتــبر موضوعات تكميلية تساعد على زيادة كفاءة المتدربين وإكسابهم المزيد من الخبرات لشغل وظائفهم.

وهنا لابدَّ لنا من النظر إلى منهج التدريب من حيــث استكمــال الموضوعــات المقررة للأسبقيــة الأولى وحسب إجمالي الساعات التدريبية المتاحة تستكمل الأسبقيتان الثانية والثالثة على أساس المستوى المطلوب الوصول إليه في التدريب. ومن ناحية أخرى ينظر إلى عدد الساعات المخصصة لكل موضوع على أساس مدى كفايتها أو نقصها أو زيادتها عن الحد الأمثل الذي يمكّن من تقديم الموضوع الــذي تمَّ اختياره كامــلاً للمتدربين ومدى ملائمته لنوعية المتدربين. ولابدَّ لنا في هذه الحالة من مراجعــة أساليب التدريب التي سبق اختيارها أثنــاء التخطيط لتقديم كل موضوع في البرنامج التدريبي ومدى ملائمة كل أسلوب لمستوى المتدربين.

كما ينبغــي قياس المنهــج التدريبي من حيث التسلسل المنطقي لموضوعاته لتحقيق التــدرج في بناء المــادة التدريبية في أذهان المتدربين من دون عناء أو ارتباك وبما يحقق الراحــة للمتدربين، كما يجب أن لا نغفل هنا مراجعة مســاعــدات التدريب السمعية والبصريــة المزمع الاستعانــة بها في تقديم موضوعــات التدريب من حيــث ملائمتها وكفايتها وفاعليتهــا في تحقيق الغرض من استخدامهــا. وأخــيراً وبعد إتمــام تقييم المنهج والأنواع والأساليب تجرى التعديلات اللازمــة إذا كان هناك تعديلات، ثم يوضع المنهج التدريبي بعد التعديل في برنامج زمني محدد التوقيتات، وعلى هــذا الأساس فإن عملية تقييم البرنامج التدريبي قبل التنفيذ بوجه عام هــي عملية وزن وقياس للبرنامج

لاكتشاف أية ثغرات أو أية نواحي قصور في تصميمه، وذلك بهدف إمكانية معالجتها قبل البدء بالتنفيذ.

٢- **الخطوة الثانية:** متابعة تنفيذ البرامج التدريبية بغية التأكد من أن عملية التنفيذ تسير في الاتجاه الصحيح المحدد لها وفي حدود التوقيتات المقررة والاعتمادات المالية المتاحة وفي حدود الانحرافات المسموح بها، وعلى هذا الأساس يتم اختيار أية خطوة من خطوات التنفيذ أثناء العمل التنفيذي للتأكد من تنفيذها وفقاً للمخطط المعد لها، وهناك مجموعة من العناصر يجب متابعتها وتقييمها، نورد منها:

- مدى الالتزام بالوقت المخصص لكل موضوع تدريبي في البرنامج.
- مدى التوفيق في توزيع الوقت على عناصر الموضوع، ووفقاً لأهميتها مع الحرص على مراعاة التسلسل المنطقي لموضوعات البرنامج.
- مدى نجاح أساليب التدريب في جذب اهتمام المتدربين وشد انتباههم، وعمّا إذا كانت مساعدات التدريب السمعية والبصرية المستخدمة كافية ومناسبة للموضوع المستخدمة من أجله.
- هل كان كل مدرب من مدربي البرنامج على المستوى المطلوب من حيث قدرته على تحقيق رسالة التدريب.
- التأكد من أن جميع الموضوعات المقررة تمت تغطيتها في البرنامج التدريبي.
- كما أنّه من الضروري بمكان الاجتماع بالمدربين على فترات وتقييم التقارير المرفوعة عن التدريب من المدربين والتعرف على آرائهم، وكذلك الاجتماع بالمتدربين لمعرفة انتقاداتهم وما إلى ذلك.

٣- **الخطوة الثالثة:** تقييم البرنامج التدريبي بعد التنفيذ، ويتم على أساس قياس مدى ما حققته البرامج التدريبية من تلبية للاحتياجات التدريبية المصممة لذلك، ومدى ما تحقق من أهداف الخطة التدريبية بوجه عام. وتتم هذه العملية عقب الانتهاء من تنفيذ البرنامج التدريبي مباشرة وبطريقة شاملة لتحقيق عوامل عدة، منها:

- اكتشاف نواحي الخلل في تصميم البرنامج بالنسبة للهدف الموضوع من أجله.
- التعرف على التعديلات الجوهرية في المواد العلمية والتدريبية لتحقيق التغطية الكاملة للاحتياجات التدريبية.
- محاولة اكتشاف نواحي القصور في مساعدات التدريب السمعية والبصرية لتطويرها بما يتلاءم واحتياجات المتدربين.
- التدخل لتعديل التوقيتات الزمنية والتسلسل لموضوعات البرنامج إذا لزم الأمر.

- إعادة النظر في مستوى المدربين والمحاضرين وتدريبهم للارتقاء بمستوى أدائهم التدريبي.

وعادة ما تتم عملية تقييم المتدربين بعد التنفيذ عن طريق الاجتماع بمشرفي البرنامج والمدربين والمحاضرين في نهاية البرنامج لمناقشتهم والوقوف على آرائهم في البرنامج ونواحي القوة والضعف والقصور في تنظيم وتنفيذ البرنامج، ودراسة التقارير المقدمة من المشرفين على البرنامج، مع محاولة التعرف على آراء المتدربين سواء منها الشفهية أو التي يتم تدوينها في استمارات استقصاء توزع عليهم بهدف معرفة آرائهم وتقييمهم للبرنامج التدريبي.

وختاماً نقول إن التدريب يعد عملية مستمرة تبدأ بدخول الفرد الحياة العملية في أي مجال من المجالات وتستمر معه حتى نهاية خدمته وذلك لما للتدريب من أهمية قصوى في تزويد العاملين على اختلاف مستوياتهم وتخصصاتهم بالمعلومات والمعارف والمهارات اللازمة لإنجاز الأعمال الموكلة إليهم بأقل قدر من الجهد، وفي الوقت المحدد لإنجازها، كما يؤثر في تغيير اتجاهات وسلوك العاملين تأثيراً إيجابياً، للمساعدة على مواكبة التطور المستمر المتسارع في التقنيات الحديثة، لاسيما إذا عرفنا بأن التقنيات أخذت في الاتساع والتطور المستمر. وعادة تسبق عملية التدريب، عملية التخطيط له، وذلك بتحديد الاحتياجات التدريبية، وعلى ضوء ذلك يتم تقرير الأهداف التي يسعى التدريب إليها ودرجة أهمية تلك الأهداف وأحسن السبل لبلوغها.

ونخلص إلى القول بأن التدريب يعد حجر الأساس لأي عمل تطويري، ولا غنى بأي حال من الأحوال لأي إدارة أو مصلحة تنشد الرقي والتقدم والاستمرارية من أن تعطي التدريب ما يستحق من الاهتمام والعناية الكافية، حيث أن أي عمل ناجح لابد أن يعتمد على القوى البشرية المؤهلة والمدربة تدريباً عالياً لمواكبة التطور العصري والارتقاء بمستوى الأداء إلى أعلى المستويات المنشودة.

مجتمع المعرفة وصعود نجم الإعلام التفاعلي..

د. تركي صقر*

باتت المجتمعات الحديثة تتميز عن بعضها بنشوء ما يطلق عليه مجتمع المعرفة وهو المجتمع القائم على إنتاج المعرفة وعماده الأساسي اقتصاديات المعرفة، فالنشاطات المعرفية هي مركز التميز المطلوب في هذا المجتمع. ويعتمد الفرق بين مُجتمع معرفي في دولة من الدول، ومجتمع معرفي في دولة أخرى على مدى تفعيل ومستوى فاعلية النشاطات المعرفية في كل منهما. والنشاطات المعرفية الرئيسة ثلاثة هي: توليد المعرفة بالبحث والتطوير؛ ونشرها بالتعليم والتدريب ووسائل الإعلام المختلفة؛ وتوظيفها والاستفادة منها في تقديم المنتجات والخدمات الجديدة أو المتجددة، وفي الارتقاء بالإنسان وإمكاناته الاجتماعية والمهنية.

ويتطلب ظهور مجتمع المعرفة توافر إمكانات خاصة تهيئ الفرصة للاضطلاع بالأعمال والأنشطة الجديدة الكثيرة التي تتفق مع التحول إلى إنتاج المعرفة واعتبارها سلعة تجارية تعرض للبيع والشراء وتكون مصدر دخل للمجتمع المنتج لها ويمكنها الصعود في وجه المنافسة العالمية كأي سلعة أخرى. وبطبيعة الحال فإن هذه الأعمال والأنشطة الجديدة أو المستجدة ستكون ذات طابع خاص ومتميز وتعتمد على أدوات ووسائل وأساليب جديدة تماماً تحتاج إلى توافر نوع خاص من التعليم والتدريب يتناسب ويتلاءم مع الظروف والأوضاع الجديدة ويؤهل للقيام بالمهام الصعبة التي سوف تستخدم فيها هذه المعرفة، وهي مهام تتصل بشكل مباشر بتقديم الخدمات العامة

* باحث وناقد وسفير سابق.

التي سوف تمتد إلى مجتمعات ومناطق بل وإلى أشخاص لم يكونوا يحصلون عليها من قبل.

يقول إدواردو بورتللا الأستاذ بجامعة ريو دي جانيرو الفيدرالية في المجلد الخمسين (العدد الأول صفحات٥-٧) من مجلة ديوجين إن مجتمع المعرفة يمثل برنامجاً متكاملاً مخصصاً للفعل وأن ذلك الفعل سوف يتضمن التعليم والعلوم والثقافة والاتصال مجتمعة كلها معاً في وحدة متكاملة ومتماسكة، وأن إنتاج المعرفة سوف يكون سلعة رابحة تحمل معها السيطرة السياسية والمكانة الاجتماعية والهيمنة الثقافية والاقتصادية على المجتمعات الأخرى، وأن وجود ذلك المجتمع يرتبط بالتحرر ارتباطاً وثيقاً وأن ذلك لن يتحقق إلا إذا نظرنا إلى المعرفة من مختلف الزوايا على اعتبار أن المعرفة متعددة الأبعاد وأنه قد مضى العهد الذي كان الناس يأخذون فيه المعرفة على أنها ذات بعد واحد أو أحادية البعد ويركزون على ذلك البعد من دون غيره ويغفلون بقية الأبعاد، هو أمر قضت عليه تكنولوجيا المعلومات والاتصال والمعرفة تماماً، كما لم يعد هناك أسلوب واحد للتفكير والتعلم والمعرفة، وأن توفير مناخ الحرية والديمقراطية من شأنه العمل على تقدم مجتمع المعرفة كحق أساسي من حقوق الإنسان.

ولعلَّ المكون الأهم في مجتمعات المعرفة توافر وسائل الإعلام والاتصال ولا يمكن تصور قيام مجتمع المعرفة من دون هذا المكون.. صحيح أن إنتاج المعرفة يقوم على البحث والتطوير كمكون أوّل إلا أن الصحيح أيضاً أن الإعلام شرط لازم لنقل وتسويق هذا الإنتاج وفي الوقت نفسه شرط للتواصل مع المجتمعات المعرفية الأخرى للاستفادة من تجاربها والوقوف على ما وصلت إليه والحقيقة البارزة في هذا كله أن الثورة الرقمية هي التي كانت وراء تكوين مجتمعات المعرفة وصعود نجمها حتى يمكن القول إنها الوليد الشرعي لها وفي هذا السياق نجد أن دور الإعلام التقليدي في مجتمع المعرفة يتراجع ويكاد ينتهي أمام الإعلام الجديد بوسائله الحديثة حيث لم تعد السلطة الرابعة، المتمثلة في الإعلام التقليدي بوسائله القديمة، قادرة على الصمود أمام اجتياح السلطة الخامسة، المتمثلة في مختلف المواقع الإعلامية المنتشرة عبر الشبكة العنكبوتية، كـ(فيس بوك) و(يوتيوب) و(تويتر) والمدونات الشخصية.

لقد ساد مفهوم السلطة الرابعة في القرنين التاسع عشر والعشرين بكونه مفهوماً رقابياً على السلطات الأخرى، لكنه أخذ يتلاشى مع ظهور الإنترنت، الشيء الذي غير معالم الحياة، وأصبح القوة المسيطرة،

وبمعنى أدق السلطة الخامسة التي صعد نجمها في مجتمع المعرفة.(١)

ولا شك أن دور الشبكات الاجتماعية ومن بينها الـ «فيس بوك» في نحت الوعي المعاصر شكلت بديلاً معقولاً من التواصل الإنساني المباشر، وقد «أثبتت الكثير من الوقائع والدراسات مدى تأثير هذه الشبكات في وعي الإنسان وتصرفاته، ولعلّ السبب الأوّل في ذلك يعود إلى التفاعل مع الآخرين، والاطلاع السريع على الأحداث العالمية». وتعتبر «هذه الشبكات سيفاً ذا حدين، ففي الوقت الذي جعلت الإعلام والإعلان بحاجة ماسة إلى صناعات إبداعية جديدة يواجهان بها التحديات ويجذبان المستهلك،خُلقت سبل تواصل جديدة بين الناشرين والمعلنين من جهة والجمهور من جهة أخرى». وزاد من هذا بمقدار أكبر دخول هذا الإعلام الرقمي الجديد، الذي يطلق عليه «السلطة الخامسة» وما يستعاض عنه بمصطلح «الشبكات الاجتماعية» في الأزمات السياسية للدول، بحيث شكلت سلطة الإعلام الخامسة عامل ضغط كبير في حركة الاحتجاجات الجارية في أكثر من مكان في العالم.(٢)

لقد انتقلت هذه الشبكات الاجتماعية إلى تحمّل مسؤولية أن تكون مصدراً للمعلومات وأشرطة الفيديو وشهادات الناس: «فالمواطن الإعلامي» لجأ إلى تصوير الأحداث على هاتفه أو كاميراته الرقمية، ومن ثم وضع أشرطة الفيديو على الشبكات الاجتماعية حتى باتت مؤسسات إعلامية كبرى، مثل الـ cnn وال bbc news، تأخذ قدراً كبيراً من المعلومات الموجودة على «التويتر» وعدداً من الأشرطة المحمّلة على الـ «يوتيوب».(٣)

إن قوة الإعلام الجديد ونجاحه المتواصل مستمد من قدرته على منح الأفراد أدوات عصرية لفرض ذواتهم وبناء هوياتهم وتأكيد تمايزهم عن الآخرين من دون أدنى إكراه أو مضايقة أو قيد، ولم يعد بذلك الحديث يقتصر عن إعلام الجماهير بل كذلك عن جماهير الإعلام إن صح التعبير،فغرف الدردشة وصفحات الفيس بوك، واليوتيوب، والتويتر غدت اليوم امتداداً طبيعياً لحواس كثير من الأفراد، وارتبطت بهم ارتباطاً حميماً أوصلت واقعهم الجديد (الافتراضي) بواقعهم المعيشي بكل أبعاده الاجتماعية والثقافية والسياسية والرياضية وغيرها.(٤)

إن الإعلام البديل أو السلطة الخامسة هي وسائل الإعلام الخاصة بعرض القضايا والأحداث التي تعارض تلك المعروضة في الإعلام السائد والتي تتبنى الإصلاح الاجتماعي والسياسي.

ويتمثل في وسائل الإعلام التي تقوم بتأسيس نظم المعلومات والاتصال الخاصة

بها على أساس انتقال من أسفل إلى أعلى رأسياً كما هو مدرك للتغلب على عدم المساواة وعدم التوازن في السلطة الاتصالية والتي أنتجتها وسائل الإعلام في الانقسام بين دول الشمال والجنوب.

كما يعرف على أنه الموضوعات التي تهدف بصراحة ووضوح إلى تحدي مواقع تمركز السلطة على وسائل الإعلام والمشروعات التي تقف ضد الوسائل المسيطرة لصناعة الإعلام سواء أكانت خطب سياسية أم غير ذلك.

من هذه التعريفات السابقة يتضح أن الإعلام البديل في الغالب هو الإعلام المعارض لما يقال في مراكز السلطة أو في الإعلام السائد الذي في الغالب تحكمه كيانات سياسية أو مواقع السلطة في الدولة.[5]

ويمكن إبراز أسباب ظهور الإعلام البديل كما يلي:

- عدم قدرة وسائل الإعلام السائدة على خدمة احتياجات جماهيرها حيث يقدم الإعلام البديل تعددية في الأشكال والمضامين أكثر مما تتيحه وسائل الإعلام السائدة.

- حاجة العديد من التيارات والحركات السياسية والاجتماعية إلى وسائل إعلامية تعكس آراءها ورؤاها في المجتمع وبالتالي في الغالب ما تكون معارضة للآراء والرؤى السائدة في المجتمع.

- التغطية السلبية أو المغلقة من وسائل الإعلام لبعض الفئات المهمّشة في المجتمع مما أدى إلى الحاجة إلى إعلام يعبر عنهم ويحسن من صورتهم.

- عدم مصداقية الإعلام الرسمي السائد في كثير من الأحيان نظراً لسيطرة الحكومات عليه وأصحاب المصالح السياسية كذلك افتقاده للموضوعية والحيادية في كثير من الأحيان.

- قد تكون حركات اجتماعية أو وقائع تاريخية أو أحداث سياسية هي السبب في ظهور الإعلام البديل كتعبير عن هذه الحركات والتحولات خاصة تلك التي يمكن أن تتجاهلها وسائل الإعلام الرسمية أو السائدة.

- ديكتاتورية واحتكار وسائل الإعلام التقليدية أو السائدة للتغطية الإخبارية لحدث تاريخي أو سياسي مما أدى إلى ظهور حركات اجتماعية تسعى للتغلب على هذه البيئة الاجتماعية.

فالإعلام الجديد (media New) أو إعلام المجتمع (Social،media) أو إعلام المواطن (citoyen media) مصطلحات تشير إلى مجموع النشاطات التي تدمج بين التكنولوجيا الحديثة، التفاعل الاجتماعي،

صناعة المحتوى، والتي تستخدم الذكاء الجماعي في جو من التعاون على الشبكة، حيث يقوم المستخدمون بصناعة محتويات الويب وتنظيمها وفهرستها وتعديلها والتعليق عليها، أو دمجها مع إبداعاتهم الخاصة.

ويقوم الإعلام الجديد حالياً على مجموعة من التطبيقات الرئيسة وهي (الشبكات الاجتماعية network social) (المدونات blogs) (الويكي WiKiS) (البود كاست PODCASTS) و (المنتديات fo- rums).. والتي تهدف لتسهيل التفاعلية، والتعاون على بناء المحتويات ومشاركتها لذا فالإعلام الجديد يمكن التعبير عنه كما يلي:

إن الجديد في الجانب الإعلامي هو تقنية الويب ٢.٠، وهذه ليست بثاً أحادياً وتلقائياً إجبارياً مثل ما كانت تتميز به نظم الإعلام القديمة، ولكنها تفاعل يتيح للمستخدم مشاركة المحتويات ليس بالرأي فقط بل بإعلام شخصي خاص بكل فرد على حدة ،عن طريق التطبيقات مفتوحة المصدر.(٦)

وهكذا فإن الإعلام الجديد في مجمل تطبيقاته، ومن ضمنها تطبيقات الفيديو والتلفزيون الجديدين، خلق ما بات يعرف بـ «إعلام المجتمع» أو «الإعلام التشاركي» الذي يشير إلى ذلك المحتوى الإعلامي الذي يقوم الجمهور بإنتاجه وبثه عبر الوسائل الاتصالية الشبكية، ويساعد في انتشار هذا النوع من الإعلام انتشار أدوات إنتاج هذا النوع من الإعلام مثل كاميرات الفيديو، والهواتف النقالة، إلى جانب انتشار المواقع الاجتماعية التي تسمح بإرفاق وبث هذه المقاطع ولعلّ موقع اليوتيوب يشكل أحد أشهر المواقع الفاعلة في تقديم هذه الخدمة الإعلامية الجديدة، والتي كرست مفهوم «إعلام النحن» we media أو «الإعلام الشعبي» الذي يقوم فيه المستخدمون أنفسهم بإنتاج وتحرير مضامينهم الإعلامية المصورة بكاميراتهم الشخصية أو المقتبسة من وسائط ووسائل إعلامية أخرى ونشرها للملايين من دون أي تكلفة مالية.

من المعروف إعلامياً أن رهانات جذب الجماهير تُصوّب دائماً لمصلحة الرسالة السمعية البصرية، فضلاً على أن اللاتزامنية، والتفاعلية، والانتشار، والتقنية أضافت له الكثير لأن يتبوأ اهتمامات المستخدمين، ويستحوذ على ميولاتهم وفضولهم، بل يؤدي دوراً فاعلاً ومتميزاً في إدارة تكريس «صحافة المواطن» وهذه التسمية روج لها كلٌ من دان غليمور Gillmor Dan وكريس ويليس Chriss willis وشين بومان Shayne Bowman وهي معروفة كذلك بالصحافة التشاركية journalism participa-

participatory، ويطلق عليها صحافة الجمهور التي يقوم بها الناس العاديون، وهي تعمل على الاستفادة منهم، بمن فيهم الذين يعيشون على هامش المجتمع، وذلك للدخول في نشاط كان سابقاً حكراً على المؤسسات الصحافية وحكراً على الصحافيين المحترفين.

وبحسب شاين برومان وكريس ويليس فإن صحافة المواطن هي نشاط للمواطنين يلعبون خلاله دوراً حياً في عملية جمع وتحرير وتحليل الأخبار. وهذه المشاركة تتم بنية مدّ الوسائل الإعلامية بمعلومات دقيقة، وموثوق بها ومستقلة تستجيب لمتطلبات الديمقراطية ويقدم الباحثان ديباجة في موقع نحن الإعلام بأننا في بداية الحقبة الذهبية للصحافة هي صحافة لم تعهدها من قبل وقد تنبأ الكثير من الخبراء في مجال المستقبليات أن خمسين بالمئة من الإنتاج الصحفي سيتم بوساطة المواطنين بحلول عام ٢٠٢١م.(٧)

وخلاصة القول إن نجم الإعلام التقليدي التلقيني الإملائي أو ما يطلق عليه إعلام المنولوج قد بدأ بالأفول وإن نجم الصحافة التشاركية والإعلام التفاعلي في صعود مستمر..

الهوامش

١- فضل محمد البدراني، الأخلاقيات والإعلام، مجلة المستقبل العربي، عدد مارس ٢٠١١م، ص ٦-٧.
٢- المرجع السابق، ص٧.
٣- المرجع السابق، ص٨-٩.
٤- محمد البشير بن طبة، الإعلام الجديد وإدارة الأزمات في الوطن العربي: دراسة تحليلية للأزمة الجزائرية المصرية، عبر موقع (YouTube) أنموذجاً مجلة المعيار، كلية أصول الدين والشريعة والحضارة الإسلامية، جامعة الأمير عبد القادر، قسنطينة، عدد٢٤، ٢٠١١م، ص٣٥٥.
٥- حياة بدر قرني وآخرون، هل تمثل المواقع الإلكترونية غير الحكومية بديلاً عن الإعلام الرسمي في مجتمع المعرفة «دراسة في الإعلام البديل» بحث مقدم في مؤتمر الاتحاد الدولي للبحث الإعلامي، ٢٣-٢٨ يوليو ٢٠٠٦م، القاهرة، ص١٣.
٦- محمد البشير بن طبة، المرجع السابق.
٧- عباس مصطفى صادق، التنظير وبناء المفاهيم حول الإعلام الجديد، الجات المؤتمر الدولي: إعلام جديد تكنولوجيا جديدة لعالم جديد، منشورات جامعة البحرين، ط١، ٢٠٠٩م، ص:٢٨.

أمن المعلومات..
التحديات وسبل الحماية

د. أحمد غنام*

استطاع الإنسان على مرِّ العصور أن يسخر الطاقات المحيطة به في سبيل حياة أفضل، ومع ما حققه من تقدم في مجالات متعددة، ظل تسهيل أمور حياته هدفاً رئيساً يحرص على تحقيقه بشتى الوسائل، فبعد أن حقق الترابط بين تقنية الحواسيب المتطورة وتقنية الاتصالات المتقدمة تمكن من بلوغ عصر المعرفة، وأدخلها في صميم أنشطته الحياتية كافة، فأصبحت لديه القدرة على الاتصال والتواصل مع الآخرين أينما كانوا، وتيسرت له إمكانية الحصول على المعلومات التي يريد في وقت قصير.

وإذا كانت إنجازات العصور السابقة قد أسهمت في انتقال البشرية من وضع اجتماعي ومادي إلى وضع آخر أكثر تقدماً ورقياً، فإن تقنية المعلومات باعتبارها إحدى أهم منجزات هذا العصر تشكل إحدى أهم القوى التي تدفع المجتمعات الإنسانية إلى التطور القائم على المعرفة والمعلوماتية، حيث فتحت الأبواب أمام إمكانية تناقل كميات هائلة من البيانات والمعلومات عبر مسافات جغرافية متباعدة بسرعة فائقة، وهو ما جعلها إحدى البنى الأساسية لاقتصاديات الدول جميعاً، المتقدمة منها والنامية، وإحدى المحركات الأساسية لنمو ودفع عجلة الاقتصاد فيها، ورفع كفاءتها وفاعليتها وإنتاجيتها. وبقدر ما تحفل به تقنية المعلومات من أهمية كبرى في تطوير المجتمعات في مجالات شتى، إلا أنها في الوقت نفسه لا تخلو من السلبيات، التي قد يكون لها الأثر العكسي، خصوصاً في ظل تكاثر الاختراقات المتوقعة وتنوعها بين سرقة وابتزاز وأعمال تجسس، بيد أن

* أديب وناقد سوري.

الجانب الأخطر يتمثل في محاولات الاختراق التي تستدعي بذل اهتمام خاص لقضية أمن المعلومات، ولاسيما أن الثورة المعلوماتية أحدثت ثورة إدارية لدى الحكومات والهيئات والمؤسسات على مستوياتها كافة، من خلال الدخول في مرحلة تغيير جذرية لتطوير المفاهيم وأساليب العمل بين بعضها البعض، أو بينها وبين المواطنين، أو بينها وبين مؤسسات وأفراد خارج الحدود الدولية، بحيث بات من المؤكد أن تشهد الفترة المقبلة توسعاً كبيراً وتطوراً هائلاً في نطاق الحكومة الإلكترونية، كما نتج عن ثورة المعلومات اقتصاد جديد يسمى «الاقتصاد الرقمي»، وهو يرتكز على الاستخدام الفعّال لخدمات الاتصالات والمعلوماتية في جميع الأنشطة.

ولاشك في أن هذا التحول في مجالات الإدارة والاقتصاد والخدمات أمامه تحدٍ خطير يتعلق بظهور شكل جديد من أشكال الجريمة هو الجريمة المعلوماتية، التي أصبحت تفرض تهديداتها على المستوى الدولي والوطني من خلال قدرتها على أن تطال أمن واقتصاديات الدول والأفراد، وخاصة المؤسسات المالية، وقدرة مرتكبيها على الهروب والتخفي، الأمر الذي يفرض ضرورة وجود منظومة أمنية متكاملة للتعامل الآمن عبر الحاسب الآلي، بحيث تضمن التحقق من هوية المستخدمين، وسرية البيانات وسلامتها، والقدرة على التحقق من صحة الإجراءات. وبالإضافة إلى خطورة الاختراقات على أعمال الإدارة والاقتصاد والمال، فقد لعبت أنشطة المخابرات وأعمال التجسس دوراً هاماً للحصول على المعلومات، حيث أصبحت تعتمد على اختراق نظم المعلومات لدى الآخرين، بعد أن قلصت تقنية المعلومات الدور التقليدي للجواسيس الذي كان منتشراً إبان الحرب الباردة وقصرته على حالات خاصة، ومن ثم قلّت الحاجة إلى تجنيد وتدريب أشخاص من ذوي الكفاءات الذهنية والبدنية العالية لدسهم في قلب نظام دولة معادية، لسرقة أسرارها وتسريبها إلى دولهم الأصلية أو التي يعملون لحسابها، ففي عصر تقنية المعلومات تحولت أنشطة المخابرات والتجسس إلى عمليات تقنية تعتمد على اختراق الأنظمة والشبكات. ولما كانت معظم الدول تحتفظ بالوثائق السرية مخزنة بهيئة رقمية في مواقع سرية بعد تشفيرها، فإنه من الأهمية بمكان التأكيد على عدم كشف هذه المعلومات وسلامة محتواها من أي عبث، وهو ما لا يتحقق إلا من خلال أمن المعلومات، خصوصاً وأن حرب المعلومات أصبحت سمة مميزة للحرب الحديثة. ولذلك وغيره من الأسباب، أصبح من الضرورة بمكان نشر الوعي بأهمية أمن

المعلومــات، والأمن الإلكــتروني، من خلال توفير رؤية علمية وعملية ترصد التحديات والصعوبات وتجد الحلول المناسبة لها.

أمن المعلومات

أمن المعلومــات، من زاوية أكاديمية، هو العلم الذي يبحث في نظريات وإستراتيجيات توفــير الحمايــة للمعلومات مــن المخاطر التي تهددها ومن أنشطــة الاعتداء عليها، ومن زاوية تقنيــة، يشمل الوسائل والأدوات والإجــراءات اللازم توفيرها لضمان حماية المعلومات من الأخطار الداخلية والخارجية، ومن زاوية قانونيــة، فإن أمن المعلومات هو محــل دراسات وتدابير حماية سرية وسلامة محتوى وتوافــر المعلومات ومكافحة أنشطة الاعتداء عليها أو استغلال نظمها في ارتكاب جريمة، وهو هدف وغرض تشريعات حماية المعلومات مــن الأنشطة غير المشروعة وغير القانونية التــي تستهدف المعلومات ونظمها (جرائم الحاسوب والإنترنــت)، واستخدام مصطلح أمن المعلومات، وإن كان استخداماً قديمــاً سابقــاً لــولادة وسائــل تكنولوجيا المعلومات، إلا أنه وجــد استخدامه الشائع بــل والفعلي، في نطاق أنشطة معالجة ونقل البيانات بوساطة وسائل الحوسبة والاتصال، إذ مع شيوع الوسائل التقنية لمعالجة وتخزين البيانات وتداولها والتفاعل معها عبر شبكات المعلومات، وتحديداً الإنترنت، احتلت أبحاث ودراسات أمن المعلومات مساحة رحبة آخذة في النمــاء من بين أبحــاث تقنية المعلومات المختلفة، بل ربما أمست أحد أهم الهواجس التي تؤرق مختلف الجهات.

إن أغراض أبحــاث وإستراتيجيــات ووسائــل أمن المعلومات، ســواء من الناحية التقنية أو الأدائيــة، وكذلك هدف التدابير التشريعيــة في هذا الحقل، هو ضمان توافر العناصــر التالية لأي معلومــات يراد توفير الحماية الكافية لها:

- السريــة أو الموثوقية: وتعني التأكد من أن المعلومــات لا تكشف ولا يطلع عليها من قبل أشخاص غير مخولين بذلك.

- التكامليــة وسلامــة المحتوى: وتعني التأكد من أن محتــوى المعلومات صحيح ولم يتــم تعديله أو العبث به، وبشكل خاص لن يتم تدمير المحتوى أو تغييره أو العبث به في أي مرحلة من مراحــل المعالجة أو التبادل، سواء في مرحلة التعامل الداخلي (معلومات) أو عن طريق تدخل غير مشروع.

- استمرارية توافر المعلومات أو الخدمة: وتعنــي التأكد مــن استمرار عمــل النظام المعلوماتي، واستمــرار القدرة على التفاعل مــع المعلومــات، وتقــديم الخدمــة لمواقع المعلوماتية وأن مستخدم المعلومات لن يتعرض إلى منع استخدامه لها أو دخوله إليها.

تحديات أمن المعلومات

إن التحديات الستة الأهم التي تواجه أمن المعلومات في وقتنا الراهن كما وردت في كتاب «المرشد التنفيذي لأمن المعلومات، المخاطر والتحديات والحلول» تأليف «مارك إيفن»، تتمثل في:

١- التجارة الإلكترونية:

أضحت شبكة الإنترنت مصدراً هاماً للقيام بأعمال التجارة الإلكترونية، حيث وفر هذا المصدر عديداً من الأساليب للشركات لتسويق منتجاتها وخدماتها، بعد أن كان التواصل مع العملاء على مدار الساعة في الماضي القريب حكراً على الشركات الكبيرة فقط، أما الآن وبما ينتجه الإنترنت فقد أصبح في مقدور الشركات الصغيرة المحدودة الموارد أيضاً التواصل مع عملائها ٢٤ ساعة في اليوم، وعلى مدار الأسبوع عبر مواقعها على الشبكة. وقد أصبح وجود مواقع للشركات على الإنترنت ضرورة حتمية لاستمرار الشركات في العمل، وليس من الكماليات، وذلك بسبب رغبات العملاء وتوسع استخدامهم للإنترنت لقضاء حاجاتهم. ومع الإمكانات العديدة المتطورة التي تتيحها التجارة الإلكترونية عبر الإنترنت، خلقت مصاعب جديدة للشركات، والتي يجب التغلب عليها للنجاح والاستمرار في تقديم خدماتها ومنتجاتها عبر الإنترنت، ومن أمثلة تلك المصاعب:

- هناك ضغوط كبيرة على الشركات للتحول سريعاً للتجارة الإلكترونية، لأخذ السبق وكسب أكبر شريحة من العملاء.
- إتاحة الاطلاع على المعلومات الدقيقة للمتصفحين والعملاء والشركات، أصبحت ضرورة.
- يجب أن تقدم الشركات خدماتها بطريقة سهلة وآمنة في الوقت نفسه.
- يفترض أن تكون الأنظمة متاحة على مدار الساعة وطوال العام.

هذه التحديات وضعت متطلبات كبيرة على إدارة تقنية المعلومات، حيث إن تقديم أنظمة التجارة الإلكترونية بطريقة آمنة وآنية أمر صعب للغاية، ومع زيادة متطلبات العملاء زادت المتطلبات من الأنظمة والتقنيات والتأكد من أمنها.

٢ - الزيادة مضطردة التعقيد في الهجمات على أمن المعلومات

زادت هجمات الفيروسات على مواقع الشركات، وتحولت من حالات مزعجة إلى ضارة بعمليات هذه الشركات، وكانت الفيروسات سابقاً تصيب أجهزة محدودة، أما اليوم فإن آثارها تنعكس على غالبية الأجهزة المرتبطة بالشبكة العنكبوتية، مما يلحق خسائر مادية كبيرة بالشركات. وهذه

المشكلة لا يمكن التغاضي عنها، حيث إن هذه الهجمات تكلف بلايين الدولارات كل عام، فعلى سبيل المثال كلف فيروس الحب (Love Bug)، مبلغ /٧٥،٨/ بليون دولار عام ٢٠٠٥م.

كما أن سرقة المعلومات الخاصة تعتبر أيضاً من مخاطر أمن المعلومات الهامة، فعندما تكون حقوق الملكية الفردية موجودة في صيغة إلكترونية ومخزنة على الحاسب الآلي، فمن السهل سرقتها، وهذه تسبب أرقاً كبيراً ومعضلة عظيمة للمحافظة على أسرار الشركات التجارية والصناعية منها. وهناك ثلاثة أمور مهمة دعت للزيادة في حالات أمن المعلومات، هي:

- زيادة في أعداد إمكانية التعرض لمخاطر أمن المعلومات.
- العمل المعتمد بشكل كبير على العامل البشري في التعامل مع مخاطر أمن المعلومات.
- زيادة تعقيد الهجمات على أمن المعلومات.

٣- عدم نضج منتجات أمن المعلومات

- لاتزال أنظمة ومنتجات أمن المعلومات في مراحلها الأولية، نظراً إلى قلة وجود مواصفات قياسية لمنتجات وخدمات أمن المعلومات. وهناك العديد من الشركات المنتجة لأنظمة أمن المعلومات، تختص بجزء معين ومحدود من متطلبات أمن المعلومات، مما نتج عنه صعوبة وتحدٍ للعملاء في جعل تلك الحلول الجزئية تعمل مع بعضها البعض بشكل متكامل.

- فنية تقنية المعلومات، والتي تحتاج إلى وقت وجهد لفهمها وتحليلها، حيث إن كل نظام من أنظمة حماية وأمن المعلومات ينتج العديد من الإنذارات والسجلات الخاصة به، ويجب على المتخصصين بأمن المعلومات مراجعتها والتأكد من عدم وجود خلل فيها.

- القليل جداً من هذه المعلومات (الإنذارات) قد تؤثر في أمن الشبكة، وبالتالي يكون خطراً على أمن المعلومات، مما يجعل مهمة المسؤولين عن أمن المعلومات صعبة والإحاطة الكاملة ببيئة الأمن ووضع الخطط لمعالجة الأمور الخطيرة عسيرة.

٤ - النقص الكبير في موظفي أمن المعلومات

إيجاد الأشخاص الأكفاء المتخصصين في أمن المعلومات مهمة صعبة في الوقت الراهن والمستقبل القريب، ومما زاد صعوبة توافر المختصين في أمن المعلومات هو عدم نضج أنظمة وبرامج حماية المعلومات في الوقت الراهن، إضافة إلى المهارات المتعددة المطلوبة لحماية المعلومات. وبسبب عدم نضج منتجات حماية المعلومات، وقلة

المواصفات القياسية أو انعدامها، وتعدد المنتجات الفردية التي تخدم جانباً واحداً من جوانب أمن المعلومات، أصبح تدريب الفنيين في أمن المعلومات أمراً صعباً ومكلفاً. كما أن توافر القوى العاملة المدربة تدريباً كاملاً على جوانب أمن المعلومات المختلفة لم يتواءم مع الخطى المتسارعة لصناعة أنظمة وبرامج أمن وحماية المعلومات. ومع ازدياد التحديات لأمن المعلومات وزيادة التقنيات المطبقة، زاد العبء على الأشخاص المسؤولين عن أمن المعلومات للتدريب والاستمرار في تعلم الطرق والممارسات الأفضل لحماية المعلومات، وهذا يترجم إلى زيادة الوقت والمبالغ اللازمة للاستمرار في تدريب أفراد أمن المعلومات على المنتجات المتاحة. قد لا يكون المبلغ اللازم لإيجاد أفراد أمن معلومات وتدريبهم هو المشكلة الرئيسة لبعض الشركات، لكن الوقت اللازم لتدريبهم والاستمرار في تدريبهم هو المشكلة التي تواجه الشركات كافة، وخاصة في ظل النقص الحاد في أفراد أمن المعلومات.

٥ - التشريعات الحكومية والنظم الصناعية

زيادة الاعتماد على الإنترنت، وحوادث أمن المعلومات التي ازدادت في السنوات الأخيرة، حدت بالحكومات إلى عمل تشريعات إضافية لتنظيم بيئة الأنظمة، وشملت تلك التشريعات محاور عدة، مثل: معلومات العملاء الخاصة، وتشريعات خاصة بمهن معينة مثل الصحة، والخدمات المالية. ويمكن الدخول إلى الإنترنت والتعامل عن طريقها في أنحاء الكرة الأرضية كافة، وعليه، فليس من المهم تطبيق القوانين والتشريعات ذات العلاقة بأمن المعلومات في البلد الموجودة الشركات فيه، بل يجب أن تطبق التشريعات والقوانين الملزمة كافة في البلدان التي يوجد بها عملاء لتلك الشركات. وباختصار صار لزاماً على الشركات أن تطبق تشريعات بلدها وتشريعات بلدان العالم الأخرى الموجود فيها عملاء لها.

٦ - القوى العاملة المتحركة والحوسبة اللاسلكية

أثرت أجهزة الحاسب المتنقلة على نمط الحياة اليومية، فالاتصال اللاسلكي مكّن الموظفين والعملاء من تقليل الاعتماد على الهاتف العادي للاتصال، فالبحث عن أقرب كابينة هاتف أو الذهاب للمكتب للاطلاع على البريد الإلكتروني صارت في اضمحلال، وخاصة بعد ظهور الهاتف الجوال وتصفح الإنترنت والبريد الإلكتروني عبر الأجهزة المحمولة المتصلة لاسلكياً.

في الماضي كان هناك جهاز حاسب آلي في المكتب لأغراض العمل، وحاسب شخصي آخر في البيت للأعمال الشخصية، ويوجد

خط فاصل واضح بين الاثنين، لكن مع تطور وتوافر الأجهزة المحمولة صار الفصل بينهما في حكم المستحيل. وأصبحت حماية أجهزة المكتب تتم مركزياً عن طريق الشركة، لكن من الصعب حماية ومراقبة والتحكم بالأجهزة المحمولة والتي قد تحوي معلومات حساسة ومهمة للشركة، مما قد نتج عنه أساليب وممارسات جديدة لضمان أمن المعلومات على هذه الأجهزة المحمولة، والتي تعد بطبيعتها أكثر تعقيداً وصعوبة لحمايتها مقارنة بالأجهزة المكتبية الثابتة.

والبعد الآخر، هو ظهور بروتوكولات جديدة ذات مواصفات قياسية تسهل تخاطب الأجهزة المحمولة مع بعضها البعض، مما سهل الاتصال بين أجهزة الأفراد المحمولة مثل: أجهزة الجوال، وأجهزة الحاسب المحمولة. وهذه البروتوكولات مثل: (بلوتوث، وآي فاي... إلخ)، فيها العديد من الثغرات الأمنية التي تسمح باختراق تلك الأجهزة بعلم أو من دون علم صاحبها، وهذه كارثة بالنسبة لمسؤولي أمن المعلومات، وخاصة إذا كانت تلك الأجهزة تحوي معلومات حساسة للشركة يتوجب معها حماية تلك الأجهزة النقالة على غرار حماية الأجهزة المكتبية في الشركة.

تنامي ظاهرة العدوان على البيئة المعلوماتية

يشكل العدوان على البيئة المعلوماتية الوجه القبيح للتقنية الحديثة، فالجرائم المتحققة عن هذا العدوان تتميز عن الجرائم العادية بسرعتها الفائقة وتأثيرها المدمر، وقدرة مرتكبيها على الإفلات من الملاحقة والعقاب في ظل افتقاد كثير من الدول أنظمة قانونية قادرة على التعامل مع هذا العدوان والجرائم الناجمة عنه. وتشير الإحصاءات الدولية إلى أن هناك أكثر من ثلاثة مليارات شخص مستخدم لأجهزة الحاسب الآلي، فضلاً عن وجود أكثر من (١٣) مليار صفحة على شبكة المعلومات الدولية (الإنترنت)، ونحو (٣٠٠) مليون موقع عليها. وهكذا اتسعت البيئة المعلوماتية لتصبح ميداناً فسيحاً للعدوان عليها، ولتشكل تحدياً رهيباً لمختلف الأجهزة في مواجهة هذا العدوان وما ينجم عنه من جرائم. وتشير إحدى الدراسات إلى أن (٢٤٪ إلى ٤٢٪) من المؤسسات والمنظمات في القطاعين الحكومي والخاص في دول العالم كانت ضحية لجرائم مرتبطة بالتقنية الحاسوبية، وأن (١٤٥ إلى ٧٣٠) مليون دولار سنوياً خسارة (٧٢) شركة بسبب جرائم الحاسب الآلي، وبينت دراسة للأمم المتحدة عن مخاطر الحاسب الآلي أن (٧٣٪) من الجرائم داخلي، (٢٣٪) منها

يرجع إلى مصادر خارجية، وفي دراسة عن حالات الاختراق كوجه من أوجه العدوان على أجهزة الحكومة الأمريكية لعام ٢٠١٠م، وجد أن هناك مليون حالة اختراق، (٦٤٪) منها ناجحة، وأن (١٪ إلى ٤٪) منها تمّ اكتشافه، وأعلن فقط عن (١٪) من هذه الاختراقات.

خطورة العدوان على البيئة المعلوماتية

أصبحت الجرائم المعلوماتية تشكل تهديداً وتحدياً خطيراً للأمن الوطني والدولي باعتبارها الظاهرة الإجرامية المتصاعدة في ظل ثورة المعلومات الحاسوبية، وافتقار كثير من دول العالم لقوانين خاصة لمواجهة هذه الجرائم المدمرة في الفضاء الإلكتروني الرحب، مع وجود عصابات منظمة تطور نفسها باستمرار لتحقيق أهدافها التخريبية لاقتصاديات الدول واختراق نظم الحماية والمواقع، فضلاً عن أعمال التجسس والتنصت والتطفل، أو قصد الاحتيال وسرقة أرصدة البنوك وعملاتها باختراق شبكات البنوك والمؤسسات المالية الضخمة، وخاصة في ظل التوسع في التجارة الإلكترونية، وأصبح بإمكان الجماعات الإرهابية المدربة استغلال شبكة المعلومات الدولية في دعم أنشطتها الإرهابية ونشر أفكارها الهدّامة، أو التجسس على العمليات الأمنية والمؤسسات العسكرية والصناعية والتجارية الكبرى وسرقة أسرارها. وهناك من جرائم المعلوماتية ما تقوم به (مافيا) تجار المخدرات والأسلحة والاتجار في البشر، وبيع الأعضاء وتهريب المهاجرين، وجرائم غسيل الأموال، وجرائم الآداب العامة والمواقع الإباحية، وجرائم السب والقدح والتشهير والابتزاز والتلصص، وإنشاء مواقع لنشر الأفكار الهدامة وازدراء الأديان، وجرائم تدمير قواعد البيانات والمعلومات وإطلاق الفيروسات، وجرائم أخرى عديدة نظراً للتطور المذهل في عالم الاتصالات والمعلومات، وهذا مما دفع المعنيين بأمر البيئة المعلوماتية إلى ضرورة تحقيق كل عناصر الأمن لها، بأن تقوم الدولة بفرض الرقابة لمنع الدخول إلى بعض المواقع غير الأخلاقية، وإنشاء برامج على الحاسب الآلي تحت اسم (شرطة الإنترنت) يكون هدفها حجب المواقع الإباحية، أو أية مواقع أخرى لا تتناسب مع أخلاقيات المجتمع، وكذلك وضع نظام قانوني خاص للإنترنت والمعلوماتية وتدريسه في كليات القانون، فضلاً عن العمل على تشجيع البحوث والدراسات المتخصصة حول التعامل القانوني مع هذه الظاهرة.

اتجاه العدوان على البيئة المعلوماتية

في بيئة المعلومات تتجه الاعتداءات إلى أربعة أهداف رئيسة، هي:

١- **الأجهزة**: وهي المعدات والأدوات المادية كافة التي تتكون منها النظم، كالشاشات، والطابعات ومكوناتها الداخلية، ووسائط التخزين المادية.

٢- **البرامج**: وهي الأوامر المرتبة في نسق معين لإنجاز الأعمال، وهي إمّا مستقلة عن النظام أو مخزنة فيه.

٣- **المعطيات**: وهي الدم الحي للأنظمة وما سيكون محلاً لجرائم الحاسب، وتشمل كل البيانات المدخلة، والمعلومات المستخرجة عقب معالجتها، وتمتد بمعناها الواسع للبرمجيات المخزنة داخل النظام، وقد تكون المعطيات في طور الإدخال أو الإخراج أو التخزين أو التبادل بين النظم عبر الشبكات، وقد تختزن داخل النظم على وسائط التخزين وخارجه.

٤- **الاتصالات**: وتشمل شبكات الاتصال التي تربط الأجهزة التقنية بعضها مع بعض محلياً ونطاقياً ودولياً، وتتيح فرصة اختراق النظم عبرها، كما أنها بذاتها محل للاعتداء، وموطن من مواطن الخطر الحقيقي.

تصنيف الاعتداءات على البيئة المعلوماتية

تنوعت وتعددت الجرائم المرتبطة والمرتكبة بوساطة المعلومات، وكل ما له علاقة بنظمها واستخداماتها، وقد تنوعت أساليب عرضها ومسمياتها من قبل الباحثين والكتّاب والمعنيين بالمحافظة عليها وصيانتها من المتخصصين بعلم الحاسب الآلي والبرمجيات المختلفة، وعموماً تصنف الاعتداءات في الحقل التقني على النحو التالي:

- **أولاً: خرق الحماية المادية**، ويقصد بها قيام المهاجم بالبحث في مخلفات التقنية من القمامة والمواد المتروكة، بحثاً عن أي شيء يساعده على اختراق النظام، كالأدوات المدون عليها كلمة السر، أو مخرجات الحاسب، أو الأقراص الصلبة المرمية بعد استبدالها، أو غير ذلك من المواد، أو أن يلجأ المهاجم إلى عملية الالتقاط السلكي، أي التوصيل السلكي المادي مع الشبكة أو مع توصيلات النظام لاستراق السمع، أو للسرقة والاستيلاء على المعلومات المتبادلة عبر الأسلاك، وقد يتم اختراق الحماية المادية عن طريق استراق الأمواج، وهو ما يحدث باستخدام لواقط تقنية لتجميع الموجات المنبعثة من النظم، باختلاف أنواعها، كالتقاط موجات شاشات الكمبيوتر الضوئية، أو التقاط الموجات الصوتية من أجهزة الاتصال. وأخيراً قد يلجأ المهاجم في محاولة اختراق الحماية المادية إلى إنكار أو إلغاء الخدمة، أي الإضرار المادي بالنظام لمنع تقديم الخدمة.

-ثانياً: خرق الحماية المتعلقة بالأشخاص وشؤون الموظفين: تعد المخاطر المتصلة بالأشخاص والموظفين وتحديداً المخاطر الداخلية منها واحدة من مناطق الاهتمام العالمي لدى جهات أمن المعلومات، إذ ثمة فرصة لأن يحقق أشخاص من الداخل ما لا يمكن نظرياً أن يحققه أحد من الخارج، وتظل أيضاً مشكلة صعوبة كشف مثل هؤلاء قائمة، إن لم يكن ثمة نظام أداء وصلاحيات يتيح ذلك، وعموماً ثمة مسميات وطوائف عديدة لهذه المخاطر، أبرزها: التخفي بانتحال صلاحية شخص مفوض، واستغلال العلاقات الاجتماعية، أو القيام بأعمال الإزعاج والتحرش، وربما التهديد والابتزاز، أو في أحيان كثيرة رسائل المزاح على نحو يحدث مضايقة وإزعاجاً بالغين، وكذلك القيام بقرصنة البرمجيات عن طريق نسخها من دون تصريح، أو استغلالها على نحو يخل بحقوق المؤلف.

- ثالثاً: خرق الحماية المتصلة بالاتصالات والمعلومات بأنواعها المختلفة: والمقصود بذلك الأنشطة التي تستهدف المعلومات والبرمجيات وتشمل طائفتين:

١- هجمات المعلومات: وتشمل النسخ غير المصرح به للبيانات والمعلومات والأوامر والبرمجيات وغيرها، وتحليل الاتصالات، والقيام بعمل قنوات مخفية، تمهيداً لهجوم لاحق أو تخزين معلومات غير مشروعة.

٢- هجمات البرمجيات: وتشمل: المصائد أو الأبواب الخلفية (أي اختلاس الثغرات)، والسرقة أو اختلاس المعلومة، أو الاستخدام اللحظي (سرقة أو اختطاف الجلسات)، وتشمل أيضاً: الهجمات عبر التلاعب بنقل المعلومات عبر أنفاق النقل، والهجمات الوقتية (باستغلال وقت معين لتنفيذ الهجمة)، وأخيراً استخدام البرمجيات الخبيثة، كالفيروسات، وأحصنة طروادة، والدودة الإلكترونية، والرقائق، والأبواب الخلفية، والقنابل المنطقية، والماكينات والميكروبات فائقة الصغر، والاختناق المروري الإلكتروني، ويجمع بين هذه الأنواع أنها برمجيات ضارة تستخدم للتدمير أو التعطيل، وإن كان بعضها يستخدم في الأغراض العسكرية.

- رابعاً: الهجمات والمخاطر المتصلة بعملية الحماية: تشمل هذه الأساليب والاعتداءات العبث بالبيانات مثل: تغييرها أو إنشاء بيانات وهمية في مراحل الإدخال أو الاستخراج، وخداع بروتوكول الإنترنت، حيث الغش والخداع والإيهام والتقليد والمحاكاة والسخرية، وإن كان استخدامه الشائع الآن يتعلق بهجمات فيروسات الإنترنت، كما تشمل الأساليب والاعتداءات

المتعلقة بعملية الحماية جمع كلمة السر والتقاطها باستخدام برمجيات يمكنها ذلك، والقيام بأساليب المسح والنسخ، والهجوم بأسلوب استخدام المزايا الإضافية.

مستوى الحماية المطلوبة وأهم أدواتها

١ - مستوى الحماية المطلوبة:

لم تعد الشركات مهددة فقط بالمنافسين وسرعة التغيرات، وإنما أيضاً بمحترفي الجرائم المعلوماتية، والهواة من المخترقين الذين تتزايد مظاهرهم، وأشكال الأضرار التي يلحقونها بالأعمال الإلكترونية، وهو ما يستوجب عملية الحماية، إلا أنه ليست كل المعلومات تتطلب السرية وضمان عدم الإفشاء، وليست كل المعلومات في منشأة واحدة بالأهمية ذاتها من حيث الوصول لها أو ضمان عدم العبث بها، لهذا تنطلق خطط أمن المعلومات من تحديد المعلومات من حيث أهمية الحماية. وبعد تحديد درجة أهمية الحماية تجد كل منشأة وكل هيئة طريقتها الخاصة في توفير الأمن من المخاطر محل التهديد، بحيث لا تكون إجراءات الأمن رخوة ضعيفة لا تكفل الحماية، وبالمقابل لا تكون مبالغاً فيها إلى حد يؤثر على عنصر الأداء في النظام محل الحماية.

٢ - أهم أدوات (وسائل) الحماية:

يتم وضع كلمة سر على جهاز الحاسب الشخصي للولوج إلى الملفات الهامة أو حتى إلى النظام، ولا تعطى هذه الكلمة لأحد، ويوضع برنامج أو أكثر لمقاومة الفيروسات الإلكترونية الضارة، ويتم مراعاة الإجراءات الخاصة بحماية الدخول إلى شبكة الإنترنت والتأكد من مصدر البريد الإلكتروني. وإذا كان الحاسب خاصاً بدائرة أو منشأة ويضم بيانات هامة مصنفة على أنها سرية، كان لزاماً زيادة إجراءات الأمن، فمثلاً يضاف إلى نظام جدران نارية تحد من دخول أشخاص من الخارج، وتمنع الاعتداءات المنظمة التي قد يتعرض لها النظام أو الموقع المعلوماتي، وإذا كان النظام يتبادل رسائل إلكترونية يخشى على بياناتها من الإفشاء، تكون تقنيات التشفير مطلوبة بالقدر المناسب. وفي كل الأحوال لابد من أن تنطلق إجراءات الحماية من احتياجات الحماية الملائمة، لأنها إذا زادت عن حدها أصبحت ذات أثر سلبي على الأداء، إذ يصبح النظام بطيئاً أو غير فاعل في أداء مهامه الطبيعية، كما أن نقص هذه الإجراءات عن الحد المطلوب يزيد نقاط الضعف، ويصبح النظام أكثر عرضة للاختراق الداخلي والخارجي. وفيما يلي أهم وسائل الحماية، والأخطاء الواجب تلافيها:

- حواجز العبور (جدار النار): هذا الجدار في الواقع هو عبارة عن أسلوب لحماية ومراقبة البيانات والملفات والنظم الداخلية

للمؤسسة أو الدائرة وشبكة الإنترنت، أو بين الشبكتين، وهذه الجدران تستخدم للحد من دخول المتطفلين والعابثين، أو بالأحرى منعهم من تسريب معلومات غير مرغوب فيها أو برمجيات سيئة. وفي الوقت نفسه تحمي المعلومات المهمة والأساسية المتعلقة بأهداف وعمل وإجراءات وخدمات وأنشطة المؤسسة، وذلك من خلال منع خروجها، فهي جدار سميك ومنظم للحماية.

- **التشفير:** يعرف بأنه عملية تغيير مظهر وشكل المعلومات لإخفاء معناها الحقيقي عن طريق تحويل شكل البيانات لكي تكون غير مفهومة لمن يحاول التلصص عليها، أو هي عملية تحويل النص المكتوب أو المفهوم والواضح للناس إلى رموز، وهو وسيلة لاستبدال أي مستند أو وثيقة مقروءة ومفهومة إلى شكل وضعية لا يمكن معرفة وفهم محتواها، لكونها تحولت من شكل حرفي مقروء إلى شكل مرمز يمكن قراءته ولا يمكن فهمه. ويهدف التشفير للتغلب على معدات أمن المعلومات، مثل: الاطلاع على المعلومات المحظورة، وتأخير إيصال بعض الرسائل، وتغيير وتسوية محتويات الرسائل المتبادلة، وانتحال شخصية المستخدم الحقيقي، وإدخال رسائل زائفة ضمن الرسائل الحقيقية، وتغيير كلمة السر الخاصة بالمستفيدين وغير ذلك من المخاطر.

- **ثلاثة الأخطاء:** يرتكب الموظفون أخطاء فاحشة وساذجة، وتؤدي في الوقت نفسه إلى كوارث معلوماتية، ومن تلك الأخطاء:

١- **تعليق كلمات المرور:** فكثيراً ما يقوم المستخدمون بتدمير كل إجراءات أمن المعلومات بلصق كلمات المرور على مقدمة شاشة الحاسب، أو على سطح المكتب، بحيث يمكنهم رؤيتها بسهولة، هم وكل من حولهم، ثقة منهم فيهم أو لأي سبب آخر، وقد أثبتت دراسة حديثة أن (٢٠ ٪) من موظفي تكنولوجيا أمن المعلومات يفعلون ذلك.

٢- **ترك الجهاز مفتوحاً:** والحركة بعيداً عنه للحظات أو لمدة من الوقت، وهو ما يسهل مهمة السارق في حصوله على كلمة المرور، وخاصة إذا كان خبيراً بما يفعل أو عليماً بما يريد.

٣- **فتح مرفقات البريد الإلكتروني:** فالبعض لا يكلف نفسه عناء التفكير فيما ورد إليه من رسائل، فإذا كان البعض قد فوجئ، أو لم تكن لديه خبرة سابقة في كيفية انتشار الفيروس، فلماذا وقعوا في الخطأ نفسه بالنقر على مرفق رسالة البريد الإلكتروني.

٤- اختيار كلمة مرور سيئة: وهذا ما يخيف خبراء أمن المعلومات، حيث يمكن للمقربين التكهن بهذه الكلمة التي ترتبط باسم الابن، أو فريق الكرة، وكلما طالت الكلمة وتعقدت كلما كان التكهن بها أصعب أو مستحيلاً، ولاختيار كلمة المرور قواعد يحسن أن تقوم المؤسسات باتباعها.

٥- ترك الحاسب المحمول: فمن الواجب عدم تركه من دون مراقبة، خصوصاً في الأماكن العامة، ولقد قالوا في ذلك: الحاسب المحمول شأنه شأن الهاتف المحمول، وكل شيء (منتج إلكترونياً) محمول خائن، يبغض صاحبه، ويحب سارقه.

٦- تجاهل سياسة أمن المعلومات: فمهما كانت هذه السياسة جيدة، فإن إهمالها يتساوى مع عدم وجودها، فهناك من العاملين من لا يقتنع بهذه القواعد، ويرى أن لديه الأسباب الوجيهة لإهمالها، فمثلا قد يعطل بعضهم برامج الكشف عن الفيروسات، لأنها تبطئ من سرعة الجهاز.

٧- الفشل في مراقبة الموظفين: لأنهم أعلم بأوجه الضرر أكثر من غيرهم.

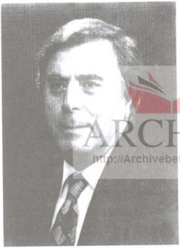
٨- البطء في المواكبة: فالجريمة بشكل عام، وجرائم المعلوماتية بشكل خاص في تطور مستمر، وهي في أغلب الأحيان تسبق وسائل الأمن والحماية، لذلك ينبغي تحديث وسائل وسياسات أمن المعلوماتية بشكل دائم.

الخلاصة

لقد أصبح العالم يعيش ثورة هائلة في مجال المعلومات والاتصالات أتاحت للبشر قدراً هائلاً من المعرفة لم يكن متاحاً من قبل، كما وفرت هذه التقنية الجديدة فرصاً للمؤسسات والشركات والمصارف والحكومات، لتقديم خدماتها بشكل غير مسبوق، وإذا كان ذلك هو الوجه المضيء لهذه التقنية، فإن الوجه الآخر تمثل في إمكانية العدوان والاختراق وممارسة الإتلاف والتخريب والتجسس، الأمر الذي فرض ضرورة توفير قدر من الحماية يتناسب مع مستوى أهمية المعلومات. وفي ظل تنامي ظاهرة العدوان على هذه البيئة المعلوماتية وخطورته على الأمن الوطني، واتجاهات هذا العدوان لينال الأجهزة والبرامج والمعلومات والاتصالات من خلال اختراق الحماية المادية وغيرها، برز أمن المعلومات ليشكل مجموعة الوسائل والطرق المعتمدة للسيطرة على أنواع المعلومات كافة وحمايتها من أوجه العدوان المختلفة، على أنه لا ينبغي المبالغة فيه إلى الحد الذي يؤثر على عنصر الأداء، كما لا ينبغي التراخي فيه بحيث لا تكفل إجراءاته الحماية الواجبة، وفي هذا المجال برزت وسائل تقنية متعددة يتعين توافرها، وفي الوقت نفسه ينبغي على العنصر البشري في هذه المنظومة أن يسلك السلوك الصحيح بعيداً عن الأخطاء والإهمال.

جورج جنورة: فارس الأيقونات

إعداد: عادل أبو شنب ✿



قيل: شدة القرب حجاب، ومع أنني أراه كل مساء في المقهى يلعب النرد مع أصدقائه، لم يخطر في بالي، يوماً، أنه مادة رائعة، بل ضرورية لحوار كهذا، لكن الله فتح عيني، يوماً، عندما كان يعرض صور بعض أيقوناته على أصدقائه.. يومئذٍ لمت نفسي لأنني تأخرت في استضافة هذا العجوز الشاب، فارس الأيقونات، إلى حوار من حواراتي هذه التي تصدر كل أوّل شهر في «المعرفة».

إن جورج جنورة يذكرني بفرسان الأيقونات في كنائس العالم. الذين تسلقوا جدرانها ليرسموا على سقوفها وجدرانها أيقوناتهم. وإنه ليسعدني ان أستضيفه، اليوم، في هذا العدد.

✿ ✿ ✿

✿ من الحوارات الأخيرة التي أجراها الكاتب الكبير الأديب عادل أبو شنب للمعرفة، رحمه الله وأسكنه فسيح جناته.

ولدت في اللاذقية

- سألته السؤال التقليدي عن المولد والنشأة والدراسة، فأجاب باقتضاب:

• ولدت في عروس الساحل السوري، اللاذقية، ودرست في مدارسها، ثم تزوجت وانتقلت إلى دمشق، العاصمة، وأقمت فيها ومازلت.

ابتسمت وقلت:

- لكنك لم تقل لي تاريخ ميلادك.

قال بسرعة:

• عفواً. ولدت عام ١٩٣٠م، ومنذ الصغر نشأت على حب الرسم، وبدأت محاولاتي، وانتقلت من الهواية إلى الاحتراف. هذا شأن فنان يبدأ هاوياً وينتهي محترفاً.

نظرية «التعليم الذاتي»

وسألته:

- أعرف أنك مختص برسم الأيقونات الكنسية، لكن كيف بدأت رحلة الشهرة وكيف تحولت من الهواية في رسم الأيقونات إلى الاحتراف؟

• تعلمت الفن منذ الصغر، بالممارسة، أقصد حسب نظرية «التعليم الذاتي» هذه النظرية تنطبق علي تماماً.

درس عام ١٩٧٣م

قلت له:

- أعرف أنك درست الرسم في رومانيا.

قال:

• لدراستي هذه قصة، كنت رسمت أيقونة أحبها المطران وسألني ما إذا كنت أحب أن أدرس الرسم، فوافقت، فأرسلوني إلى رومانيا عام ١٩٧٣م، وقد نالت رسوماتي وأيقوناتي التقدير، حتى قبل أن أذهب للدراسة هناك. وهذا ما حمّسني على السفر بعد أكثر من ٤٠ سنة من هوايتي واحترافي.

وسألته:

- كم سنة دامت دراستك في رومانيا؟

قال:

• من ١٩٧٣م حتى ١٩٧٦م، وقد حصلت على دبلوم في الفريسك والأيقونات والموزاييك.

معرضان في الكنيسة

وسألته السؤال التالي:

- أرى أنك تخصصت آخر الأمر في رسم الأيقونات، فأي دافع دفعك إلى هذا التخصص؟

أجاب:

• جذبني في الأيقونات ما هو موجود في كنائس بلدي، وقد أسهمت في هذا الفن خلال مسيرة حياتي، وأقمت معرضين لأيقوناتي في صالة المعارض بكنيسة الزيتون في دمشق، وجمعية المحبة وغيرها.

وخطر لي أن أسأله هذا السؤال، خاصة بعد أن تذكرت مايكل أنجلو صاحب الإعجاز في فن الأيقونات، فسألته:

- هل تأثرت بأحد عمالقة رسامي الأيقونات في العالم؟

وتجاهل هذا السؤال ومضى يعدد الأيقونات التي رسمها في مختلف مناطق سورية.

قال:

أيقونات في كنائس كثيرة

• إن لي أيقونات وجداريات في عدد من كنائس سورية.

- مثل ماذا؟

• توجد أيقونات وجداريات لي في كنيسة مار إلياس في دويلعة التي تركت فيها لوحتين جداريتين لا أيقونات، وكذلك كنيسة مار إلياس في قطنا، وكنيسة في حوران، وكنيسة مار إلياس في صحنايا التي لي فيها جدارية كبيرة وأيقونات، وكنيسة حنانيا في الميدان التي أقمت فيها جدارية كبيرة.

في الأردن

وقاطعته بسؤالي:

- هل تقوم الآن بعمل أيقونات معينة في كنيسة معينة؟

• في كنيسة بالزبداني، أرسم أيقونة تمثل السيدة العذراء. وهناك كنائس كثيرة في سورية رسمت لها أيقونات جميلة مثل التي أرسمها في كنيسة الزبداني.

- هل عملت أيقونات خارج سورية؟

• نعم. في المملكة الأردنية الهاشمية.

لم أتأثر بأحد

واستدرك، وقال:

جواباً على سؤال سابق، أنا لم أتأثر بأحد، درست فن الأيقونة، وزاولتها، ولي لوحات عديدة غيرها، وقد ساعدني فن الأيقونات على اكتشاف جمالية الفن بشكل عام، وفن الأيقونة بشكل خاص.

وسألته:

- هل لك لوحات، بعيداً عن الأيقونات؟

قال مبتسماً:

• نعم، عندي لوحات، بعت معظمها، وفي متحف بوخارست في رومانيا عندي لوحتان موجودتان حتى الآن.

أدرس في اللاييك

- رسمت كثيراً من الأيقونات، ولك في كل كنيسة في سورية أيقونة أو أكثر تقريباً، ألم تفكر بنقل إبداعك هذا إلى آخرين؟

• ماذا تعني بسؤالك؟ هل تعني أنني نقلت موهبتي إلى آخرين؟

قلت:

- أقصد، ألم تدرس فن الرسم، وتحديداً فن رسم الأيقونات لتلاميذ يحبون أن يكونوا رسامين أولاً، ورسامي أيقونات خاصة؟

قال:

• نعم، أنا أدرس مادة الرسم في اللاييك بدمشق، وفي إعدادية أخرى قربها، في شارع بغداد، ومن الطبيعي أن أجد بين طلابي من يهتم بالأيقونات، حتى إنني التقيت بطالب يعشق هذا النوع من الرسم، ويحب أن يصير مختصاً برسم الأيقونات، وإنني لا أحب احتكار رسم الأيقونات، بل أريد أن يعم هذا النوع الفني.

نشوة روحية..

- مما لا شك فيه أن هذه الهواية التي تحولت إلى احتراف، تشكل عندك مشاعر روحية، فهل قضى احترافك على هذه المشاعر؟

قال، وقد ابتسم ابتسامة عريضة:

• عندما كانت هذه هوايتي، كنت أتمتع بمشاعر جياشة، وعندما انقلبت هوايتي إلى احتراف، ازدادت مشاعري الروحية، وأشعر بنشوة كبيرة عندما أنجز أيقونة، وأشعر بنشوة أكبر عندما تصبح الأيقونة معلقة على جدار أو مثبتة على سقف كنيسة، لأنني أكون قد مارست احترافي بشكل يفيد الروحية. وقيم أبناء معتقدي.. أرجو أن تكون فهمت ماذا يعني الاحتراف بالنسبة لقيمي

قلت:

- إنني أفهم وأقدر، لكنني أريد أن أسألك سؤالاً محرجاً.

قال:

• أي سؤال. أنا مستعد للإجابة.

لست غيوراً

سألت:

- هناك رسامون يرسمون الأيقونات، هل تشعر بالغيرة؟

قال:

• مطلقاً. تدخل في هذه الخاصية مسألة هامة. إنني أريد أن يعم انتشار الأيقونات. ولهذا أرحب بأي فنان يقبل على رسمها. المهم انتشارها، سواء أكانت من رسمي، أو من رسم سواي.

- مثل من؟

• زميل عزيز هو إلياس زيات. هو يرسم وأنا أرسم.

- هل تتنوع في مواضيع الأيقونات؟

• هذه صور الأيقونات التي رسمتها. لاحظ أنني أنوع في مواضيعي. هذا ملاك، وهذه مريم العذراء، وهذا..

وراح يعدد النماذج والمواضيع التي رسمها، وكنت وأنا أتابعه، أضع عنواناً لحواري هذا. جورج جنورة! فارس الأيقونات.

• • •

لقطات من حياة الفنان

جورج جنورة

• يبلغ عمره، بحلول عام ٢٠١٢م «٨٢» سنة، لكنه ما يزال في شرخ الشباب، فهو

يستيقظ في السادسة صباحاً ويمارس رياضة المشي حوالي نصف ساعة وثم يذهب ليسبح نصف ساعة أخرى، قبل أن يحضر إلى مرسمه وعمله.

• يعيش مع زوجته في بيته في منطقة الجسر بدمشق، مع أنه لم يرزق بذرية، فإن أيقوناته هي بمثابة أولاده، وقد علق رسومه وأيقوناته على جدران منزله إضافة إلى سقوف وجدران الكنائس السورية.

• كان موظفاً في مديرية المساحة العسكرية.

• أول شراء لأيقونته من قبل كنيسة الروم الأرثوذكس. فيما بعد، باع إحدى أيقوناته، ثم سافر إلى رومانية للدراسة، وقد نال دبلوماً في الفريسك والأيقونات والموزاييك بعد دورات استمرت أربع سنوات.

• أيقوناته موجودة في معظم كنائس سورية.

• يعمل الآن أيقونة ضخمة لكنيسة في الزبداني.

• قال إنه كان درس التاريخ ليتعرف على سيرة المسيحيين في بلاد الشام، ورسم يوحنا الدمشقي، وقال إنه كان وزيراً لأحد خلفاء بني أمية، وأن حفيده صار كاتباً عند خليفة آخر.

• يؤمن بأن هذا الفن «رسم الأيقونات» شائع منذ القدم، لكن رساميه قليلون الآن في سورية.

صفحات من النشاط الثقافي

أحمد الحسين ✪

هذه الباقة من الأخبار الثقافية والفنية الغنية والمتنوعة، نقتطفها من بين حدائق الثقافة العربية والأجنبية، عبر منافذ المواقع الإلكترونية، ووكالات الأنباء، ونضعها بين يدي قرّاء المعرفة، آملين أن يجدوا فيها المتعة الجمالية، والفائدة العلمية والمعرفية.

✪ ✪ ✪

فلكلور أرمني على مسرح دار الأسد:

أحيت فرقة ميغري لجمعية الجيل الجديد للثقافة والفنون احتفالية يوم الرقص العالمي على خشبة الأوبرا في دار الأسد للثقافة والفنون في دمشق. وقدمت الفرقة لوحات راقصة متنوعة أغلبها من الفلكلور الأرمني، وأخرى مستوحاة من الفلكلور العربي والروسي والجورجي.

وأدت الفرقة خلال الحفل الذي قدمته عدة رقصات منها: رقصة القلعة، رقصة الحبيب رقصة الأعياد، رقصة شجر الحور، رقصة نحن وجبالنا، رقصة بحيرة سيفان، رقصة الكوتشاري، إضافة إلى بعض الرقصات العربية والروسية والجورجية، والأغاني الفلكلورية.

وحملت اللوحات الراقصة التي قدمتها الفرقة كل تفاصيل الفلكلور الأرمني من لباس ملون ومزركش وحركات ورقصات وتمايلات أجساد تحمل هوية الرقصة الأرمنية إضافة إلى الصور المتلاحقة والأغاني باللغة الأرمنية.

وقالت ماري استبينيان أغينيان رئيسة فرقة ميغري: إن الهدف الرئيسي من الفرقة هو جمع صفوف الشباب وإعادتهم إلى جذورهم وتاريخهم وقد أحرزت الفرقة الكثير

✪ أديب وباحث في التراث العربي من (سورية).

من النجاحات واشتركت في مهرجانات قطرية ودولية واستطاعت تقديم دور أرمينية عبر العصور بعاداتها وتقاليدها.

ورأت مغنية الأوبرا أراكس شيكجيان أن هذه الفرقة تستحق التقدير والتشجيع لأنها تقدم أنموذجاً فنياً راقياً كما أنها تخضع منذ فترة لتدريبات قاسية من قبل محترفين بالرقص الأرمني.

يذكر أن فرقة ميغري تأسست عام ٢٠٠١م نتيجة جهود اللجنة النسائية التابعة لجمعية الجيل الجديد وتتألف من ثلاث فئات من مختلف الأعمار وقد استطاعت خلال فترة قصيرة أن تحقق نجاحاً كبيراً نتيجة تدريبات متواصلة من فنانين موهوبين من جمهورية أرمينيا، وقد شاركت في عدد من المهرجانات والمناسبات كمهرجان بصرى الدولي ٢٠٠٣م ومعرض دمشق الدولي لعدة دورات ومهرجان طريق الحرير ٢٠٠٧م ومعرض الزهور ومهرجان المحبة ومعارض وزارة السياحة إضافة إلى مشاركات خارجية.(١)

أبو مانو يوقع ديوانه الجديد:

وقع الشاعر الإيطالي أبو مانو ديوانه الجديد «شظايا» الذي يتعرض فيه لشرعية حقوق الشعب الفلسطيني بالعودة واسترداد كامل أراضيه العربية المغتصبة على يد الكيان الصهيوني حيث ضمّن الكاتب مجموعته رسوماً من صياغته بالاشتراك مع كل من الفنانين سلفاتوري بومباتشي وستيفانو بومباتشي.

وأقامت دار التكوين حفل توقيع كتاب «أبو مانو» الجديد في صالة شينو حيث قال مترجم الكتاب الأديب أبان الزركلي في مقدمته عن «شظايا».. أن «أبو مانو» من خلال المجموعة الشعرية هو شاعر ملتزم يمكننا أن نضعه في إطار سياسي متعارف عليه إلا أن هذا الالتزام يتوسع ليتجاوز الإطار السياسي والأخلاقي ليلاقي الحياة كقيمة أعلى من أي شيء فالانطلاق من الحياة جعل الكاتب يحس بالحضور الأنثوي حتى في ساحة المعركة.

من جانبه قال الشاعر سامي أحمد مدير دار التكوين للنشر والتوزيع: إن مانو يحاول في كتابه تسليط الضوء على تجربة حسية يومية في جنوب لبنان أثناء الاجتياح الإسرائيلي معطياً تفاصيل مهمة جداً للأماكن كجسر الباشا وجسر الكولا وتفاصيل أحياء في بيروت إضافة إلى التفجيرات التي حصلت فيها بشكل قوي جداً لهذا السبب أطلق عليه أبو مانو «شظايا» لأنه يحوي الكثير من هذه اليوميات المهمة جداً.

بدوره قال الناقد الإيطالي إلي ودي بياتسا.. إن قارئ «شظايا» يجد نفسه في نهايتها مضطرباً ومنجذباً بفعل الديالكتيك التمردي للأجساد التي تحمل على نفسها شظايا القمع

ففي قصائد أبو مانو نجد الأجساد المعذبة ملفوفة ببارود الانفجار محروقة بشظايا المعدن لنلاقي نساء الخطوات الخفيفة تلك الأجساد الفلسطينية المقاتلة على هيئة أمهات ثكالى تتجلى فيهن التراجيديا مقنعة بسيناريو الحرب فشخصيات الكتاب التي أتت على شكل شخوص متصدعة وشغوفة في آن واحد مسحوقة من الحرب الإمبريالية وعازمة على التخلص منها.

وقال أبو مانو مقدماً لقصيدته «الشظايا الباقية»: أحياناً تكون الصور المستقبلة خاطفة والمشاعر المتولدة عنها سريعة حتى تصير الكلمات اللازمة لتحديدها كثيرة وغير ملائمة لتفسيرها فيمتلئ الشعور بالشظايا القادمة من كل مكان من كل لحظة ومن كل شكل للحياة فيحسها العقل علاقات لم تعرف بعد ولم تمارس بعد فهي أبعد من المنطق المتعارف عليه وأبعد مما أسس من العقلنة وهذا الشعور بالاستمرارية غير المنقطعة في الحياة حيث كل شيء مركزي وعليه فلا شيء مركزي يشبه مفارقة الصيغة الكلية كمولد للوحدة.. ولكن كلما اقتربتُ أحسست بالوحدة أكثر.. تحترق الشظايا من العمق.. انتزعها.. أكمنها داخل الكلمات.

يذكر أن أبو مانو فنان إيطالي ناضل في حركة التحرير الفلسطينية منذ زمن طويل ونشر مجموعات من القصائد والقصص لدى دار نشر ديلاباتاليا ودار «إلى الأمام» وشارك كفنان بلوحاته في معارض مختلفة.(٢)

متحف دار العربي للتراث الفلسطيني:

بمشاركة العديد من الشخصيات الرسمية والثقافية الفلسطينية والإيطالية وممثلي بعض الجمعيات والمؤسسات الأهلية، تمّ مؤخراً إعادة افتتاح أول متحف للتراث الفلسطيني في القدس بالتعاون بين مؤسسة دار الطفل العربي الفلسطينية والقنصلية الإيطالية في القدس.

وأوضح بيان صدر عن القنصلية الإيطالية بهذه المناسبة أن إعادة فتح المتحف هو جزء من أنشطة برنامج دعم البلديات الفلسطينية، ويقع ذلك ضمن إطار الحفاظ على التراث الثقافي في محافظات: القدس، وطولكرم، ونابلس، وبيت لحم، والخليل، وأن هدف هذا المشروع هو صون وحماية الهوية والتراث الثقافي الفلسطيني، والمحافظة والحفاظ على التقاليد والتراث الثقافي من أجل تجنب ضياع هوية الأجيال الفلسطينية الشابة، وذلك من خلال عرض مجموعة من أثواب فلسطينية تقليدية ثمينة، إضافة إلى المجوهرات الثمينة والعديد من المعروضات الأخرى ذات الصلة بالتاريخ الفلسطيني.

وأضاف البيان أن مجموعة من الخبراء

الإيطاليين أقامت دورات تدريبية محددة، وموجهة إلى الموظفين المحليين، تهدف إلى نقل المعرفة الفنية في القطاعات المختلفة مثل صيانة وترميم المنسوجات القديمة، وكيفية عرض قيمة المواد التاريخية والثقافية، وأشار إلى أن حفل الافتتاح هو ضمن مشروع تمكين متحف دار الطفل العربي، و«دار إسعاف النشاشيبي» الممول من الحكومة الإيطالية - القنصلية الإيطالية العامة في القدس، من خلال برنامج دعم البلديات الفلسطينية وبتمويل مشترك من مقاطعة بيزا ومركز شمال جنوب، ومؤسسة دار الطفل العربي في القدس. «وفا».[٣]

اللوفر يحتفي بالتاريخ المغربي:

وقعت المؤسسة الوطنية للمتاحف في الدار البيضاء ومتحف اللوفر، بروتوكول اتفاق يتعلق بالإعداد لتنظيم معرض تحت عنوان «من الأدارسة إلى المرينيين: المغرب مؤسس الإمبراطوريات»، في خريف ٢٠١٤م بمتحف اللوفر في باريس.

ويهدف البروتوكول، الذي وقعه المهدي قطبي رئيس المؤسسة الوطنية للمتاحف وهنري لويريت رئيس متحف اللوفر، إلى تمكين المغرب من الاستفادة من تجربة اللوفر، في إنجاح تنظيم المعرض المزمع إقامته في قسم الفن الإسلامي باللوفر، بعد تدشينه.

وقال قطبي: إن هذا المعرض يهدف إلى التعريف بغنى التراث التاريخي والحضاري للمغرب وامتداداته، وإثارة الانتباه إلى هذا التراث باعتباره رافعة للتنمية المستدامة، مضيفاً أن البروتوكول الذي تمّ توقيعه سيسمح بالاستفادة من التجربة الهامة والإشعاع الدولي لمتحف اللوفر لتثمين وإبراز غنى الحضارة المغربية وتقريبها من الجمهور الفرنسي والأجنبي.

من جانبه أكد لورييت على أهمية إحداث المؤسسة الوطنية للمتاحف بالمغرب، وأضاف أن متحف اللوفر، باعتباره متحفاً عالمياً مفتوحاً في وجه كل حضارات العالم، اختار تكريم الحضارة المغربية من خلال جعلها محور المعرض الأول لقسم الفنون الإسلامية.

من جهته اعتبر وزير الثقافة محمد أمين الصبيحي أن تنظيم هذا المعرض حول الحضارة المغربية بمتحف معروف على المستوى الدولي، يعكس اعتراف متحف اللوفر بغنى التراث المغربي وتنوع امتداداته العربية والأمازيغية والصحراوية والأندلسية.

وفي السياق ذاته، أبرزت مديرة قسم الفن الإسلامي بمتحف اللوفر، صوفي مكاريو، أن المعرض سيمكّن الجمهور العريض من الاطلاع على مخطوطات وديكورات هندسية وتحف قادمة من المغرب ومن بلدان أخرى

خاصة فرنسا وإسبانيا والولايات المتحدة.[٤]

حوار الحضارات بالتشيلي:

احتضنت مدينة كوكيمبو شمال التشيلي أعمال الملتقى الدولي الخامس حول حوار الحضارات الذي نظمته بالتعاون مع مؤسسات ثقافية مغربية وبالتنسيق مع كرسي الأستاذية في الأندلس التابع لجامعة أدولفو إيبانييث وذلك وسط حضور فعاليات ثقافية وطلبة جامعيين ومواطنين تشيليين، فضلاً عن المشاركين في هذا اللقاء الهام من أكاديميين وباحثين قدموا من إيطاليا، هيئة الأمم المتحدة، إسبانيا، كوستا ريكا والتشيلي.

وقال السفير المغربي عبد القادر الشاوي في افتتاح أعمال الملتقى: إن الحوار ليس نداءً أو شعاراً يطلق في المناسبات، وإنما هو موقف نظري، يرتبط بالمسؤولية والالتزام، وعلى هذا الأساس، فإن الحوار هو المسؤولية والتعدد هو الواقع، وهو كرسالة موجهة للمواطنة وللمجتمع المدني.

وتحدث خوردي طورنت من هيئة الأمم المتحدة عن تحالف الحضارات والحوار بين الثقافات، موضحاً أن فكرة تأسيس تحالف الحضارات جاءت بمبادرة من تركيا وإسبانيا سنة ٢٠٠٤م بغاية تسهيل الحوار مع مختلف الثقافات والحضارات لتعزيز السلام بين الشعوب، وحدد خوردي مجالات عمل تحالف الحضارات في أربعة حقول هي الشباب، الإعلام، التربية والهجرة، وأشار إلى تأسيس مجموعة أصدقاء التحالف الحضاري التي يشكل كل من المغرب والتشيلي جزءاً هاماً منها.

وضمن فعاليات الملتقى ناقشت روزا سالغادو من جامعة إشبيليا الإسبانية ورقة تحت عنوان «التعدد اللغوي في المغرب»، وتحدث روبيرتو مارين من جامعة كوستاريكا في ورقته عن «التسامح العرقي في الإسلام وملاحظات لمناقشة المثل الدينية والوقائع التاريخية» فأشار في مستهلها إلى كون الإسلام دين للتسامح والسلام إزاء الأديان الأخرى، مؤكداً على أن التسامح العرقي موجود في النصوص القرآنية، كما أشار إلى مسألة العبودية وكيف عالج الإسلام مسألة العبد وعمل على تحريره مدلياً بوقائع تاريخية، لينتقل إلى موقف الغرب حالياً من الإسلام حيث يرى مارين ضرورة تصحيحه لأن المسلمين ليسوا بإرهابيين كما تزعم الكثير من وسائل الإعلام الغربية.

ثم ناقشت آنا ماريا فانديني أستاذة علم اللاهوت في الجامعة الكاثوليكية بكوكيمبو ورقة بعنوان «المرأة مابوتشي ودورها في المجتمع: أنموذج غير معروف»، والمابوتشي هم مجموعة عرقية تشكل ٤ في المئة من المجتمع

التشيلي يعدون من السكان الأصليين حيث عانوا الاضطهاد على مرّ التاريخ..

وتطرق الباحث عديلة مصطفى من جامعة عبد المالك السعدي بتطوان المغرب في ورقته لموضوع «التعايش السلمي للتعدد الثقافي بوساطة الحوار» معتبراً الدين مكوناً أساسياً للثقافة ليشير إلى العوائق التي تقف في وجه الحوار بين الثقافات ملمحاً إلى التعقيدات التي يحملها الشأن الديني وإلى الدين له تعاريف عديدة خلال مراحل تاريخية. وتحدث عن المغرب بصفته بلداً يتميز بالتسامح الديني وبالحوار المفتوح والتسامح مع باقي الثقافات والأديان المغايرة.(٥)

جائزة البابطين في احتفال بإسبانيا

فاز الباحث الإسباني د.خوسي دي الريو بجائزة مؤسسة البابطين للدراسات التاريخية والثقافية حول الأندلس عن بحثه العلمي الذي حمل عنوان «سهوب مدينة إسْتجّة في الأندلس: بادية إيستيبا والمناطق المحيطة بها».

وجرى تسليم الجائزة في احتفالية كبيرة أقيمت في حدائق الكارمن بجامعة غرناطة الإسبانية، حضرها رئيس الجامعة، فرانسيسكو غونزاليس لوديرو، ونائب رئيس الجامعة للعلاقات الدولية دوروثي كلي، ومديرة كرسي البابطين لدراسات اللغة العربية ماري أنخلس، وعدد من الأكاديميين وطلبة الجامعة ووسائل الإعلام العربية والأجنبية والمهتمين.

وجرى بهذه المناسبة تجديد اتفاقية التعاون الأكاديمي والثقافي بين مؤسسة البابطين وجامعة غرناطة لخمس سنوات مقبلة تتضمن استمرارية دعم المؤسسة لكرسي البابطين لدراسات اللغة العربية، ودورات المرشدين السياحيين.

وتحدث في الحفل رئيس جامعة غرناطة فرانسيسكو غونزاليس لوديرو معرباً عن تقدير جامعة غرناطة العريقة للأنشطة العلمية التي تقوم بها مؤسسة البابطين للإبداع الشعري في سبيل التواصل الحضاري وتطوير الجهود العلمية لدى الطلبة الراغبين في تعلم اللغة العربية. ونوه بدور المؤسسة ونشاطاتها سواء على صعيد دورات المرشدين السياحيين أو كرسي البابطين لدراسات اللغة العربية أو الجائزة التي تعنى بالأندلس. وتمنى استمرارية التعاون بين المؤسسة والجامعة نتيجة للمردود العلمي المتميز الذي نجم عن هذا التعاون.

من جانبه، أكد عبدالعزيز سعود البابطين: أهمية الإنجازات الكثيرة التي تحققت بين الجانبين في مضمار حوار الحضارات والثقافات، وقال: كانت تجربتنا في إسبانيا

مــن أفضل وأنجح التجــارب التي خضناها، حيث احتضنت قرطبة دورتنــا التاسعة لعام ٢٠٠٤م وحظينــا بتعاون صــادق من جامعة قرطبــة، وكان من نتائج هــذا التعاون توقيع اتفاقيــة إنشــاء «كرسي عبد العزيــز سعود البابطين للدراسات العربية».

وأشـــار إلى أن «جائزة عبـــد العزيز سعود البابطــين العالميــة للدراســات التاريخيــة والثقافيــة في الأندلس» تهــدف إلى تعميق الاهتمام بالتراث الثقافي في الأندلس من أجل إعادة إحياء هذا التراث المتراكم عبر العصور، فالموروث الحضــاري العربــي الإسلامي في الأندلس هو خير مثال علــى الحوار السلمي الخلّاق بين الحضــارات والثقافات، وتغليب الائتلاف والوفاق بين الأعراق والأديان، ونبذ الخلافات والصراعات.(٦)

معرض التراث الأورو. المتوسطي:

استقبلــت المدرســة الجهويــة للفنــون الجميلــة بالمركــب الثقــافي والرياضي بحي «كشيدة» بباتنة إحدى المدن الجزائرية، معرض الصــور الفوتوغرافية حول التراث الأوروبي- المتوسطي، في محطتــه الثانية، بعد انطلاقته الأولى التي احتضنتها إسبانيا.

وحمل المعرض الذي حــط رحاله لأوّل مــرة بالجزائــر كثــاني دولة تحتضنــه بعد انطلاقته في إسبانيــا حمل نفحات من تراث المنطقة المشترك بعيون مجموعة من المصورين المحترفين الذين حاولوا اختزال المكان والزمان في صور عابــرة ومعبرة لتكــون دعوة للآخر لاكتشاف جمال وغنى هــذه البقعة من العالم والعمل على المحافظة عليها. وذلك من خلال ٣٠ صــورة التقطت في كل من الجزائر ومصر وسوريــة وفرنسا وإيطاليــا وإسبانيا والمغرب وتونــس ولبنــان وفلسطــين تضمنت لقطات معاشة يوميــاً وأماكن لها جــذور في التاريخ وعــادات تقــاوم الفناء والعصرنــة وساحات تحكــي لجيل اليوم عن الذين مــروا بها منذ سنوات خلت.

وتضمــن المعرض صــوراً ولوحات تجسد موكباً للمصلين بغرداية في الجزائر بألبستهم البيضاء الناصعة، والبيوت الترابية في منطقة الأقصر في مصر، ولعبة النرد بإحدى الحارات الشعبيــة في الأردن، وصناعــة الصابــون في سورية، وبعض قصور مدينة مكناس في المغرب، ومشهــداً أصيــلاً لعرس تقليــدي بمقاطعة ألوسنو بإسبانيا، إضافة إلى صورة بائع للشاي بأحــد مرافئ مرسيليا بفرنســا، وغيرها من الصور المعبرة التي حاولت عدسات المصورين التقاطها تحــت سماء وشمس البحر المتوسط لنقــل متعة تذوق جمال الــتراث المادي وغير المادي الذي تتمتع به هذه المنطقة.

ويرى منظمو هذا المعرض أن الهدف من

تنظيمه هو تعميق إحساس الزائر له بالانتماء إلى حوض البحر المتوسط ومقاسمة شعوب أخرى رغم اختلاف اللغة والأصل والعادات والتقاليد بعضا من الهموم وتفاصيل أخرى هي جزء من الذاكرة الجماعية الخاصة بالبلدان المتوسطية، وأوضح محافظ المعرض ورئيس الجمعية الوطنية للتراث بالجزائر العاصمة توفيق فاضل أن هذه التظاهرة ستحط الرحال بعد باتنة «الجزائر» بتونس لتكتسي بعداً ثقافياً وتراثياً، وتأتي في إطار الاحتفال بشهر التراث كما تهدف إلى المحافظة على التراث الأوروبي - المتوسطي بكل أوجهه كعامل للتنمية المستدامة.[٧]

وفاة الكاتب كارلوس فوينتيس:

توفي في العاصمة المكسيكية مكسيكو سيتي الكاتب كارلوس فوينتيس، احد اشهر الادباء في أمريكا اللاتينية، عن عمر ناهز ٨٣ عاما بعد مسيرة أدبية استمرت خمسة عقود.

يعتبر فوينتيس من جيل الأدباء الذين يعود لهم الفضل في تعريف العالم بأدب منطقة أمريكا اللاتينية، وهو الجيل الذي يضم الكاتب المكسيكي أوكتافيو باز والكولومبي غبرييل غارسيا ماركيز والبيروفي ماريو فارغاز لوزا.

ألف فوينتيس أكثر من عشرين رواية وعدة مجموعات من القصص القصيرة، ومن مؤلفاته الشهيرة «موت أرتيميو كروز» و«الأمريكي العجوز» و«الحدود البلورية»، وحازت رواية «الأمريكي العجوز» على شهرة واسعة في الولايات المتحدة، وحُولت إلى فيلم سينمائي أنتج عام ١٩٨٩م لعب البطولة فيه كل من غريغوري بيك وجين فوندا. وقد فاز فوينتيس بعدة جوائز أدبية كبرى، منها جائزة سيرفانتيس الإسبانية، إلا أنه لم يفز بجائزة نوبل. وقد ترجمت أعماله إلى أكثر من عشرين لغة.

ولد فوينتيس في بنما عام ١٩٢٨م، وقضى الكثير من شبابه في الولايات المتحدة وتشيلي والأرجنتين حيث كان والده دبلوماسياً يعمل في سفارات المكسيك في تلك البلدان، ودرس فوينتيس القانون وألف أولى رواياته وهو في الثلاثين من عمره.

وكان فوينتيس منتقداً لاذعاً للنظام السياسي في المكسيك الذي يحتكر السلطة فيه الحزب الثوري المؤسساتي الذي حكم البلاد لـ ٧١ عاماً قبل الإطاحة به في الانتخابات التي جرت عام ٢٠٠٠م، كما اشتهر بانتقاده للدور الذي لعبته السياسات الأمريكية في أمريكا الوسطى في الثمانينيات، وهجومه على سياسة الهجرة الأمريكية التي تستهدف العمالة المكسيكية المهاجرة.[٨]

إصدارات تشيكيا في عام:

على الرغم من الأزمة الاقتصادية والمالية التي تشهدها أوروبة فقد صدر في تشيكيا العام الماضي نحو ١٨٩٨٥ كتاب الأمر الذي اعتبر الرقم الأعلى الذي يسجل منذ بدء المكتبة الوطنية إحصاء عدد الدوريات المطبوعة غير المنتظمة أي منذ عام ١٩٩٣م.

وأكدت المكتبة الوطنية بأن عدد الكتب قد عاد إلى الارتفاع بعد تراجع سجل لعامين مشيرة إلى أن عدد الكتب التي صدرت العام الماضي زاد عن عام ٢٠١٠م بمقدار يزيد عن ١١٪.

وأشارت إلى أن هذه المعطيات الإحصائية لها لا تشمل الكتب الإلكترونية معترفة بأن أغلب الكتب التي تصدر في البلاد هي حتى الآن الكتب المطبوعة ورقياً.

وتصدر نصف الكتب في تشيكيا مؤسسات حكومية لكنها لا تصل إلى رفوف الكتب أبداً كما أن رقم الكتب لا يكشف عن مستواها غير أن العدد الكبير للكتب الصادرة يشير إلى أن دور النشر التشيكية تعطي الأولوية لإصدار عدد أكبر من الكتب بعدد قليل من النسخ لأسباب مالية.

وعلى خلاف عام ٢٠١٠م فقد صدر العام الماضي عدد أكبر من الروايات والقصص حيث وصل العدد إلى ٥١٧٥ رواية مقابل ٤٤٧٧ في عام ٢٠١٠م فيما بلغ عدد الكتب الجديدة المخصصة للأطفال التي صدرت ١٥٦٩ كتاباً مقابل ١٣٣٦ في عام ٢٠١٠م.

وقد صدرت الكتب العام الماضي في تشيكيا عن ١٩٨٢ دار للنشر الأمر الذي يعتبر مشابهاً لعدد دور النشر التي تواجدت قبل ذلك منها أكثر من ١٠٠ كتاب صدرت عن ٢١ دار نشر خاصة و١٦ جامعة ومؤسسات حكومية أمّا عدد دور النشر المسجلة عموماً في البلاد فهو أكثر من ٥٠٠٠ غير أن أكثر من نصفها لم يصدر العام الماضي أي كتاب.

وتعتبر مجموعة الباتروس ميديا المنتج الأكبر للكتب حيث أصدرت العام الماضي مثلاً ٧٦٠ كتاباً مقابل ٤٨١ ليورو ميديا غروب و٤٠١ لغرادا للنشر.

ويلاحظ حدوث ارتفاع في عدد الكتب الإلكترونية رغم أن ارتفاع قيمة الضريبة الإضافية يشملها كالكتب المطبوعة فيما يقول المختصون بأن تشيكيا تنتمي إلى قائمة الدول القليلة في العالم حيث تفرض على الكتب ضريبة مرتفعة.

وقد شكلت الكتب الصادرة إلكترونياً العام الماضي ٠،٠٣٪ من سوق الكتب في تشيكيا فيما يتوقع أن ترتفع هذه النسبة هذا العام إلى ٠،٥٪.(٩)

الصرخة أغلى لوحة:

اشترت صالة سوذبي للمزادات بنيويورك لوحة الصرخة للرسام التعبيري النرويجي إدفارد مونك، بمبلغ إجمالي قارب المئة والعشرين مليون دولار، وبذلك أصبحت أغلى لوحة في العالم.

وباع اللوحة رجل الأعمال بيتر أولسون، الذي كان والده صديقاً لمونك، وقال أولسون «لقد عشت مع هذا العمل طوال حياتي ولقد زادت سطوته وطاقته مع مرور الوقت. ولكني أشعر أن الوقت قد حان لمنح بقية العالم فرصة لتذوق هذا العمل الفريد.

وتعد هذه اللوحة التي رسمها مونك عام ١٨٩٥م واحدة من سلسلة مكونة من أربعة أعمال له، وهي الوحيدة في المجموعة التي كانت من مقتنيات شخص وليس متحف أو قاعة عرض، وتمتلك متاحف نرويجية النسخ الثلاث الأخرى من «الصرخة» ولكن سوذبي تقول إن النسخة التي تولت بيعها أكثرهن زهاء في الألوان، كما أنها الوحيدة التي كتب على إطارها قصيدة ألفها مونك ويصف فيها ما ألهمه برسم المجموعة.

و«الصرخة» واحدة من أشهر الأعمال الفنية التي يعرفها الجمهور العالمي، وقال المستشار الفني مايكل فرام: «مع الموناليزا، تعد الصرخة أشهر عمل فني في التاريخ ويتعرف عليها من رآها على الفور»، وسرقت نسختان من الصرخة في مرتين متتاليتين إحداهما عام ١٩٩٤م والثانية عام ٢٠٠٤م، وتمت استعادتهما.(١٠)

مكتبة مارك توين تغلق أبوابها:

صدر قرار عن مجلس «برنت» في لندن، بإغلاق المكتبة التي افتتحها الكاتب مارك توين منذ أكثر من قرن، في ذكرى مرور ٦٠ عاماً على حكم الملكة البريطانية «فكتوريا» وتزامن هذا القرار مع الذكرى الـ٦٠ لحكم حفيدتها الملكة إليزابيث الثانية.

ويعزى سبب اتخاذ هذا القرار إلى أسباب مالية في الدرجة الأولى، وإلى عزوف البريطانيين وعدم إقبالهم على القراءة والمطالعة كما ورد في حيثيات القرار.

وبعد الإعلان عن القرار انتبه المسؤولون للاتفاق المبرم منذ أكثر من قرن، والذي تنازلت جامعة أوكسفورد بموجبه عن المبنى لصالح السلطات المحلية بهدف أن يخصص لحماية الروائع الأدبية ويتحول إلى قطب أدبي في لندن، على أن يعود البناء إلى ملكية جامعة أوكسفورد تلقائياً في حال إغلاق المكتبة. لذا قرر المجلس التريث في نقل الكتب وعدم إخلاء المبنى من محتوياته الأدبية حالياً خوفاً من خسارة المبنى.

ولدى إعلان خبر إغلاق المكتبة بادر السكان المحليون في لندن إلى حماية رمزهم

الأدبي، وأطلقوا حملة تبرعات مالية بغرض جمع التمويل الكافي لضمان استمرار عمل المكتبة، وسارعوا إلى تقديم اقتراح لإدارة جامعة أوكسفورد بأن تنتقل المكتبة لرعاية المتطوعين الخاصة متجاوزين السلطات المحلية في المنطقة الشمالية الغربية من لندن.

من الجدير بالذكر أن الكاتب العالمي «مارك توين» هو من افتتح المكتبة شخصياً في عام ١٩٠٠م تزامنا مع الذكرى الـ٦٠ لحكم الملكة فكتوريا آنذاك، والآن تغلق أبوابها في الذكرى ٦٠ لحكم حفيدتها الملكة إليزابيث الثانية.(١١)

قلم يحمل اسم كويلو

شهدت السوق الإماراتية طرح أغلى قلم حبر في العالم، يقدر ثمنه بـ ٤٠٠ ألف درهم ١١٠ ألف دولار.

وذكرت شركة مونتغرابا الإيطالية المصنّعة للقلم أنها صنعت القلم الفاخر من معادن ثمينة وزينته بالألماس والذهب وتهدف من خلاله إلى تكريم الروائي البرازيلي باولو كويلو، صاحب رواية الخيميائي المشهورة.

وأضافت الشركة أنها سخرت خبرتها التي تزيد عن ١٠٠ عام في صناعة الأقلام الفاخرة لصناعة قلم باولو كويلو، المستوحى من روايته الشهيرة الخيميائي التي تعد أحد روائع الأدب المعاصر والتي تمت ترجمتها إلى ٧١ لغة وسجلت بموسوعة غينيس للأرقام القياسية بعد بيع أكثر من ٦٥ مليون نسخة مما جعلها واحدة من أكثر الكتب مبيعاً على مرّ التاريخ.

وقال غيوسبي أكيلا، الرئيس التنفيذي لشركة مونتغرابا: إن الشركة صنعت القلم وأطلقت عليه اسم الرواية تقديراً لتجربة الكاتب الثرية، وأضاف: قام أمهر حرفيي الشركة بصنع القلم الذي يجسد رموز الرواية باستخدام تقنية الشمع اللامع وتمّ تزيينه بصور تعبر عن الشمس والقمر على الغطاء تأتي بنسق دائري مما يمنح إحساساً بالزمن يماثل ما تمنحه الساعة الميكانيكية.

ونقل البيان عن باولو كويلو قوله بحكم عملي كمؤلف وكاتب أؤمن بالقوة الهائلة للقلم حيث استطعت الوصول إلى مئات الملايين من الناس حول العالم بوساطة قلمي وكتاباتي، أقدر أن تطرح الشركة الإيطالية القلم الجديد الذي سيصبح معلماً بارزاً في تاريخ أدوات الكتابة الفاخرة.(١٢)

إحالات

١- وكالة الأنباء العربية السورية «سانا»	WWW.SANA.ORG.
٢- موقع عرب أونلاين	WW.ARABONLINE.CO.
٣- وكالة الأنباء الفلسطينية	WWW.PNN.PS.
٤- وكالة المغرب العربي للأنباء	WWW.MAP.CO.MA.
٥- موقع هسبريس	HESPRESS.COM
٦- موقع البوابة	WWW.ALBAWABA.COM.
٧- وكالة الأنباء الجزائرية	WWW.APS.DZ.
٨- موقع إيلاف	WWW.ELAPH.COM.
٩- وكالة رويترز	WWW.REUTERS.COM.
١٠- موقع بي بي سي	WWW.BBC.CO.UK/ARABIC
١١- أنباء موسكو /نوفوش	AR.RIAN.RU.
١٢- موقع ميدل إيست أون لاين	WWW.MIDDLE-EAST0ONLINE.CO

شِعْرُ أبي وَجْزَة السّعديّ
(؟- ١٣٠هـ)

عرض وتقديم : سمر الزركي ✿

أبو وَجْزَة السّـعدي، محدِّثٌ مُقِلٌّ وشاعرٌ مُجيدٌ، لم يُروَ عنه كثير من الشـعر، ولم يُعرفْ بالإكثار منه. لذلك لم يدون اسمه في طبقات فُحول الشعراء.

كان ذوَّاقةً للشعر نقّاداً له. وبسبب ما ألمَّ بأمتنا العربية من صروف الدهر، لم يبق من شعره سوى أبيات متفرقة في بطون معجمات اللغة، أو كتب النحو.



استطاع الدكتور وليد السراقبي جمع شعره من الشـتات ودراسته في كتاب «شِعْرُ أبي وَجْزَة السّـعديّ (؟-١٣٠هـ)»، الصـادر عن الهيئة العامة السـورية للكتاب وزارة الثقافة في دمشق، عام ٢٠١٠م. جاء الكتاب في مئة وتسعين صـفحة من القطع الكبير. قـدّم للكتاب أ.د.عبد الإله نبهان -عضـو مجمـع اللغة العربية بدمشـق- ووضّـح في مقدمته للكتاب أهمية إحياء التراث العربي القديم بالتحقيق والنشر، ويثني على اختيار المحقق لشعر أبي وجزة السعدي، ويثمن ما بـذل من جهد في تحقيق جـزء من التراث، مـا كان جمعـه وتحقيقه ودراسـته بالأمر السـهل. ويرد في هذه المقدمة قول الدكتور

✿ باحثة من سورية.

نبهان: «فهذا شعر أبي وجزة، جمع معظمه -فيما نعلم- بعد تفرق، واجتمع شمله بعد شتات، وتوضحت معانيه بعد طيّ، فتجلى حاضراً بعد طول الغياب، عتيداً للدارسين والمحققين والكتّاب».

لقد اتبع د.وليد السراقبي في صنع هذا المجموع منهجاً يقوم على الأسس الآتية:

أولاً- أثبت أقدم الرّوايات التاريخيّة في المتن، ثم أوضح في الحواشي كل الاختلافات في الرواية مع مراعاة التسلسل التاريخي للمصادر.

ثانياً- فسَّر المفردات المبهمة، وعرّف بالمواضيع التي مرَّ ذكرها في متن الديوان.

ثالثاً- جعل المجموع في قسمين: الأول، للشعر الثابت النسبة إلى أبي وجزة. وأثبت في القسم الثاني ما كان فيه اختلاف في نسبته إليه.

رابعاً- جعل تخريج الأشعار في نهاية المجموع في قسمين أيضاً: أوّلهما، للشعر الثابت النسبة إلى أبي وجزة. وثانيهما للشعر المضطرب النسبة.

خامساً- ذيل المجموع بجملة من الفهارس الفنية، وهي:

- فهرس الشعر.
- فهرس اللغة.
- فهرس أسماء الأعلام والقبائل.
- فهرس الأماكن.

هـ- فهرس القوافي، ومن ثم ثَبْت المصادر والمراجع.

إذن، قسَّم الدكتور السراقبي كتابه عن شعر أبي وجزة السعدي إلى أربعة أقسام، هي: الدراسة، المجموع الشعري المنسوب إليه، التخريج، والفهارس.

والدراسة تتضمن مقدمة تاريخية عن ملامح الحياة السياسية لعصر أبي وجزة السعدي، وهو العصر الذي يمتد من خلافة معاوية بن أبي سفيان -رضي الله عنه- إلى خلافة مروان بن محمد.

وفي هذه الدراسة تفصيل عن الخلافات السياسية التي عمّت ذلك العصر والحوادث التي نجمت عنها، لكنها شكلت ملامح ينتهي الباحث إلى أنه لم يكن لها أي أثر في شعر أبي وجزة.

كما أن هذه المقدمة لا تتطرق إلى دور لأبي وجزة فيها، وإنما يفاجأ القارئ بالإشارة في سطورها الأخيرة إلى ميل الشاعر إلى آل الزبير، ومدحه لهم من غير التعرض لآراء حزبهم في خلافة بني أمية. ثم اشتراكه في مقاتلة أبي حمزة الخارجي في جيش عبد الملك بن عطية السعدي سنة (١٣٠هـ) سنة وفاة أبي وجزة السّعدي.

ومن ثم ذكر الباحث في الكتاب أصل قبيلة

سعد وتفرعاتها إلى بطون وأفخاذ. كما أتى على ذكر حليمة السعدية مرضعة الرسول الكريم -صلى الله عليه وسلم- وافتخار النبي برضاعته في بني سعد، وترعرعه في باديتهم إذ قال: «أنا أعربكم، أنا من قريش، ولساني لسانُ بني سعد بن بكر».

وبعد ذلك يأتي د وليد على ذكر اسم ونسب الشاعر بشيء من التفصيل إذ يقول: (هو يزيد بن عبيد، وقيل يزيد بن أبي عبيد السّلمي. أصله من سُليم من بني ضبيس بن هلال بن قدم بن ظفر بن الحارث بن بُهْثة ابن سُليم).

أمّا أخباره: يعدُّ كتاب الأغاني المصدر الأوّل والرئيسي لأخبار أبي وجزة السعدي. إلاّ أن الدارس لأخباره يقع على تناقض في خبر زواج أبي وجزة، فقد روى أبو الفرج في خبر والد أبي وجزة أنه كان قد تزوّج زينب بنت عُرْفطة المزنيّة؛ فولدت له أبا وجزة وأخاه عبيداً، وأن والده كان يقال له أبو عبيد.

وقال في موضع ثانٍ: (تزوج أبو وجزة السعدي زينب بنت عُرفطة بن سهل بن مكدّم المزنيّة فولدت له عبيداً ..).

ومن ثم أتى الكتاب على ذكر خبره مع عَمرو بن زياد المزني ومدى إكرامه له، فمدحه أبو وجزة بقصيدة منها:

لعمرو الندى، عمرو بن آل مكدَّم
كثيرعليَّات الأمور جليدُها
حليمٌ إذا ما الجهل أفرطَ ذا النُّهى
على أمره، حامي الحَصَاة سديدها

وأيضاً، خبره مع عبد الله بن الحسن بن علي بن أبي طالب وإخوته عندما قَدِم أبو وجزة إلى (سُوَيقة). وكانت السنة جدباء قاحلة، فمدحه أبو وجزة بقصيدة منها قوله:

أثني على ابنَيْ رسول الله أفضل ما
أثْني به أحدٌ يوماً على أحَدِ
السَّيِّدَين الكريمَي كلِّ منصرفٍ
من الوالدَين ومن صهرٍ ومن ولدِ
ذريةٌ بعضُها من بعضها عمَرتْ
في أصل مجدٍ رفيع السَّمْك والعَمَدِ
ما ينتهي المجدُ إلاّ في بني حَسَنٍ
ومالهم دونه من دار ملتحدِ

فأمر له عبد الله بن الحسن وأخوه حسن وإبراهيم بمئة وخمسين ديناراً، وحمّلوا رواحله بُرّاً وتمراً، وكسوه ثوبين ثوبين.

أمّا خبره مع عبد الملك بن يزيد السعدي الذي خرج لقتال حمزة الأزدي الخارجي وانتصاره عليه يقول أبو حمزة راجزاً:

قل لأبي حمزة هيد هيد
جئناك بالعادية الصُّنديد
بالبطل القرم أبي الوليد
فارس قيس نجدها المعدود

فـدًى لعبـد الملـك الحميـد

مـالي مـن الطـارف والتـليـد

وبعد ذلـك عرض الكتـاب شاعريته وموضوعاتـه الشعرية، كما وُصفَ أبو وجزة بجودة الشعـر والتقدم فيه، وشهد له بذلك كلٌّ من ابن قتيبة بقوله: «كان شاعراً جيداً»، وابن سعد بقولـه: «كان ثقةً قليل الحديث، شاعراً..».

ومـا استشهـاد معاجـم اللغـة والنحو والأدب بشواهد كثيرة من شعره إلا دليلٌ بيّن على صدق ما قاله علماؤنا فيه.

ثـم أوضح الكتـاب أغراض الشعر لدى أبي وجزة السعدي مبتدئاً بالمدح: وهو غرض واضـح بيّن في شعـره، والشجاعة هي أهم معاني المديح عنـد أبي وجزة كمدحه لسيد قيس (وهو سليل أمجـاد، وأمجاد لا تُجارى ولا ترام) بقوله:

يقصدنَ سيِّدَ قَيْسٍ وابنَ سيِّدها
والفارسَ العدَّ منها غيرَ ذي الكَذِبِ
محمـدٌ وأبـوهُ وابنـُـه صَنَعوا
لـه صنائعَ من مجدٍ ومن حَسَبِ

وقد لا يمدح شخصاً بعينه، بل يعمّ بالمدح القبيلة كلّها، فيصفهـا بالشجاعة والبأس، ويصف سيّدها بالإقدام والشجاعة.

ومثـل هذا المديـح نجده لـدى مدحه آل الزبيـر، فقد وصفهـم بالشجاعة، فهم يقرعون السيوف بالسيوف. فما ينتهون من معركة حتى يدلفوا إلى أخرى:

وآل الـزُّبيـر بَنـو حُـرَّةٍ
مَـرَوا بالسيوف صُدوراً خِفَافا
سـل الجـزْدَ عنهـم وأيَّامـهـا
إذا امتعَطُوا المرهَفَاتِ الخِفَافا
يمـوتـونَ والـقـتـلُ داءٌ لهم
ويصلَوْن يـومَ السِّياف السيافا

ويأتـي المدح بفضيلة الكـرم في المرتبة الثانيـة، إذ قـال في ابـن يزيد بـن عطيَّة السعدي:

ظعائنُ من قيس بن عيلان أشْحَصَتْ
بهن النَّوى، إنَّ النَّوى ذات مِغْوَلِ
يُحيُّون فيّاضَ الندى متفضِّلاً
إذا الـبَرْحُ المنَّـاعُ لم يـتفضَّـلِ

وثالـث المعاني التي تـتردّد في مدح أبي وجزة كرم الأصـل والنِّجار، فممدوحه نقيُّ الأصل، حيـزت له كلّ أسبـاب السيادة في قومه.

وهـذا الأصـل الكريم يترفـع بالممدوح عن الدنايا ويسمو به فوق الرذائل؛ ذلك أن الفرع لا يجود إلا بما تلقاه من الجذور:

مـازالَ ينحو فعلَ منْ كانَ قبلَه
من آبائه يجني العُلا ويفيدها

لأن الأصـل الكـريم يردعـه إلا عـن المكارم:

يسعى مساعيَ آباءٍ له طمروا

من آل قَيْنٍ على مطمارهم طَمِرا

ورابع المعاني في المديح: إغاثة الملهوف وحماية الجار، وهذا المعنى شاع في الشعر الجاهلي واستمر في الوجود فيما بعد الإسلام، وورد في شعر أبي وجزة، ومن ذلك قوله يمدح بني عطيّة:

فلامدحَنَّ بني عطيَّة كلّهم

مدحاً يوالي في المواسم والقرى

والمانعين من الهضيمة جارَهم

والجامعين الرّاقعين لما وهى

فالممدوح رحب الصدر يحوط الجميع برعايته لذلك يمدحه الشاعر بدافع الإعجاب والتقدير، فيأتي مدحه صادقاً معبراً عن إحساس صادق، كما يصفه بالوفاء والصدق، وتلبُّسه بالرقة والعطف على أهله وذويه إذ قال:

صُدُقٌ إذا وعَدَ الرجالُ وأوْعدُوا

بأحبُ بادرةٍ وأوفى مَوْعدِ

أمّا آخر المعاني التي تصادفنا في مديح أبي وجزة فهو المدح بالفصاحة واللّسن، وفي هذا قال:

خُطَباءُ لا خُرْقٌ ولا غُلُلٌ إذا

خطباءُ غيرهم أغلَّ شرارُها

أمّا الغرض الثاني الذي اشتهر به أبو وجزة فهو الوصف. حيث ينقل ما تراه عينه فيصف الطبيعة الساكنة والطبيعة الحيّة.

ففي وصف الطبيعة الساكنة وصف الديار، ومغاني الأرض بعد خلوها من أهلها فلا نار يتهدّى إليها العفاة، ولا كلاب تنبح الضيفان، وخلت كلّ الأمكنة التي كانت سعد تضرب فيها خيامها:

عفت مُرُّ من أحياء سعد فأصبحت

بسابسَ لا نارٌ ولا نبحُ نابحِ

ووصف الرياح والمياه الآسنة التي طال عليها الأمد. كما وصف في موضع آخر الماء صافياً كثير الاهتزاز والترجرج من صفاته إلا أنه قليل لا تغذيه الروافد، فقال:

والماءُ لا قَسَمٌ ولا أقلادُ

هُزاهِزٌ أرجاؤها أجلادُ

لاهُنَّ أملاحٌ ولا ثِمادُ

وأيضاً وصف السيل والسحاب والمطر الذي ينعش القفار. أمّا الطبيعة الحيّة فاستوقفته في مواضع عدّة، فمشهد الأتن التي أنزلت أطرافها في الماء. وكذلك حمر الوحش التي تركت الماء الراكد حيث الأفعى والبعوض الذي يلسعها ويترك في جسمها ندوباً:

تبيتُ جارتَه الأفعى وسامرُه

رُمْدٌ به عاذرٌ منهنّ كالجرب

كما وصف الإبل وسيلة العربي في قطع المفاوز والقفار. وكان ذلك في مطالع قصائده التي يصف فيها رحلته في سبيل الممدوح. ويدور وصفه للإبل حول المعاني الآتية:

١- النَّجابة: فهي من نجائب الإبل وكرائمها شامخة البنيان، لكنها ناقة الأوبار من كثرة التسيار والترحال:

يُهدي قلائصَ خُضَّعاً يكنُفْنَهُ
صُعْرَ الخدودِ نوافقَ الأوبار

٢- الدقة والضمور: إن وصفه الناقة بالدقة الضمور ظهر في أكثر من موضع في شعره فهو أشبه ما تكون بحد السيف مضاء ودقة، أهزلها طول السُّرى، وأضرَّ بها سيرها المتواصل، وسعيها الدائب طاوية المسافات طيّاً:

أهدي قلاصاً عناجيجاً أضرَّ بها
نصُّ الوجيفِ وتفحيمٌ من العُقَب
حرفٌ بعيدٌ من الحادي إذا مَلَأَتْ
شمسُ النهارِ عنانَ الأبرقِ الصَّخِب

والجمل -يبدو في شعره- ضخماً عظيم الأثباج، مضبَّر الخَلْق متكاوس الشحم:

قَرَيْنَ كلَّ صَلخدى محنقٍ قَطِم
عهوله خَبْجٌ بالنيِّ مضبورُ

ومن خلال ما سبق نجد أنَّ جميع اللوحات التي وصفها على بساطتها لا تخرج عن محيطه الطبيعي. وهو صادق في وصفه إضافة إلى صفة جديدة هي الدّقة التي هي جانب من جوانب الصدق والواقعية معاً.

وثالث أغراضه الشعرية هو الفخر: إذ ينطوي على زهو الشاعر واعتزازه بنفسه وقومه، وهو مرتبط بغريزة البقاء والصراع في سبيل الحفاظ على الحياة.

وذوبان شخصيته في شخصية القبيلة التي التحق بها نسباً جعل الفخر القبلي فيه أكثر من الفخر الفردي. فهو لا يتحوّل عنها، ولا يستبدل بها غيرها من القبائل:

فبلِّغ بني سعد بن بكر مُلِظَّةً
رسولَ امرئٍ بادي المودّة ناصحِ
بأنَّ العتيقَ البيتَ أضحى مكانَه
وقبرُ رسولِ الله ليس ببارحِ
مُقيمين حتى يُنفخَ الصُّورُ نفخةً
وأخرى فيُجزى كدحَه كلُّ كادحِ
فإني لَعَمْري لا أبيعُهما غداً
بشعبٍ ولا شَيبان بيعَ المُسامحِ

ولا تخرج معانيه الفخرية عن تلك المعاني التي كان لها شياع في فخر العصر الجاهلي، فهم أسياد شرفاء، لا يعرف الذل إلى ساحتهم سبيلا:

فما كان قومي ضارعين أذلَّةً
ولا خُذُلاً عند الأمورِ الجَوارحِ

وهم كذلك أقوياء أشدَّاء، لا يعرفون الضعف والخذلان، وهم حلماء، حصيفو الرأي، يغيثون الملهوف، ويُلجئون المضعوف:

لهم حاضرٌ لا يُجهلون وصَارخٌ
كسيل الغوادي تَرْتَمي بالمقازحِ

ويفخر أيضاً بكرم وعطاء أفراد قبيلته. أمَّا الفخر الفردي فقليل عند أبي وجزة،

فهو يفخر بالعفة والأنفة، والبعد عن أذى الجيران ومن ذلك قوله:

فـإنّي لا وأمُـك لا أسـاري
لقـاحَ الجـارِ مـا سَمَـرَ السّميرُ

ويلامسُ الحبُّ شغاف قلبه فينطلق لسانه بأبيات غزلية تحمل ألوان الحنين والشوق والألم من فراق المحبوبة التي مازال وفيًّا لها بحبه:

وهـواكَ مَجْـنـوبٌ بـأمِّ عُـوَيْـمِرٍ
أنـى تَـقُـدُهُ بـالصّبابـةِ يَنْـقَدِ

فهو يعاني الأمرّين من جرّاء هذا الحب، فالحب لديه زفرات متتاليات، وحزن دائم لا ينقطع كلما تذكر ما كان بينه وبين المحبوبة:

هل الحبّ إلا زفرةٌ بعدَ زفرةٍ
وحرٌّ على الأحشاء ليسَ له بَرْدُ
وفيضُ دموعِ الحبِّ يا ميُّ كلّما
بَدَا علمٌ من أرضكم لم يكن يبدو

وينقسم غزله إلى قسمين: أوّلهما، غزل المطالع فبه تُبتدأ القصيدة، ويعدُّ مدخلاً لغيره من الموضوعات، ومن ذلك الوقوف على الأطلال، والحديث عن خيال المحبوبة الذي لا يفارقه في حلّه وترحاله:

حتى إذا ما هَجَدوا ألمّ خيالُها
سـرَاً، ألا بـلـمـامـه كـان المنى
طرقتْ بـريّا رَوْضـةٍ مـنْ عـالجٍ
وسَميـةٍ عَـذُبَتْ وبيّتَها الندى

والقسم الثاني، هو غزل المفاتن، وهو لا يخرج فيه عن المعاني التي تعاورها سابقوه، فالمحبوبة بيضاء البشرة، برّاقة الخد، منضودة الثغر، أمّا ريحها فأزكى من عطر الروضة، وأمّا إطلالتُها فإطلالة بدر يفيض بالنور على الكون فيلملم أذياله:

من كلِّ بيضاءَ مخْماصٍ لها بَشَرٌ
كـأنـه بـذكـيّ المسكِ مَغسـولُ
فالخدُّ من ذهَبٍ والثغرُ من بَرَدٍ
مفلّجٌ واضحُ الأنيـابِ مَصْقولُ

وأمّا غزل الكهولة: فأبو وجزة يحنُّ إلى أيّام الصبا والجمال ويقول في ردّه على دهش محبوبته وتعجبها من حنينه لتلك الأيام:

حنَّ الفؤادُ إلى سلْمى ولم تُصبِ
فيمَ الكثيرُ من التَّحنانِ والطّربِ
قالت سعادُ، أرى من شَيْبةٍ عجباً
مَهْلاً سُعادُ فما في الشّيبِ من عَجَبِ
إمّا تريني كَساني الدهرُ شيبتَه
فـإن مـا مـرّ منـه عنـك لم يَغِبِ
سَقياً لسُعْدى على شَيْبٍ ألمّ بنا
وقبلَ ذلك حينَ الرأسُ لم يَشِبِ

كما نجد في شعره عرضاً لموضوع اجتماعي- اقتصادي، لكنه لا يرقى إلى أن يكون غرضاً شعريّاً، وهو حديثه عن غلاء الأسعار والحاجة التي ينوء بها المجتمع، يقول في ذلك:

أشكو إلى الله العزيز الجبّار
ثمّ إليكَ اليومَ بُعْدَ المستار
وحاجة الحيِّ وقطَّ الأسعار

وأمَّا ما يتعلق بالخصائص الفنية والمعنوية لشعر أبي وجزة رغم قلة شعره، نجده قد سار على نهج شعراء عصره حيث يبدأ قصيدته بالوقوف على الأطلال، ويستوقف صاحبيه للمؤانسة، ثم وصف رحلته إلى الممدوح، ثم يصف الناقة، ويصل إلى الغرض الأساسي. وقد يبدأ قصائده بالنسيب، ثم يصف الناقة والرحلة، ثم يصل إلى المديح الغرض الأساسي.

معانيه واضحة يعبر عنها بلفظة دقيقة الدلالة على المعنى المراد، عباراته جيدة السّبك لا غموض فيها ولا تهويل ولا مبالغة، ولا تقديم أو تأخير. بل هي الواقعية التي تنقل بصدق وأمانة ما تقع عليه العين، فهي بنت البيئة وفيها معاني الكرم والشجاعة والقوة والارتباط المتين بالقبيلة.

ولعلَّ خير ما يُجْمِلُ ما تقدَّم، هو القول الذي جاء على غلاف الكتاب: إن هذا الكتاب «ثمرة من ثمار التنقير في مظان التاريخ والأدب ومنعرجات كتب اللغة وأزقتها الضيقة، ورحلة شاقة شائقة ماتعة للمِّ شتات قصائد أبي وجزة السعدي، الشاعر الذي كاد شعره يضيع، ومحاولة جادة لتخليص مقطوعاته وقصائده من التشتّت والغربة، لتلتقي بعد طول نفار، وتأتلف بعد طول تباعد، فترسم صورة شاعر صدحت قوافيه في يوم من الأيام، مادحاً حيناً، مصوراً حيناً آخر، شاكياً آناً، باكياً في آن.

يرفد ذلك كله إحساس يغلي كالمرجل، وشاعرية تفيض كالينبوع، وعاطفة جياشة بالصدق والعفوية».

إضافة إلى أنَّ عملاً مثل هذا يعدّ بحق لبنة أساسية أضيفت إلى التراث الأدبي. ولقد أجاد الباحث المحقق د.وليد السراقبي في عمله هذا، إذ بدا لنا من خلاله محققاً ناجحاً، صبوراً، شديد المراس. استطاع أن يمتلك حرية الحركة في الاتجاهات كافة. ولاسيّما أن الغوصَ في بحر أمهات الكتب يحتاج إلى كثير من المهارة والمثابرة في البحث الدؤوب للوصول إلى الغاية المنشودة.

آخر الكلام

رئيس التحرير

مقاربة لفلسفة التاريخ

في آخر كتبه «أسطورة الإطار» يقدم لنا الفيلسوف العالمي «كارل بوبر» (١٩٠٢-١٩٩٤م) رؤية حضارية واجتماعية وسياسية بالغة الأهمية لاتجاهات الفلسفة المعاصرة التي شكّلت معالم الفكر الغربي في النصف الثاني من القرن العشرين ومطلع القرن الحادي والعشرين، وتحت عنوان «أسطورة الإطار» يناقش موضوع «حوار الحضارات» الذي يراه مثمراً ودافعاً للتقدم إذا جرى بعقلية نقدية منفتحة، بينما يغدو صراعاً مأساوياً أو على الأقل سلبياً إذا جرى في أطر مغلقة..

يرى «كارل بوبر» أن الحوار الحضاري أو الثقافي يفقد قيمته وأهميته، وتغيب عنه الروح النقدية الضرورية، ليحل محلّها التسليم الأعمى العقيم بل المدمّر، وذلك إذا اعتبرت إحدى الثقافات العظمى نفسها العليا والأكثر تفوقاً بشكل عام وكذلك إذا اعتبرها الآخرون هكذا، وأحس فريق بدونيته.. ويسوق الحجج ضد البدع العقلية الشائعة في العلم، حيث باتت -في الوقت الحاضر- البدعة الشائعة في العلوم، هي الاتجاه للمعرفة التخصصية وسلطة الخبراء، والبدعة الشائعة في الفلسفة هي تشويه سمعة العلم والعقلانية، ويرى أن هذه البدع تشكل عقبة في سبيل العلم

والعقلانية كليهما، وكما يكون المفكر ذو البدعة الشائعة سجين بدعته، يكون الخبير سجين تخصصه، بينما التحرر من البدع العقلية ومن التخصصات هو الذي يفسح في المجال أمام العلم والعقلانية.

في هذا الإطار المنفتح يقدم «كارل بوبر» مقاربة تعددية لفلسفة التاريخ، فيرى أنه منذ اختراع التفكير النقدي والتدوين قد حدث شيء ما يمكن وصفه بأنه تنامي المعرفة، وأصبح للمعرفة وتناميها تأثير متعاظم على حياة البشر، بصورة مباشرة وعن طريق التطبيقات التكنولوجية، وهذا التأثير لم يتضح إلا في غضون المئتي عام الأخيرة، ويرى أن كل العلماء المبدعين تقريباً لديهم معرفة وافية بتاريخ المشكلات التي يبحثونها، وبالتالي معرفة بالتاريخ.. إنهم ملزمون، بأنك لن تستطيع أن تفهم نظرية علمية فهماً حقيقياً من دون أن تفهم تاريخها.. ونأمل أن يكتشف المؤرخون قريباً، أنهم بدورهم ملزمون بمعرفة شيء عن العلم وتاريخه، فلن يستطيع أحد أن يتفهّم أي تاريخ حديث، وأبسط ما في هذا التاريخ السياسي والدبلوماسي، من دون أن يتفهم شيئاً ما عن العلم.

ويرى «بوبر» أن التاريخ يمكن أن يكون مهماً بقدر ما يحاول أن يحل مشكلات تاريخيّة مهمة.. بعض هذه المشكلات قد تكون مهمة لسبب يعود إلى اهتماماتنا الأخلاقية، وكأمثلة على مشكلات من هذا القبيل: كيف اندلعت الحربان العالميتان؟ هل كان من الممكن تفاديهما؟

ويرى أنه لا شيء في التاريخ أسوأ من الاحترافية الضيقة التي تبنى على الحدس الافتراضي الذي يبدو صادقاً في مرحلة ما، ونكتشف في مرحلة لاحقة خطأها وقد تدفعنا وثائق جديدة لنكتشف دلالات غير متوقعة بتاتاً وهذا يقودنا إلى مشكلة «النسبية التاريخية» وهذا يعني أن الوضع الراهن لمعرفتنا قد يحفل بالعديد من الأخطاء والاقتراب من الحقيقة عمل شاق.. إنّ التصادمات التي تحدث داخل معرفتنا، أو بين معرفتنا وبين الوقائع تشير إلى أن هناك شيئاً ما خاطئ، وبهذه الطريقة يمكن أن تنمو المعرفة من خلال الاستبعاد النقدي للخطأ، وتلك هي الطريقة التي يمكن بها أن نقترب أكثر من الحقيقة/ الصدق.